

١٥٥

تاريخ مصر القديمة

١٥٥

بجته التاريخ والآثار

مؤرعة تاريخ مصر القديمة

تاريخ مصر القديمة

تأليف

د. عبد العزيز صالح

د. جمال عثمان

د. محمد إبراهيم بكر

د. إبراهيم زمام

د. روه القاضى

هال نشر

لغزيم وشمان



Bibliotheca Alexandrina

تاريخ المصريين

١٠٠

تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرخان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



الإخراج الفني :

مراد نسيم

بجنته التاريخ والآثار
موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
تاريخ مصر القديم

أ. د. عبد العزيز صالح
أ. د. جمال مختار
أ. د. محمد إبراهيم بكر
أ. د. إبراهيم نصحي
أ. د. فاروق القاضي

أعدتها لشر
أ. د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة
فرع الصحافة

١٩٩٧

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ العزيز هذا الجزء من موسوعة تاريخ مصر عبر العصور ، الذي يتناول تاريخ مصر القديمة ، الذي أعدته لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة .

وكانت اللجنة قد لاحظت أنه منذ صدور كتاب « المجلد في التاريخ المصري » الذي صدر عن جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ لم تظهر دراسات أخرى موسوعية تغطي تاريخ مصر عبر العصور ، فأسندت إلى عدد منهم من المؤرخين المتخصصين أعداد هذه الموسوعة ، على أن تشمل على ما جد في حقل الدراسة التاريخية عن مصر منذ ذلك الحين . وقد نفذت الفكرة بالفعل ، ولكن الدراسات التي أعدت ظلت حبيسة أرشيف لجنة التاريخ والآثار دون أن ترى النور في انتظار الاعتمادات المالية اللازمة ، حتى تولت اللجنة الجديدة التي أشرف برئاستها الأمر ، فكان من أول الموضوعات التي رأيت بعثها من مرقدها هذه الموسوعة الهامة .

ولما كان الجزء الخاص بتاريخ مصر الإسلامية كاملا وجاهزا للنشر في ذلك الحين ، فقد رأيت أن أبدأ به على أن تستكمل الأجزاء الخاصة بالعصور الأخرى ، وبالفعل صدر الجزء الخاص بمصر الإسلامية في هذه السلسلة تحت رقم ٦٣ في عام ١٩٩٣ ، وعيدنا إلى الأساتذة باستكمال الجزء الخاص بمصر القديمة ، وهو ما تم بالفعل ، وهو ما يمثل الجزء الحالي الذي بين يدي القارئ ، والذي أعدته للنشر ويشمل ستة أبواب :

الباب الأول ، ويتناول العصور المصرية القديمة (الفرعونية) حتى نهاية الدولة القديمة ، وقد كتبه الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ، ويتناول تقسيمات عصور الحضارة المصرية القديمة حتى عصر بداية الأسرات في أوائل القرن ٣٢ ق م ، ثم عصور الدولة القديمة من عصر الأسرة الثالثة إلى نهاية عصر الأسرة السادسة ، ورحلات الكشف في الجنوب .

أما الباب الثاني ، وقد كتبه الأستاذ الدكتور جمال مختار ،
فيتناول العصر المتوسط الأول الذي يشمل الأسر السابعة والثامنة
والتاسعة والعاشر ، والعصر المتوسط الثاني الذي يشمل الأسر
الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة
(والأسرتان الأخيرتان تمثلان عصر الهكسوس) والسابعة عشرة .

أما الباب الثالث ، فقد كتبه الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم
بكر ، ويتناول عصر الدولة الحديثة . ويشتمل على تاريخ الأسر
الثامنة عشرة والتاسعة عشرة (الرعامسة) والعشرين والواحدة
والعشرين .

أما الباب الرابع ، فقد كتبه أيضا الأستاذ الدكتور محمد
إبراهيم بكر ، ويتناول العصور المتأخرة ، ويشتمل على تاريخ
الأسر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ (النوبية) و ٢٦ (الصاوية) و ٢٧
و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ حتى غزو الاسكندر المقدوني لمصر
عام ٣٣٢ ق م .

أما الباب الرابع فهو عن العصر البطلمي ، وقد كتبه الأستاذ
الدكتور إبراهيم نصحي ، ويتناول دولة البطلمية ، وأجهزة الحكم ،
وسياسة البطلمية الدينية والاقتصادية والنظام المالي والاقتصادي
والقضائي والحياة الاجتماعية والآداب والعلوم والفنون .

أما الباب السادس ، فقد أعده الدكتور فاروق القاضي ، وهو
عن العصر الروماني ، ويتناول معالم التاريخ السياسي ، والنظم
الإدارية ، والحياة الاجتماعية ، والسياسة الاقتصادية ، والديانات
والعقائد ، والحياة العلمية والثقافية في مدينة الاسكندرية .

ويتضح من ذلك مدى أهمية هذا الجزء من موسوعة تاريخ
مصر عبر العصور التي آمل أن ينتفع بها القارئ المثقف والمتخصص
على السواء .

رئيس التحرير
أ . د . عبد العظيم رمضان

الباب الأول

تاريخ العصور المصرية القديمة (الفرعونية)
حتى نهاية الدولة القديمة ♦♦

للأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح

تهجيب:

تميز التاريخ المصرى القديم بالسبق الزمنى المبكر ، ووفرة المصادر المكتوبة ، وطابع المركزية الغالية ، واتصال الحلقات الحضارية دون فجوات كبيرة فيها ، فضلا عن روح المحافظة ، واستمرارية الطابع الثقافى العام ، مع ايثار التطور البطيء على تطور الطفرة ، والجمع بين الخصوصية الاقليمية والانفتاح على العالم الخارجى .

وفضلا عن اسم « مصر » الذى اوردته بعض المصادر المكتوبة القديمة منذ الألف الثانية قبل الميلاد ، وربما استخدم شفهيًا فيما قبل ذلك بكثير ، عبرت النصوص المصرية القديمة عن وطنها بأسماء أخرى كان من أكثرها استخداما اسم « تاوى » ، واسم « كيمة » واسم « آجبة » وكلها أسماء وصفية (يمكن مراجعة آرائنا فى تفسير مدلولاتها فى كتابنا عن حضارة مصر القديمة وآثارها - ج ١ - القاهرة ١٩٦٢ - ص ١ - ١١) .

ومثل المصريون القدماء ، فى وطنهم الكبير بين أطراف افريقيا وآسيا ، سلالة جنسية ولغوية متميزة من سلالات البحر المتوسط

الجنوبية ، أو من السلالات التي سميت اصطلاحا باسم المجموعة السامية الحامية ، وانتشرت فروعها بين غرب آسيا وشمال وشرق افريقيا ، على تفاوت فيما بينها في نسب التأثير أو التأثير والاختلاط مع من جاورها من أجناس وسلالات أخرى ، تبعا لطبيعة موقعها وملاساتها الخاصة .

وتفاعلت الحضارة المصرية القديمة خلال مراحلها المبكرة مع عدة عوامل بيئية وبشرية متداخلة . ومن أكثر هذه العوامل وضوحا وإيجابية ضخامة نصيب مصر من وادي النيل الأدنى ، وفيضاناته الدورية ، والخصوبة المتجددة للتربة الزراعية ، والمناخ الجاف شبه المعتدل ، والموقع الجغرافي المطل على البحرين المتوسط والأحمر وعلى زاوية الالتقاء بين افريقيا وآسيا . ومنها كذلك قلة العوائق التضاريسية الحادة في طرق الاتصالات والمواصلات الداخلية ، ووفرة الأحجار والمعادن الرئيسية ، وحصانة الحدود الصحراوية . وذلك فضلا عن كثافة أعداد جموع المصريين كثافة نسبية ، وميلهم الى الترابط الاجتماعي والاستقرار السياسي ، مع وحدة لغتهم وندرة الفوارق الجنسية في تكوينهم .

وفي مقابل كل هذه العوامل الايجابية قامت مشكلات كثيرة تحددت الحضارة المصرية القديمة بصور مختلفة ، ومنها غلبة الطبيعة الصحراوية القاحلة على ما لا يقل عن ٩٠٪ من المساحة الكلية للأراضي المصرية ، وتكدس السكان بالتالي على شريط زراعي طولي ضيق على جانبي النيل ، فضلا عن رتابة مظاهر البيئة الداخلية ، والتعرض أحيانا للأطماع بعض القوى الخارجية في خيرات مصر ، لا سيما في فترات ضعفها .

وعلى أية حال ، فلم تسلم كل هذه العوامل الايجابية والسلبية من تعدد وجهات النظر في تقويمها . ويكفي الاستشهاد

هنا بما يتعلق بنهر النيل وتأثيراته في مصر القديمة . فغالبا ما يقرن المؤرخون المحدثون فضله عليها بمقولة شهيرة نسبت الى المؤرخ هيرودوت (من القرن الخامس ق م) وهى أن « مصر هبة النيل » . وعلى الرغم من شيوع هذه المقولة فانه يبدو أنها صورت نصف الواقع ولم تصور الواقع كله .

فهى صحيحة على اعتبار أنه لولا جريان نهر النيل في مصر طوال العام ، وانتظام مواسم فيضاناته ، وتوالى غرينه الدسم ، ما تمايزت أرضها الزراعية بشيء كثير عما يحوطها من صحراوات قاحلة مترامية الأطراف في كل اتجاه ، وما تكاثرت أعداد أهلها بمثل ما تكاثروا به ، وما تهيأ لهم كثير مما نعموا به من وفرة الانتاج والاستقرار وشرايين الاتصالات والمواصلات .

غير أن كل هذا لا ينفى أن مصر الزراعية المتحضرة كانت ثمرة مباشرة من ثمرات التحدى المصرى القديم ، على نحو ما كانت هبة من هبات النيل الكريم ، على حد سواء .

وزكى هذا الواقع عدة أدلة ، ومن أولها أن نهر النيل قبل أن يدخل أرض مصر يجرى في عدة بلاد افريقية واسعة يكاد يوفر لها من الرى الدائم وفرص الانبات والزراعة ما هو قريب مما يوفره لمصر . . ومع ذلك فهو لم يستطع وحده أن يخلق فيها من أسس الحضارة ما يضارع أسس الحضارة المصرية القديمة فى شيء ما ، ولم يلق من استجابة أهلها للتعامل معه والانتفاع به ما وجدته فى مصر ، وذلك مما يعنى أن عوامل رئيسية أخرى أدت دورها معه . . . ومن أخصها العوامل البشرية وقدرتها على تحدى مشكلات البيئة . ولن يكفى لتبرير اختلاف مدى التحدى الاستجابة والتعامل بين النيل والفريقين ، مجرد فوارق المناخ وأخطار النباتات

المائية في الجنوب • فلم تكن أوضاع النيل واستزراع الأرض في مصر نفسها هيئة ميسرة في بداية أمرها ، وإنما صاحبها صعب شتى تطلبت قوة التحدى العملى وكثيرا من الجهد والمتابعة •• ففيضانات النهر ظلت لآماد طويلة غامرة مدمرة ، تهدد الحرث والنسل وتجرف شيطان النيل وتغير ضفافه واتجاهاته باستمرار • وعندما عمق النهر مجراه بقيت فيضاناته على الرغم من وفرتها وعظيم نفعا تتطلب اليقظة والقدرة على مواجهتها ، وتستدعى التعاون والتكاتف الجماعى للتحكم فيها وضبط اندفاعاتها وتقليل أخطارها ، ثم تنظيم الانتفاع بها ، وتوصيل فروعها الى المسطحات المرتفعة عن مستوياتها •• وهلم جرا • واستمرت بعض ضفاف النيل المصرى فى مجراه الأدنى ومناطق دلتاه بخاصة ، على الرغم من خصوبتها المتجددة ، تغطيتها البرك والمناقع المائية وتكسوها الأحراج النباتية قليلة النفع ، طوال فجر التاريخ وخلال بدايات العصور التاريخية ذاتها • وكان لابد من بذل مجهود عملى طويل متصل فى سبيل تحدى مشكلاتها واستدرار خيرها وتهيئتها للانتاج الواسع •

وأدت جهود أجيال المصريين الأوائل فى كل من الحالين الى تعميق احساسهم بضرورة تجميع أمورهم تحت اشراف حكم مركزى مستقر ينظم جهودهم المشتركة وينسق الانتفاع بنتائجها •

وجدير بالتنويه هنا أن المؤرخ هيرودوت لم يقتصر فيما ذكره عن مصر على أنها « هبة النيل » وحده أو على وجه التعميم ، وإنما خص بهذا التعبير أساسا « أراضى الدلتا التى يبحر اليها الاغريق وما يمتد منها الى بحيرة مويرس » على حد قوله ، فى مصر الوسطى •• وروى فيما سمعه عن الكهنة المصريين ورآه بنفسه أن « الجزء الأكبر من الأراضى التى تكلم عنها هو جزء اكتسبه المصريون ،

وكان حتى عهد الملك منى وفيما عدا الاقليم الطيبي (وهو قلب الصعيد) أشبه بمستنقعات بعد أن كان فيما مضى خليجا من البحر . . » . وقد لا نسلم بتفاصيل هذه الرواية على علاتها ، ولكنها كافية لتبرير قول هيروودوت في موضع آخر من كتابه عن مصر بأن مشكلة الأرض والفيضان ظلت هي مشكلة الحياة أو الموت بالنسبة للمصريين . وهكذا ما كان للمؤرخين المحدثين أن يستشهدوا بجزء مما ذكره هيروودوت ويغفلوا معه جزءا آخر . وقد يضاف هنا تصحيح آخر يراه بعض الباحثين ، وهو أن عبارة « مصر هبة النيل » أو « هدية النهر » ، لم تكن من وضع هيروودوت نفسه ، وإنما كانت عبارة نقلها عن سلفه الرحالة هيكاتيوس الميليتي الذي سبق عهده بما يزيد على نصف قرن (خلال القرن السادس قبل الميلاد) .

١ - تقسيمات عصور الحضارة المصرية القديمة :

صنف المؤرخ المصرى الأشهر مانيثون السمنودى (فى القرن الثالث قبل الميلاد) تتابع الأسرات الملكية المصرية القديمة فى ثلاثين أسرة . وهو تصنيف يبدو أنه كانت له أصول قديمة ، ومازال مأخوذا به على وجه الاجمال حتى الآن فيما يختص بالعصور المصرية التاريخية القديمة التى استمرت نحو ٢٨ قرنا (من القرن ال ٣٢ ق م الى أواخر القرن الرابع ق م) .

ومهدت الدراسات التاريخية والأثرية الحديثة لهذا التصنيف التقليدى بدهور أخرى طويلة سبقته وهى دهور ما قبل التاريخ بتقسيماتها الكثيرة ، كما قسمت عصور الحضارة المصرية القديمة فى مجملها الى ثمان مجموعات اعتبارية كبيرة تمايزت كل مجموعة منها عما سواها بمدى استمرارها الزمنى ، وطاقتها البشرية ، ومستوياتها الحضارية . ولكنها اتصلت فيما بينها اتصالا تطوريا

وثيقا ، وتعاقبت أسماؤها الاصطلاحية العامة من الأقدم الى الأحدث على النحو التالي في ايجاز شديد يرد بعض تفصيله فيما بعد :

دهور ما قبل التاريخ :

أو هي دهور ما قبل معرفة الكتابة ، أو الدهور الحجرية بأقسامها المتنوعة . وبدأت في أزمنة سحيقة يصعب تحديد مداها إلا بعشرات أو مئات الآلاف من السنين ، وامتدت في مصر حتى أواخر الألف الرابعة ق.م .

عصر بداية الأسرات :

أو بداية العصور التاريخية أو العصر العتيق ، وشمل عهود الأسرتين الأولى والثانية الملكيتين ، منذ أوائل القرن ال ٣٢ ق.م حتى أوائل القرن ال ٢٨ ق.م .

عصور الدولة القديمة :

وبدأت بعصر الأسرة الملكية الثالثة في حوالي عام ٢٧٨٠ ق.م ، وانتهت بأواخر عصر الأسرة الملكية السادسة في خواتيم القرن ال ٢٣ ق.م .

عصر الانتقال الأول :

وامتد من عصر الأسرة السابعة في أواخر القرن ال ٢٣ ق.م ، حتى نهاية عصر الأسرة العاشرة في القرن ال ٢١ ق.م .

عصور الدولة الوسطى :

ابتداء من عصر الأسرة الحادية عشرة في أواسط القرن ال ٢١ ق.م ، حتى منتصف عصر الأسرة الثالثة عشرة ، في القرن ال ١٨ ق.م .

عصر الانتقال الثاني :

وامتد فيما بين أواخر عصر الأسرة ال ١٣ في القرن ال ١٨ ق م ،
حتى نهاية عصر الأسرة السابعة عشرة في أوائل القرن ال ١٦ ق م .

عصور الدولة الحديثة :

وبدأت بعصر الأسرة الثامنة عشرة في حوالي عام ١٥٧٥ ق م ،
وامتدت الى نهاية عصر الأسرة العشرين في عام ١٠٨٧ ق م ،
او الأصح الى نهاية عصر الأسرة الحادية والعشرين في منتصف
القرن العاشر ق م .

العصور المتأخرة :

واستمرت من بداية عصر الأسرة ال ٢٢ في عام ٩٤٥ ق م ،
الى نهاية عصر الأسرة الثلاثين في عام ٣٣٢ ق م .

٢ - مصادر البحث في الحضارة المصرية القديمة :

اقتصرت مصادر ما قبل التاريخ أو الدهور الحجرية القديمة ،
على ما تركه الانسان الأول ، في مصر وغيرها ، من أدوات بدائية
متواضعة صنع أغلبها من الحجر ، وصنع بعضها من قطع فروع
الأشجار وعظام الحيوانات وقرونها وأنيابها . وما خلفه هذا
الانسان أحيانا من رسوم أولية بدائية تمثل طفولة الفن البدائي
المتأثر بأوهام السحر وبدايات العقائد الدينية . ثم ما تركه في
أواخر هذه الدهور من بقايا أدوات الزراعة الأولية وما شابهها
من الحرف البسيطة وأواني وأدوات الاستعمال اليومي ، وقطع
الحلى والزينة المناسبة لعصرها ، فضلا عن المقابر الصغيرة
وبقايا الهياكل البشرية والحيوانية الموجودة بها . الخ .

أما بالنسبة للعصور التاريخية القديمة ، فقد تعددت مصادرها
الأصلية تعددا كبيرا .

ومن أهم مصادر حياتها السياسية الداخلية والخارجية
ما نقشه الفنانون والمؤرخون المصريون كتابة وتصويرا من أعمال
الملوك الحربية والمدنية والدينية على النصب الحجرية وعلى
المسلات وجدران المعابد ، ثم ما سجلوه من قوائم أسماء ملوك
العهود الغابرة أو السابقة المتعاقبة . ومن أشهر هذه القوائم قائمة
حجر بالرمو التي سجلت أسماء ملوك مصر منذ ما قبل الأسرات
حتى عهد الملك نى وسرع فى منتصف عصر الأسرة الخامسة وبداية
القرن الخامس والعشرين ق.م . وشغفت بعض هذه الأسماء بمدد
حكمهم وأهم منجزاتهم .

ونقل الجزء الأكبر من هذا الحجر الى متحف بالرمو فى القرن
الماضى ، وبقيت أجزاء أخرى صغيرة منه فى متحف القاهرة .

وتضمنت قائمة الكرنك التي سجلت على جدار فى معبد
تحوتمس الثالث بالأقصر فى النصف الأول من القرن ال ١٥ ق.م ،
واحدا وستين اسما لأسلافه الملوك (ونقلت فى القرن الماضى الى
متحف اللوفر) .

كما تضمنت قائمة أبيدوس التي سجلت داخل معبد أنشىء
فى عهد الملك سبتى الأول فى أواخر القرن ال ١٤ ق.م ، ٧٦ اسما
ملكيا كان من المفروض أن تقدم القرابين الى أصحابها باعتبارهم
يمثلون الدوحة المقدسة التي ينتسب اليها الملك الحاكم .

وامتازت قائمة تورين التي دونت فى القرن الثالث عشر ق.م،
بتسجيلها على بردية تاريخية ، والتزامها بتصنيف بعض أسمائها
فى مجموعات وأسر ملكية ، واهتمامها بتقصى مدد حكم بعضهم
بالأعوام والشهور والأيام .

واهتمت بعض النصوص الفردية لكبار رجال الدولة بتسجيل ما قام به أصحابها من أعمال ووظائف وبعثات ومنشآت .

بل تضمنت قائمة سقارة التي سجلت في مقبرة ثونرى أحد كبار كهنة عهد الملك رمسيس الثانى فى النصف الأخير من القرن الـ ١٣ ق م ، ٥٨ اسما ملكيا . ونقلت حديثا الى متحف القاهرة .

وعبرت عن العقائد الروحية فى مصر القديمة ، ما تضمنته نقوش المعابد والمقابر ومخطوطات البردى من أسماء المعبودات ، والدعوات والأناشيد ، وهيئات التعبيد ، والتصورات المختلفة المتوارثة عن العالم الآخر ، لاسيما فيما يعرف باسم نصوص الأهرام ، ومنتون التوابيت ، وكتب الموتى . وذلك فضلا عما رمزت اليه اشكال المعبودات المصورة وتمثيلهم ، والنصوص التى وصفت خصائصهم وأساطيرهم .

وتستمد المعرفة بالعمارة الانشائية والفنون التشكيلية والتطبيقية فى مصر القديمة مما بقى من أهرامها ومقابرها ومعابدها ومسكنها وحصونها ، وما صورته منها المناظر المنقوشة والمصورة هنا وهناك ، فضلا عن التماثيل الكبيرة والصغيرة وأدوات الترف والحلى والزخارف العديدة التى عثر عليها فى بقايا المقابر والمسكن والمعابد .

وتمثلت مصادر المعرفة بأداب مصر القديمة وعلومها فيما تضمنته مخطوطات البردى واللوحات الخشبية وأوستراكات الفخار والأحجار التى كشف عنها حتى الآن ، من قصص وأساطير وتعاليم تهذيبية ومعلومات طبية ورياضية ودروس تعليمية .

وتستمد صور الحياة اليومية العادية من مناظر الزراعة والصناعة والتجارة والمناظر الأسرية المصورة على جدران المقابر

وعلى النصب ، ومما عثر عليه من أدوات الاستعمال والنماذج الصغيرة للمصانع والشون ، ثم الرسائل الشخصية المتبادلة بين الأفراد ، ونصوص القضايا والشكاوى التي صورت انفعالات أصحابها ومشاعرهم .

وأرخ المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى الذى عاصر عهد الملك بطلميوس الثانى فى القرن الثالث ق.م ، للحياة السياسية والاجتماعية فى مصر منذ أقدم العصور التى امتد علمه اليها حتى أيامه . . واستمد بعض مادته التاريخية عنها من مصادرها المصرية القديمة الأصيلة ، ومما بقى حتى أيامه من قصص وأساطير قومية ، ثم أصدر ما كتبه عنها باللغة الاغريقية لغة الثقافة فى عهده . ولم يبق من كتبه للأسف الا ما اقتبسه منها بعض المؤرخين الذين اتوا بعده . وأفاد فى التعريف ببعض جوانب التاريخ المصرى القديم ، ولو من وجهة نظر خاصة ، ما تضمنته الكتب السماوية المقدسة من اشارات قصيرة عن صلوات مصر المتنوعة ببعض الأنبياء . ثم ما تضمنته النصوص المسمارية العراقية والخاتية (الحثية) والفارسية عن علاقات ملوكها وشعوبها بمصر والمصريين فى حالات السلم أو الحرب فى عصور متنوعة معينة .

ما زالت مؤلفات الرحالة والمؤرخين الاغريق والمتأخرين والرومان القدامى عن مصر القديمة من المصادر التى يستشهد بها من حين الى آخر ، بل كانت هى المصادر الرئيسية المعروفة حتى أواخر القرن ال ١٨ الميلادى قبل الاهتداء الى قراءة اللغة المصرية الأصيلة . ومن أشهر من كتب عن تاريخ مصر والمجتمع المصرى القديم : هيكاتيوس الميليتى (فى فترة من القرن ال ٦ ق.م) ، وهيرودوت (فى منتصف القرن ال ٥ ق.م) ، وهيكاتيوس الأبديرى

(فى بداية القرن ال ٣ ق م) ، وديودور الصقلى (فى منتصف القرن الأول ق م) واسترابون (فى الربع الأخير من القرن الأول ق م) ، وبليني (فى القرن الأول الميلادى) ، وبلوتارخ (فى أوائل القرن الثانى الميلادى) . وشابيهم من مواطنى الاسكندرية المتمصرين أرسطوفانىس ، واراتوستينوس ، وأبوللودوروس ، وهو رابوللو ، واكسينفون ، وتاكيثوس ، ويوسيفوس ، وكليمنت ، ويوليوس أفريكانوس ، ويوسيبوس ، وجيوجورجوس . الخ .

وتفاوت حظ كل من هؤلاء وهؤلاء عن زميله فى مدى صحة معرفته بحقيقة الحياة المصرية القديمة ، بل ان ما كتبه كل واحد منهم قد جمع طياته أحيانا بين الواقع والأساطير ، لاسيما فيما سمعوه من الرواة والتراجمة عن العصور البعيدة التى سبقتهم . ولهذا يصعب الحكم على أحدهم بحكم عام ، وينبغى تمحيص ما أتوا به والتفرقة فيه بين الخطأ والصواب قياسا الى ما أوردته عنه المصادر المصرية الأصيلة .

وبعد أن تغيرت الديانة والكتابة المصرية القديمة مرتين ، باعتناق المسيحية ثم باعتناق الاسلام ، أحاط الغموض بمصادر التراث المصرى القديم وقلت المعرفة والعناية بها ، الى أن عاد الاهتمام بها مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى على أيدي بعض العلماء الفرنسيين الذين صحبوا حملة نابليون الى مصر ووصفوا ورسموا عددا من آثارها الظاهرة ثم نشروا عنها فى بضعة مجلدات ضخمة صدرت فى باريس بين عامى ١٨٠٩ و ١٨١٣ باسم « وصف مصر » وهو عمل تتوج بالعثور على حجر رشيد (وهو من البازلت الأسود وبلغت أبعاده الباقية ١١٣ سم × ٧٥ سم × ٢٧ سم) خلال حفر خندق حول احدى قلاع رشيد . وقد استنسخت نصوصه بصورة تقريبية عقب العثور عليه وأرسلت

نسخ منه إلى بعض المعنيين بالدراسات القديمة في العالم الخارجي . وحاولت القوات الفرنسية أن تخرج به من مصر مع عديد من الآثار الأخرى ، ولكن هزيمتها في أبي قير أدت إلى انتقاله وعدد من هذه الآثار إلى بريطانيا حيث أودع في المتحف البريطاني في عام ١٨٠٢ .

بقى على واجهة حجر رشيد ١٤ سطرا بالخط الهيروغليفي في أعلاه ، و ٣٢ سطرا بالخط الديموطي المصري في منتصفه ، ثم ٥٤ سطرا باللغة الإغريقية في أدناه ، وحاول التعرف على مضمون نصوصه عدد من الباحثين ، من أشهرهم دي ساسي (الفرنسي) ، وأكربلاد (السويدي) ، وتوماس بينج (البريطاني) ، وجان فرنسوا شمبيلون (الفرنسي) ، وكان هذا الأخير أكثرهم نجاحا ومثابرة وشهرة .

وتبينت دراساتهم المتفرقة أن نصوص الحجر تضمنت قرارا لكهنة منف أصدره في عام ١٩٦ ق م ، وشكروا فيه للملك البطلمي ابينانس بطلميوس الخامس اعفاءه لمعابدهم من بعض التكاليف، التي فرضها أسلافه عليها .

كما تبينوا في النص الإغريقي الذي كانوا يعرفونه عبارة توصي بكتابة القرار بالكتابات الهيروغليفية والديموطية والإغريقية ، وذلك بما يعنى أن الكتابات الثلاث لم تكن غير ثلاث نسخ لقرار واحد . وبناء على هذا أمكن الاستدلال على مترادفات ما ورد بها من أسماء الأعلام التي لا تتغير صيغها ومنها اسم الملك بطلميوس ، وألفاظ أخرى في كل من اللغتين اليونانية والمصرية . وكان التعرف على القيم الصوتية للحروف المصرية في هذه الأسماء بمثابة المفتاح لقراءة اللغة المصرية القديمة قراءة سليمة ، وهو

ما لم يتم بطبيعة الحال الا بعد تكرار التجارب مع نصوص أخرى تضمنت أسماء قديمة مشهورة ، أو كتبت بكتابتين .

ونرى توجيه النظر في نصوص حجر رشيد الى حرص كاتبه المصرى على نقش الكتابة الهيروغليفية المقدسة في أعلى الحجر ، والكتابة الديموطية أو كتابة الجمهور في وسطه ، والكتابة الاغريقية لغة الملك البطلمي في أدناه . وكان لترتيب المناظر والنصوص أهمية خاصة في الفن المصرى القديم . وقد يعنى ذلك أن سلطان البطالمة ذوى الأصل الاغريقى ، لم يمنع بعض القوميين المصريين من أن يتلمسوا أى سبيل يعبر عن وطنيتهم الدفينة ويرضى كرامتهم، ولو كان سببلا غير مباشر . وربما شجعهم على هذا الاجراء حينذاك على حجر رشيد ، قرب مشاركتهم في الجيش البطلمي بعد حرمانهم منه ، وانتصارهم معه في موقعة رفح خلال عهد الملك بطلميوس الرابع .

كان من رواد النشر عن الآثار المصرية القديمة بعد علماء الحملة الفرنسية ، كل من الايطالى روسليني ، وليسبيوس الألمانى ، منذ حوالى عام ١٨٢٨ .

وواكب هذا النشر اهتمام آخر بالتنقيب عن الآثار الدفينة لولا أن بدأ به للأسف خلال النصف الأول من القرن ال ١٩ م مغامرون غير متخصصين . وعن طريقهم انتقلت كنوز أثرية كثيرة الى المتاحف الأوروبية والأمريكية والى المجموعات الخاصة .

وكانت فكرة انشاء ادارة مصرية للآثار قد ظهرت أيام محمد على فى الربع الثانى من القرن ال ١٩ ، لولا أنها تعثرت واكتفت بتخزين الآثار المكتشفة فى مبنى بالأزبكية ، ثم فى مبنى بقلعة

محمد على وظلت كذلك حتى احيا الفرنسي أوجست مارييت هذه الفكرة في عهد الخديوى سعيد ، ونجح في الاشراف على انشاء متحف مصرى منظم لأول مرة في بولاق عام ١٨٥٩ ، وبعد أن تنقل هذا المتحف بين عدة مبان ، استقر أخيرا في مبناه الحالى منذ عام ١٩٠٣ .

وكما نجح مارييت في انشاء هذا المتحف نجح كذلك في التنقيب عن الآثار في أماكن قديمة كثيرة . وعمل هنرى بروكش الألماني على الحاق دراسة مسائية للآثار المصرية القديمة بمدرسة المعلمين العليا . كان من دارسيها المصريين النابهين كل من أحمد كمال ، ومحمد نجيب ، ثم سليم حسن ، وآخرون . وتوالت البعثات الأجنبية المتخصصة للبحث عن الآثار المصرية منذ أواخر القرن الماضى ، وزاد نشاطها كثيرا خلال القرن الحالى . وساهم بعدها عدد متزايد من الباحثين المصريين في أعمال الكشف الأثرى والنشر العلمى والتحليل التاريخى . وبفضل هذه الجهود المتنوعة وكثير غيرها أصبح التاريخ المصرى القديم بكل ما يتضمنه من ضروب السياسة واللغة والعلم والدين والفن والأدب ، يعرف اليوم بنصيب من الوضوح والصحة يزيد على نصيب غيره من التواريخ القديمة المعاصرة له .

٣ - مصر والدهور الحجرية فيما قبل التاريخ :

تعبير ما قبل التاريخ زمنى اصطلاحى مرن ، يطلق على الأزمنة السحيقة التى سبقت عصور اهتداء الأمم القديمة الى الكتابة والى تكوين الوحدات السياسية المستقرة . ويرادفه الى حد ما تعبير حضارى اصطلاحى آخر وهو تعبير « الدهور الحجرية » . ويقصد به الدهور التى بدأت معها حضارة الانسان الأول البدائى ،

أو التي بدأت بمعنى آخر بالدهر الذي استطاع ذلك الانسان الأول أن يصنع فيه شيئاً بيده عن قصد منه ورغبة ، والذي لم تستخدم جماعاته معادن مصنوعة ، اعتمدوا أساساً على أدوات حجرية وخشبية وعظمية بدائية كانوا يشكلونها بما يناسب مطالبهم الوقتية المحدودة . (واستخدم لفظ الدهر هنا للتفرقة بينه وبين اللفظ الشائع للعصر من حيث مدى الامتداد الزمني) .

وتقسم الدهور الحجرية عادة على النحو التالي :

الدهر الحجري القديم الأسفل :

بدأت بواكير النشاط الحضارى البدائى فى المناطق الصالحة للإقامة فى العالم القديم ، فى الدهر الحجري القديم الأسفل . وهو دهر أرخ بعشرات الآلاف من السنين . . . وتعاقبت فيه على مناطق العروض الوسطى والمدارية التى تقع مصر فيها ، حقب ممطرة طويلة جداً ، وحقب أخرى جافة طويلة جداً ، وذلك فى مقابل ما شهدته العروض العليا فى أوروبا من حقب تقدم الجليد ، وحقب انحساره .

وكانت بدايات الحضارة فى هذا الدهر بطيئة للغاية ، تشابهت مظاهرها المتواضعة حيثما وجدت ، واستخدم الانسان الأول فيها أدوات يدوية بدائية فى الدفاع عن نفسه ضد الحيوان وضد أخيه الانسان . واستعان بها فى صيد الحيوانات الصغيرة وتهشيم عظامها وتقطيع لحومها وسلخ جلودها . كما استخدمها فى اقتلاع جذور النباتات واسقاط ثمار الشجر ، واتخذ ذلك الانسان أدواته تلك من الأحجار وفروع الأشجار ومن العظام والمحار . ولكنه حرص حيثما استطاع على أن يتخذ أكثرها استعمالاً من قطع الظران التى يجدها فى بيئته ، على أن تكون قاعدتها مناسبة لقبضة يده ويترك

هذه القاعدة على حالها وبقشرتها الطبيعية حتى لا تؤذى كفه ، ثم يشكل قمتها وجوانبها بما يسمح له بأن يستخدمها في أغراضه المحدودة . وتسمى الواحدة من هذه الأدوات باسم الفهر .

وافترض بعض الباحثين منطقة قديمة واسعة منبسطة متوسطة الموقع معتدلة المناخ مفتوحة المداخل والمخارج ، تمرس الانسان الأول فيها على صناعة الفهر الحجري وتطويره ، ثم انتشر به منها الى بقية المناطق الصالحة للسكنى في العالم القديم . ويعتقد أن هذه المنطقة ذات الميزات الخاصة كانت في شمال افريقيا وغرب آسيا بخاصة ، وكانت منها هضاب مصر التي كانت تتلقى نصيبا كافيا من الأمطار وتنمو عليها نباتات تشبه نباتات السفانا الحالية . وما زالت شواهد صلاحيتها المناخية الأولى ماثلة في بقاء عدد من الوديان والينابيع القديمة التي شققتها المياه الغزيرة وجرت فيها ، ثم جفت أو تحجرت وتصحرت بيئتها في عصور انقطاع الأمطار . وما زالت شواهد سكنها القديمة ماثلة في وجود كثير من الأدوات الحجرية البدائية التي خلفها انسانها الأول في مواضع متفرقة على سطوح الهضاب المصرية المتسعة التي ما لبثت حتى غلبها الجفاف .

وتقسم الحضارات البدائية في الدهر الحجري القديم الأسفل بوجه عام الى قسمين متعاقبين وهما : الحضارة الشيلية (أو الأبيفيلية) ، ثم الحضارة الأمثولية . وتلخص التطور الصناعي بين الحضارتين ، في بداية اهتمام الانسان بتصغير سمك وحجوم أدواته الحجرية ، ثم اهتمامه بتحديد حوافها وتهذيب سطوحها وإزالة القشرة الطبيعية منها .

واهتدى الانسان القديم في خواتيم هذا الدهر ، الى طريقة ايقاد النار . وكان اهتدائه اليها مبشرا بأول انقلاب مادي فعال

في تاريخ الحضارة البشرية ، انقلاب تميز به طعامه بعد طهيته بالنار عن طعام الحيوان ، وأصبح بفضله أكثر اطمئنانا على نفسه وأهله حين الاستعانة بدفع النار على مقاومة البرد والصقيع ، وحين الاستعانة بنورها على مخاوف ظلام الليل ، وحين الاستعانة بحرارتها على انضاج وحفظ لحم الصيد وعدم فساده بسرعة . . .
السخ .

في الدهر الحجري القديم الأوسط :

أعقبت حضارتى الدهر الحجري القديم الأسفل ، حضارة الدهر الحجري القديم الأوسط التي قامت في معظم أحوالها في ظل حقب مطيرة طويلة ، وان تكن أقل أمدا واتصالا من الحقب المطيرة التي سبقتها خلال الدهر الحجري القديم الأسفل . وجرى الاصطلاح العلمى على تسمية أدواتها الشائعة باسم الأدوات الموستيرية ، وتسمية الجنس البشرى الشائع فيها باسم الانسان النياندرتلى ، أو انسان نياندرتال . وقامت هذه الحضارة على أساس استخدام الشظايا التي تنفصل عن جوانب الفهر حين صناعته ، بأشكال مختلفة ، بحيث اذا حدد جانبا الشظية استخدمت كالمدية ، واذا دبب أحد طرفيها استخدمت كالمثقاب أو المخراز .

ورغم شيوع الخصائص العامة لهذه الصناعات الحجرية في اغلب المناطق المعمورة من العالم القديم خلال الدهر الحجري القديم الأوسط ، فان بعض المناطق المصرية نحت بصناعاتها الحجرية المتواضعة نحو بعض التخصص في عمل النصال والأفهار (الليفلوازية) التي ميزت بعض الشئ بين انتاجها وانتاج الأدوات والشظايا الموستيرية العامة الشائعة في بقية البلاد الأخرى .

في الدهر الحجري القديم الأعلى :

تغيرت بانتهاء الدهر الحجري القديم الأوسط صورة البيئة المضربة وما حولها . فانتهد الأمطار الكثيفة المتصلة فيها ، وتضاءلت فرص نمو نباتات السفانا الوفيرة ، وبذلك قلت فرص الحياة للحيوانات الضخمة التي تحب وفرة الماء والنباتات كالقيل والخرتيت والثور البرى ، فانقرض بعضها ، ولجأ بعضها الآخر الى المناطق الاستوائية ، أو الى المناطق الشمالية . وبدأت ظروف الجفاف تسود الشرق شيئاً فشيئاً ، وظهرت معها حينذاك حضارات الدهر الحجري القديم الأعلى ، وفيها غلب جنس الانسان العاقل (Homo Sapiens) الذي استطاع أن يتطور بوسائله المادية الى ما يناسب ظروفه الجديدة ، فقلل استعمال وحجوم أدواته الحجرية الكبيرة ، وأصبح يستخدم معها أدوات حجرية صغيرة تصلح الآن يصيد بها الحيوانات الخفيفة سريعة العدو التي عاشت معه في ظل الجفاف وحلت محل الحيوانات القديمة الكبيرة . وبلغ من صغر بعض هذه الأدوات أن أطلق عليها اسم الأدوات الضئيلة والأدوات القزمية ، وكانت أكثرها تنوعاً هي القطع التي استخدمها الانسان استخدام السهام بعد معرفته بعمل الأقواس ، وقطع أخرى كان يثبتها في بعض فروع الشجر لتغنيه عن ثقل الأدوات الكبيرة وتؤدي أغراض الخناجر أو الحراب والمزاريق .

ومن الأهمية بمكان أن الصناعة الحجرية المصرية توسعت الى حد ما في طابعها الاقليمي خلال هذا الدهر الحجري القديم الأعلى ، فأنشجت حضارتها السبيلية في منطقة كوم امبو نوعاً من المناحت الحجرية الصغيرة ، رأى بعض الباحثين أنها أصبحت أساساً لما يشبهها من المناحت القزمية في العالم القديم كله بعد أن انتشر بعض المصريين بها خارج أرضهم حينما اشتد الجفاف الذي حل بها .

بداية حرفة الزراعة المصرية في العصر الحجري الحديث :

واصلت الحضارة المصرية القديمة المبكرة تحديها للبيئة الطبيعية وعملت على حسن استغلال أرضها الخصبة وبدأت انقلابا اقتصاديا رئيسيا فيها بممارسة حرفة الزراعة الأولية منذ أوائل الألف السادسة قبل الميلاد . وكانت قد مهدت لهذه الممارسة معرفة متقطعة سابقة بالقيمة الغذائية للحبوب الطبيعية كالشعير البري والحنطة البرية ، وعملية حصادها وطريقة جرشها ، ثم ادخارها لوقت الحاجة اليها ، منذ أواخر الدهر الحجري القديم الأعلى . وولدت هذه المعرفة الرغبة في زيادة نمو هذه الحبوب في مساحات واسعة نسبيا ، وكان من المتوقع أن ينجح مسعاها في وديان الأنهار الكبرى أكثر من غيرها .

ووجدت ظروف وادي النيل الأدنى في مصر تزكية كبيرة لتأكيد تحقيق هذه الرغبة لأول مرة في الوجود على أرضها . وذلك على أساس أن اشتداد الجفاف على هضابها في أواخر الدهر الحجري القديم الأعلى كان من شأنه أن يدفع بعض أهلها الى تتبع بقايا النباتات والحبوب البرية التي ما زالت نامية على ضفاف نهر النيل مورد الماء الدائم في أرضهم ، والذي يستمد مياهه من مناطق بعيدة كانت لا تزال تتمتع بأمطار غزيرة وهي المناطق الاستوائية . وعندما طالت اقامتهم قرب هذه الضفاف للانتفاع بخيراتها الطبيعية فضلا عن أسماك النهر والحيوانات التي تقصده لترتوى منه . . أصبحت ملاحظاتهم لعملية نمو النباتات الطبيعية أكثر اطرادا ووضوحا ، بناء على ما كانوا يلمسونه من أثر التعاقب السنوي لفيضان النيل وانسياب مياهه على ضفافه الطميية ثم انحسارها عنها في النمو التلقائي السنوي لهذه النباتات ، كلما توافرت لها التربة الخصبة السوداء .

ولما استقرت أسباب هذه الظواهر الطبيعية لدى أجيال المصريين واستوعبوها ، وأدركوا معها العلة في جفاف النباتات حين قلة الماء وجفاف التربة ، حاولوا أن يكرروا عملية النمو الطبيعية ويتحكموا في الاكثار من النباتات والحبوب الغذائية بأنفسهم . وبمعنى آخر عملوا على أن يصبحوا منتجين للغذاء متحكمين فيه بعد أن كانوا مجرد مستهلكين لما يجمعونه من مصادر الغذاء البرية المتفرقة . . . وانتهت تجاربهم ومحاولاتهم باهتمامهم الى أساليب الزراعة الأولية منذ أكثر من ثمانية آلاف عام ، وقبل اهتمام المناطق الأوروبية الى مثلها بنحو ألفى عام .

وترتبت على بدايات معرفة حرفة الزراعة في مصر ، وبعض ما سواها من وديان الأنهار الكبرى ، نتائج اقتصادية واجتماعية وعمرانية تزايدت وضوحا فشيئا فشيئا مع مر الزمن . وكان من أهمها زيادة التماسك الأسرى ، والاستقرار السكنى والمعيشى في المجتمع وزيادة التعود على ادخار الحبوب للاستعانة بها في غير فصول الانبات وفي مواسم الجفاف ، ثم اتاحة المزيد من أوقات الفراغ للسكان ومحاولة استغلالها بالتالى لابتداع أشياء أخرى جديدة . وتطلبت حياة الزراعة الاقامة المستقرة بالقرب من حقولها لرعايتها ، كما تطلبت التعاون اليدوى والجماعى من أجل استصلاح الأرض واستغلالها ، وتقليل أخطار الفيضانات وتيسير الانتفاع بها .

وأدت هذه العوامل الى زيادة تجمع أهل المناطق الزراعية في قرى صغيرة على مناطق الحواف المرتفعة بعض الشيء عن رطوبة الأرض الطميية . وشجع هذا التجمع على شعور الفرد بالأمن في ظل ملكيته الزراعية الخاصة ، وفي حماية المجموع . وتزايد

الإشتغال بالحرف الأولية التي تخدم الزراعة وتنتفع بها ، مثل صناعات الفئوس والحبال والسلال والحصير والكتان . . فضلا عن صناعة اوانى الفخار ثم الأوانى الحجرية .

حرفة الرعى :

ارتبط العصر الحجري الحديث في أوائل الألف السادسة قبل الميلاد بتطور مناخى جديد ، فعوضا عن الجفاف العنيف الذى ساد مصر وما حولها فى الدهر الحجري القديم الأعلى ، ظهرت فترة رطبية صحبتها أمطار قليلة أفادت النباتات الطبيعية وحيوانات البيئة كما شجعت على ممارسة حرفة الرعى . ويبدو أنه مهدت لمرحلة الرعى هذه مرحلتان سابقتان الأسر بعض الحيوانات البرية ثم استئناسها . وذلك بمعنى أنه حدث خلال أواخر ظروف الجفاف المناخى أن عمل بعض الصيادين على أسر أعداد من صغار الحيوانات التى اعتادوا على أكلها ليحتفظوا بها دون ذبحها لكي تنمو وتتوالد عندهم وتصبح هى ونسلها أشبه باحتياطى حى من اللحم الطازج ، لا سيما فيما يختص بالحيوانات ذوات الظلف المدرة باللبن . ثم عملوا على تربيتها حتى استأنست بهم . واستأنسوا معها بعض أنواع الكلاب لحراستها . . ويعتقد أن مرحلة استئناس الحيوانات هذه بدأت فى منطقة أناو فى التركستان وما يليها غربا من مناطق الاستبس ، ثم انتشرت منها الى غيرها .

وعلى الرغم من اعتماد مصر فى عهود فجر التاريخ على الزراعة أكثر من الرعى ، فإن الرغبة فى استخدام بعض الحيوانات المستأنسة فى عمليات الزراعة جعلتها تهتم بتربيتها ورعيها .

مراكز الحضارات المصرية الأولية في عصر فجر التاريخ :

عاشت القرى المصرية الصغيرة الأولى في وحدات صغيرة متفرقة لفترات طويلة ، ولكنها لم تعد على الرغم من تفرقتها ملامح مشتركة قربت بينها ، كما لم تعد فنونها الأولية ووحا من التشابه آخت بينها ، وذلك بحيث أصبح التنوع بينها تنوعا داخل وحدة كبيرة ، وهى وحدة الجنس والذوق ، ووحدة البيئة والمطالب المحدودة .

وتتميز من المراكز الحضارية الأولية في بداية العصر الحجري الحديث في مصر كل من : حضارة مرمدة بنى سلامة قرب رأس الدلتا ، وحضارة الفيوم في مدخل مصر الوسطى ، ثم حضارة دير تاسا في أسيوط بقلب الصعيد . ولم تكن هذه المراكز هى كل التجمع والحضارة في ذلك العصر . . وانما هى التى أجريت فيها بحوث أثرية حديثة أكثر مما سواها من المراكز المصرية الأخرى المعاصرة لها .

في مرمدة بنى سلامة :

تبين من خصائص حضارة هذه البلدة أن أهلها اعتادوا على أن يخزنوا غلالهم في زناجيل وحفر بين مساكنهم المتواضعة ، بحيث يكون لكل مسكن منها خزينه الخاص . واعتادوا كذلك على دفن موتاهم بين مساكنهم أيضا ، دون تزويدهم بقربان خاص عدا حفنة من الحبوب توضع أحيانا قرب أفواههم ربما اعتقادا بأن دفنهم بين المساكن يمكن أن يهيبء لأرواحهم أن تشارك أهلها الأحياء في الانتفاع بما يطعمونه ويشربونه في الحياة الدنيا .

وتبين من أطلال المساكن البسيطة لأهل مرمدة أن مجموعة منها التزمت صفين شبه مستقيمين يفصل بينهما طريق ضيق يمتد

نحو ٨٠ مترا . ويعتبر ذلك أقدم تخطيط سكنى معروف حتى الآن، وأقدم ظاهرة تدل على نوع من التفاهم الاجتماعى ووجود سلطة فى البلدة استجبت التنظيم وعملت على تنفيذه .

ووجدت فى مرمدة قطع صغيرة مشكلة من الصلصال المحروق مثل بعضها جذع أنثى ، وقدماء بشرية ، ونموذجا لقارب . وهى من أقدم قطع الفن التشكيلى فى عصرها .

فى الفيوم :

تقع الفيوم فى منطقة من مناطق الحواف الصحراوية ولكنها انتفعت كما هو معروف ببحيرة متسعة كانت عذبة وتحيط بها المدرجات الخصبة الصالحة للزراعة . ولوحظ فى آثار العصر الحجري الحديث بالفيوم أن مطامير غلالها جمعت فى مجموعتين خارج منطقة المساكن على ربوة مرتفعة نوعا ، رغبة فى الابتعاد بها عن رطوبة أرض الزراعة وعن منطقة السكن ، وحيث تيسر حراستها فى جملتها . والى جانب هذا الفرض العملى ظهر فرض آخر رأى أن تفرق مطامير مرمدة بنى سلامة بين مساكنها يدل على استقلال كل فرد فيها بملكيتها الخاصة ، وأن تجمع مطامير الفيوم فى منطقة واحدة أو منطقتين يمكن أن يدل على شيوع الملكية الجماعية بين أهلها .

فى دير تاسا :

تميز فخار دير تاسا عن فخار المناطق المعاصرة لها فى بعض أشكاله وزخارفه . فقد صنعت منه كؤوس تشبه زهرة اللوتس ، وزخرفت بخطوط محفورة كانت تملأ بعجينة بيضاء فى تشكيلات بسيطة ولكنها لطيفة وراقية بالنسبة لعصرها .

ووضعت عادات الدفن الأولية وتصورات ما بعد الموت في مقابر دير تاسا . وكانت المقبرة عبارة عن حفرة صغيرة ذات أركان ملفوفة يكفن المتوفى فيها بالجلد أو الكتان أو الحصير ، ويوضع على جانبه الأيسر في هيئة الانثناء بحيث يتجه وجهه ناحية الغرب ، وتوضع معه بعض الأواني الفخارية وبعض الأدوات التي كان يستخدمها في حياته ، وبعض الحلى وأدوات الزينة المناسبة له .

ويبدو أن وضع القرفصاء أو الانثناء للمتوفى كان مرتبطا بضيق الحفرة ، كما كان يشبه وضع النوم العادي لاسيما أنه كانت توضع تحت رأسه أحيانا كومة من القش أو الكتان تشبه الوسادة .

في عصر بداية المعادن :

كان الانقلاب الحضارى الكبير التالى في فجر التاريخ بعد معرفة الزراعة ، والرعى ، ونشأة القرى ، هو استخراج بعض المعادن وصهرها وتصنيعها . وكان أقدم ما استخدمه الانسان من المعادن (خلا حديد النيساك الذى كان يجده عفوا أحيانا ولا يعرف صهره) ، هو معدن النحاس الذى يمكن العثور عليه قرب سطح الأرض في مناطق الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء ، مختلطا بمواد يمكن صهرها بمجهود يسير وفي حرارة ليست عالية جدا .

وبدأ الانتفاع بالنحاس على نطاق ضيق بتصنيعه على هيئة الخرز الصغير المستخدم في الزينة ، وفي شكل مثاقب دقيقة استخدمت في ثقب حبات الخرز الحجرية ، ودبابيس طويلة استخدمت في شبك الملابس الجلدية والكتانية . ثم اتسع استخدام النحاس اتساعا نسبيا مع مرور الزمن ، وصنعت منه بعض المدى

والأسلحة الصغيرة ، وبدأ ذلك فيما يغلب على الظن في منطقة
البدارى بمحافظة أسيوط منذ أواسط الألف الخامسة ق.م .

في حضارة البدارى :

صنع البداريون أواني فخارية رقيقة الى حد ملحوظ مما دفع
بعض الباحثين الى تسميتها أواني قشر البيض ، وكانت أنواعها
الفاخرة تزخرف برسوم محفورة حفرا بسيطا بأشكال تقلد غصون
النبات وأوراق الشجر وأشكالا تكوينية أخرى متعددة .

وشغف البداريون بأدوات الزينة للرجال والنساء ، كالأساور
والقلائد والخواتم وشنوف الآذان . وصنعوا أمشاطا بأسنان
طويلة مع تشكيل أجزائها العليا على هيئة رؤوس الطيور ،
وصنعوا ابرا من النحاس والعظم والعاج واهتدوا الى طريقة
ثقبها . وكان أمتع ما صنعوه ملاعق عاجية نوعا تجاويها المستطيلة
والبيضية والمربعة بما لا يكاد يختلف كثيرا عن أشكال الملاعق
الحالية ، كما شكلوا مقابضها بأشكال حيوانية وحلزونية ، وأبدعوا
في هذا كله على الرغم من أنهم عاشوا قبل العصر الحاضر بأكثر
من ستة آلاف وخمسمائة عام .

ومارس مهرة الصناعات البدارى الفن التشكيلي فى الصناعات
والفخار والعاج . ومن أفضل ما بقى لهم تمثال صغير من الفخار
الملون لفتاة عارية بلغ تناسق جسمها درجة واضحة من الابداع
لولا بروز عجزها الذى يحتمل أنه قصد لذاته ، ولولا عدم تشكيل
كفيها ، فضلا عن ضياع رأس التمثال وجزء من ساقيه .

وزاد البداريون من العناية بمقابرهم وعقائدهم ما بعد الموت .
وبدأوا بغادتين جديدتين ، وهما وضعت المتوفى على لوحة مستطحة

كمرحلة من مراحل التطور الى فكرة التابوت ، ثم تبطين جوائب حفرة الدفن بالحصير ، حماية لها من تساقط الرمال والحصباء فيها .

ويدل ما سلف ذكره على تجديدات البداريين وجيرانهم التاسيين من قبلهم في صناعة الفخار وزخرفته وتشكيل الملاعق وحلى الزينة والتماثيل الصغيرة فضلا عن العناية بالموتى ، على أن ما توسعت فيه الحضارة المصرية فيما بعد في بداية عصورها التاريخية من العقائد والصناعات والأذواق الفنية انما نشأ في أرض مصر وبأيدي أهلها وامتدت أصوله الى ما قبل العصور التاريخية بزمن طويل .

بدايات ما قبل الأسرات :

لم تستمر القرى المصرية الأولى متفرقة عهدا طويلة وانما شجعته على التقارب من بعضها البعض عوامل متعددة ومنها : عوامل المصالح المشتركة ، وتبادل المواد الأولية والمصنوعات والمتاجر ، ومناسبات الزواج ، والرغبة في التحالف لدرء خطر عدو قريب أو بعيد . ثم عوامل بسط النفوذ التي كانت تدفع الجماعات القوية لضم الجماعات القريبة منها تحت زعامتها ، وعوامل الاشتراك في تقديس مظهر الهى معين يتضح أثره في منطقة واسعة تشترك في سكانها أكثر من جماعة واحدة .

وليس من نصوص ولا مناظر قديمة تصور نتائج العوامل السابقة في حياة أهلها واحدة فواحدة ، ولكن يبدو أنه ترتب على انضمام بعض القرى الى بعض أن نشأ عدد من الأقاليم ذات الحدود الاعتبارية والحدود الطبيعية ، ثم تهيأ للفريق الأقوى في كل اقليم أن يجعل قرينته الكبيرة بمدينة حاضرة لاقليمه ما دامت تتوافر لها

الحصانة الطبيعية والمقومات المادية والكثرة العددية . كما تهيأ له أن يسود حاكمه ومعبوده على بقية الجماعات المشتركة معه في نطاق اقليمه ، وبهذا أصبح لكل اقليم عاصمته ومعبوده الأكبر ، وأصبح له رمزه الذى يقوم مقام اللواء والعلم ، وقد يكون هذا الرمز ذا صلة بصورة المعبود الأكبر في بلده ، أو ذا صلة بخصائص بيئة اقليمه . أو ذا صلة بالمهنة الغالبة في مجتمعه ، أو ذا صلة بالصفات التى يعتقدونها أهله فى انفسهم . واستمرت ذكريات هذه الرموز باقية فيما احتفظت به العصور التاريخية من شعارات الأقاليم وأسمائها القديمة . ويبدو أنه تكرر بين الأقاليم بعد ذلك ما حدث بين القرى ، فبعضها نموا حضاريا سليما ، أى باستصلاح أراض زراعية جديدة ، وبالتوسع فى الانتاج والتبادل الاقتصادى ، والتوسع فى الاتصالات والمحالقات ، بينما اتسع بعضها الآخر عن طريق القوة وبسط النفوذ على حساب جيرانه المستضعفين . ثم أدى هذا وذاك الى نشأة بضعة أقاليم كبيرة قامت فى زمانها مقام الممالك الصغيرة ، وازدهرت فى ظلها أهم حضارات عصر بداية المعادن الخالكوليثى ، وبدايات عصر ما قبل الأسرات ، لا سيما فى عهد حضارة نقادة الأولى ، وحضارة المعادى ، وحضارة نقادة الثانية .

حضارة نقادة الأولى :

كانت نقادة التى نسبت اليها هذه الحضارة مجرد جبانة متسعة لمدينة متحضرة قريبة منها اسمها « نوبت » ربما بمعنى الذهبية . وقامت على أطلالها بلدة طوخ الحالية فى محافظة قنا ، فى مواجهة مدينة قفط ، وعلى بداية الطريق الى مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية وساحل البحر الأحمر . وكان معبودها الأكبر هو المعبود سوتخ (أوست) . وربما رجع توقيتها الى الربع الأول من الألف الخامسة قبل الميلاد .

وزادت هذه الحضارة من استخدام معدن النحاس ، وارتقت رقيا نسبيا بزخارف الفخار وصناعة الخناجر والأسلحة من الطران الرقيق ، كما ارتقت بالمساكن والمقابر ومحتوياتها ، بالنسبة لكبار القوم على أقل تقدير .

كانت زخارف أواني الفخار في حضارة نقادة الأولى رسوما تخطيطية في مجملها اعتمدت على الخطوط المنتظمة والمائلة ، وملئت فراغاتها بخطوط أخرى بيضاء متقاطعة . وذلك مما دعا تسمية فخارها باسم الفخار ذي الرسوم البيضاء المتقاطعة . وصنعت بعض هذه الأواني المزخرفة على هيئة كؤوس بشعبتين وثلاث شعب ، وصنع بعضها بأربعة قوائم ، مما يعنى أنها كانت تعتبر مقتنيات فاخرة بمقاييس عصرها .

وجمعت زخارف نقادة بين الرسوم التخطيطية والرسوم اللينة والطبيعية . وصورت حيوانات محلية ، كما صورت راقصين وراقصات بأحجام صغيرة وأشكال تقريبية ، ومناظر صيد واقوارب ملاحية . . . والتزمت في هذا ببعض المبادئ التي لازمت الفن المصرى القديم في بقية عصوره المتتالية ، من حيث تصوير الانسان من زاويتين ، صدره وكتفيه من الأمام وبقية جسمه من الجانب ، وتصوير مفردات الرسم مستقلة عن بعضها البعض ، الواحد منها أعلى الآخر أو بجانبه دون أن يخفيه أو يقاطعه .

وبدأ بعض الصناع المهرة من النقاديين تصوير الدوائر المنتظمة في زخارفهم وارتقوا برسم الاطارات حول صور الفخار ، وكانت قد ظهرت بصورة مختصرة في زخارف البدارى . وامتازت بعض صورهم بدقة الملاحظة ، ومنها رسم قارب بمسقط جانبي ، ورسم قارب آخر بمسقط أفقى . ولم يكن تصوير هذه المساقط شيئا

هينا بالنسبة لعصره . وتميزت سطوح بعض الأواني بعلامات مفردة مختصرة كان بعضها يرمز الى أصحابها أو صناعتها ، وبعضها يرمز الى معبوداتهم ، بل جسم أحدها هيئة تاج الوجه البحري على سطح آنية ، وصور آخر واجهة قصر الحكم تعلوه صورة الصقر . مما يعنى أن هذه الرموز السياسية المصرية ترجع بدورها الى عهود سحيقة من فجر التاريخ .

واستمرت صناعة التماثيل الصغيرة من الصلصال والفخار بل من العاج أحيانا ، وظل أغلبها لنساء ، ربما لحب تمثيل الجنس الآخر ، أو لكي ترمز الى الزوجات اللائى يتمنى المتوفى أن ابنجبن له فى الحياة الدنيا أو فى الحياة الآخرة ، وما يمثل الجوارى والراقصات لمتعته فى العالم الآخر ، فضلا على تمثيل ربات الأمومة لكي يسبغن على الشخص الحماية والرعاية .

حضارة المعادى :

اكتسبت حفائر المعادى لما قبل الأسرات بعض الأهمية لوجودها قرب رأس الدلتا القديمة ، وقيام البحث فيها فى منطقة المساكن . ومثلت بانتاجها حضارة منطقتها فى عصر بداية المعادن (أو العصر النحاسى الحجري) .

وعثر فيها على ثلاثة أنواع من المساكن المتواضعة اتخذ أكثرها تطورا هيئة الاستطالة . وعثر فيها على حفر مختلفة الشكل والسعة استخدمت لخبز الحبوب وللمواقد ، ولمدقات الحبوب . وتجمعت أعداد كثيرة من حفر الخزين لدى الأطراف الشمالية والجنوبية من البلدة . ويحتمل أنه كانت تتضمنها مبان مسقوفة ومسورة بالدبش وجواليس الطين ، قامت بدور المخازن العامة وخضعت لسلطة ما فى البلدة أشرفت عليها .

واختلفت زخارف فخار المعادى عن فخار حضارة نقادة الأولى وعن زخارف حضارة نقادة الثانية ، ومثلت فيما نعتقد مرحلة تتوسطهما . وانتفع أهل المنطقة بموقعها على بداية طريق يؤدي إلى خليج السويس وما وراءه من أرض سيناء ، في استخراج النحاس وجلب الأحجار وتنشيط التبادل التجاري الذي امتد إلى جنوب الأردن وفلسطين ، سواء باتصال مباشر أو باتصال غير مباشر عن طريق الوسطاء .

حضارة نقادة الثانية :

اتسعت مجالات الانتاج الاقتصادي والفني في نقادة خلال عصر حضارتها الثانية . ولم تقتصر خصائصها على مناطق الصعيد كما كان شأن حضارتها الأولى ، وإنما ظهرت بغض معالم انتاجها في الشمال حتى الدلتا ، وفي الجنوب حتى النوبة ، كما دل ما وجد فيها من أحجار شبه كريمة ومعادن على تعاملها المتقطع مع مناطق خارجية في الشام حتى ضفاف الفرات وربما في افريقيا لما بعد السودان . وانعكس رخاء عصرها على تطور المهارات بها في الرسم والنقش وعمل التماثيل ، وبناء المساكن والمقابر بل بعض وسائل التسلية .

ونفذت زخارف الفخار في هذه الحضارة بلون أحمر ، وزادت فيها صور البشر والنباتات والحيوانات والمراكب . وكان من تجديدهاتها في رسم الأفراد تصفيف شعر الأنثى على هيئة دائرية عوضا عن الشعر المسترسل في فترة نقادة الأولى ، وكثرة صور الرقص الدينى والديوى الذى يشترك فيه رجال ونساء . والتعبير عن نشاط الرجل في حياته العملية بتقديم إحدى ساقيه عن الأخرى على عكس ساقى الأنثى المتجاورتين . وتصوير يده اليسرى

تمسك بعضا أو قوس أو رمح . . وهذه كلها ظواهر استمرت فيما بعد مع الفن المصرى خلال العصور التاريخية .

وزاد تصوير المراكب على أواني الفخار النقادى ، ودل ذلك على زيادة استخدامها فى السفر ونقل المنتجات وفى نقل الموتى . وغالبا ما كانت تصور على سطح المركب قمرتان خفيفتان من سيقان الغاب يفصل بينهما ممر ضيق ، وجريدة نخل بفروع مختلفة لتميز بين كل مركب وأخرى ولكى تظل الملاح تحتها ، فضلا عن صار طويل يعلوه رمز خاص يدل على صاحب المركب أو بلده أو معبوده .

وقلت رسوم الفخار شيئا فشيئا فى نقادة بعد أن زاد تصنيع استخدام الأواني من الأحجار المختلفة . وحل النقش محلها على مقابض الخناجر والسكاكين والأمشاط العريضة ، وعلى صلايات الشست ورؤوس مقامع القتال الفاخرة . وبلغ من دقة أحد الفنانين حينذاك أن نقش ٢١٨ صورة دقيقة لحيوانات مختلفة فى صفوف أفقية على مقبض سكين لا يتعدى عرضه سنتيمترات قليلة . واعتبر عالم الحيوان مجالا خصبا للتعبير عن أساطير العصر وأحداثه وخیالاته . والى جانب الحيوانات الطبيعية صور الرسامون كائنات خرافية تخيلوها فى أحجام متواضعة .

وتنوعت أشكال المساكن والمقابر فى حضارة نقادة الثانية . والى جانب المساكن البدائية القديمة من البوص وفروع الأشجار ، ظهرت مساكن أخرى مستطيلة أو مربعة المساحة تبنى من اللبن . وعثر على نموذج لمسكن مستطيل الشكل ذى واجهة مائلة الجوانب يزداد اتساعها فى أسفلها عن اتساعها فى أعلاها ضمنا لثبات رصات اللبن . ولتخفيف الضغط العلوى عليها . وتوسط هذه الواجهة مدخل ضيق صنع قائما الجانبيان وعتبه العلوى من الخشب ،

وظهرت له شراعية علوية للإضاءة ، وثبتت تحتها طبلة خشبية
أسطوانية كان يلف عليها حصير يجذب الى أسفل لستير المدخل .
وتوسطت الجزء العلوى من الواجهة الخلفية للمسكن نافذتان
علويتان ضيقتان للإضاءة مع الحفاظ على حرمة المسكن . وظهر منظر
لمسكن آخر فاخر بثلاثة مداخل متجاورة .

وكما تطورت مباني المساكن المهمة تطورت أيضا مباني المقابر
المهمة في نقادة . وأصبحت جوانب حفرة الدفن تكسى بالبوص
أو الحصير أو بألواح خشبية أو بجواليس الطين وقوالب اللبن ،
مما أدى الى تحويلها من حفرة الى حجرة . . ثم قسمت هذه
الحجرة الى حجرتين احدهما لجنحة المتوفى وحاجاته الثمينة والثانية
لقرابينه الأخرى ، وفي نهاية العصر قسمت الى ثلاث حجرات ،
مما مهد لتوسعات أخرى في عصور تالية .

وعلى الرغم من اتساع ازدهار حضارة نقادة الثانية في
الصعيد وما تلاه ، فإنه يحتمل أن تكون قد نشأت أولا في الوجه
البحرى حين أدت ظروفه الخاصة الى تجميع سلطاته تحت
رئاسة ملك تتوج بتاج أحمر ذي شكل معين أسلفنا من قبل أن
صورته جسدت على آنية فخارية عثر عليها في نقادة . وعندما
اتسع التفوق الحضارى والسياسى لهذه المملكة الشمالية التى
اتخذت عاصمتها حينذاك في مدينة « أونو » قرب رأس الدلتا ،
وهى عين شميس الحالية كما سيرد النص عليها بعد قليل ، شجعها
ذلك على مد نفوذها السياسى والحضارى على الصعيد واتخاذ
عاصمته القديمة نوبت مركزا لها .

ممالك فجر التاريخ والسعى الى تحقيق الوحدة السياسية :

لم يكن من المتوقع أن تتجدد أجزاء مصر القديمة فى دولة واحدة
فجأة أو بمجهود ملك واحد مثل مبنى أول ملوك العصور التاريخية

كما كانت تظن بعض المراجع القديمة . وإنما تم ذلك بعد عدة
مراحل قد تبلغ تسع مراحل تعاقب فيها النجاج والفشيل . وأدت
كل مرحلة منها الى ما تلاها .

وبناء على عدد من البحوث الأثرية والتاريخية أمكن استنتاج
مسيرة هذه المراحل من مصادر متفرقة يرجع بعضها الى فجر
التاريخ ، ويرجع بعضها الآخر الى ما بعده . وكان منها ما دلت
عليه ألوية ورموز الأقاليم والممالك الأولى الصغيرة ، وبعض نقوش
الصلابات وريؤوس مقامع القتال الفاخرة ، وما تضمنته القصص
والإساطير ونصوص الأهرام فيما بعد من تلميحات عن أحداث
بعيدة وعقائد عتيقة ، ثم ما جاءت به بعض قوائم الملوك التي أشار
كتبتها الى تاريخ أوائل الحكام القدامى بأسلوب درامى تخيلى .
وكذا ما دلت عليه الألقاب الملكية التقليدية التي توارثها فراعنة
العصور التاريخية وتبين أنها ترجع الى أصول بعيدة .

ونرتب هذه المراحل المقترحة من ناحيتنا على النحو التالي :

أولا - بدأت مناطق الوجه البحرى نضجها السياسى الفعلى
فمنذ تجمع أغلبها فى مملكتين صغيرتين خلال مرحلة عتيقة من
مراحل ما قبل الأسرات قد ترجع احتمالا الى الربع الأول أو الثانى
من الألف الخامسة ق.م : مملكة فى شرق الدلتا قامت عاصمتها فى
مدينة « عنججة » قرب بلدة سمبود الحالية ، وكان لواؤها على
شكل الحربة ، وصور ربها الأكبر « عنجتى » فيما بعد بصورة
بشرية وريشتين ومذبة عبرت فى العصور التاريخية عن الصولجان .
وعصا معقوفة الطرف العلوى عبرت عن الرئاسة ، وذلك
مما يعنى أن الرموز التقليدية للملكية المصرية تضرب بجذورها
الى ما قبل العصور التاريخية بكثير . وقامت المملكة الثانية فى غرب
الدلتا واعتبرت المعبود حور (أو حورس) ربها الأكبر ورمزت اليه

بهيئة الصقر . ويحتمل أنها جعلت عاصمتها في موقع مدينة
دمنهور الحالية التي يعنى اسمها في اللغة المصرية القديمة « مدينة
حور » .

ثانيا - تمت الخطوة السياسية باتحاد مملكتي الوجه
البحري في دولة واحدة قامت عاصمتها في مدينة « ساو » ،
أو سايس ، التي قامت على أطلالها واحتفظت باسمها القديم بلدة
صنا الحجر الحالية قرب فرع رشيد . واتخذت الربة نيت حامية
لها باعتبارها من رعاة الحرب . كما جعلت هيئة النحلة شعارا
لمملكتها وربما للتمثل بعملها الدوب المنتج ، وتتوج ملكها بتاج
أحمر . وأصبحت هذه الظواهر بدورها من رموز الملكية المصرية
التاريخية التي احتفظت بها حتى آخر أيامها .

ثالثا - قامت في الصعيد مملكة مقابلة عاصرت الخطوة
الثانية السابقة ، حيث اجتمع شمل أكبر أقالم الصعيد تحت زعامة
مدينة نوبت في قنا ، واعترفت بسيادة معبودها الأكبر « ست »
(أو سوتخ) الذي رمزت اليه بصورة حيوان خرافي . وازدهرت
حضارة نقادة الأولى في ظل هذه المملكة الصعيدية الناهضة
وتبادلت متاجرها مع المملكة الشمالية المنافسة لها .

رابعا - عادت عاصمة مملكة الوجه البحري الى مدينة
عنجة القديمة التي اعترفت بزعامة وربوبية المعبود أوزير
(أو أوزيريس) . وأصبحت تنسب اليه وتسمى « بر أوزير » ،
وقامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة أبو صير الحالية
بجوار سمنود . ويبدو أن هذه المملكة قد نجحت في بسط سلطانها
على الصعيد وأوشكت أن تحقق أول وحدة سياسية لمصر كلها
أو الأغلب أقاليمها ، بحيث رددت الأساطير أن ربها أوزير كان أول

- من ولى عرش مصر من البشر المؤلهين أو الآلهة على هيئة البشر .
- وصورته العقائد على هيئة ملك متوج بتاج مزدوج للصعيد والدلتا .

خامسا - انقلب الصعيد بزعامة أنصار معبوده ست على دولة أوزير ، وانتصر عليها وقضى على سلطانها . . وهو ما رمزت الأساطير اليه فيما بعد بنقمة المعبود ست على أخيه المعبود أوزير وحسده على ملكه ، ثم تدبيره أمر مقتله والاستيلاء على عرشه . ومن الملاحظ هنا اعترافها بأخوتها لبعضهما رغم التنافس القائم بينهما .

سادسا - سعت دولة الوجه البحرى الى استعادة زعامتها القديمة ، وجعلت عاصمتها هذه المرة فى مدينة تتوسط بين نهاية الدلتا ونهاية الصعيد وهى مدينة أونو (أى هليوبوليس أو عين شمس والمطرية الحاليتين) . وبقي الولاء الدينى فيها للأوزير الى جانب ربها المحلى آتوم ، ثم رب آخر أصبح فيما بعد أكثر شهرة منهما وهو رع رب الشمس .

وعندما تحققت الوحدة السياسية والحضارية والسياسية الثانية للدلتا والصعيد بزعامة أونو ، خرج فلاسفة هذه المدينة بأقدم مذهب دينى لتفسير نشأة الوجود . وقد بدأ بصورة مادية ثم مال الى المعنويات شيئا فشيئا . ولم يسجل كتابة الا بعد تأليفه بقرون طويلة . وفى احدى صورته المكتوبة رد عناصر الكون وأسباب عمرانه الى تسعة أرباب ، وتخيل فى بداية الأمر محيطا مائيا أوليا يسمى « نون » . ومن هذا المحيط ظهر الاله الخالق آتوم الذى أوجد نفسه بنفسه ثم خلق من ذاته ذكرا وأنثى ، وهما : شنو (روح الهواء والفضاء والنور) وتفنوت (روح الرطوبة والندى) . وتولد عن هذين العنصرين القدسين ، ذكر وأنثى

آخران ، وهما : جب (رب الأرض) ، ونوت (ربة السماء) .
وظل هذان متصلين حتى رفع شو السماء بربتها الى اعلى وملا
ما بينها وبين الأرض وربها بنوره ، ولكن بعد ان تولد عنهما في فترة
اتصالهما أربعة أبناء ذكران وأنثيان ، أوزير وست ، وايسه ونبت
حت (أو على حد التعبير الاغريقي الشائع . أوزيريس وست ،
وايزيس ونقتيس) * ومثل هؤلاء الأربعة الرعيل الأول الذي جمع
بين الألوهية والبشرية وبدأ به عمران الكون ، كما تم به كيان
تأسوع عين شمس الأكبر . وهو رعيل يكاد يشبه أولاد آدم
الأربعة .

ويبدو أن عصر هذه الوحدة السياسية والعقائدية كان هو عصر
نقادة الثانية الذي نشأت حضارته في الوجه البحرى أولا ثم زحف
أصحابها بها الى الصعيد وصبغوا حضارته بصبغتها وتطوروا بها
في رحابه . ولكن أمور دولة عين شمس لم تسر هينة ولم تسلم
من منازعات قامت قرب عاصمتها نفسها وكذا في مصر الوسطى ،
مما أضعف كيانها وجرأ الصعيد على الانفصال عنها وتمزيق
وحدتها ، أو على حد رواية الأساطير جعل المعبود ست يعمل على
قتل أخيه المعبود أوزير وتمزيق جثته .

سماهما = لم يكن ضياع نفوذ زعماء الوجه البحرى وأربابه
بغير رد فعل في الدلتا . وترتب عليه أن اتحد أتباع أوزير القدامى
وحلفاؤهم من أتباع الأرباب المتصلين به . وابتغوا القصاص لمقتله
وتمزيقه على حد قول الأساطير ، وبمعنى أصح ابتغوا القصاص
لضياع نفوذهم القديم وتمزيق وحدة دولتهم . فجعلوا زعامتهم
الدينية والرمزية للمعبود « حور » (حورس) في مدينة « به »
قرب دسوق الحالية ، باعتباره ولدا روحيا لأوزير من زوجته
ايسه ، ولقب بالمنتقم الأبيه ، وبدأوا جهودهم لتنفيذ القصاص

وتوحيد البلاد تحت زعامتهم ، وطالمت المواقع بينهم وبين أتباع
ست رب الصعيد . ويبدو أن كلا منهما أضر بالآخر ضررا بليغا ،
حتى تدخل بعض زعماء منطقة ملوى الحالية بينهما ونجحوا في
عقد هدنة بينهما . وشجعت هذه الهدنة أنصار حور على عرض
الأمر على حكماء البلاد أو أرباب البلاد ، فبرأوا أوزير من تهمة
العدوان . وتشجع أنصار ولده حور بهذا الحكم القضائي أو الالهى
وعادوا نشر نفوذهم الدينى ونجحوا في ذلك الى حد أن أصبحت
هيئة الصقر رمز ربهم حور علما على أرباب مدن كثيرة في الدلتا
وفي الصعيد أيضا . ولكن هذا لم ينفعهم سياسيا ، وظل أغلب
زعماء الصعيد يصرون على استقلالهم فيه .

ثامنا - عادت مصر بهذا الوضع مملكتين : مملكة في الوجه
البحرى استقرت عاصمتها فى « به » مدينة حور التى قامت على
انقاضها قرية ابطو أو تل الفراعين قرب دسوق الحالية ، واحتفظ
ملوكها بميراث مملكة غرب الدلتا القديمة وعاصمتها « ساو » ،
فتتوجوا بتاجها الأحمر وتلقب كل منهم بلقب « بيتى » أى المنتسب
الى رمزها المصور على هيئة النحلة ، وذلك الى جانب اعتبارهم
ورثة حور (حورس) على الأرض . أما مملكتهم ذاتها فاتخذت
نبات البردى شعارا لها . وجاورت مدينة « به » ضاحية دينية
تسمى « دب » قدست لمعبودة باسم واجة رمز اليها بهيئة
الحية ، فاعتبرها الملوك حاميتهم واعتادوا على وضع رمزها فوق
جباههم تبركا به والتماسا لحمايته .

ثم مملكة الصعيد التى استقر ملوكها فى بلدة « نخن » وهى
مدينة قامت على أطلالها بلدة الكوم الأحمر الحالية شمالى
الدفو ، وجعلوا ربوبيتها للمعبود حور الصعيدى ورمزوا اليه بالصقر
أيضا . وتتوج ملوك هذه المملكة بتاج أبيض طويل ، واتخذوا نباتا

يُسمى « سوث » رمزاً لهم ، قد يكون من البوض أو الأسسل أو الخيزران ، وانتسبوا إليه فأصبحوا يلقبون بين قومهم بلقب « سوتى » ، ولقب « نيسو » . أما مملكتهم نفسها فاتخذت زهرة اللوتس أو الزنبق شعاراً لها . وجاورت العاصمة نخن ضاحية دينية سميت « نخاب » قامت على أطلالها واحتفظت باسمها بلدة الكاب الحالية ، وعبدت ربة رمز اليها بأنثى العقاب ، فاعتبرها الملوك راعيتهم وحاميتهم ووضعوا رمزها على جباههم في مقابل ربة الشمال ورمزها .

ومن هذه المملكة الصعيدية خرج أهم وآخر دعاة الوحدة التاريخية الفعلية وزعمائها ، وهما الملكان العقرب ، ونعرمر . وان كان يبدو أن عاصمتها انتقلت حينذاك من نخن في أقصى الصعيد الى بلدة « ثنى » في أواسطه قرب جرجا الحالية .

تاسعا - بدأت المرحلة التطورية الأخيرة كما ذكرنا حين تزعم الصعيد ودعوة الوحدة الملك الملقب بالعقرب . وقد وجدت له عدة آثار صغيرة أهمها رأس مقمعة قتال نقشت عليها هيئته بتاج الصعيد في وضع مهيب يعتبر النموذج المبكر لصور ملوك العصور التاريخية . وصور يرأس حفلا تقليديا باعتباره ملكا يولى مشروعات الري والزراعة حقها كما يولى مشروعات الحرب حقها . وقد مهد بأعماله هذه لأعمال خلفه الأكثر شهرة منه وهو الملك نعمرمر أو الملك منى .

صورت آثار الملك نعمرمر مرحلتين متميزتين في عهده ، مرحلة واصل خلالها كفاح أسلافه لضم الدلتا الى الصعيد في دولة واحدة ، وأخرى استمتع فيها بنتائج جهوده وجهود سلفه بعد أن حقق وحدة البلاد كاملة فعلا تحت حكمه .

وسجلت صلاة الملك نعرمر آخر مراحل كفاحه ونتائجها .
وقد وجدت في معبد نخن ، ونقلت الى متحف القاهرة ، واشتركت
نقوش وجهها وظهرها في مناظر معينة واختلفت في مناظر أخرى .
فظهر على الجزء العلوى لكل منهما اسم « نعرمر » داخل إطار
يرمز الى واجهة قصره . وظهر على جانبي هذا الاسم (على
الوجهين) رأسان للمعبودة « حتحور » مثلها بوجه سيدة مليحة
وقرنى بقرة وأذنيها ، وكانت من المرات الأولى التى صور المصريون
فيها رباتهم بصورة تجمع بين البشرية والحيوانية .

واختلف وجه هذه الصلاة وظهرها في بقية المناظر ، ولكن
مهد أولهما للآخر . فتصدرت نقوش الوجه صورة الملك نعرمر
في قوام فارع وحجم كبير يزيد على أحجام بقية المصورين حوله ،
تأكيدا لجلاله وعظم قدره . وأظهرته بتاج الصعيد ، يأخذ بناصية
زعيم خصومه ، ويهم بضربه بمقمعته . وواجه الملك صقر عظيم
يرمز الى المعبود حور آخذا في كفه البشرية اليمنى بحطام رأس
بشرى كبير يخرج من أرض تنمو فيها سيقان البردى وترمز الى
أرض الوجه البحرى ، كأنه يسلس قيادها له ويتم بها وحدة ملكه .
وظهر أسفل الملك قتيلان سجل الفنان مع كل منهما اسم مدينته ،
وسار خلف الملك رجل من حاشيته بقلادة عريضة يحمل له نعليه
وقدرا تحوى ماء طهورا .

وأكملت نقوش ظهر الصلاة قصة الملك نعرمر مع الوجه
البحرى بعد أن دان له . فصورته متوجا بتاج الدلتا ، يسير
في موكبه بمقمعته ومذبته اشارة الى اجتماع روح الحرب وروح
السلام فيه ، يتقدمه أحد عظماء بلاطه . كما سار أمامه أربعة
من حملة الألوية في جيشه . وسار في معيته ومن خلفه حامل
نعليه بقدره .

وقد تخرج الملك هنا حافيا على الرغم من تاجه وكتولجائه
اشارة الى قداسة الخفل الذي يقصده . ولكن ظهرت امامه صور
غريبة اخرى تمثل عشرة اشخاص موثقين بالخبال قطعت رؤوسهم
ووضع رأس كل منهم بين رجليه ، ويبدو أنه رمز بها الى مناسبة
الزيارة ، وهي الاحتفال بذكرى نصر قديم انتصر فيه الملك أو أحد
أسلافه على عشرة زعماء أو أحلاف من مناهضيه .

واستغل الفنان المصري وسط الصلابة لتصوير حيوانين
خرافيين يتعانق عنقاهما حول بؤرة الصلابة المستديرة ويتلاقى
رأسهما فوقها . . وأظهر كلا منهما بجنتهم أسد ورقبة
تشبه الثعبان ورأس فهد ، وأظهرهما ممثليين قوين يرفعان ذيليهما
في غضبة هائلة ، ولكنه صور رجلين على جانبي هذين الحيوانين ،
يجذب كل منهما عنق حيوانه بحبل غليظ ليبعده عن مقاتلة أخيه ،
وذلك مما يرمز في الغالب الى ما كان من مصادمة جماعتين ومحاولة
كبح جماحهما على أيدي أصحاب العهد الجديد .

وفي أسفل الصلابة ، نقش الفنان هيئة فحل شديد يهدم
بقرنيه سور مدينة محصنة ، ويطأ بحافره ذراع زعيمها الذي
تمدد مستسلما على الأرض . وقد رمز الفحل الى الملك ، ولم يكن
تصويره على هيئة الفحل غريبا ولكن الجديد فيه هو تقليل وحشيته
في الفتك بعدوه وتصويره على شيء من الهدوء . وكأنه يبتغي
السيطرة على أهل المدينة التي فتحها دون الفتك بهم . وكان ذلك
آخر أدوار الكفاح المسلح من أجل تحقيق الوحدة السياسية
المنستقرة لمصر كلها .



**بداية العصور التاريخية (أو عصر بداية الأسرات والعصر
العتيق - في أوائل القرن الـ ٣٢ ق م) :**

يبدأ احتساب العصور التاريخية لكل شعب قديم ببداية
اهتمامه الى استخدام أشكال وعلامات كتابية محددة في تسجيل
شؤون تاريخه (أهم أحداثه وأعماله ومعارفه وعلومه وعقائده
وآدابه ومعاملاته) .

وقد تقترن هذه البداية الكتابية بأحد اعتبارين آخرين
أو كليهما ، وهما اصطباغ حضارة هذا الشعب بصبغة قومية
متجانسة ، وائتلاف وطنه في تنظيم سياسى مستقر يناسبه . وهكذا
أصبحت بداية العصور التاريخية لكل شعب قديم بداية اعتبارية
تخصه بذاته ، وقد يختلف توقيتها في قليل أو كثير عن توقيت
أمثاله لدى سواه من الشعوب .

وتوافرت الاعتبارات الثلاثة لمصر القديمة فعلا منذ أواخر
الألف الرابعة قبل الميلاد ، وعن طريقها سبق تاريخها تواريخ كل
من عاصرها من الشعوب .

ولم يكن من الطبيعي أن تشيع الكتابة المصرية القديمة وتكتمل
عناصرها فجأة أو في وقت قصير . وإنما المتوقع أن تكون قد

تعددت تجاربها ومراحلها حتى استقرت قواعدها على أساس سليم . وتقديرا لهذا الأمر الواقع تحاشينا تحديد معرفة هذه الكتابة المصرية بسنة معينة . (كما حددتها بعض المراجع التاريخية الحديثة بسنة ٣٢٠٠ او ٣١٠٠ مثلا بغير دليل صريح) . وآثرنا اطلاق توقيت بدايتها بأواخر الألف الرابعة قبل الميلاد أو على أحسن تقدير بأوائل القرن ال ٣٢ ق م . وظهرت أولا بطريقتين ، طريقة تخطيطية لم يقدر لها الشيوخ وبقيت محددة بمناسبة وظروف خاصة ، ثم طريقة أخرى تصويرية أو تصويرية تطورت في مراحل متوالية يمكن القول عنها في ايجاز شديد انها بدأت بصور مادية ، ثم أضيفت اليها أشكال مادية أيضا لمقاطع صوتية ومخصصات تفيد في تحديد معاني الكلمات . وأخيرا بلغت غاية تطورها بابتداع أشكال أخرى متنوعة يعبر كل شكل منها عن حرف واحد من أربعة وعشرين حرفا هجائيا ، وهي أشكال حروف لم تعرف بقية الكتابات القديمة التالية أمثالها الا بعد قرون طويلة .

وسجلت الكتابة المصرية حين اكتمالها مع بداية عصورها التاريخية بخطين جمعا بين الصور المادية والمقاطع الصوتية والمخصصات والحروف الهجائية معا ، بناء على اكمال كل منها للآخر ، أو بناء على روح المحافظة التي اشتهرت مصر القديمة بها والتي دعت الى الاحتفاظ بالقديم الى جانب الجديد ، في كل وجه من وجوه حضارتها .

وظل أول الخطين يتميز بالتصوير المتقن وطابع الزخرف وتنقش به النصوص التقليدية على الأحجار والأخشاب والمعادن ، بينما اتجه الخط الثاني الى اختصار الصور في أشكال سريعة الأداء ، وسجلت بها بقية الشئون اليومية والمدنية على صفحات البردي والجلود وقطع الفخار ولخاف الأحجار .

ويمكن تقريب الفارق بين هذين الخطين تجاوزا الى الفارق الحسالى بين خطوط اللافتات والكتب المطبوعة وخط الرقعة اليدوى السريع . . وأطلق المؤرخون الاغريق فيما بعد ذلك بقرون طويلة اسم الخط الهيروغليفى أى الخط المقدس على الخط الأول ، واسم الخط الهيراطى أى الكهونى على الخط الثانى . ثم جد فى العصور المتأخرة من تاريخ مصر القديم خط ثالث كتب به منذ القرن الثامن ق . م ، وكان أكثر ايجازا فى تخطيطاته وصوره من سابقه . وأطلق الاغريق عليه اسم الخط الديموطى بمعنى الخط العام أو كتابة الجمهور . كما جد بعد ذلك خط رابع مع دخول المسيحية الى مصر وهو الخط القبطى الذى استعار أغلب أشكال حروفه من أشكال الحروف اليونانية .

كتبت الكتابة المصرية القديمة ونقشت على ما ناسب خطوطها وأغراضها من سطوح الأحجار والفخار والأخشاب والمعادن والأبنوس والعاج ، بمصنوعاتها وفنونها المختلفة كما سلف القول عنها . وتميزت على كل الكتابات القديمة التى ظهرت بعدها بكتابتها بالمداد والأقلام على صفحات البردى التى انفردت مصر بتصنيعها منذ أوائل عصورها التاريخية ، وكانت ابتكارا معجزا بالنسبة لزمانها .

وواكبت معرفة الكتابة وتصنيع البردى خطوة أخرى لابتداع رموز حسابية مفردة عبرت عن العشرات ومضاعفاتها حتى المليون ، وأدى استخدامها الى سهولة تسجيل المجاميع العددية الكبيرة فى وحدات متصلة مرتبة يسيرة الأداء .

من نظم الحكم والادارة فى عصر بداية الأسرات :

سبق التنويه باعتبار هذا العصر بداية للعصور التاريخية على أساس بدء وجود المصادر الخطية بين آثاره واستقرار الوحدة

السياسية والحضارية على أسس ثابتة في أيامه . . ثم تسميته « عصر بداية الأسرات » باعتباره أول عصر يمكن تأكيد توارث العرش فيه بين ملوك يرتبطون مع بعضهم البعض بروابط الدم والنسب .

وكذا اسم « العصر العتيق » للإشارة الى قدمه البعيد وسبقه للدولة القديمة . وربما أضيفت الى هذه التسميات أيضا تسمية « العصر الثنى » التي خصصها له المؤرخ المصرى مانيثون نسبة الى مدينة (ثنى) التي يبدو أنها كانت مسقط رأس أوائل ملوكه أو مقر دفنهم .

وتعاقب خلال هذا العصر ملوك الأسرتين الأوليين من الأسر المصرية الحاكمة . بدأت أولاهما بالملك « نعرمر » الذي يحتمل أنه تلقب بلقب « عحا » أى المحارب اعترازا بجهوده العسكرية فى توطيد حكمه ، كما تلقب أخيرا بلقب (منى) بمعنى المثبت أو الراعى أو الخالد ، تنويها بنجاحه فى تثبيت ملكه ورعايته له وخلود اسمه فيه . ثم تتابع بعده ستة ملوك من أسرته عرفوا بأسماء : جر ، وواجى ، ووديمو ، وعجأب ، وسمرخت ، وقاى عا ، على التوالي .

وتتابع بعد هؤلاء ملوك الأسرة الثانية وكانوا ثمانية على أقل تقدير ، عرفوا على التتابع بأسماء : حوتب سخموى ، ونبى رع ، ونى نثر ، وبر ابسن ، وونج ، وسنج ، وخع سخم ، وخع سخموى .

الملك (الفرعون) :

كان الملك (الفرعون) المصرى منذ عصر بداية الأسرات هو رأس الدولة قولا وعملا . فهو رأس السلطات التشريعية والعسكرية

والتنفيذية ، كما أنه رأس الكهنوت وله حق ادعاء البنوة والوراثة الشرعية لآلهة الدولة الكبار ، وهكذا تركزت السلطات العليا للدولة في قصره الذي يسمى « برعو » أو « بر نيسو » . وعرف كل ملك بثلاثة ألقاب في هذا العصر وهي : اللقب الحورى الذى يؤكد صلته بالمعبود حور رب الدولة ويعتبره وريثه الذى يحكم باسمه ويتجسد شخصيته . « واللقب النباتى » الذى يؤكد صلته بالرببتين الحاميتين القديمتين للدلتا والصعيد . ثم « اللقب النيسوبيتى » الذى يؤكد صلته أيضا بالشعارين المقدسين القديمين لكل من الوجهين .

غير أن القول بمثل هذه السلطات الرسمية شبه المطلقة لرأس الحكى المصرى القديم ، ليس من الحتم أن يبرر ما أصبح تعبير « الفرعون » و « الفراعنة » يوسم به أحيانا في بعض المراجع القديمة والحديثة أيضا من تأله وتجبر وسلطة غاشمة . فلفظ « فرعون » لم يكن في بدايته غير لقب ادارى اصطلاحى كتب في صورته المصرية القديمة « برعو » بمعنى البيت العالى أو القصر العظيم ، أى قصر الحكم المركزى الرئيسى فى الدولة . ثم امتد مدلول لفظ « برعو » فأصبح يطلق على القصر والملك الذى يقيم به . . وذلك بما يشبه الى حد ما ما أصبح عليه الحال خلال العصر العثمانى بعد عشرات القرون من التعبير بلفظ « الباب العالى » عن قصر السلطنة ، وتجاوزا بالتالى عن السلطان نفسه . بل ما زال هذا هو حال لغة الصحافة المعاصرة حين تتحدث مثلا عن سياسة البيت الأبيض الأمريكى وتعنى بها سياسة رئيس الولايات المتحدة أو كبار مستشاريه . ومع مر الزمن وربما منذ أواسط الدولة الحديثة فى مصر القديمة جرى العرف على اطلاق لفظ « برعو » على كل ملك مصرى الى جانب اسمه الشخصى ، أو كناية عنه . . وذلك كما شاع فيما بعد أيضا اطلاق لقب « قيصر » على كل حاكم

أعلى للرومان والبيزنطيين . وكما شاع كذلك بين العرب من اطلاق لقب كسرى على أكثر من ملك من ملوك الفرس ، واطلاق لقب النجاشي على أكثر من ملك من ملوك الحبشة . . وحرفت النصوص العبرية لفظ « برعو » المصري الي « فرعو » بناء على اختلاط نطق الباء بنطق الفاء في بعض اللغات القديمة . ثم أضافت اللغة العربية اليه نونا أخيرة .

وهكذا لم يكن لفظ « فرعون » أو جمعه « فراعنة » ، يدل بالضرورة على تجبر الحاكم الأعلى المصري أو يدل على جنس أو شعب بكل أفرادهم . وإذا كان « الفرعون » المصري الذي عاصر موسى عليه السلام قد وصف في التوراة والقرآن الكريم بصفات التجبر والتأله والطغيان ، فلا بد من التسليم بكل ما وصف به . ولكن دون ضرورة بطبيعة الحال الي تعميم صفاته تلك على كل « الفراعنة » أو كل الملوك المصريين ، وذلك لأن الأحكام في كل مجتمع وكل زمان ، أيا ما كانت ألقابهم ، قد يتعاقب منهم العادل والظالم ، والمؤمن والكافر ، والصالح والطالح . وهكذا كان شأن الملوك المصريين . وهكذا أيضا ما كان من المنطق اطلاق لفظ « الفراعنة » على كل المصريين ، وان كانوا جزءا منهم . فمن المسلم به أن تسمية القياصرة مثلا لم تعم على كل الرومان أو الروم ، وأن تسمية الأكاسرة لم تعم على كل الفرس ، وانما على ملوكهم .

كان عصر بداية الأسرات عصر تكوين بالنسبة الأوضاع الادارة التنفيذية العليا ، بمعنى أنه كان محدود المطالب بما يناسب عصره ، وبمعنى أن تنظيماته على الرغم من بساطتها أصبحت أساسا لكثير مما أتى بعدها . وكان من ذلك أن استخدم هذا العصر بيتين للمال سمي أحدهما البيت الأبيض أو بيت الفضة ،

واختص بضرائب الصعيد ودخله وخرجه ، وسمى الآخر البيت الأحمر وقد اختص بضرائب الوجه البحرى ودخله وخرجه . وقد يفسر ازدواج هذين البيتين برغبة الحفاظ على كيانهما الذى كانا عليه قبل توحيد مصر مع بداية عصر الأسرة الأولى ، وبالتالي رغبة الاحتفاظ للوجه البحرى بشخصية اسمية ترضى أهله وتنسيهم أنهم ذابوا فى وحدة البلاد تحت رئاسة زعماء الصعيد . وذلك الى جانب الغرض العملى من توزيع مسئولية الاشراف على موارد ومصارف البلاد الواسعة بين ادارتين ماليتين كبيرتين .

واعتمدت موارد بيتى المال هذين على تحصيل الضرائب العينية التى كانت تدور حول نسبة العشر من كافة مصادرها ، ثم الانفاق منها على مشروعات الدولة والملك ومرتببات مختلف الموظفين ، فضلا عن المطالب العسكرية والدينية .

وتميز من اجراءات العصر الرئيسية رصد ارتفاع فيضانات النيل عاما فعاما . واجراء احصاء كبير كل عامين للسكان أو للمزروعات أو للمواشى . وكذا تنظيم الاشراف على شئون الرى والزراعة . . . وتعددت لكل هذا مراتب الموظفين من كبار البلاط الملكى وحملة الأختام الرسمية وحكام الأقاليم ورجال بيتى المال وفروعهما ، ورؤساء الكتاب ومن اليهم ، فضلا عن كانوا يعملون تحت رئاساتهم فى كل أنحاء الدولة .

أما من حيث عاصمة العصر فقد تركزت السلطات العليا فى مدينة « انب حج » أى مدينة الجدار الأبيض أو السور الأبيض وهى التى اشتهرت فيما بعد باسم « منف » تيمنا باسم هرم الملك بى الأول أكبر ملوك عصر الأسرة السادسة . وكانت تقع غرب النيل حيث تقوم بلدة ميت رهينة الحالية وما حولها فى محافظة الجيزة

الى الجنوبي الغربى من مدينة القاهرة . وكان العامل الرئيسى فى اختيار موقعها هو توسطه النسبى بين نهاية الوجه القبلى وبداية الوجه البحرى . وكان المؤرخ هيرودوت قد رد انشاءها الى الملك منى ونسب اليه أنه عمل فى سبيل انشائها على تحويل مجرى النيل عنها . وذاك أمر يصعب تصور تنفيذه بالنسبة لامكانيات عصره ، وأقرب منه الى الواقع ما افترضه الباحث كورت زيته من أن أحد فروع النيل كان يطغى على منطقتها ويجعل أرضها أشبة بالجزيرة الطافية أو الأرض الناهضة . ولهذا عمل مهندسو عهد الملك منى على تحويل فرع النيل هذا (وليس النيل نفسه) الى غربها ، ثم شقوا قناة جديدة فى شمالها ، وبذلك جف ما حولها وأصبح النيل يحميها من الشرق وفرعه يحميها من الغرب والقناة الجديدة تحميها من الشمال . ولم يكتفوا لها بهذه الحماية المائية الطبيعية الناجعة ، وإنما سوروها كذلك بسور أو أسوار من كل جوانبها ما خلا ناحية الجنوب التى واجهت الصعيد .

ونسب كهنة منف الألوهية الكبرى الى معبودهم « بتاح » الذى قد يعنى اسمه معنى الخالق أو الصانع أو الفتاح . وكان من أوائل المعبودات المصرية التى صورت بصورة بشرية كاملة منذ ما قبل الأسرات . . . وشاركه بعض الأهمية فى منطقتة المعبود « سكر » الذى اعتبر من رعاة الحرث والزراعة ورعاة الموتى ، وكان فى جبانة منف التى نسبت اليه فى اسمها الشائع وهو سقارة .

وتعمد كبار كهنة منف أن يكفلوا لعاصمتهم زعامة الفكر والعقيدة الى جانب ما توافر لها من زعامة السياسة والادارة ، وعملوا على اقناع الناس بأنه كان لاله مدينتهم « بتاح » الأثر الأصيل الأول فى خلق الوجود والموجودات ، بما يسبق أثر الاله آتوم رب عين شمس وبقية تاسوعه المقدس . وهكذا خرج فقهاء

انب حج أو منف بمذهب خاص بقيت له نسخة متأخرة الزمن سجلت على لوحة حجرية في عهد الملك شاباكا في نهاية القرن الثامن ق.م ، تجديدا لنص قديم كان قد كتب على الجلد أو البردي وأوشكت الأرضة أن تقضى عليه . واشتهر هذا المذهب باسم مذهب « منف » واصطبغ بالمعنوية أكثر من المادية ، فرد خلق الوجود وما احتواه الى قدرة عاقلة مدبرة أمرة تمثلت في المعبود الأكبر بتاح الذي أوجد نفسه بنفسه وأبداع الوجود ومعبوداته وناسه وحيواناته وديوانه عن قصد منه ورغبة . وكان سبيله الى الخلق كله هو سبيل القلب واللسان . أى الفكر والكلمة ، فكرة تدبرها قلبه أو عقله وأصدرها لسانه فكان من أمر الخلق ما كان . وكان لفظ القلب يعنى فى اللغة المصرية القديمة ما يدل عليه مثله فى اللغة العربية من معانى العقل والقلب والفكر والارادة والضمير ، فى حين يعنى لفظ اللسان أداة النطق والأمر والكلام . وعن سبيل القلب واللسان ، أو الفكر والكلمة ، بدأ سعى الأرجل وحركات الأذرع وخالجات الأعضاء ، وصددت الشرائع وتهيأت الموارد ، وتعينت العبادات ، وحق الأمان لأهل السلام وحق العقاب على أهل الآثام . وهكذا اتجه فقهاء انب حج أو منف بفكرة الخلق والخالق فى مذهبهم هذا الى التجريد والمعنوية ، وعدلوا بها عن مادية التجسيد فى مثل مذهب عين شمس ، وأوشكوا بهذا أن يرهصوا ببعض ما أكدته الكتب السماوية نفسها ، حين ردوا الخلق الى القلب واللسان بمعنى الارادة والأمر ، واقتربوا بذلك الى حد ما من قول التنزيل الحكيم (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) . ولم يعتبروا ربهم خالقا فحسب وانما اعتبروه مشرعا وعادلا أيضا . ولم يفسد عليهم سمو تفكيرهم الا أنهم اعترفوا بوجود أرباب كثيرين الى جانبه ، وبرروا ذلك

بأنه خلقهم من نفسه وتعهدهم وأمر بعبادتهم والاهتمام بمعابدهم
باعتبارهم صورا منه .

امتازت أهم مقابر سقارة (في عصر بداية الأسرات) بضخامتها
النسبية وبقاء أغلب أجزائها اللبنية العلوية ، وتضمنت حجرات
قليلة منحوتة في الصخر حول حجرة الدفن تحت سطح الأرض
وحجرات أخرى كثيرة داخل بناء المصطبة فوق سطح الأرض .
وتعاقبت في واجهاتها الأربع دخلات أو مشكاوات رأسية تفاوتت
في اتساعها وفي مدى اتقان بنائها من مصطبة الى أخرى .

وكان يحيط بكل واحدة منها سوران ، ويستخدم ما بين
السورين لأداء الشعائر وتقديم القرابين واجتماع الأهل في المواسم
الدينية والتقليدية . وظهر تجديد مهم في مصطبة رجل يدعى
« نبت كا » حيث بنى جزؤها العلوى على هيئة مسطح أفقى متسع
تؤدى اليه درجات متعاقبة طويلة ضيقة من جهاته الأربع مما جعل
المقبرة على هيئة المصطبة المدرجة . ثم ظهر تجديدان آخران في بناء
المصطبة لتدعيم جوانبها وحماية المدخل المؤدى الى جزئها الأسفل
حيث توجد حجرة الدفن . ونفذ ذلك ببناء اضافة لبنية أحاطت
بالمصطبة من كل جهاتها الأربع ولكنها قلت ارتفاعا عنها وأزادت
سمك أسافل جدرانها . ثم ببناء اضافة جديدة تعتمد على الاضافة
الأولى من كل جوانبها وتقل ارتفاعا عنها . ولما أدت الاضافتان
غرضهما العملى ، اتضح لهما غرض آخر فنى ، وهو اظهار المصطبة
ذات المسطح الواحد بمظهر المصطبة المدرجة ذات السطوح الثلاثة
أو ذات الدرجات الثلاث وذلك مما أصبح أساسا فيما بعد لفكرة
الهرم المدرج ، ودليلا آخر على اتصال حلقات الحضارة والتطور
من عصر الى عصر .

عصور الدولة القديمة من عصر الأسرة الثالثة الى نهاية عصر الأسرة السادسة

نمت الحضارة المصرية في الدولة القديمة نموا داخليا قوميا
بلغ ذرى عالية من التنوع والضعامة لا سيما في شئون العمارة
الدينية والفنون ، وشئون السياسة الداخلية والعقائد .

أولا - عصر الأسرة الثالثة (٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ ق م)

بدأت الدولة القديمة بعصر الأسرة الثالثة ، وبدأ هذا
العصر بتولى الملك (نثرخت) الذي اشتهر فيما بعد باسم
(زوسر) ، عرش مصر لنحو ١٩ عاما .

وسجلت بردية تورين التاريخية اسم هذا الملك بالمداد
الأحمر تأكيدا لتمييزه وأهمية عهده ، كما اعتبره المؤرخ مانيتون
بداية ملوك منف (وان كان الأصح أنه أكثر من أسلافه استقرارا
فيها) .

ارتبطت بعهد زوسر معالم حضارية كثيرة ، أهمها مجموعته
المعمارية الرائعة في منطقة سقارة ، ومدلولات قصة المجاعة ،
وابتداع التقويم المدني (النجمي والشمسي) في عهده . ولم يكن
الفضل في كل ذلك للملك بقدر ما كان للرجل الأول في دولته وهو
« امحوتب » .

سجنت ألقاب أمحوتب هذا في عهد زوسر باعتباره تاليا له ،
ومهندسا ، ومسجلا للحوليات ، وأميناً لأختام الوجه البحري ،
وناظرا للقصر العالى ، وكبيرا للرائين بصفته رئيسا لكهنة مدينة
عين شمس ذات الشهرة الفكرية والفلكية القديمة . ويدل تنوع
هذه الألقاب على أن الشخصية المثالية في عصره كانت هي شخصية
من يجمع من كل ثقافة بنصيب ولا يقصر علمه على معرفة واحدة
ضيقة .

وشاعت شهرة أمحوتب حتى بعد وفاته لقرون طويلة . وجعله
مثقفو الدولة الحديثة على رأس الحكماء والعلمين . واعتاد
بعض الكتبة على أن يسكبوا قطرات من الماء مع التمتمة باسمه
تبركا به كلما هموا بكتابة أمر خطير .

وزاد كتبة العصور المتأخرة فقدسوه باعتباره ولدا للمعبود
بتاح رب الفن والصناعة . ثم رفع أخيرا لمرتبة الربوبية واعتبر
ربا للشفاء ، وذكره الاغريق المتمصرون باسم « اموتس » وشبهوه
بالمعبود الاغريقي « أسخليبوس » راعي الطب والحكمة . ومجد
كما روى المؤرخ مانيتون لمهارته الطبية . وفي كل هذا ما يعنى
أن مجد الشهرة في مصر القديمة لم يكن يقتصر على الملوك الفراعنة
وحدهم ، وانما كان الأفذاذ العلماء المصريين نصيب منه قد يفوق
نصيب ملوكهم أحيانا .

أشرف امحوتب على بناء قبر ملكه زوسر وتوابعه في منطقة سقارة المجاورة لعاصمته . وأجرى فيه ثلاثة تجديدات رئيسية ، هي : استخدام الحجر على نطاق واسع لأول مرة في الجزء العلوى من القبر وتوابعه . ، والانتقال بهيئة هذا الجزء العلوى من شكل المصطبة المستطيلة الى هيئة الهرم المدرج ، ثم تقليد وتخليد خصائص العمارة النباتية واللبنية التى كانت شائعة قبل عهده ، فى تزيين عمارته الحجرية الجديدة ، وبدأ امحوتب بمراحل البناء الثلاث التى عرفها أسلافه فى بناء المقابر الكبرى وهى مصطبة واضافتان . ولكنه عمل على بنائها بالحجر وليس من اللبن . وشجعته صلابة الحجر على تنفيذ مشروع كبير يتفق مع جلال ملكه ورخاء عهده ، فعمل على أن يضيف الى جوانب المصطبة الحجرية الكبيرة اضافات جانبية مائلة ، تعتمد كل اضافة جديدة منها على الأخرى ، وتعتمد كلها على المبنى الأصيل للمصطبة الذى كان يزداد ارتفاعه قبل كل اضافة . وتم ذلك فى ثلاث مراحل أخرى ، حتى تحولت هيئة المصطبة المدرجة الى هرم مدرج ظهر فى هيئته الأخيرة كما لو كان ذا ست درجات ، بلغ ارتفاعه بها نحو ستين مترا ، وبلغ طولها من أسفل نحو ١٣٠ مترا ، وعرضها نحو مائة متر وعشرة .

توسط هرم زوسر فى سقارة مجموعة معمارية كبيرة أحاطت به وشغلت معه مساحة تزيد على ٢٥١ ألف متر مربع ، وأحاط به معها سور ضخيم كبير بلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، بالحجر الجيرى الأبيض الأملس ، وشيدت فيه نفس الدخلات الرأسية المتعاقبة التى ظهرت قبل عهده فى عمارة اللبن مع زيادتها عمقا وسعة بما يتناسب مع ضخامة بنائها ومادة بنائها .

وتضمنت مجموعة زوسر هذه ست عمائر دنيوية ودينية بخلاف الهرم والسور ، قلدت فيها بعض مظاهر العمارة النباتية واللبنية

القديمة . فأقيمت فيها أساطين ذات أضلاع محدبة متجاورة تقلد هيئة سيقان الغاب المحزومة ، وأساطين ذات أضلاع مقعرة متجاورة تقلد أساطين شجرية مشدبة ، وأساطين ثلاثية المقطع تقلد هيئة سيقان البردى بتيجانها وأوراقها . وأساطين أخرى نصف دائرية المقطع تقلد نباتا كان رمزا للصعيد . كما نحتت أبواب من الحجر على هيئة الدلف الخشبية المفتوحة . وشكلت السطوح الداخلية لبعض السقوف على هيئة فلوق النخيل نصف الدائرية .

وبنيت حجرة دفن الملك زوسر أسفل الهرم من أحجار جرانيتية ضخمة على عمق ثمانية وعشرين مترا . وكان في قطع ونقل هذه الأحجار الجرانيتية الضخمة من محاجر أسوان أو من مرتفعات البحر الأحمر ما يدل على مجهود كبير بالنسبة لعصره . وقطع الصناع فيما يجاور سطح حجرة الدفن هذه سراديب وغرفا كثيرة كسيت بعض جدرانها بقراميد صغيرة محدبة من القاشاني الأزرق تقلد هيئة الحصير الفاخر . وتضمنت سراديب الهرم وحجراته ما يزيد على ٤٠ ألفا من أواني الفخار والألباستر والشست والبرشيا الفاخرة التي بلغت بعض جدرانها حدا من الرقعة جعل سطوحها الخارجية تكاد تكشف عن سطوحها الداخلية . وكان بعضها متاعا وميراثا لصاحب الهرم وأسرته ، وبعضها الآخر هدايا إليه من أقاليم دولته .

التقويم المدني :

زاد الاهتمام في عهد زوسر بمدينة « أونو » أو عين شمس مقر عبادة اله الشمس . وتلقب كبير مهندسيه امحوتب بلقب كبير المتطلعين (الى السماء) لرصد الكواكب والنجوم فيها . باعتباره رئيس الفلكيين في مدينته . وارتبطت أهمية المدينة بخطوة حضاريا جديدة اهتدى فيها علماؤها الى ابتداء تقويم مدني يجمع بين

يخصائص التقويم الشمسي والتقويم النجمي منذ عام ٢٧٧٣ ق.م .
واحتسبوا أيام السنة على أساسه ٣٦٥ يوما وقسموها اثني عشر
شهرًا ، ضمنوا كل شهر منها ثلاثين يوما ، ثم اعتبروا الأيام
الخمسة الأخيرة أيام أعياد يحتفل فيها بذكريات الأرباب أوزير ،
وايسة ، وست ، ونبت حت ، وهور (أى أوزيريس وايزيس ،
وست ونفتيس وهورس) ، وهى أيام النسيء الخمسة التى تحتفظ
السنة الزراعية المصرية بمثلها حتى الآن .

ومن المرجح أن المصريين كانوا يؤرخون قبل عهد زوسر
بالشهور القمرية شأنهم شأن بقية الشعوب القديمة ، ويأخذون
بالتقويم النيلى الذى يبدأ ببداية وصول فيضان النيل الى منطقة
« برجى » الواقعة بين عين شمس ومنف قرب جزيرة الروضة
الحالية . وشيئا فشيئا لحظ بعض كبار المصريين المحتفلين بعيد
وفاء النيل أن فجر وصول فيضانه الى ما يجاوز هذه المنطقة يقترن
بظاهرة سماوية لافتة للنظر ، وهى أنه بعد اختفاء نجم الشعرى
ذى الضوء الساطع ، الذى اعتبروه أنثى وسموه سويدة ، عن مجال
الرؤية نحو سبعين يوما ، يعود فيتألق فى أفق السماء ويبقى حتى
مطلع الشمس المبكر كأنما يبشر ببداية الفيضان الجديد . ومع
مر الزمن أصبحوا يترقبون اجتماع هذه الظواهر الطبيعية عن
قصد ، وأطلقوا على نجم الشعرى لقب جالبة الفيضان ، واعتبروا
بداية ظهورها فى الأفق الشرقى عند الفجر (حوالى ١٧ يوليو من
التقويم اليونانى) أول يوم فى أول شهر فى أول فصل ، وهو فصل
الفيضان . ثم حسبوا ما بين كل ظهور صادق وظهور صادق آخر
للشعرى مع مطلع الشمس فوجدوه ٣٦٥ يوما ، ووجدوه يتضمن
اثني عشر شهرا قمريا وكسورا لا تصل الى نصف الشهر ،
فأكملوا عدة كل شهر ثلاثين يوما وتبقت خمسة أيام احتسبوها
نسيئا وأعيادا ، ثم اعتبروا السنة ثلاثة فصول . فصل الفيضان

« آخة » ، وفصل خروج النبات من الأرض « برة » وهو يوازي فصل الشتاء ، ثم فصل التحاريق « شمو » . وهو تقسيم قد يناسب المناخ المصرى اكثر من تقسيم الأربعة الفصول الحالى .

غير أن الابتداع الرائع لفكرة التقويم المدنى الثابت الذى ربطه المصريون بينه وبين دورة الشعري ، كما ربطوا بينه وبين الانقلاب الشمسى ، وقسموا الشهور على أساسه اثنى عشر شهرا ، وسبقوا به كل شعوب العالم القديم التى ظلت تؤرخ بالتقويم القمري وحده ، لم يكن بغير نقيصة تؤخذ عليه ، فهم قد احتسبوا السنة ٣٦٥ يوما وليس ٣٦٥ يوما وربيع يوم . وكان من شأن فارق ربيع اليوم أن يصبح يوما كل أربع سنوات ويصبح شهرا كل ١٢١ عاما وربيع عام تقريبا . وبمعنى آخر كان من شأن بداية السنة المدنية الحسائية الفلكية (الشمسية النجمية) أن تتأخر عن بداية الفيضان الفعلية شهرا بعد كل ١٢١ عاما وربيع عام . . ثم لا تعود لتتفق معها الا بعد أن يبلغ الفارق بينهما حولا كاملا . . بعد كل ١٤٥٦ عاما .

وأدرك المصريون هذا الفارق وتندر ادباؤهم به ولكنهم استمرو عليه بحكم العادة ، ولم يعملوا على تلافيه الى أن أشار قراد كانوب (أبو قير) الذى اصدره مجمع الكهنة المصريين عام ٢٣٧ ق . م الى اتجاه النية حينذاك الى اضافة يوم على أيا ، النسيء الخمس ، لولا أن هذا التعديل لم يطبق بصورة دائمة الا منذ عهد أوجسطوس فى عام ٣٠ ق . م حين انتفع تقويمه اليولياني بفكرة التقويم المصرى وثبت العام بمقتضاه ٣٦٥ يوما وربيع يوم .

وظل المصريون القدماء يميزون الشهور بأرقامها ، الى أن ربطوا بينها وبين أسماء ومناسبات مقدسة خلال الدولة الحديثة

ثم استقرت هذه الأسماء ، منذ القرن السادس ق.م وبقيت حتى الآن مع قليل من التحريف اللفظي في مثل شهر توت وكان يوافق عيد الاله تحوتي ، وشهر هاتور وكان يوافق عيد الربة حتحور وهلم جرا . وما زال هذا التقويم بأسماء شهوره القديمة منبعا في أساسه في الريف المصرى بالنسبة للسنة الزراعية . . . أو ما يعرف تجاوزا بالسنة القبطية ، ويفضله المزارعون عادة عن التقويم الميلادى أو التقويم الهجرى ، ويرونه أنسب لتعيين مواعيت الحرث والبذر والرى والحصاد على الرغم من نقص ربع اليوم الفلكى فيه وما زال بعض المزارعين يحتفظون بذكريات أجدادهم في تسمية ليلة الفيضان « ليلة النقطة » أو « ليلة سقوط الدمعة » في ١٢ بؤونة ، أى الليلة التى دمعت فيها الربة ايسة (ايزيس) الرموز اليها بنجم الشعرى على زوجها أوزير فجرى الفيضان من دمعتها .

تعاقب بعد عهد الملك زوسر عدد من ملوك أسرته اعتبرتهم القوائم الملكية بين الأربعة والستة ، وجعلهم المؤرخ ما نيتون ثمانية ، واحتفظت الآثار القائمة بأسماء ما بين الثلاثة والخمسة منهم . وانتهت أيام الأسرة الثالثة بالملك حونى ، الذى حكم أربعة وعشرين عاما ، وشيد له هرم ضخم فى منطقة ميدوم تغير تصميمه أكثر من مرة ، وظهر أخيرا على هيئة هرم مدرج ذى ثمانى درجات ، وبدأ كساء درجاته بأحجار جيرية بيضاء ، ولكن الملك مات قبل اتمامه ، وتم ذلك فى عهد ولده سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة ، مع ملء الفراغات بين درجاته بالأحجار ليكون مستوى الجوانب أو ليتخذ هيئة الهرم الكامل . وتهدمت أغلب أجزاء هذا الهرم ولم يبق منه حتى الآن غير ثلث ارتفاعه الأصيل .



ثانيا - عصر الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ - ٢٥٦٩ ق م)

عهد سننفر و :

بدأ عصر الأسرة الرابعة بعهد الملك سننفر و الذى حكم أربعة وعشرين عاما وتلقب بلقب معبر وهو « نب ماعت » أى رب العدالة ، واحتفظ له الأدب المصرى بذكرى عطرة قلما احتفظ بها لملك مصرى سواه . فوصفه بأنه « ملك فاضل » ، وصوره متواضعا يميل الى المعرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستماع ، ويكتب بنفسه ولا يابى أن يسأل حكماء قومه عما لا يعرفه . كما صوره فى الوقت نفسه ميالا الى المرح وحب الاستمتاع .

وامتازت الأوضاع السياسية فى عهد سننفر و بإنشاء منصب الوزارة فيه رسميا لأول مرة فى التاريخ القديم ، وان ظل من نصيب كبار الأمراء وحدهم ، حتى نهاية عصر الأسرة الرابعة .

وكان عهد سننفر و ذا اهتمام خاص بالملاحة بحيث ذكرت حولياته مشروعا لصناعة ستين سفينة لكل واحدة منها ستة عشر مجدافا ، كما ذكرت ورود أربعين سفينة من فينيقيا محملة بأخشاب (عس) من فصيلة الصنوبر ، فى أعوام حكمه . واستخدمت بعض هذه الأخشاب فى صناعة سفن كبيرة بلغ طول الواحدة منها مائة ذراع ملكى ، أى نحو ٥٢ مترا . كما استخدم بعضها الآخر فى

صناعة أبواب القصور الملكية وفي بعض الأجزاء الداخلية من
هرم سنفرو .

ومع هذا الطابع المدني ، سجلت حوليات سنفرو أخبار
تجريدات عسكرية واسعة وجهها لتأمين الحدود الشمالية الشرقية
والجنوبية والغربية ، والزام قبائلها البدوية النظام والطاعة .
وظلت ذكرى سنفرو ماثلة في شبه جزيرة سيناء أجيالا طويلة
واعتبره خلفاؤه من حماتها وقدسوه فيها وضموه الى رعاتها من
المعبودات . كما ظلت بعض نقط الحراسة على حدودها الشمالية
تعرف باسمه حتى الدولة الوسطى .

وسمح رخاء عهد سنفرو بتشيد هرمين له في منطقة دهشور
واكمال هرم أبيه حوني في ميدوم . ومثلت هذه الأهرام والمعابد
الملحقة بها مرحلة جديدة من مراحل العمارة المصرية القديمة . فقد
شيد له هرم في دهشور ليكون هرما كاملا منذ بدايته ، وبدأه
المعماريون بزاوية ميل قدرها ٥٤ر١٤ درجة ، ولكنهم بعد أن وصلوا
بهذا الميل الى ما يزيد ارتفاعه على تسعة وأربعين مترا ، أدركوا
أنهم لو واصلوا البناء على اساسه فسوف يرتفع الهرم الى أكثر
مما قدروه له أو أكثر مما تحتمل قاعدته . وبدأت بعض الجدران
الداخلية فيه تتشقق بالفعل ، فغيروا زاوية الميل الى ٥٣ر٢١ ،
وأكملوا بناء الهرم حتى بلغ ارتفاعه ١٥ر١٠ من الأمتار ،
ولكنه ظهر في صورته الأخيرة كأنه منكسر الزاوية في منتصفه .
ولهذا استغلوا أماكن عهدهم في تشيد هرم ملكي آخر شمالي
الهرم الأول ، وبدأوه بزاوية ميل مناسبة تبلغ ٤٣ر٤٠ درجة .
وعندما تم أصبح أول هرم كامل صحيح النسب حاد الزوايا مستوى
الجوانب ، بلغ ارتفاعه نحو ٩٩ مترا . وكسى هو والهرم الأول
بأحجار جيرية بيضاء ملساء . وأطلق على كل منهما اسم « خع »

سنفرو « بمعنى شمع سنفرو ، أو تجلى سنفرو • وكان بين هذا الاسم وكساء الهرمين وصاحب الهرمين نوع من الارتباط المقصود ، فقد كان من شأن الكساء الأبيض الناصع لكل هرم أن يستقبل أشعة الشمس القوية ويعكس نورها على ما حوله ، فيبدو في أسفل الوادي كأنما يصدر عن الهرم نفسه ، أو بمعنى آخر كأنما يشع عن صاحبه الثاوى فيه •

عهد خوفسو :

تخلف سنفرو ولده « خوفو » ، أو « خنوم خوفوى » كما ورد اسمه الكامل ، وهو اسم يعنى الاله « خنوم يحمينى » ، ويدل بهذا على الايمان بحاجة خوفو الى معبود أكثر قدرة منه يرعاه ويحميه • وصور أديب مصرى الجانب الانسانى من شخصية خوفو فى قصة تخيله فيها يسامر أولاده ويستمع الى رواياتهم عن حكماء العصور السالفة ، كما يستمع الى كاهن مرتل من عهده ، ويكاد يجهل بعض ما يعرفه • وفى هذا وفيما سبق ذكره عن أبيه سنفرو ما يعنى أن وصف ملوك مصر القديمة بأوصاف الربوبية فى نقوشهم كان شيئًا ، وأن واقع الحياة بالنسبة لهم ولحكماؤهم كان شيئًا آخر •

وعلى الرغم من شهرة خوفو الواسعة كصاحب الهرم الأكبر ، لم يبق من تماثيله وصوره شىء ذو بال • ومنه تمثال صغير لا يزيد ارتفاعه على نسعة سنتيمترات وجد فى معبد أبيدوس ، ثم عدد من أجزاء تماثيل مهشمة عشر عليها قرب هرمه وليس فيها ما يحمل رأسه •

ولا جدال فى أن هرم خوفو فوق هضبة الجيزة هو الدليل الصريح على عظمة عهده ، ولاشك كذلك فى أن مهندسه

(أو مهندسيه) قد استفاد من التجارب التي سبقت عهده والتي أدت الى تنفيذ هيئة الهرم الكامل في دهشور . ولكنه تفوق عليهم جميعا بضخامة هرمه الهائلة والدقة البالغة التي تم بها بنيانه . فقد شغل هرم خوفو (وملحقاته القريبة منه) ما يقرب من ١٣ فداناً ، وكان ارتفاعه ١٤٦ متراً أنقصتها العوامل الطبيعية الى ١٣٩ متراً . وقيل انه استخدم في بنائه نحو مليونين وثلاثمائة ألف كتلة حجرية تراوحت زنة الواحدة منها بين الطنين والنصف والثلاثة الأطنان . وقد قطعت من محاجر هضبة الجيزة التي شيد الهرم فوقها عدا الكساء الخارجي للهرم الذي قطعت لوحاته السميكة الضخمة من محاجر طرة التي امتازت بأحجارها الجيرية الناصعة البياض .

بنى الهرم أساسا ليكون ملجأً أميناً لجثة الملك ومقتنياته الخاصة عند وفاته ، وليكون شاهداً على ثرائه وسعة سلطانه ، ووسيلة لخلود ذكره وذيوع شهرته ، ودليلاً على رفعة شأنه في الدنيا والآخرة وصورة من صور رقى العمارة في عهده . أى أنه لم يكن مجرد مقبرة في جبانة وانما كان ولا يزال عملاً فنياً رائعاً في داخله وخارجه . وقد أطلق عليه اسم « آخت خوفو » بمعنى مشرق خوفو أو أفق خوفو . وتضمن ثلاث حجرات كبيرة للدفن ، حجرة أسفله في باطن الصخر هجرت قبل أن ينتهى العمل فيها ، وأخرى في باطنه تسمى خطأ باسم غرفة الملكة وهجرت هي الأخرى بعد أن أوشك العمل فيها على الانتهاء ، وحجرة ثالثة في نصفه العلوى دفن الملك فيها . وأدى تعدد هذه الحجرات الى رأى مقبول ، مؤداه أن الهرم بنى على ثلاث مراحل انتقل المهندس فيها من مرحلة منها الى الأخرى نتيجة لازدياد خبراته وازدياد امكانيات عهده ، ونتيجة لامتداد أجل ملكه . وشيدت حجرة الدفن العلوية .

الرئيسية في الهرم من أحجار جرانيتية هائلة وأقيمت فوقها خمسة سقوف يتعاقب كل منها فوق الآخر بعد ارتفاع قليل ، رغبة في تخفيف الضغط عن سقفها الأول الذى تألف من تسعة ألواح تزن في مجموعها نحو ٤٠٠ طن . وجعلت أربعة من هذه السقوف مسطحة ، وبني خامسها (وهو العلوى) مثلثا على هيئة الجمالون لتوزيع ضغط البنيان العلوى من الهرم على جوانب الحجره وسقوفها دون أن يتركز على وسطها . وكانت كلها اجراءات بارعة بالنسبة لعصرها . ويصل بين غرفة الدفن الوسطى وغرفة الدفن العليا في باطن الهرم دهليز صاعد يعتبر من آيات الفن المعماري لعصره ، كسيت الأجزاء السفلى من جانبيه بأحجار مصقولة ضخمة ، وبرز كل مدماك من مداميكه العليا ، وعددها سبعة في الجانبين ، عن المدماك الذى يرتكز عليه بمقدار ثلاث بوصات ، والتصق كل مدماك منها بالآخر وكل حجر منها بالآخر في اتقان شديد دفع بعض الباحثين الى المبالغة في تقديره بقولهم ان ما بين كل حجر وآخر لا يكاد يسمح للشفرة بالنفاذ منه . ومن الأوصاف الممتعة في تصوير مدى الدقة في بناء الهرم ، ما يقال من أن متوسط الخطأ في طول جوانبه لا يعدو ١ : ٤٠٠٠ ، وأن الخطأ في عمليات التربيع التى استخدمت فيه لا يعدو كسرا عشريا يساوى دقيقة واثنى عشرة ثانية ، وأن معدل الخطأ في ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد على ٣ : ١٠٠ ، وأن الفواصل بين أحجاره لا تزيد على نصف المليمتر . وعلى أية حال فما ينبغى أن يقصر الاهتمام على الهرم وصاحبه ومهندسه مجهول الاسم فقط ، وانما يجب التفكير كذلك في شأن بقية الطوائف المصرية التى شاركت في بنائه والظروف التى أحاطت ببنائه . ذلك أنه يتضح للضخامة الفريدة مع البراعة الفائقة التى امتاز الهرم الأكبر بها أكثر من دلالة .

فهي من الناحية السياسية تنم عن نظام سياسى وادارى كان يسمح للملك صاحب الهرم بتصرف واسع فى امكانيات البلاد المادية والبشرية . وهى من الناحية المعمارية تشهد لمهندس الهرم أو لمهندسيه بدراية واسعة بمبادئ الهندسة وفن العمارة . وهى من الناحية العملية تشهد للصناع الفنيين بمهارة كبيرة فى نحت الأحجار الضخمة وتسويتها وتثبيتها ، ومهارة مماثلة فى تنفيذ ما خططه المهندسون بنجاح كبير . وهى من الناحية البشرية تشهد لآلاف العمال العاديين الذين اشتركوا فى بناء الهرم بجهد شديد فى قطع أحجاره الضخمة من محاجر الجيزة ونقلها ثم رفعها الى مواضعها من بنائه . ثم هى من الناحية الادارية تشهد لرجال الادارة المشرفين على نظام العمل بالكفاية فى رسم الخطط لتجميع آلاف العمال وتمويلهم وحسن الاستفادة بهم وضمان استمرار قوتهم البدنية على مواصلة العمل ، مع تنظيمهم وتقسيمهم فرقا مازالت بعض أسمائها مسجلة على أحجار متفرقة من جوانب الهرم .

اتصلت بهرم خوفو مجموعة دينية ومعمارية واسعة تألفت من معبد شعائره الذى لم تبق منه غير أرضية ، ومعبد الوادى وما زالت بقاياها مخفية تحت قرية نزلة السمان الحالية ، والطريق الواصل بينهما . وقد أشاد به المؤرخ هيرودوت اشادة كبيرة ، ثم خمسة مواضع لمراكب كبيرة ، ثلاثة منها تقع شرق الهرم وقد وجدت خالية ، واثنان منها فى جنوبه وقد كشف عن أحدهما بينما بقيت الآخر مغلقا حتى الآن .

ووجدت فى الموضع المكتشف ألواح كثيرة من أخشاب الأرز وفصيلة الصنوبر لمركبة خشبية يبلغ امتدادها ٤٣ر٢٠ من الأمتار . يبلغ أكبر عرض لها ستة أمتار . وقد فككت أجزاءها ورتبت الى

حد ما بحيث تسهل إعادة تجميعها . ووضعت معها مجاديفها وحبالها وجوانب كبائنها وأساطينها الخشبية ، وغطيت حفرتها الصخرية بألواح حجرية ضخمة سميكة رتبت في عناية شديدة واحكام كبير . ودلت براعة صناعة هذه المركبة بعد إعادة تركيبها على أن روح الاتقان والاجادة في عهد خوفو لم تقتصر على ما يتصل بهندسة بناء هرمه وانما امتدت كذلك الى ما يتصل ببقية الفنون والصناعات في عهده . ونمت التجارب الأولية لاستطلاع داخل حفرة المركبة الثانية على أنها لا تزال تحتفظ بمركبها ، واذا صح أن المواضع الأخرى التي وجدت خالية كانت كلها تتضمن مراكب فعلية مثل المركب المكتشفة ، فثمة عدة احتمالات للأغراض التي كانت تخدمها . وهي أن واحدة منها استخدمت في نقل جثة خوفو بعد وفاته من قصره الى قرب هرمه . واستخدمت الباقيات أو بعضها خلال حياته في مناسبات دينية ورسمية ، مثل جولاته الادارية بين مراكز الوادي ، وحفل تنويجه ، وزياراته للمعابد الكبرى وبلدن الحج المقدسة . . فضلا عن تخصيص واحدة منها أو أكثر لجولاته الروحية في العالم الآخر .

وشاد عظماء عهد خوفو مقابرهم من الحجر الأول مرة بعد أن كانت أمثالها تبني من اللبن ، وذلك مما يعنى تشجيعه لهم وامتداد الرخاء الذي سمح ببناء هرمه وتوابعه الفخمة الى من شملهم برعايته من شعبه .

وشيدت هذه المقابر على نسق متشابه ورتبت في صفوف مستقيمة وتجمعت على جانبي الهرم وأسفله كأنه يشرف عليها من عل كما كان صاحبه يشرف على أصحابها في دنياه .

وتباينت الآراء قديما وحديثا في شأن تحديد عوامل الرضا أو عوامل التسخير التي أحاطت انشاء هرم خوفو وملحقاته ، هو

وما يماثله من أهرام وآثار كبيرة . ويحسن أن نتصور لهذه القضية كل أطرافها المحتملة في ضوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والروحية التي عاش في ظلها الملك خوفو وطوائف المشتركين في بناء هرمه . وليس ذلك لمجرد الاستشهاد بأكثر ما يمكن من الآراء ، لكن اعترافا بما في الحياة من أوجه متعددة يعيش بعضها بعضا ، وقد يتآلف بعضها مع بعض كما قد يتعارض بعضها مع بعض . . . ، واعترافا كذلك بوجود تقدير أن لكل عصر منطقته ، وأن ما قد يقبله عصر ليس من الضروري أن يجيزه عصر آخر .

ففي الحياة الاقتصادية اعتمدت مصر القديمة في أغلب حياتها الزراعية على دورة سنوية رئيسية واحدة كان من شأنها أن تؤدي الى تعطل صغار المزارعين والأجراء عدة شهور من كل عام ومنها شهور الفيضان . وفي هذه الشهور أو في بعضها كانت الحكومات المصرية القديمة تعمل على تجميع أعداد غفيرة من عمال الأرض واجرائها ليخدموا مشاريعها العامة والمنشآت الملكية أساسا ، ثم ليتكسبوا ضمنا من العمل في هذه المشروعات والمنشآت مورد رزق مناسب يقوم بأودهم وأود أسرهم في مواسم تعطلهم عن العمل . وذلك الى جانب الصناعات الفنيهين الذين كانوا يعملون طوال غالبية شهور السنة .

وأشار هيرودوت الى مثل هذا الوضع فذكر أنه سمع أن العمل في الهرم كان يجرى (وعلى الأصح كان يشتد ويتضاعف) في مواسم الفيضان والتعطل عن الزراعة من كل عام . وترتب على ذلك أن بناء الهرم الأكبر وماحقاقه استنفد عشرين عاما كاملة .

ومن حيث السلطة التنفيذية سلف القول بما توافر للملوك المصريين وحكوماتهم من نفوذ ادارى واسع جعل لهم الحق في

تكليف من شاءوا من الأيدي العاملة بالعمل في منشآتهم الدنيوية والدينية . وقد يكون في هذا نوع من التسخير من وجهة نظر العصر على أقل تقدير ، ولكنه كان تسخيرا مألوفا في كل الشعوب والعصور القديمة . ولم يصل في مصر القديمة الى حد التسخير العشوائي والا كانت حكومة خوفو قد أنهت بناء هرم ملكها في وقت قصير دون استمرار العمل فيه عشرين عاما اذا صحت رواية هيروودوت عنه . والطريف أن أضاف هيروودوت نفسه أنه رأى في منطقة الهرم لوحات صورت عليها مقادير هائلة من المأكولات ظن أنها خصصت لتوزيعها على العاملين فيه ، بما يعنى أنهم كانوا يؤجرون على عملهم فيه . وان كان الواقع أن هذه اللوحات صورت القرابين التي كان يرجى أن تقدم لأصحاب المقابر حول الهرم وليس بالضرورة للعاملين في بناء الهرم .

أما من الناحية الروحية ، فالى جانب السيطرة السياسية والادارية التي توافرت للملوك المصريين وحكوماتهم ، أكد هؤلاء الملوك أنفسهم قدرا كبيرا من القداسة الروحية والسيادة الدينية، وادعوا أنهم ورثة الأرباب ومن نسلهم (وان لم يبلغوا بهذا الادعاء الى حد التأله الصريح) . واستغلوا هذه القداسة الدينية والروحية أوسع استغلال . وليس من المستبعد أن الوعاظ والكهان من أعوانهم كانوا يتعمدون في مواعظهم أن يبسروا على الكادحين في سبيل الرزق شقاءهم ويخففوا عنهم متاعبهم بالأمل فيما ينتظرهم في الآخرة من الشفاعة وحسن الجزاء من ملوكهم الذين أوهموهم أنهم سوف يتحكمون في شئون الحياة الثانية كما تحكموا في شئون الحياة الدنيا سواء بسواء .

أما من حيث المعاملة الفعلية في المجالات العملية ، فيلاحظ أنه ان لم تتبق نصوص صريحة تنم عن طريقة معاملة رجال خوفو

لعمال هرمه ، فانه يمكن الاستشهاد من جانب آخر بنصوص الأثرياء عصر الأسرة الرابعة وما بعدها تدل على وجود وازع ديني كان يدعو المقتدرين الى حسن معاملة الأتباع والأجراء .

ومن هذا القبيل أن قال أحدهم « كل صانع عمل في مقبرتي أرضيته » .

وقال آخر « أرضيت كل الصناع الذين أتموا لي عملا في هذا القبر بالطعام والشراب وكل شيء طيب » . وقال غيره « أنفقت على قبري هذا من متاعى الحلال ولم يحدث اطلاقا أن اغتصبت متاع شخص ما » . وليس من المستبعد أن مثل هذه الروح الانسانية الخيرة تحكمت فيما بين خوفو ورجاله وأتباعه وأجرائه .



انعقدت ولاية عهد خوفو لولده الأكبر « كاوعب » . وكان أول أمير مصرى مثل في تماثيله على هيئة الكاتب تنويها بثقافته ، لولا انه توفي مبكرا . وخلف خوفو ولد آخر وهو « جد فرع » الذى سجل اسمه عدة مرات على بعض الأحجار التى غطت على موضع مركبته المكتشفة تدليلا على قيامه بالاشراف على دفنه ، ثم خلافته على عرشه .

وقد مثل بعض اولاده في تماثيلهم على هيئة الكتاب والقراء مما يعنى أنه استحب لهم حياة الثقافة مثل عمهم ، لولا أن العلاقات بينه وبين بعض كبار أسرته واخوته لم تكن طيبة . والأمر ما ابتعد بقبره عن منطقة الجيزة وشيده في أبو رواش ، ولم يظل عهده أكثر من ثماني سنوات ثم خلفه أخوه غير الشقيق « خفرع » .

عهد خفرع :

أعاد خفرع الوثام بين أفراد أسرته الحاكمة ، وطال عهده خمسة وعشرين عاما أو تزيد . . وأضاف الى ديباجة ألقابه الملكية لقبا جديدا وهو « سارع » أى ابن الشمس ، أو ابن اله الشمس رع ، مسايرة منه لانتشار مذهبه من ناحية ، وتدليلا على أنه يعتلى العرش بناء على بنوته له ، ورغبة في أن يقدر له دوام مثل دوام كوكبه في الدنيا وفي الآخرة .

تألفت أهم آثار العمارة والفن الباقية من عهد خفرع ، من هرمه ومعبديه ، والطريق الواصل بينهما على هضبة الجيزة ، ثم عدد من تماثيله الملكية ، وتمثال أبو الهول . ويقل هرمه قليلا عن هرم أبيه ضخامة وارتفاعا ، ولكن مهندساه شاده على جانب من الهضبة أكثر ارتفاعا بقليل من الجانب الذى بنى عليه هرم أبيه فعوضه بعض الشيء عن قلة ارتفاعه عنه . ويمتاز في حالته الراهنة باحتفاظ قاعدته بكساء من حجر الجرانيت ، واحتفاظ قمته بأجزاء ألواح الحجر الجيري الأبيض التى كانت تكسوه .

تبدأ ملحقات هذا الهرم بمعبد الوادى ، وهو معبد ضخم يعتبر أكمل معبد من عصره وجد حتى الآن . وقد شيد من أحجار هضبة الجيزة وارتفعت واجهته نحو ثلاثة عشر مترا ، وكسيت بألواح ضخمة سميكة من الجرانيت ، وهى ظاهرة لا تقتصر أهميتها على الدلالة على ما كان يكسو المعبد من جلال وروعة في عهد صاحبه . وإنما تمتد كذلك الى اكباز من قطعوا ونقلوا كل هذه الألواح الضخمة من محاجرها في أسوان حتى الجيزة على الرغم من بساطة الامكانيات المتيسرة في عصرهم البعيد . وتستقبل واجهة المعبد ناحية الشرق بمدخلين يرمزان الى الوجهين ، الوجه القبلي والوجه

البحرى ، كما تطل على مرساة لقناة تربط بين المعبد ونهر النيل .

أدى معبد الوادى للهرم الثانى ، وما يشبهه من معابد الوادى الأخرى ، ثلاثة أغراض رئيسية ، وهى أن جانبا منه اعتبر استراحة مؤقتة للملك فى حياته كلما زار منطقة الجيزة ليحرف على بناء هرمه فيها . وأن جانبا منه جرت فيه طقوس تحنيط جثة الملك بعد وفاته . وأنه أصبح يستخدم بعد دفن الملك لاجتماع وفود الكهان وكبار الزائرين خلال المواسم والأعياد الدينية . وكانوا يجتمعون فى بهو داخلى فخم يتوسط المعبد ، وهو بهو كسيت أرضيته بالألباستر الأبيض وكسيت جدرانها بالجرانيت الوردى ، ورفع سقفه ستة عشر عمودا ضخما من الجرانيت ، وكان يستقر على جوانبه ثلاثة وعشرون تمثالا لخفرع مثلته جالسا فى مهابة يضم يمينه الى صدره ويرسل يسراه على فخذه . وقد نحت بعضها من الألباستر الأبيض ، ونحت بعضها من الديوريت الأزرق ، ونحت بعضها الآخر من الشست الأخضر . وكانت ألوانها مع ألوان الجدران والأرضية والأعمدة تتوهج تحت أشعة الشمس الذهبية التى تندفع اليها من فتحات السقف الحجرى ثم تنعكس عليها من الأرضية البيضاء الناصعة ، لتضفى على بهو المعبد جلالا وبهاء ما بعدهما من جلال وبهاء . وتهشم أغلب هذه التماثيل وبقي أقلها سليما . ومن هذا القليل تمثال من الديوريت (نقل الى المتحف المصرى) خلص الفنان على ملامح وجهه مهابة وقدااسة تليقان بصاحبه ، وظلل مؤخرة رأسه صقر شامخ يرمز الى المعبود حور ويفرد جناحيه حول رأس الفرعون كأنه يظله ويحميه . واستطاع الفنان أن يذلل صخر الديوريت بسهولة فى تمثاله ، وهو من أشد الصخور قسوة ، فأظهر تقاطيع خفرع فيه دقيقة ناطقة ، وأظهر عضلات بدنه مشدودة قوية واضحة .

وبعد أداء مراسم دينية معينة كانت وفود كبار الزائرين تخرج من الباب الخلفي للمعبد بين تراتيل الكهنة وأنغام الموسيقى ليبدأوا مسيرتهم على طريق صاعد مسور يمتد نحو ٤٩٤٦٠ من الأمتار ويؤدي الى مدخل معبد شعائر الملك المتوفى . وهو معبد يجاور الهرم من ناحيته الشرقية ولم يكن يقل في ضخامته وجلاله عن ضخامة وجلال معبد الوادي لولا أن تهدم أغلبه . وكان يتألف حين اكتماله من عناصر كثيرة تتوزع في قسمين ، قسم أكبر يغلب عليه طابع العمومية ، وقسم أصغر تغلب عليه صفة الخصوصية .

أبو الهول :

طغت شهرة أبو الهول من عهد خفرع على شهرة هرمه ومعبديه . وله جسم أسد رابض ورأس انسان ناهض كما هو معروف ، جمع الفنان بينهما في انسجام عجيب لا يكاد الرائي يشعر معه أنه أمام كائن مفتعل غريب . ونحت الفنان الرأس فيما يرجح على هيئة رأس الملك خفرع تزينه شارات الملك ، وهي عصا رأس مخططة عريضة تصنع من قماش مقوى لتغطي الرأس ومؤخرته ، وحية حارسة تنهض على جبين الملك ولحية مستعارة ترمز الى التحاء أوائل الملوك الأقدمين (وقد سقطت الحية واللحية من موضعيهما لتطرفهما) . وعبر الفنان في تكوين التمثال عز مثالية الملك الذي كان من المفروض أن يجمع فيها بين سمو التفكير البشري وبأس الأسود .

ينهض تمثال أبو الهول فوق قاعدة مرتفعة نحت معها في الصخر الطبيعي لهضبة الجيزة ، ولكنها كسيت بأحجار جيريا ملساء ، وبلغ ارتفاعه معها نحو اثنين وعشرين مترا . وقام في مواجهته معبد كبير ، لعله أعد لتقديم القرابين والدعوات باسم

التمثال نفسه على أساس أنه بعد أن كان يرمز الى خفرع أصبح
يعتبر حارسا لمدينة الموتى في منطقة الجيزة ويستحق التقديس تبعا
لذلك . ونسى بعض المصريين القدامى أصل تمثال أبو الهول ، أكثر
فأكثر ، واعتبره أهل الدولة الحديثة صورة من صور اله الشمس
وقدسوه على هذا الاعتبار ، وأقاموا النصب باسمه بين يديه وفي
معبده . واستوى في ذلك الملوك ورعاياهم . وأضاف أحد الباحثين
رأيا عن تمثال أبو الهول ، مؤداه أنه رمز منذ بدايته الى « ماعت »
وهي العدالة المستقرة أو النظام المستقر ، وذلك في مقابل دلالة
الهرم على النظام الهرمي الذي كان الفرعون يحتل أرفع مكانة فيه .

أما عن اسم أبو الهول فمن الآراء في تعليقه أنه عاش في منطقة
الجيزة بعض الكنعانيين خلال الدولة الحديثة فتعبدوا تمثاله باعتباره
صورة من معبودهم القومي « حورون » وأطلقوا اسمه عليه .
وربما أجاز المصريون ما أتى الكنعانيون به ، ثم حرف الاسم
الكنعاني الى حورنا وأخيرا الى « حول » . وقرب رأى آخر بين
اسم التمثال ولفظ ورد في النصوص المصرية المتأخرة بمعنى
الأسد . وانتهت أسماء التمثال الى اسمه الحالي أبو الهول ،
وهو اسم يعبر في اللغة العربية عن طابع الرهبة أو طابع الهول
الذي اكتسب التمثال به وظنه الناس فيه ، ولكنه لا يخلو في الوقت
نفسه من صلة تربطه بالاسم القديم « حورون » أو « حول » .

ثالثاً - النصف الثاني من عصر الأسرة الرابعة

عهد منكاورع :

أعقب خفرع على عرش مصر ولده منكاورع . وبدأت بعد سنوات قليلة من حكمه فترة جديدة في تاريخ أسرته ، اختلفت في امكاناتها وأحجام عمائرها وعلاقات حكامها بمحكوميها عن الفترة التي سبقتها والتي انتهت بحكم خفرع وامتدت الى سنوات قليلة من عهد منكاورع .

ويتضح مدى اختلاف الامكانات واختلاف الأوضاع بين الفترتين بمقارنة عمائر منكاورع وخلفائه بعمائر أسلافهم . فأهم الآثار الباقية من عهده هو هرمه ومعبد شعائره . ويبلغ الارتفاع الحالي لهرمه نحو ٦٢ متراً ولم يزد ارتفاعه الأصلي على ٦٦ متراً ، أي أقل من نصف ارتفاع هرم أبيه خفرع وأقل من نصف هرم جده خوفو ، وان امتاز في حالته الراهنة بأن ستة عشر مدماكاً من مداميكة السفلى كسيت بأحجار جرانيتية ضخمة . وللهرم معبدان وطريق صاعد شأنه شأن بقية أهرام الأسرة الرابعة : معبد شعائر كبير ضخيم معقد التركيب ، بدأ بناؤه بأحجار ضخمة هائلة وأنفق فيه جهد كبير ، ولكنه لم يتم في عهد صاحبه ، على الرغم من أنه حكم أكثر من واحد وعشرين عاماً ، وترك الى عهد ولده « شبسسكاف » حيث استكملت بعض أجزائه بقوالب اللبن دون

الحجر • وطريق صاعد كان شأنه شأن معبد الشعائر ، رصف رجال منكاورع جزءا من أرضيته بالحجر ثم أتمه رجال ولده شبسسكاف فبنوا بقية أرضيته وجدرانها من قوالب اللبن • ثم معبد الوادي ، ولم يكن منكاورع قد أنشأ منه شيئا ذا بال حتى وفاته ، فأمر شبسسكاف بتشبيده باللبن أيضا ما خلا أعمدته وأعتاب أبوابه التي كان لابد من أن تبنى بالحجر • وفي ذلك كله ما يباعده بين آثار منكاورع (وآثار خلفيه أيضا شبسسكاف وخنثكاوس) وفخامة آثار أسلافه سنفرو وخوفو وخفرع •

ومع ذلك لم تخل أيام منكاورع من ميزات فنية وأخرى سياسية واجتماعية تحتسب له ولرجاله •

فقد نحتت للملك عدة تماثيل رائعة ، مثله بعضها وحده ، ومثله بعضها مع زوجته ، ومثله ستة تماثيل صغيرة منها يقف مشدود القامة بين معبودين ، المعبودة حتحور على جانب ومعبود آخر يرمز الى اقليم من الأقاليم المصرية الكبيرة على جانب آخر • وكانت لحتحور منزلة خاصة في عهده ووصف بأنه حبيبها ، وظهرت في بعض تماثيلها الرائعة معه تحيط خصره بذراعها وتلمس ذراعه بكفها •

وتهياً لكبار الأفراد في عهد منكاورع من الثراء وحرية التصرف في مقابرهم أكثر مما تهياً لهم والأسلافهم في عهد أبيه وعهد جده ، فكثرت تماثيلهم في مقابرهم وزادت نقوشهم ومناظرهم على جدرانها، ونحتوا بعض هذه المقابر داخل الجدار الصخري لهضبة الجيزة ، ومارسوا شعائرهم فيها بحرية أوسع من الحرية التي سمح لهم بها أبوه وجده ••

وبدأ منكاورع سنة سياسية جديدة ، ففتح قصره لأبناء المقربين اليه من كبار موظفيه ، وعهد بتربيتهم الى كبار رجال

القصر مع أبنائه ، ليشبوا أوفياء له مخلصين لبلاطه • وكان منهم شاب يدعى شبسسبتاح • صور صلات منكاورع بكبار رجاله واهتمامه بكسب ولائهم عن طريق السماحة ، نص سجله رجل يدعى « دبحن » ، ويفهم منه أنه واجه موكب الملك وهو يتفقد أعمال البناء في هرمه ورجاه أن يأذن له بتشديد مقبرته قرب هرمه ، فقبل منكاورع رجاءه ، وأذن له بتشديد مصطبة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون ، وعهد إليه بخمسين عاملا ، وأذن باعفائهم من كافة الأعباء خلا أعباء بناء المصطبة وتمهيد الأرض حولها • وأمر بأن يشرف على تشييدها مهندسه الخاص واثنان من كبار الفنانين في قصره • وسمح له بأن يستورد من أحجار طرة ما يكفي لكسائها وبناء مقصورتها وصناعة بابين وهميين فيها ، ونحت تماثيل يمثله بحجم أكبر من حجمه الطبيعي ، فضلا عن نحت تماثيل لمساعديه • • وكانت أمثال هذه اللفات من منكاورع لكبار رجال رعيتيه وتساهله في الاذن لهم بإقامة التماثيل في مقابرهم وممارسة الشعائر فيها في حرية مطلقة أصلا فيما يبدو لما سمعه المؤرخ هيرودوت في العصور المتأخرة من أن المصريين أحبوا منكاورع أكثر مما أحبوا أباه وجداه •

وأشادت نصوص ما بعد منكاورع باسم ولده الملك شبسسكاف • وقد شيد قبره في جنوب سقارة ، ويسمى الآن باسم مصطبة فرعون ، ولم يبن على طراز الهرم الكامل ، وإنما على هيئة تابوت ضخيم مستطيل مائل الجوانب ترتفع جوانبه فوق مستوى سقفه • وأقيم فوق قاعدة منخفضة وكسى بأحجار بيضاء وأحيطت قاعدته بأزار من الجرانيت وأقيم له معبدان صغيران •

وواصل شبسسكاف سياسة أبيه في ضمان ولاء كبار قومه عن طريق رعاية أبنائهم في قصره • ويذكر له أنه زوج ابنته الكبرى

لابن أحد عظماء الصعيد ، وهو شبسبتاح الذى كان الملك
منكاورع قد رباه فى قصره وواصل رعايته . وكانت هذه هى المرة
الأولى التى قبل فيها ملك أن يزوج ابنته من أحد أفراد رعيته ،
ليس فى مصر وحدها وإنما فى العالم القديم كله .

وسلك شبسكاف سياسة مماثلة فى ضمان ود كبار كهنة
المعابد باعفائهم أو اعفاء معابدهم من بعض التكاليف المفروضة
عليهم ، وبدأ ذلك بمجموعة هرم أبيه منكاورع .

ولم يطل عهد شبسكاف أكثر من أربع سنوات ، ثم انتهت
وراثه العرش فى الأسرة الرابعة الى الأميرة خنتكاوس . وقد طال
نقاش الباحثين فى نسبها ، ويتجه بعض الرأى الى اعتبارها أختا
غير شقيقة لشبسكاف من أبيه منكاورع وزوجته مرس عنخ
الثالثة التى كانت من سلالة الملك جد فرع . وقد شيدت مقبرتها
بالجيزة قريبة الشبه بمقبرة أخيها ، على هيئة تابوت ضخم فوق
قاعدة صخرية طبيعية عالية ، وجوف معبد شعائرها فى صلبها بينما
ينى معبد الوادى التابع لها قريبا من معبد وادى هرم أبيها
منكاورع . . . ولقبت خنتكاوس فى نصوص مقبرتها بلقب تحمل
قراءته « ملكة الوجهين أم ملك الوجهين بنت الرب » . وقد يعنى
هذا أن انحصار وراثه العرش فيها سمح لها بأن تتلقب بلقب
الملكة ، ثم الملكة الوالدة فى عهد ولدها الذى سوف يؤسس الأسرة
الخامسة بعدها .

لاشك اذن فى أن ظروف وامكانات النصف الثانى من عصر
الأسرة الرابعة قد اختلفت عن مثيلاتها فى نصفه الأول اختلافا
كبيرا ، بالنسبة لآثار الملوك على أقل تقدير ، وان اتصفت سياسة
ملوك هذا النصف الثانى بظاهرة مستحبة وهى عملهم على تقريب
كبار موظفيهم وكهنتهم اليهم وضمان ولائهم .

ويمكن ايجاز الاختلاف بين ظروف كل من الفترتين في عدة عوامل وهى :

أولاً - أن الأسرة وان بدأت عصرها برخاء عظيم وجهد كبير في تنمية موارد البلاد عن طريق تنشيط الاستثمار الداخلى وتوسيع التجارة الخارجية ، فان الأهرام الضخمة ومعابدها وتمثيلها التى أسرف سنفرو وخوفو وخفرع في انشائها لأنفسهم ، وألحقوا بخدمتها الأعداد الغفيرة من الكهنة ، ووقفوا عليها الأوقاف الواسعة ، وزادوا عليها انشاء الأهرام الصغيرة لزوجاتهم والمقابر الضخمة لأبنائهم مع متطلباتها من النفقات الجارية ، قد استنفدت نصيبا كبيرا من امكانيات البلاد المادية ، واستنزفت جانبا كبيرا من موارد الخزائن الملكية ذاتها .

ثانيا - ما يحتمل من أن فترات التنافس الداخلى على العرش ، التى بدأت عقب وفاة خوفو ، وربما كذلك عقب وفاة منكاورع ، وعقب وفاة شبسسكاف ، قللت بعض الشئ من هيلمان الملوك المصريين ، وأشعرتهم بأهمية تأييد كبار رعاياهم وضرورة كسب ودهم ولو على حساب خزائهم أو خزائن حكومتهم .

ثالثا - أن ملوك الأسرة سايروا ديانة اله الشمس رع وشجعوها . ولم تكن ديانة الشمس في حد ذاتها جديدة في مصر ، وانما كان الجديد فيها هو اعتراف الدولة بها على نطاق واسع . بل ان اعتراف الدولة بها لم يكن في حد ذاته ذا خطر ، ولكن الخطر كان في أن يعقبه أمران ، وهما : أن ينصرف جانب من ولاء الرعايا الى عبادة الاله رع رب الشمس وهو المعبود الظاهر لكل الناس ، على حساب ولائهم للملوك وربهم الخفى حور ، وأن ينصرف جانب من الموارد المالية الى الديانة الجديدة ، ديانة الشمس ، على هيئة أوقاف وهبات واعفاءات لمعابدها ومرتببات لكهنتها الذين

أخذت أعدادهم تتزايد باستمرار على حساب موارد الدولة
وخزائنها ، وبمعنى آخر على حساب الموارد الملكية وخزائنها •

وكان أكثر المستفيدين من هذه الظروف هم كبار أنصار
ديانة الشمس بالذات الذين أخذوا يتطلعون الى مزيد من الدالة
على حكومتهم ، وعلى العرش صاحبه • وتهيأت لهم فرص هذه
الدالة وهذا التأثير منذ انتهت وراثه عرش الأسرة الرابعة
الى الأميرة خنتكاوس بعد وفاة أخيها ، فشجعوا أحد خاصة
المنصرين لهم على الزواج منها وهو « وسركاف » ، وكان فيما
يعتقد حفيدا للملك جد فرع ، وورث الامارة عن أمه نفر حوتبس ،
بنت جد فرع ، ولم يرثها عن أبيه الذي يحتمل أنه كان من أنصار
الشمس وكبار كهنتها • وعندما تزوجها نقلت اليه شرعية الحكم
التي ورثتها عن أبيها وأخيها ، واشتركت معه في تأسيس أسرة
حاكمة جديدة ، وهي الأسرة الخامسة •

رابعاً - عصر الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق م)

كان عصر الأسرة الخامسة عصراً زاهراً بالنسبة لديانة الشمس والتطور الطبقي ، وفنون العمارة والنحت والنقش ، والصلات الخارجية .

وضمنت هذه الأسرة في بدايتها بين ممثلي فرعي الأسرة الرابعة الكبيرين المتنافسين : فرع خفرع الذي مثلته خنتكاوس ، وفرع جد فرع الذي مثله وسركاف ، ولكن أوائل ملوكها لم يكتفوا بحق الملك عن طريق زواج أيهم بوريثة عرش الأسرة الرابعة . بل تعمدوا أن يردوا شرعية حكمهم إلى أصل مقدس وإرادة ربانية . ولهذا خرجت أبواق الدعاية لهم بأسطورة نسبتهم إلى روح الإله رع رب الشمس ، وإن أنجبهم رجل مبارك من نسل كهنته . وكان في ذلك ما يعنى رغبتهم في تأكيد قداسنتهم من ناحية ، ثم حرصهم على اكتساب سند ديني يزكيهم من ناحية أخرى . وبقيت لهذه الأسطورة نسخة كتبها أديب مصري من الدولة الوسطى على بردية عرفت اصطلاحاً باسم بردية وستكار ، وهو اسم من آلت إلى حوزته في العصر الحديث .

وتلقب وسركاف أول ملوك الأسرة بلقب يناسب وضعه كمؤسس لأسرة حاكمة جديدة ، وهو « ارماعت » ، أى واضح

النظام أو محق الحق . وتعاقب بعده ثمانية ملوك تداخل اسم
المعبود رع في الأسماء الشخصية لستة منهم ، هم : ساحورع ،
ونفر اركاع ، وشبسسكارع ، ونفر فرع ، ونى وسروع ، ومن
كاوهور ، وجد كارع ، وونيس . وظلوا أوفياء لرب الشمس
صاحب الفضل في ارتقاء أسرتهم للعرش . واهتم أغلبهم بمعبده في
المركز الرئيسي لعبادته في عين شمس وهي أونو القديمة . ثم أقاموا
ستة معابد على مثاله ، أقيم أولها في عهد وسركاف في منطقة أبو غراب
جنوب الجيزة وقرب هرمه ومعبيده في سقارة . وقد تهدم الهرم
ومعبده وان بقى من صور الطيور والزهور على جدران معبد
شعائره ما يدل على يد فنية متشعبة واحساس مرهف بجمال
الطبيعة وكائناتها ، كما بقى رأس تمثال ضخيم من الجرانيت
للملك نفسه ، بلغ حد الروعة في نحته وجلاله .

وأقيمت بقية أهرام ملوك الأسرة ومعابدها في منطقة
أبو صير وفي منطقة سقارة .

ويعتبر معبد الشمس من عهد الملك « نى وسروع » سادس
ملوك الأسرة ، أكثر معابد الشمس بقاء حتى الآن . وهو معبد ضخم
شيد من الحجر في أبو صير ، وتكون من ثلاث وحدات متميزة ،
وهي مبنى ضخم على حافة الهضبة ويعتبر مدخلا الى منطقة
المعبد ، ويليه طريق صاعد مكشوف الأشعة الشمس ، ثم معبد
الشمس الرئيسي وهو ضخم ولكنه بسيط التكوين تألف من فناء
متسع مرصوف يتضمن رموز معبوده . . وأهمها (بقايا) مسلة
حجرية ضخمة كان ارتفاعها بقاعدتها فيما يحتمل نحو ٣٦ مترا ،
وكانت قممها هرمية الشكل مكسوة بصفائح النحاس أو مموهة
بالذهب ليتألق نورها ويتوهج حين تنعكس عليها أشعة ربه .
ويرى بعض الباحثين أن هذه القمة كانت ترمز الى ما رمزت اليه

قمم الأهرام من حيث اعتبارها رمزا للنظام العالى الذى يحتل الرب أو الملك قمته وأعلى مكان فيه .

وكان يتقدم المسلة فى ناحيتها الشرقية مائدة قرابين مرمرية كبيرة . وجاورت الجانب الجنوبى للمعبد مركب شمسية يبلغ طولها نحو ثلاثين مترا ، ويحتمل أنها كانت تقابلها مركب أخرى بحيث ترمز احدهما لمركب النهار (معنجة) التى يعبر بها رب الشمس سماء الدنيا ، وترمز الثانية الى مركب الليل (مسكنة) التى يعبر بها سماء العالم السفلى .

ومن أهم خصائص معابد الشمس أنها لم تتضمن فى أغلب عصورها القديمة تماثيل لربها أو محاريب مغلقة يعبد فيها . واكتفت بتوجيه الدعوات الى كوكبه فى سمائه ، وتقديم القرابين اليه الى الشرق من مسانته . وصورت آلاء رب الشمس على بعض قاعات المعبد الداخلية بمناظر منقوشة ملونة زاهية لأعمال الزراعة والصناعات الزراعية وحياة الطيور والحيوانات الصغيرة ، فضلا عن بعض أنشطة الملوك الدينية والسياسية .

واختلفت أهرام ملوك الأسرة الخامسة عن أهرام ملوك الأسرة الرابعة بقللة ضخامتها الظاهرية وقللة احتمالها ، وان عوضها عن ذلك وضوح عنصر الزخرفة فى المعابد الملحقة بها ، بحيث قدر بعض الباحثين مساحة الجدران المنقوشة فى مجموعة هرم الملك ساحورع بنحو عشرة آلاف متر مربع لم يتبق منها للأسف حتى الآن غير مائة وخمسين مترا مربعا . وهى مناظر صورت انتصارات الملك وأهم أعياده وصلاته بمعبوداته ، وبعض أنشطة الملاحة والتجارة والعلاقات الخارجية فى أيامه .

وتميز آخر أهرام ملوك الأسرة زمنا وهو هرم ونيس (وليس أوناس) فى سقارة بأن حفلت جدران حجرة الدفن فيه والقاعة

المؤدية اليها بنصوص دينية وأسطورية عرفت اصطلاحاً باسم
« متون الأهرام » .

وهي من الناحية الفنية قد سجلت بالنصوص الهيروغليفية
التصويرية ، وخرجت معجزة في اتقان نقشها ورقة أشكالها ودقة
تفاصيلها . ولوننت بألوان مختلفة ما زالت تحتفظ بجانب كبير من
رونقها ، مما يشهد ببراعة تركيبها الكيميائي والزخرفي على الرغم
من مرور نحو أربعة وأربعين قرناً عليها . . وزخرف سقف حجرة
دفن الملك بأشكال النجوم ليكون كالسمااء التي تحتويه .

وكانت متون الأهرام من حيث المضمون حصيلة لعقائد وأفكار
ودعوات شتى نشأت في عصور متعددة ، وبقيت متفرقة حتى
سجلت في عهد ونيس في باطن هرمه تأكيداً لاستفادته الأخروية منها
وتعويضاً لفخامة هرمه عن صغر حجمه . وتضمنت صيغاً كثيرة
تتلى حين تقديم القرابين والدعاء للملك ، وأخيلة كثيرة تصور
بعثه وخلوده واتساع نفوذه في الحياة الأولى والحياة الثانية . .
كما عدت الصفات القدسية المنسوبة اليه ، وأسماء المعبودات التي
تظله برعايتها . وتضمنت بعض تصورات كبار المفكرين والكهان
عن الخلق الأول ونشأة الوجود ، وبعض القصص المقدسة عن
علاقات كبار المعبودات بعضهم ببعض ، وعدداً من القصص الرمزية
للأحداث القومية القديمة .

التطور السياسي والاجتماعي :

قطعت الأوضاع السياسية والاجتماعية خطى واسعة من
التطور خلال عصر الأسرة الخامسة . وزاد ملوكها من الانعامات
المادية والأدبية لكبار كهنة الشمس ومعابدها حتى يضمنوا ولائهم
واستمرارهم على التسبيح بفضلهم والدعاية لهم . وأعفوا بعض

المعابد الأخرى من جزء من التكاليف المفروضة عليها . وزادوا
الإنعامات المادية والأدبية كذلك لكبار الموظفين ، وسمحوا لعظمائهم
أن يبلغوا منصب الوزارة ، أكبر مناصب الدولة بعد الملك ، بعد
أن كان مقصورا منذ انشائه في عهد سنفرو على كبار الأمراء وحدهم .
وتصاهروا معهم وزوجوا بعضهم بأميرات من أسرتهن الحاكمة ،
ومضوا على تربية أبنائهم في قصورهم ، وسمحوا لعدد منهم أن
يرثوا مناصب آبائهم ما داموا أهلا لها ، وما دامت تتوافر لديهم
الكفاية لشغلها . وظهر من ملوك الأسرة ملوك متعلمون ، كانوا
يتفقدون دور الكتب ودور المحفوظات بأنفسهم ، ويراسلون وزراءهم
بعبارات المودة ويردون على رسائلهم اليهم بخطهم .

وكان من هؤلاء الملوك من لم يأب أن يرضى كبار رجاله عما
أصابهم منه أو من جرائه عن قصد ، أو غير قصد . وحكى رجلان من
عهد نمراركارع ثالث ملوك الأسرة شيئا من ذلك . فقص « رع ور »
أحد من عملوا في خدمة القصر وفي سلك الكهنوت أن ملكه وكز
ساقه بمنسأته (عن غير قصد) خلال حفل كبير ، ثم طمأنه على
سلامة العقبى وسمح له بأن ينقش ذلك في مقبرته . وقص آخر أن
أباه الوزير وامشبتاح دهمته اغمأة الموت فجأة وهو يرافق الملك
نفسه في حفل افتتاح إحدى المنشآت الملكية ، وأن الملك حاول
اسعافه واستعان في ذلك بمخطوطاته الطبية الخاصة أو عقاقيه
الخاصة ، ولكنه فشل وعاد الى مقصورته ودعا الأرباب من
أجله ، أي ترحم عليه ، وسمح لولده بأن يسجل ذلك كله نقشا في
مقبرته ، مع ما فيه من دلالة على عطفه وانسانيته وعلمه بالطب
والدين .

واتسعت تنظيمات الإدارة خلال عصر الأسرة الخامسة وترأس
الوزير جهاز الحكومة المركزية بعد الملك . وما لبث الوزراء حتى

أصبحوا في نظر جمهرة الناس شيئاً كبيراً بعد أن لجأ الملوك إذا اتساع شئون دولتهم أو ازاء التطور الطبقي في دولتهم ، الى أن ينقلوا بعض سلطاتهم الفعلية الى وزراءهم ، وترتب على ذلك أن انتقل اليهم أيضاً نصيب من مهامهم . وعندما اكتملت للوزير اختصاصاته أصبحت تعرض عليه أمور الدولة المهمة ، ثم يتولى هو عرضها على الملك . وأصبح يعتبر محافظاً للعاصمة ورئيساً للبلاط وللدیوان الملكي ، ويتولى الاشراف الأعلى على الخزائن وشؤون الغلال والمنشآت العامة والأشغال المعمارية الكبيرة ، لا سيما الملكية منها . ويتولى الاشراف على دور القضاء ودور المحفوظات ودور السلاح . وكان يتلقب منذ عصر الأسرة الرابعة بلقب كبير خمسة دار تحوتى ، ربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم الى المعبود تحوتى رب العدالة والكتابة والحساب . ثم تلقب في عصر الأسرة الخامسة بلقب « حم ماعت » بمعنى خادم العدالة أو كاهن ربته ماعت ، ولقب رئيس الدواوين الست الكبيرة التي مثلت دور القضاء العليا في العواصم المصرية الكبيرة أو مجالس القضاء العليا في الدولة . وسرى شيء من ارتفاع شأن الوزارة الى بعض الوظائف المندرجة تحتها . وترتب على ذلك ما أسلفناه من أنه توافر لأهل الطبقة العليا وكبار أهل الطبقة الوسطى في عصر الأسرة الخامسة من الامكانيات المادية والقيم الاعتبارية أكثر مما توافر لأسلافهم . ومن أمتع ما يستشهد به من مقابرهم في سقارة من حيث أسلوبها المعماري وأسلوبها الفني ، ومن حيث تنوع مناظرها التي تصور الحياة اليومية داخل البيوت وخارجها ، مقبرة « تى » أحد رؤساء دواوين الكتاب في عصره . وأخرى للوزير « بتاح حوتب » الذي عاصر الملك أسسى . توافرت لهذا الوزير « بتاح حوتب » شهرة واسعة وخلد اسمه في عالم الأدب المصرى

القديم قرونا طويلة نتيجة لما ألفه من تعاليم راقية في آداب
المعاملة والسلوك التي نصح ولده بها لينظم علاقته بقرارة نفسه
وأسرته وعمله ومجتمعه ، وليجعله على تقى من ربه . وقد دعاه
فيما دعاه الى أن يراعى التوسط في اختيار مناسبات صمته
ومناسبات كلامه ، وفي معاملته لنفسه ومطالب بدنه ، وفي تعامله مع
رئيسه ومرءوسه .

واستمرت الجهود الاقتصادية والعسكرية لاستغلال مناطق
الحدود الصحراوية وتأمين مناجمها ومحاجرها ومتاجرها من شغب
البدو . ووصلت المتاجر المصرية جنوبا حتى منطقة بوهن النوبية
وصحبها نوع من الاشراف السياسى . وقام نشاط خاص ازاء بعض
عصاة قبائل الصحراء الغربية الذين صور بعضهم وزوجاتهم
وأولادهم على أحد جدران معبد الملك ساحورع في هيئة الخاشعين
له هم وآلاف الأنعام التي قد تدل على أن واحاتهم ومناطقهم الساحلية
كانت لا تزال وفيرة العشب والمرعى .

وذكرت مصادر الملك نفسه تبادل الاتصالات عن طريق البحر
الأحمر مع بلاد بويتة (أوبونت) قرب الصومال واريتريا ،
لاستيراد منتجاتها من البخور والصمغ لطقوس المعابد والتحنيط ،
والمعادن شبه الكريمة والأخشاب الثمينة ، وجلود الفهود
وما إليها . واتسعت الاتصالات التجارية المصرية أيضا مع فلسطين
ومع فينيقيا برا وبحرا . ويحتمل زواج الملك ساحورع من أميرة
فينيقية أو سورية أتت بها إحدى سفنه ، تدعيما لأواصر الود
مع بلدها .

خامسا - عصر الأسرة السادسة

(٢٤٢٠ - ٢٢٣٠ ق م)

بدأت الأسرة السادسة بعهد الملك تتي الذي شيد هرمه في سقارة ، وقامت مقابر حاشيته حوله . واحتفظت بردية طبية مصرية بتفاصيل عقاقير لتقوية بصيالات الشعر صنعت أحدها أمه شيشي (أو صنع من أجلها) ، وألف بقيتها كبير أطبائه خوى . ودل على التخصص في العلاج الطبي حينذاك أن ظهر من أطباء العصر من اشتهر بطب العيون . وكان لأطباء القصر الملكي رئيس بما يدل على تعددهم .

وشهدت مصر بعد عهد تتي تطورات متصلة في حياتها السياسية والاجتماعية ، وفي علاقاتها بفلسطين والنوبة وما وراءهما .

ففي سياسة الحكم زاد التقارب بين القصور الملكية وكبار الشخصيات . وزادت المصاهرات بينهما ، كما زادت مراسم الاعفاء التي كان الملوك يحررون المعابد بها أحيانا من بعض التكاليف المفروضة عليها ، ويكتسبون ولاء الكهنة وحسن السمعة عن طريقها ، وان خسروا بها جانبا غير قليل من موارد خزائنها .

وتضخمت مكانة كبار الموظفين في هذا العصر خلال توليهم منصب الوزارة ومناصب حكم الأقاليم الكبيرة ، ومنصب والي

الصعيدي • واختلف نفوذهم تبعاً لشخصياتهم وشخصيات الملوك الذين عاصروهم ، فاستمر أغلبهم يرد وجود نشاطه الى أمر الفرعون وتوجيهه وفضله ، بينما حرص عدد آخر قليل على أن يؤكدوا مجهوداتهم الشخصية ومآثرهم الفردية في رعاية الأمن والانتاج بأقاليمهم ، وقيامهم بالعدل بين أهلها ، وان أوفوا التقاليد الشكلية حقها ، فسجلوا الى جانب مآثرهم الشخصية طاعتهم لملكهم وحرصهم على التقرب منه وارضائه • ومن خيرة هؤلاء الحكام حاكم يدعى « هنقو » ، ترأس منطقة في اقليم أسيوط تدعى جوفه ، وافتخر في نقوش مقبرته بأنه أغدق الطعام والشراب والكساء على فقراء اقليمه • وبلغ من كرمه أنه أشبع ذئاب الصحارى وعقبان السماء بلحوم الماعز التي كان يضحى بها • وافتخر برعايته لاقتصاديات بلده وأنه شجع هجرة أهل الأقاليم الأخرى اليه لتعمير القرى المهجورة فيه ، ثم جعل مزارعيه ملاكا ، كما زاد أعداد الماشية على شواطئه وأعداد الماعز على مراعيه (بما قد ينحو منحى الاصلاح الزراعي وتنمية الثروة الحيوانية على نطاق ضيق) • وبلغ من طيب سمعة بعض حكام الأقاليم الأخرى حينذاك أن رفعهم رعاياهم الى مصاف الأولياء وقدسوهم •

ورضى الملوك بنشاط أصحاب الشخصيات القوية من حكام الأقاليم ولكنهم تخوفوا أن يؤدي هذا النشاط الى انفلات السلطان من أيديهم ، أو يؤدي الى تهاون أولئك الحكام في أداء التبعات والضرائب المفروضة عليهم •• أو يشجع البعض منهم على الاستقلال بحكم أقاليمهم فعملوا على مواجهة هذه التوقعات عن طريق التوسع في استخدام وسيلتين قديمتين وهما :

التوسع في تربية أبناء كبار الحكام في قصورهم أملا في أن يشبوا أوفياء ، ويخلصوا لطاعتهم اذا تولوا حكم أقاليمهم ،

ثم إعادة منصب والى الصعيد الذى استحدثته الأسرة الخامسة وعهد الى واليه برقابة ضرائب الصعيد وشئون حكامه باسم الملك . وكان قد ألغى فى عهد تنى أول ملوك الأسرة السادسة ثم أعيد فى عهد مر نرع رابع ملوكها .

وصور بعض مشاكل القصر الملكى حينذاك مواطن كفاء يدعى « ونى » ، بدأ حياته الوظيفية فى عهد تنى وارتقى الى عمل المحقق وساعد الوزير فى بعض القضايا الخاصة ، وفى دور القضاء الستة الكبيرة فى عهد الملك بى الأول . ثم كلفه هذا الملك بالتحقيق مع زوجته الملكة امتس فى أمر نسب اليها والى وزيره ، وقد يكون خيانة زوجية أو تأمرا على احدى ضرائرها أو ولدها ، أو تأمرا على الفرعون نفسه . . . وقام « ونى » بمهمته الصعبة منفردا ورفع تقريره عنها الى الملك . . . ولم يعرف نص هذا التقرير ولا قرار الملك فيه ، ولكن قد ينم عن فحواه أن الملك تزوج بعدها بابنة أحد عظماء جرجا فى عهده وأنجب منها ولده « مر نرع » ، ثم تزوج أختها (بعد وفاتها) وأنجب منها ولده الآخر بى (الثانى) . وكانت هى المرة الأولى التى تزوج ملك فيها واحدة من غير الأميرات ثم اعترف بولدها وليا شرعيا لعهده .

وكان ونى من الشخصيات ذات الثقافة المتنوعة ، وجمع الى كفاءته الوظيفية والقضائية كفاءة أخرى عسكرية . وكانت قد اندفعت الى جنوب فلسطين والحدود المصرية الشمالية الشرقية هجرات بدوية متقطعة ذكرها المصريون باسم « عامو حر يوشع » بمعنى القبليين بدو الرمال ، وكانت فرعا من الهجرات الأمورية التى تسربت الى أطراف الهلال الخصيب فى مصر والشام والعراق وهددت سبل التجارة بينها منذ أواسط الألف الثالثة ق م .

وعهد الملك ببي الى وني بدوء شرها عن مصر ، فخرج في خمس حملات ، أربع عن طريق البر وخامسة عن طريق البر والبحر . وذكر في تقاريره عنها أنها تكلمت بالنجاح على حد قوله . وورد من نصوصه عنها ما يكشف عن سياسة الحرب وتجهيش الجيوش في أيامه . . فذكر أن ملكه أمر بأن يجند تحت امرته عشرات الآلاف من حاميات المدن وأهل الأقاليم ، فضلا عن بعض قبائل النوبة والصحراء الغربية المواليين لمصر . . وأوفد معه طائفة من المترجمين والموظفين والكهنة .

وعقب وني بأنه ترتب على حكمته في قيادته ورسم خطته أنه لم يحدث أن تنازع جندي مع زميله أو اغتصب كسرة خبز من عابر سبيل أو اغتصب نعله . . ولم يحدث أن نهب أحد جنوده خرقة من قرية ، أو سلب عنزة من عشيرة ، حتى جاوز الجيش مناطق الحدود الشمالية الشرقية . ولما تكلمت مساعيه بالنصر على الأعداء ، رفع الى ملكه تقرير الحرب ، وعقب عليه بسبعة أبيات من الشعر أكد خلالها سلامة جيشه سبع مرات بمثل قوله :

عاد الجيش سالما بعد أن دمر أرض أهل الرمال . . ، عاد سالما بعد أن أسقط حصونهم ، عاد سالما بعد أن خرب مزارع التين واقتلع الكروم .

لم يبرأ تقرير وني من المبالغة في تصوير كثافة جيوشه وحين ادعى أن جنوده لم يحموا عن جادة الصواب ، في أي كبيرة أو صغيرة ، غير أن روايته على الرغم من مبالغتها ، لا تخلو مما ينم عن أن حكام عصره تعودوا على أن يجندوا قطاعا واسعا من امكانات البلاد لأغراض الدفاع والهجوم كلما آن أوانها ، دون الالتزام بالجيش الدائم ، وأنهم اطمأنوا الى اخلاص بعض النوبيين وبعضه

بدو الواحات المسلمين ، واستعانوا بهم في جيوشهم كفرق مساعدة .
وأن الكهان كان لهم دور في الجيش يستثيرون به حماسة الجنود
ويذكرونهم بآلاء الأرباب والدين والملوك . وأن التراجمة كانوا
يعاونون القادة على التفاهم مع أهل المناطق المفتوحة . ونم وصف
ونى لمسلك جنوده الحميد داخل مناطق الحدود المصرية عن مسئوليات
القادة في العمل على تغليب روح الطاعة في الجيش وتقليل دواعي
الشقاق بين الجنود ، وتغليب روح التراحم بينهم وبين مواطنيهم
المدنيين ، والعمل على تزويد الجيش بمثونة مناسبة تصرف رجاله
عن محاولات النهب والعدوان ، كما نم وصفه لمنطقة حروبه ،
وذكره مزارع التين والكروم فيها عن أنه توغل بجيشه الى جنوب
فلسطين . ويبدو أن سلامة الجيش التي ردها في نهاية تقريره
المنظوم لم تكن من مستلزمات النظم وحده ، وانما يحتمل أنها
تضمنت خبرا مرويا عما حدث فعلا ، أو هي على الأقل عبرت عن
أمل كان المقيمون يرجونه لجيشهم فعلا .

رحلات الكشف في الجنوب :-

عبرت نصوص الدولة القديمة عن أهل النوبة باسم عام
وهو « نحسيو » . كما عبرت عن أكبر مناطقهم باسم واوات ، مع
أسماء محلية أخرى مثل أيام وارثة وكاو . الخ . واهتمت
مصر بالنوبة بناء على اعتبار أجزائها السفلى متممة لحدود أسوان ،
وللرغبة في استغلال محاجر الديوريت بها ومناجم الذهب في
صحرائها الشرقية ، ثم الرغبة في فتح أسواق للتجارة في مناطقها
المسكونة ، واتخاذها سبيلا للاتصال بما وراءها من أراضي السودان،
مع الاهتمام بتأمين طرق التجارة من شغب قبائلها التي
كثيرا ما كان الفقر يدعوها الى تهديدها . وكانت قوافل
التجارة تصدر اليها ما يروج فيها من المنسوجات والزيت

والصناعات والفنون الصغرى والقاشانى ، وتستورد منها وسن
طريقها الماشية والعاج والأبنوس وريش النعام وجلود الضباع
والفهود .

وقام بأعمال الكشف والأمن وترويج التجارة فى الجنوب خلال
عصر الأسرة السادسة عدد من كبار شخصيات أسوان لمعرفتهم
باللهجات النوبية والسودانية وقربهم من أهلها .

وكان أشهرهم حرخوف ، ومخو ، وسابنى ، وببى نخت . . .
وقام حرخوف بأربع رحلات الى الجنوب فى عهدى الملكين مررع
وببى الثانى ، وبلغ فى أولها منطقة ايام قرب الشلال الثانى ،
وقضى فيها سبعة شهور . وذكر فى نصه عنها أنه أراد أن
« يكتشف بها طريقا الى تلك الفيافي » ، وذلك مما ينم عن وضوح
رغبة الكشف عنده ، وهو وان كان كشفا تجاريا واداريا قبل كل
شئ ، فان ذلك لا يعيبه كثيرا اذا قدرنا أن الاكتشافات الأوروبية
نفسها ظلت حتى العصر الحديث تستهدف التجارة والاستغلال بل
الاستعمار أيضا ، الى جانب الكشف العلمى . وبدأ حرخوف
برحلته الثانية من أبيدوس ، وسلك فيها طريق العاج حتى بلغ
دنقلة الأوردى قرب الشلال الثالث ، وقضى فيها ثمانية شهور
قطع فيها مع قافلته نحو ١٧٢٥ كيلو مترا باستخدام الحمير . . . وبدأ
رحلته الثالثة من أبيدوس أيضا ، ولكنه سلك فيها طريق الواحة ،
ولعله هو طريق درب الأربعين الحالى الواصل بين الواحة الخارجة
ودارفور . وروى أنه صادف خلالها نزاعا بين قبائل ايام
وقبائل الشمحو فأصلح بينهما لاطهار مسعاه الحميد ، ولتأمين طريق
التجارة . وأتم رحلته الأخيرة فى عهد الملك ببى الثانى الذى ولى
العرش طفلا . وعاد حرخوف مع خيراتها وبضائعها بقزم كتب بخبره
الى البلاط الملكى ، فاهتم الملك الصغير بخبره أكثر مما اهتم بنتائج

الرحلة ذاتها • وأمر بأن تكتب الى حرنخوف رسالة يوصيه فيها
بسرعة العودة بالقزم والحرص على سلامته وتأكيد حراسته وما الى
ذلك من تعبيرات طفولية ساذجة دلت على احدى سوات النظام
الوراثى المطلق الذى لا يابى أن يضع مقاليد دولة كبيرة فى يد طفل
صغير •

وأكمل والى أسوان ببى نخت مجهودات حرنخوف فى أعمال
الكشف وتأمين سبل التجارة فى الأقطار الجنوبية وان كان قد لجأ
الى الشدة فى مقاومة عوامل الشغب فيها •



شيدت أغلب أهرام ملوك عصر الأسرة السادسة فى سقارة •
وماثلت أهرام الأسرة الخامسة فى صغر أحجامها واحتوائها على
بصوص الأهرام التى ما لبثت حتى سجلت أيضا فى أهرام بعض
الملكات الكبريات بناء على ازدياد مكانتهن •

ولم يتبق من تماثيل ملوك الأسرة غير القليل • • ومن أروعها
بمتحف القاهرة تمثال مزدوج من النحاس المطروق للملك ببى
الأول يعتمد على عصاه ، ويجاوره ولى عهده منرع عاريا فى سن
الطفولة •

وانعكس ثراء كبار الشخصيات على آثارهم ، وفاقت مقابرهم
مقابر أمثالهم السابقين من حيث السعة والفضامة وتعدد النقوش
وموضوعات المناظر • وتفرقت هذه المقابر بين جبانة العاصمة فى
سقارة وما حولها ، وجبانات حواضر الأقاليم الرئيسية • ومن
أهم ما يستشهد به منها مقبرة مروكا ومقبرة كايجمنى • وتضمنت

اولاهما ٣٣ حجرة امتلأت أغلب جدرانها بمناظر منقوشة ملونة
استحبت طابع الامتلاء وعبرت عن روح الاستمتاع والتخفف قليلا
من قيود التقاليد في عصرها .



واستمرت اتصالات مصر التجارية القديمة ببلاد بويينة ،
وفلسطين وسواحل فينيقيا ، وربما ببلاد العراق وجزر بحر ايجه
ايضا . وبلغ من سعة نشاطها أن سجل ملاح مصري يدعى خنوم
حوتب أنه تردد بسفينته مع رئيسيه ثتى وخوى على ميناء حبيل
من ناحية ، وعلى ساحل بويينة من ناحية أخرى ، احدى عشرة مرة ،
واستمتع كثيرا بما شاهده هنا وهناك .



الباب الثاني

العصر المتوسط الأول (الأقر ٧ - ١٠)

٢٢٠٠ ق م - ٢٠٤٠ ق م (تقريبا)

للدكتور محمد جمال الدين مختار

تمهيد

انهيار النظام الملكي المركزي بمصر وانتشرت الفوضى الاقطاعية بالبلاد خلال حكم الملك « بيبي الثاني » الذي استمر قرابة التسعين عاما ثم في عهد آخر ملكين من ملوك الاسرة السادسة اتصف حكمها القصير بالتدهور والضعف ، مما أتاح لحكام الأقاليم ، وخاصة في مصر العليا فرصة الاستقلال اداريا في أقاليمهم والانفصال تدريجا عن السلطة الملكية . وقد أدى ذلك الى انهيار الأسرة السادسة وانتهاء ذلك الحقب من الزمن الذي نطلق عليه حاليا اسم « عصر الدولة القديمة » . ومن ثم فقد بدأ في مصر عصر جديد يعد من أسوأ عصور التاريخ الفرعوني نسميه الآن العصر المتوسط الأول (١) وهو عصر ضعفت فيه وحدة البلاد وانفلت زمام الحكم من الملك ، وشبت نيران الحرب الأهلية ، وساد الاضطراب واستشري الانحلال والتفكك الاجتماعي .

ويمكن تقسيم هذا العصر الى فترتين متتابعتين ، ميز بينهما مانتيون في تاريخه . ومن ثم يمكن تحديده الفترة الأولى بالأسرتين السابعة والثامنة اللتين اتخذتا من منف مقر الحكم بينما تضم الفترة الثانية الأسرتين التاسعة والعاشر ، اللتين حكمتا من اهناسية المدينة في مصر الوسطى .

أولا - عصر الأسرتين السابعة والثامنة المنفيين (٢٢٠٠ -
٢١٦٠ ق م) (٢) :

يعتبر عصر هاتين الأسرتين من أشد عصور مصر القديمة
اظلاما ومن أكثرها غموضا وأسوأها حالا ، فقد ساد خلال تلك
الأيام الفقر والبؤس وتتابعت المحن والكوارث واختل الأمن فنهبت
الأهرامات وسرقت القبور وحطمت المباني الدينية وشوهت الأماكن
التراثية . وقد أنقسمت البلاد الى أقاليم إقطاعية يخضع كل
منها لسلطة حاكم طامع في توسيع مدى ما يحكم على حساب الآخرين ،
لقد أصبح من العسير علينا التفريق بين الملك وأى حاكم من
حكام الأقاليم ، كما أتاحت هذه الأحوال الفرص لاغارة بدو الصحراء
الشرقية وسيناء على الدلتا ، حيث عاثوا فيها فسادا وتخريبا .
بل ان البعض لا يستبعد اتخاذ الهكسوس لهذا الغزو ، فيما بعد ،
مثلا وسييلا (٣) .

وقد أشار مانتيون الى هذه الفوضى حين ذكر أن سبعين ملكا
قد حكموا أيام الأسرة السابعة في مدى سبعين يوما . ورغم ما في
هذا القول من مبالغة واضحة غير قابلة للتصديق فان الدليل قوى
على مدى ما ساد البلاد حينذاك من اضطراب وتفكك ، وما أحاط
بتلك الأسرة من غموض وإبهام . والواقع انه ليس لدينا من
المصادر الأثرية والوثائق التاريخية ما يمكن الاعتماد عليه في دراسة
هذه الأسرة ، مما دفع بعض المؤرخين الى انكار قيامها .

كذلك أشار مانتيون الى تتابع ثمانية عشر ملكا حكموا
أيام الأسرة الثامنة لمدة ١٤٦ عاما ، دون أن يذكر أسماءهم ، كما
ذكر أن الأسرتين السابعة والثامنة قد حكمتا من العاصمة القديمة
منف . وقد أوردت بردية تورين أسماء سبعة ملوك بعد عهد الملكة
« نيوتوكريس » آخر ملوك الأسرة السادسة ، كما ورد بقائمة

أبيدوس أسماء سبعة عشر ملكا تتشابه معظم أسمائهم مع أسماء ملوك الأسرة السادسة . أما قائمة سقارة فقد تجاهلت الملوك الذين حكموا بعد بيبي الثانى حتى بدء أيام الأسرة الحادية عشرة . وعلى كل حال يبدو أن الضرورة قد اقتضت وجود نظام حكم فى العاصمة منف يخلف النظام الملكى المركزى الذى ضعف فى أواخر أيام الأسرة السادسة ، ويمثل فترة انتقالية ما بين الحكم الشمولى لمصر الموحدة والحكم الاقطاعى لمصر الممزقة المنقسمة على نفسها . ولعل ذلك كان نوعا من المحاولة لايجاد قدر من التوازن بين سلطات الملك المتداعية وسلطات حكام الأقاليم وطموحاتهم المتزايدة (٤) .

كما يبدو أن حكام قفط قد نجحوا خلال تلك الفترة فى تكوين أسرة مستقلة فى اقليمهم بالاضافة الى بعض الأقاليم من حوله ، اطلق عليها بعض المؤرخين اسم الأسرة الثامنة القفطية ، التى حكمت مدة قصيرة تراوحت وفقا لتقديراتهم المتباينة ما بين عشرة وأربعين عاما . ومن أهم ما خلفه هؤلاء الحكام تلك المراسيم التى سجلت على لوحات جدارية بمعبد الاله معين بالمدينة ، وتناولت شئوننا ادارية ومالية ودينية محلية مثل تحديد أوقاف معبد أو تحذير من العبث بالمخلفات الدينية . وبالرغم من أن مراسيم قفط توضح ما كان عليه هؤلاء الحكام من سلطات محدودة وقدرات ضعيفة ، فإنها تمثل نوعا من استمرارية نظام شبه ملكى ضيق النطاق .

المظاهر العامة لتلك الفترة :

لعل أهم مظهر تميزت به تلك الفترة هو ضعف الملكية ضعفا مهد لانهارها وأدى الى ضالة مقدار الضرائب التى كانت تصل الى الخزائنة الملكية ، ومن ثم توقفت البعثات الى مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية وسيناء وعجزت الحكومة عن اقامة المنشآت

الدينية والجنائزية • ومن ناحية أخرى فقد نهبت المقابر واعتدى على المعابد نتيجة لاختلال الأمن كما انقطعت العلاقات مع جيران مصر • وقد قويت شوكة حكام الأقاليم في نفس الوقت فاستقلوا بأقاليمهم التي حاولوا النهوض بها بقدر طاقتهم • ولكن رغم ما كان لهؤلاء الحكام من قوة نسبية وما تمتعوا به من سلطات واسعة فإنهم لم يتمكنوا من الإبقاء على المستوى الفني والعماري الذي بلغته الصناعات والفنون والعمائر أيام الدولة القديمة ؛ بل على العكس فقد انخفضت القدرات الفنية والانتاجية في كافة الأقاليم وانحدرت انحدارا ملموسا (٥) •

وقد اختفت ظاهرة بناء الأهرامات الملكية في تلك الفترة ، عدا هرمًا متواضعا بسقارة لملك يدعى « ايبى » من الأسرة الثامنة ، حكم مدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات (٦) • وقد زينت بعض جدران ذلك الهرم بنصوص الأهرام فيما يبدو كمحاولة للحفاظ على بعض التقاليد الموروثة التي اندثر الكثير منها في ذلك العصر المضطرب • والواقع أن تشييد المقابر الملكية في مصر القديمة كان الى حد كبير بمثابة مقياس لقوة الدولة وسلطة الملك ، فعندما تكون ضخمة أو متميزة فإنها تدل على قدرات وأهمية صاحبها ، أما اذا صغرّت أو تضاءلت قيمتها المعمارية والفنية فإنها تشير الى تضاؤل شأن صاحبها وتقلص قدراته •

ومن أسوأ أحداث تلك الفترة تلك الاغارات التي قام بها البدو الآسيويون على شرق الدلتا بوجه خاص ، والتي عجز الملك وحكام الأقاليم عن صدها أو الحد منها • ومن الواضح أن هؤلاء البدو لم يحاولوا غزو مصر عسكريا أو احتلالها ، بل هدفوا الى التسلل والتسرب عبر حدود مصر الشرقية بغية النهب والسلب ، ثم السعي الى الاستقرار في ربوع الدلتا • وليس هناك من شك

في أن سوء الأحوال السائدة في مصر وانقسامها وضعف قدراتها الدفاعية قد شجع هؤلاء البدو على الاغارة بعد أن تعرض الكثيرون منهم الى ضغط شعوب آسيوية أخرى عليهم في فلسطين وما جاورها .

كذلك بدأت مصر تفقد سيطرتها على حدودها الجنوبية فقامت في هذه الفترة حضارة جديدة في بلاد النوبة مستقلة عن حضارة مصر ومختلفة عن حضارات النوبة السابقة لها الى حد كبير . وتعرف هذه الحضارة باسم حضارة المجموعة « ج » وكان أصحابها رعاة ، يزاولون تربية الماشية وينتمون حضاريا الى العصر الحجري النحاسي . وقد سيطرت هذه الحضارة على النوبة السفلى (النوبة المصرية) بوجه خاص كما انتشرت في بعض المواقع بالنوبة العليا (السودانية) . وقد تضاربت آراء المختصين في أصل ونشأة هذه الحضارة فاعتبرها البعض محلية الأصل بينما رأى البعض انها حضارة وافدة من الشرق أو الغرب . ورغم وجود نوع من الاتصال بين مصر وأصحاب تلك الحضارة فانهم ظلوا بمنأى عن اتجاهات مصر الحضارية ومعتقداتها الدينية حينذاك ، حتى جاء ملوك الأسرة ال ١٢ ، الذين اهتموا بالنوبة السفلى عسكريا وحضاريا ونجحوا الى حد كبير في تمصيرها .

ولكن رب ضارة نافعة ، فقد نتج عن سوء أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية ظهور اتجاهات صورها البعض على أنها أول ثورة اجتماعية وفكرية بمصر ، وان اعتراض الكثيرون على هذا التعبير نظرا لبعدها اتجاهات الأحداث وأهدافها عن مدلول الكلمة كما أنها لم تسفر عن أية تغييرات سياسية ملموسة كتغيير نظام الحكم أو ما شابه ذلك . وعلى كل حال فقد أدت الأحداث الى خلق نوع من الوعي بحقوق الانسان

وقوت من اعتزازه بكرامته ، كما حطمت جانبا من تلك الهالة المقدسة التي أحاطت بالملكية منذ أيام الدولة القديمة بوجه خاص وجعلت الشعب يندوب في شخصية مليكه ، فلقد كان المجد والسؤدد في الدنيا والآخرة مقصورا فيما سبق على أفراد العائلة المالكة والملتفين حول الملك ممن يسخرهم لخدمته أو الجائزين لرضاه . أما بعد تلك الفترة الانتقالية فقد أضحى المجد في الآخرة بوجه الخصوص متوقفا أساسا على استقامة الفرد وتقواه وحسن سلوكه ، بصرف النظر عن مركزه الاجتماعي أو رضاء الملك عنه .

والواقع ان هذه الانتفاضة الاجتماعية — اذا صح التعبير — لم تدمر أهرامات الملوك وزوجاتهم ومقابر النبلاء والأمراء فحسب ، بل حطمت أيضا الكثير من الآراء والمعتقدات ، فألغت العديد من الامتيازات الدنيوية والدينية التي كانت حكرا على أبناء الطبقة العليا والمحيطين بالملك . لقد أصبح المصريون منذ ذلك الحين يؤمنون بالمساواة بين كل الناس أمام الحكام من ناحية وأمام الآلهة من ناحية أخرى . ومن ثم فقد سمح لأفراد الشعب باستخدام بعض الطقوس والنصوص الجنائزية التي كان استخدامها مقصورا على الملك وعلية القوم ، في اطار محاولة لارساء الديموقراطية في العالم الآخر ، مما يعد انعكاسا للمبادئ السابق ارساؤها في عالم الأحياء . كما نجح المصريون حينذاك في تطوير مجموعة من القيم دعمت حقوق الفرد الدينية وطورت العقيدة الدينية فيما يتصل بالمعبود « أوزويس » بوجه خاص . وتؤكد متون التوابيت (نصوص الأكفان) التي نقشت على توابيت أصحابها من كافة الطبقات ذلك الاتجاه فقد حلت الى حد كبير محل نصوص الأهرامات ، التي اقتصرت فقط على أهرامات الملوك في أواخر أيام الدولة القديمة .

ازدهار الأدب :

تميز الأدب في ذلك العصر بواقعيته واتجاهه للتصدي لظاهر الفساد والانحراف الذي استشرى في كافة الأنحاء ، كما يعد أهم وأصدق مصادرنا التاريخية عن ذلك العصر الغامض .

وتعد المقطوعة الأدبية للحكيم ايب أور (أى ايب العجوز) بمثابة تسجيل صادق لأحوال مصر في أواخر أيام الدولة القديمة وفي مستهل العصر المتوسط الأول . وقد حفظتها لنا بردية نسخت أيام الدولة الحديثة يحتفظ بها الآن متحف (ليدن) بهولندا وتمتاز كتابة « ايب أور » - رغم طابعها السياسى - بالواقعية والرغبة الشديدة فى الإصلاح والتوصل الى حكم أفضل ينقذ البلاد من الأخطار التى أحدثت بها والتى وصفها ايب أور برؤية سليمة وادراك واع . لقد تحدث عن تغير صورة البلاد وتبدل أحوالها ونردى أمورها ، وأشار الى الانحلال والفساد الذى انتشر فى البلاد ، وندد بالجريمة التى سادت كل مكان والتعدى الذى يحدث فى كل البقاع ونعى هيبة القانون التى ضاعت والخبر الذى قل والود الذى اختفى ، وتعجب من تحول الأغنياء الى فقراء والفقراء الى أغنياء كما حذر من البدو الذين تسللوا الى البلاد . ونراه يخاطب الملك مرددا ان البلاد قد أصبحت تغلى كالمرجل دون أن يرى شيئا أو بفعل أمرا ، وما ذلك الا لأن البطانة تحجب عنه حقيقة الأمور . وذكره بان الناس يستغيثون ولا مغيث ويستنجدون ولا منجد حتى ليقول الصغير لبيت أمى لم تلدنى ويقول الكبير لبتنى مت قبل هذا .

وهناك بردية أخرى سميت حديثا الرجل الذى يناجى روجه (أو الرجل اليأس من الحياة) ويحتفظ بها متحف برلين وترجع الأسرة ال ٧ . وهى تروى نقاشا يدور بين رجل سئم الحياة

ويشس من معيشته فقرر الفرار من عالمه المتناظر عن طريق الانتحار،
وروحه التي حاولت رده عن عزمه ومنعه من تنفيذ قراره .
ويبدو بوضوح من خلال تلك المناقشة مدى تشاؤم هذا الرجل
حين يقول مثلا :

لمن اشتكى اليوم ؟ لقد أصبح الاخوة وضعاء والأصدقاء
كارهين .

لمن اشتكى اليوم ؟ لقد أصبحت القلوب حاقدة وأصبح الرجل
يسرق زميله .

لمن اشتكى اليوم ؟ لقد اختفت الرحمة وساد السوء في
كل مكان .

لمن اشتكى اليوم ؟ لقد أصبح الناس يعشقون الشر وأضحى
الخير يداس تحت الأقدام .

ويتحدث أيضا عن تفضيله الموت هربا من حاضر معتم ومستقبل
أشد عتامة فهو يقول :

لقد أصبح الموت في ناظري كشفاء المريض بعد مرض عضال .
وكرجوع الرجل الى بيته بعد حرب ضروس وكخروج السجين الى
الحرية بعد حبس طويل وكالعودة الى الوطن بعد أسر طويل .

وينتهي النقاش بعدول الرجل عن تنفيذ عزمه بعد أن هددته
روحه بهجرانه في الدنيا والآخرة . وهكذا تصور لنا هذه البردية
وجهة نظر البائسين والمتشائمين بعكس بردية « ايب أور » التي
تعرض لنا وجهة نظر متفاقة الى حد ما .

وأخيرا لدينا اغنية العازف على الجنبك (آلة وترية)
التي ترجع الى ذلك العصر أيضا ، والتي تدعو الى التمتع بالحياة

الدنيا وتشكك الناس في عقائدهم الدينية حين تقول : « لقد سمعتهم حكم ايمحتب ودر ف رع ، التي يرددها الناس في كل مكان . فأين أمكنتهم الآن ؟ لقد تهدمت مبانيهم وحطمت جدرانها وأضحت كأن لم تكن ! ولم يحضر أحد من هناك فيحدثنا عما أضحوا عليه أو يخبرنا بصيرهم . فتمتع ودع قلبك ينسى اليوم الذي ستدفن فيه ، وضع كل الأشجان وراء ظهرك واهض في سرور حتى يأتي يوم وفاتك ، وسر وراء رغبات قلبك ما دمت حيا » .

ثانياً - العصر الأهناسي (الأسرتان ال ٩ وال ١٠)

٢١٦٠ ق م - ٢٠٤٠ ق م

في خلال تلك الفوضى التي سادت البلاد أيام الأسرتين السابعة والثامنة ظهرت في بلدة « اهناسية المدينة » بمحافظة بنى سويف الحالية أسرة قوية بزعامة أمير يدعى « خيتى » تلاه عدد من خلفائه بلغوا حوالى الثمانية عشر ، اعتبروا أنفسهم ملوكا على مصر وأسماهم النصوص المعاصرة باسم « بيت خيتى » نسبة الى أول ذلك الخط العائلى وسجلهم مانتيون تحت اسم الأسرتين التاسعة والعاشره (٨) ، اللتين حكمتا جانبا كبيرا من أرض مصر مدة تزيد على مائة عام واتخذوا اهناسية عاصمة للبلاد ومقرا للحكم (٩) .

وقد حاول ملوك هاتين الأسرتين نشر سلطانهم على كافة انحاء مصر ، ونجحوا الى حد كبير في طرد بدو الصحراء من شرق الدلتا ، واعتبروا أنفسهم خلفاء مباشرين وشرعيين لملوك منف . ويمثل عهدهم بوجه عام دور انتقال من حكم الدولة الوسطى الطيبة (نسبة الى مدينة طيبة) التي التقى رؤساء أقاليم مصر العليا حول حكامها .

ومع أن هؤلاء الأهناسيين لم يتركوا لنا آثارا جديدة بالذكر ، كما اننا لم نعثر بعد على قبورهم ، ما عدا هرم الملك « مريكارع » أحد ملوك الأسرة العاشرة بجبانة سقارة ، فإن المؤرخين قد توصلوا الى بعض الحقائق التاريخية عن ذلك العصر معتمدين على مصدرين مهمين . . أولهما : التعاليم التي تركها الملك « خيتي الثالث » لابنه وولي عهده مريكارع وهي خلاصة تجارب ذلك الملك الشيعي طوال حياته الطويلة التي امتلأت بألوان من الحروب والكفاح - وخاصة تلك الحرب الضروس للسيطرة على « أبيدوس » أما ثاني تلك المصادر فهو النصوص التي دونها حكام إقليم أسيوط المعاصرون والمتحالفون مع اهناسية على جدران قبورهم المحلية ولعل أهم هذه القبور هو قبر الأمير « خيتي » الذي ذكر انه تربو وهو صغير في البلاط الملكي مع أبناء الملك ، ثم تحدث عما قا به من أعمال لاسعاد قومه ، كما روى الكثير عن شجاعته في قتاله مع الأعداء الطيبين كذلك سجل خليفته « تف اييب » على جدران قبر أخبار حروبه خاصة في منطقة « أبيدوس » .

ملوك أهناسية :

أسس خيتي مري اييب رع (الأول) الأسرة التاسعة وقد تلاه ملوك آخرون يكتنف الغموض تاريخهم . وقد ذكر مانثيون هذا الفرعون باسم « اخيتوس » ووصفه بأنه كان ظالما متعسفا سام شعبه العذاب وانه فقد قواه العقلية في أواخر أيام حكمه وأن حياته انتهت بعد أن التهمه تمساح . ولكننا في الواقع لم نعثر على أية وثيقة تاريخية تؤكد أو تنفي مزاعم مانثيون ، كما انه ليس بمستغرب اتصاف خيتي بالشدة والصرامة إذ كانت البلاد ا ذلك الوقت في حاجة الى رجل قوى حازم يقضي على الفوضى الشاملا ويوفق في نضاله مع أمراء الأقاليم الذين بلاشك قد قاوموا محاولته

لإعادة الوحدة إلى البلاد (١٠) ٠٠ وقد عثرنا على اسم هذا الملك على صخرة عند الجندل الأول ، وعلى اناء من البرونز وجد في أسيوط وهو الآن بمتحف اللوفر بباريس وكذا على عصا من الأبنوس مدون عليها اسمه عثر عليها في مير بمحافظة أسيوط ، وعلى جزء من صندوق عاجي عثر عليه في اللشت .

وهناك فرعون آخر مهم من بيت أهناسية عاش في أيام الأسرة العاشرة هو خيتي واح كارع (خيتي الثالث) وقد حكم مدة طويلة ، حاول خلالها طرد البدو من شرق الدلتا كما قضى معظم أيامه في قتال شرس مع أمراء طيبة الذين كانوا قد استولوا على منطقة أبيدوس وتقدموا شمالا حتى أسيوط ، فكان بذلك آخر ملك عظيم حكم في أهناسية .

والواقع أن علاقة أهناسية بطيبة كانت سليمة في بادئ الأمر إلى أن نشبت الحرب بين البيتين الحاكمين بهما عندما قويت شوكة طيبة ، فانقسمت مصر بذلك إلى مملكتين متصارتين . ويغشى هذا النزاع الطويل المدى ، الذي امتد قرابة مائة عام بكثير من الغموض والابهام ، وتخللته انتصارات وهزائم وقطعته فترات هدنة وسلام . وقد رجحت كفة ملوك أهناسية وحلفائهم أمراء أسيوط في بادئ الأمر ثم أضححت الحرب سجالا بين الفريقين ، ثم ما لبثت أن انقلبت كفة ميزان الحرب في صالح طيبة ، فتقدم الطيبيون في عهد خيتي الثالث إلى قلب مصر الوسطى ، مما أحزنه ودفعه إلى كتابة وصيته لابنه مريكارع الذي تولى بعده ، كما يبدو أن الطيبين قد وصلوا في أيامه إلى مشارف الأشمونين .

وقد انتهت تلك الحرب الشرسة بانتصار الطيبين انتصارا تاما حين تمكن منتوحتب الثالث أحد ملوك البيت الطيبى أيام الأسرة

ال ١١ (وفقا لتقسيم مانشيون) من اسقاط عرش أهناسية وجلوسه على عرش مصر المتحدة (١١) مما كان بشيرا ببدء عهد جديد يعرف باسم الدولة الوسطى .

ازدهار الأدب في العصر الأهناسي :

ظل الأدب مزدهرا في العصر الأهناسي مما يعد استمرارا لازدهاره في الفترة الأولى من العصر المتوسط الأول ، وان اختلف في بعض أهدافه ومراميه ، وسأكتفى بتقديم مثالين متميزين منه هما : « تعاليم مريكارع » وقصة « الفلاح الفصيح » اللتين دونتا بأسلوب لغوي بليغ تميز بالتشبيهات والتوريات والكنيات اللطيفة (١٢) .

أما تعاليم مريكارع فهي عبارة عن وصايا موجهة للملك « مريكارع » من أبيه خيتي ، تضمنت توجيهات سياسية الى جانب نصائح اجتماعية ومواعظ دينية . وقد دونت على ثلاث برديات محفوظة الآن بمتاحف لندجراد وموسكو وكوبنهاجن وترجع الى أيام الدولة الحديثة . ويفهم منها ان خيتي قد نجح في طرد البدو من الدلتا واستأنف التجارة كما استمر في كفاح الطبيين وقام بتطهير الترع ولكنه في نفس الوقت اهاب بابنه أن يسالم أهل الجنوب ويقوى جيشه ويحسن معاملة موظفيه وحثه على التمسك بالفضائل ولا يظلم امرأة أو يحرم انسانا من ثروة أبيه وان يطيب خاطر الشاكي وان يتبع العدل دائما . ولهذه النصائح دلالة دينية اذ تدل على أن الملك قد فقد جانبا كبيرا من الوحشة المقدسة ، فنراه أحيانا يحدثنا عن أخطائه مرددا عبارات الندم ، كما يذكر ان السعادة في الآخرة لا تنال وفقا لمركز الفرد وجاهه وانما تنال منحة الأعمال الطيبة وسلوكياته الخيرة فالله يقبل القليل من الشخص المستقيم ولا يقبل الكثير الذي يقدمه الرجل الشرير .

وتعد قصة الفلاح الفصيح من أفضل ما قدمه الأدب المصرى القديم ، وقد حدثت أحداثها فى عهد الملك خيتى نب كاورع (١٣) من الأسرة العاشرة . ويرجع تدوين النسخ الأربعة التى وصلتنا الى أيام الأسرة الثانية عشر غالبا . وتتميز هذه القصة بسلاسة الأسلوب وجمال التعبير كما توضح ما كان يختلج فى قلوب الناس من رفض للتسيب وضيق بالظلم وتبرز فى نفس الوقت ما رسخ فى قلوب الناس وقتئذ من قيم مما شجعهم على المطالبة بالحق وبعدم الخنوع للطغاة مما دفعهم الى الاصرار على رفع الظلم ورد الحق لأصحابه .

وتتضمن القصة شكوى فلاح فقير من وادى النطرون حمل حميره منتجات اقليمه ليقاىض بها فى العاصمة « اهناسية » وبينما كان فى طريقه طمع موظف مسئول يعمل فى ضيعة يمتلكها أحد علىة القوم فيما يمتلكه الفلاح . ومن ثم فقد خدعه بان مد قطعة من قماش اعترضت الطريق ، مما اضطر الفلاح الى تفادى المرور عليها والنزول بحميره الى طرف الضيعة الملاصقة للطريق . وسرعان ما عاقبه الموظف بالاستيلاء على حميره وما تحمله جزاء انتهاكه لأرض ملك غيره . ولما اعترض الفلاح أوسعه نربا وطرده شر طردة . فبادر الفلاح الى تقديم شكوى الى كبير أمناء القصر بالعاصمة ، الذى أدهشته بلاغتها وقوة تعبيرها فابلغها بدوره الى الملك الذى أشار عليه ألا يبت فيها حتى يضطر الفلاح الى تقديم المزيد من تلك الشكاوى الفصيحة . وأخيرا ، أمر الملك بعد تقديم الفلاح للشكوى التاسعة بان ترد كافة مستحقاته اليه وان يعاقب المعتدى عقابا رادعا . وهكذا انتصر العدل أخيرا وعاد الحق الى أصحابه .

وقد صاحب هذا الازدهار الأدبي ازدهار الفن الاقليمي التشكيلي الذي استخدم الخشب بوجه خاص نظرا لتوقف البعثات الى المحاجر والمناجم . وقد ازدهر نحت نماذج للأفراد والمجموعات المهنية بوجه خاص ، وعثر عليها في مقابر مصر الوسطى وخاصة أسيوط ، التي ترجع الى العصر المتوسط الأول .

الدولة الوسطى (الأسرتان ال ١١ وال ١٢) (١٤)

٢٠٤٠ ق م - ١٧٨٥ ق م (تقريبا)

تضم الدولة الوسطى مجموعتين من الملوك : أولهما ملوك الأسرة الحادية عشرة بعد نجاح منتوحتب حبت رع (الثالث) في القضاء على ملك أهناسية وحكم مصر الموحدة للمرة الثانية في تاريخها القديم . أما المجموعة الثانية فهم ملوك الأسرة الثانية عشرة ، الذين اهتموا برخاء البلاد والنهوض بها اقتصاديا فوصلت في عهدهم الى درجة كبيرة من القوة والازدهار .

وقد ارتبطت أيام الدولة الوسطى بتحقيق ذلك الاتحاد واستمراره الذي أنهى تفرق البلاد وتنازها فحل السلام محل الحرب وعم الازدهار كافة النواحي واستعادت مصر مكانتها التي وصلت اليها أيام الدولة القديمة .

الأسرة الحادية عشرة الطيبة :

ضمت الأسرة الحادية عشرة ، وفقا لتقسيم مانشيون ، سبعة ملوك حكموا ١٤٣ سنة ، وهو تقدير زمني قريب من تقدير المؤرخين المعاصرين . ويمكن تقسيمهم في الواقع الى مجموعتين وفقا لما اتخذوه من أسماء : المجموعة الأولى وقد اتخذوا اسم انتف وهم

الذين تحملوا عبء القتال مع الأهناسيين وعاصرت أيامهم العصر المتوسط الأول ، أما المجموعة الثانية فقد غلب عليهم اسم منتوحتب وتمكن أحدهم وهو منتوحتب الثالث من تحقيق وحدة البلاد التي تفككت في العصر المتوسط الأول بادئا بذلك أيام الدولة الوسطى (١٥) .

والواقع أن مصر كانت منقسمة عند بدء هذه الأسرة وفي فترة حكم المجموعة الأولى منها (الأناثفة) الى الأقسام التالية :

١ - الدلتا : ويحكمها بعض الحكام المحليين الذين ارتبطوا الى حد ما بملوك أهناسية . ولا يستبعد تواجد عناصر محدودة من البدو في شرقها ، هم فلول أجدادهم الذين تسربوا اليها في أعقاب الأسرة السادسة ، وعمل الأهناسيون على تطهير الدلتا منهم .

٢ - مصر الوسطى التي امتدت من منف حتى أسسيوط ويسيطر عليها ملوك أهناسية المتحالون مع أمراء أسسيوط الأقوياء .

٣ - منطقة تضم على وجه التقريب محافظة سوهاج الحالية وكانت ميدانا للنضال بين ملوك الأسرة العاشرة الأهناسيين والملوك الأوائل من الأسرة الحادية عشرة الطيبية .

٤ - مصر العليا التي تضم تقريبا محافظتي قنا وأسوان لحاليتين ، وكانت تحت نفوذ أمراء طيبة بعد أن سيطروا على إقليم لكاب ونجحوا بذلك في الربط بين أقاليم المنطقة الخمسة القديمة . مما هو جدير بالذكر أن اسم طيبة قد لمع منذ ذلك الوقت حتى نهاية التاريخ الفرعوني .

٥ - النوبة السفلى التي نجحت في الاستقلال عن مصر منذ أيام الأسرة السادسة وسيطرت عليها حضارة المجموعة (ج) .

وقد نشأت الأسرة الحادية عشرة في طيبة ، التي لم تكن أيام الدولة القديمة الا بلدة محدودة الأهمية بين مدن الاقليم الرابع القديم الذي ضم بلدتي طود وأرمنت في الجنوب ومدامود في الشمال . ومما لا شك فيه أيضا ان بيتا حاكما قد سيطر على حكم طيبة والأرض المحيطة بها في أواخر أيام الأسرة السادسة ، كما حدث في بقية جهات مصر . ولا نعرف تماما كيف حلت طيبة محل أرمنت كعاصمة للاقليم ولا كيف ذاعت شهرة الهها « آمون » الوافد من الأشمونيين ، بجانب معبودها القديم « منتو » اله الحرب والنزال .

ولا يزال عاد ملوك الأسرة الحادية عشرة وتتابعهم وعدد سنى حكمهم وتسلسلهم الأسرى مجالا للدراسة والبحث وان اتفق الجميع على وصفهم بالصلابة والشدة والقدرة على القتال وكذا عن أهمية الدور الذي لعبوه طوال مائة وخمسين سنة تقريبا في سبيل توحيد البلاد والنهوض من جديد .

أولا - ملوك الفترة الأولى من الأسرة الحادية عشرة :

(٢١٦٠ ق م - ٢٠٤٠ ق م)

وهم الحكام الذين عاصروا العصر الأهناسى ويدخل عهدهم في نطاق العصر المتوسط الأول .

١ - يعد انتف سهرتاوى الأول (١٦) وفقا لبردية تورين أول من ادعى الملك بعد انتف العظيم الذى سبقه في وضع الأساس لخلفائه دون أن يدعى الملك (١٧) ويبدو أن طيبة في عهد قد نجحت في الامساك بزمام القيادة في الجنوب . ورغم ضآلة معلوماتنا عن

إيامه التي تقدر بعشر سنوات فان تقدير الطيبين الذين عاشوا في
عصور تالية له لدليل على دوره المهم سواء كان ذلك لنضاله
مع الأهناسيين أو لتصديده « لعنخ تفي » حاكم قفط أو غير ذلك
من الانجازات .

وقد ذكره منتوحتب الثاني بالخير وأقام له سنوسرت الأول
تمثالا ، كما ورد اسمه في بعض قوائم الملوك . وقد تم دفنه في
منطقة الطارف بغرب طيبة .

٢ - أما انتف واح عنخ (الثاني) فيبدو انه كان ابنا أو أخا
لانتف الأول واتصف هو الآخر بالقوة فسيطر تماما على الأقاليم
الخمسة الجنوبية لمصر ويغلب على الظن انه سيطر على إقليم
« أيبديوس » بعد حرب ضروس . وقد عثر العالم الفرنسي أوجست
مارييت سنة ١٨٦٠ على لوحة أمام قبره بالطارف ، نقلت فيما بعد
الى المتحف المصري ، تعرف بلوحة الكلاب اذ صور عليها ومعه خمسة
كلاب مما يدلنا على حبه للصيد ، وقد جاء بها أنه أقام المقاصير ورسم
المعابد وقدم القرابين الى الاله آمون (١٨) . وقد ورد ذكر قبره
بالطارف في بردية أبوت التي تحدثت عن سرقة المقابر الملكية في
عهد الأسرة العشرين ، اذ جاء في تقرير لجنة التفتيش انها قد وجدت
مقبرته سليمة ومحتوياتها كاملة عدا الهرم الذي كان مقاما فوقها
فقد سقط .

٣ - وقد تولى بعده انتف نخت نب تب نفر (الثالث) الذي
حكم مدة قصيرة ، لا تتجاوز الخمس السنوات التي أعطتها بردية
تورين لمدة حكمه . ويبدو انه كان متقدما في السن عند وفاة سلفه
الذي حكم البلاد لمدة تقارب الخمسين عاما . وقد ظلت « أيبديوس »
خاضعة لسلطانه اذ ذكر حاكمها وقتذاك انها تعرضت لمجاعة
فانقذها الملك منها وقد دفن أيضا بالطارف .

٤ - ثم تلاه منتوحتب سغخ ايب تاوى (الثانى) التى كانت
أيامه كعهد من سبقوه أيام كفاح وقتال . ويغلب على الظن انه قند
عاصر أيام خيتى الثالث وابنه مريكارع اللذين قاوما تغلغل الطيبين
قبل أن ينجح خليفته منتوحتب الثالث فى توحيد البلاد . وقد بدأ
فى أعداد مقبرته بالطارف التى زاد حجمها على مقابر من سبقه
من ملوك تلك الأسرة ، ولكنه توفى قبل أن يتمها وبعد حكم دام
قراية العشرين عاما .

ملوك الفترة الثانية من الأسرة الحادية عشرة (عصر الدولة

الوسطى) ٢٠٤٠ ق م - ١٩٩١ ق م :

١ - منتوحتب نب حبت رع (الثالث) (١٩) :

هو أهم ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ومؤسس ما اصطلح على تسميته بالدولة الوسطى ، وأول من اتخذ طيبة عاصمة لمصر الموحدة ، وقد عده المصريون القدماء أنفسهم بادئ عهد جديد من عهود الوحدة التاريخية إذ حمل الكهنة في حفلات تتويج الفراعنة في الأسرة التاسعة عشرة تماثيل كل من مينا الموحد الأول لمصر ثم تمثال منتوحتب نب حبت رع ثم تمثال أحمس نب بحتي رع بطل تحرير مصر من نير الهكسوس وبأدى أيام الدولة الحديثة .

ورغم أن معلوماتنا عن الحروب الطويلة بين اهناسية وطيبة محدودة ومتفرقة ، ولا تزيد على بعض تلميحات وإشارات ، يبدو أن اهناسية قد سقطت في قبضته في السنة التاسعة من حكمه الذي استمر قرابة الأربعين عاما . وقد أضحي منتوحتب بزوال حكم اهناسيين ملكا على الوجهين القبلي والبحري .

ومن ثم فقد بدأ في العمل على تأمين حدود مصر واستقرار أمنها فحارب قبيلتي « التخنو والتمحو » الليبيتين في غرب الدلتا

وشتت فلول بدو « المنتو » في سيناء وسجل ذلك على جدران
مقصورة أقامها في جبلين جنوب طيبة (٢٠) . وقد حاول أيضا
اعادة نفوذ مصر في بلاد النوبة ، ويبدو رغم شك بعض العلماء
في ذلك أنه قد أمن على الأقل سبل التجارة في بلاد النوبة السفلى ،
مسجلا انتصاراته في نص من دير البلاص ذكر فيه أنه ألحق الهزيمة
بسكان وأوات (٢١) . ويستدل كذلك من نصوص عثر عليها في
أبسكو (جنوب أسوان بحوالى عشرين كيلو مترا) انه قد أرسل
حملة وصلت حتى بوهن في منطقة وادى حلفا (٢٢) .

أما فيما يتعلق بالشؤون الداخلية فقد أعاد منصب الوزير
لمساعدته اداريا ونحن نعرف أسماء ثلاثة من وزرائه هم
داجي ويبي وايبى . كما نجح في الحد من سلطات حكام الأقاليم
والقضاء على نزعتهم الاستقلالية الى حد ما ، كذلك شرع في ارسال
البعثات الى محاجر الصحراء الشرقية مما يسر له اقامة وترميم
المعابد . ورغم العثور على آثاره المعمارية في عديد من المواقع في
مصر العليا كالكتاب وأرمنت والطود وجبلين ودير البلاص ودندرة
وأبيدوس وسقارة وفي وادى الحمامات فانه لم يعثر له حتى الآن
على آثار في الدلتا ، وتشير وفرة الآثار التي تنسب اليه الى قوته
السياسية ونجاحه في توفير الخامات والأحجار اللازمة لعمائه رغم
مشاغله الأمنية وأعماله العسكرية .

وقد ابتكر مهندسو منتوحتب طرازا معماريا يعد تطويرا
جديدا وفريدا في الأسلوب المعماري وخطوة جريئة في العمارة
الجنائزية بمصر القديمة حين اختاروا لمعبده الجنائزى مكانا في
حضن الجبل بمنطقة الدير البحرى بغرب طيبة . وقد صمم على
شكل طابقين يوصل بينهما طريق صاعد . وكان كل طابق يضم
صالة أعمدة كبيرة كما يسود اعتقاد بأن الطابق الثانى كان يحتمل

هرما من الحجر الجيري كقبر لمنتوحتب نفسه (٢٣) . ولكنه تهدم
تماما كما تهدم المعبد نفسه وسقطت أعمدته واختفت معظم
أحجاره (٢٤) .

وقد عثر في أرضية المعبد على ست مقابر لسيدات الأسرة
المالكة ، تتكون كل منها من حجرة واحدة بها تابوت ضخم ،
ويعد تابوتا الأهرتين « عاششيت » و « كاويت » المعروفان
بمتحف القاهرة بالإضافة الى تمثال منتوحتب الضخم بذلك المتحف
من روائع فن تلك الأسرة كما أن معبده كان بلا شك أقدم معابد
الدولة الوسطى (٢٥) ، كما وجدت بعثة متحف متربوليتان بنيويورك
جثث ما يقرب من أربعين جنديا في منطقة ذلك المعبد ، ربما سقطوا
عند مهاجمة منتوحتب لاهناسية ، ثم دفنت أجسادهم بالقرب من
قبر مليكهم . وقد شيد بعض النبلاء مقابرهم بالقرب من قبره ،
ومنهم الوزير « ايبى » الذى عثر في مقبرته على مجموعة من
الرسائل ، كتبها « حقا نخت » ، أحد المسئولين عن قبر الوزير
ووجهها الى ابنه . وتكشف هذه الرسائل العائلية عن اخلاقيات
كاتبها وملاحح شخصيته ، كما تزيل النقاب عما كانت عليه حياة
أسرة من الطبقة المتوسطة في ذلك الوقت ، وما كانت تجريه من
معاملات كما توضح الأساليب التى أتبعته حينذاك لتوطيد الأمن
وتهدئة الأحوال في كافة أنحاء مصر (٢٦) .

٢ - منتوحتب سعنخ كارع (الرابع) :

ترك أبوه له دولة منظمة . ساعية للتقدم والفلاح ، ورغم أننا
لا نعرف الكثير عنه فيبدو أنه أتبع سياسة أبيه . وقد قدرت
بردية تورين مدة حكمه باثنتى عشرة سنة ولكنها تركت بعد مدة
حكمه فراغا امتد لمدة سبع سنوات قبل بدء الأسرة الثانية عشرة

مما يسمح بإضافة ملك آخر من تلك الأسرة قبل انتهاء أيامها ، وقد بدأ مشروعا لبناء مقبرته ومعبد الجنازى بجوار معبد أبيه بمنطقة الدير البحرى . ولكنه توفى قبل تنفيذ مشروعه . وقد عثر على نص منقوش على الصخر بوادى الحمامات يرجع الى السنة الثامنة من حكمه يفيد أنه قد أرسل حملة شبه عسكرية تضم ثلاثة آلاف رجل بقيادة « حنو » لاضار الأحجار اللازمة لعماره وقد طردت الحملة البدو وأمنت الطريق الى المحاجر ثم استمرت الحملة فى طريقها عبر الصحراء الشرقية حتى وصلت الى سواحل البحر الأحمر ، حيث رأس « حنو » بعثة الى بلاد بنت أتت محملة بمنتجات تلك البلاد من بخور وعطور وغيرها .

وقد عثرنا على بعض مقابر النبلاء من عهده فى نفس المنطقة نذكر منها مقبرة مكتوع التى ترجع شهرتها الى المجموعة الكبيرة من النماذج الخشبية الملونة التى وجدت بها والتى تمثل مظاهر الحياة اليومية سواء داخل المنزل أو خارجه ، والتى يعرضها الآن متحف القاهرة .

٣ - منتوحتب نب تاوى رع (الخامس) :

يعد آخر ملوك هذه الأسرة ، ويبدو أنه قد حكم مدة قصيرة للغاية ، ولم تذكره أى من القوائم الملكية ، كما لم تعترف به بردية تورين التى لم تذكر ملكا معيناً فى مدة السبع السنوات التى حددتها ما بين وفاة « منتوحتب سعنخ كارع » وتولى أول ملوك الأسرة الثانية عشرة الحكم . كذلك لم تتضح لنا صلته بسلفه ويبدو أن الفوضى قد سادت فى أيامه ، وأن البدو الليبيين قد اعتدوا على حدود البلاد ، وأن مجاعة قد حلت بمصر . ولعل العمل الوحيد الذى ذكر له هو ارساله البعثات الى المحاجر والمناجم فى صحراء النوبة وفى منطقة وادى الحمامات بالصحراء الشرقية ، حيث

قاد وزيره « أمنمحات » حملة من عشرة آلاف رجل ، تركت نقوشا تقض علينا ما حدث من معجزات في أيام تلك البعثة كقصة غزالة برية اختارت بقعة لتضع ولديها فوقها واتضح بعد ذلك أنها خير مكان لجلب الأحجار اللازمة للتأبوت الملكى ، وكقصة تحدثت عن عاصفة هبت فجأة وأسقطت مطرا غزيرا كشف عن بئر كون بحيرة من الماء العذب الذى أسعف تلك البعثة الضخمة وأنقذتها من العطش في جوف الصحراء(٢٧) .

فيبدو بجلاء أن الوزير أمنمحات الذى تدرج في المناصب المختلفة وحصل على العديد من الوظائف والألقاب الشرفية والفعلية ، والذى ذكرته بعض النصوص من ذلك العهد ، هو نفس الشخص الذى أسس فيما بعد الأسرة الثانية عشرة ، ومن الجائز أنه قد دبر مؤامرة ضد فرعون مكنته من انتزاع العرش بالقوة ، والواقع ان نهاية الأسرة الحادية عشرة لا يزال غامضا بحيث لا يمكننا الجزم الآن بسير الأحداث التى أنهت حكم آخر ملوك تلك الأسرة وهل قتل ذلك الملك أو عزل أو توفى وفاة طبيعية ولكن دون وريث يخلفه على العرش . وعلى كل حال فمن الواضح عندما نستعرض الأحداث التى عاصرت تلك الأسرة وعندما نتتبع انجازاتها سواء اثناء النضال الذى خاضته مع اهناسية أو توحيدها لمصر فان هذه الأسرة رغم ما أصابها من انهاك قرابة مائة عام قد نجحت في ممارسة السياسة التقليدية لملوك مصر فحافظت على وحدة البلاد ، واهتمت بتوطيد نفوذ مصر في بلاد النوبة ، وحاربت الاقطاع ، ودعمت سلطة فرعون المركزية ، وأرسلت البعثات الى المهاجز والمناجم ، واستأنفت الملاحة في البحر الأحمر ، وسارعت الى ترميم واصلاح المعابد والأبنية الدينية وبناء الجديد منها . كذلك اهتمت هذه الأسرة اهتماما خاصا بمدينة طيبة بجانب اهتمامها الشديد بمدينة أبيدوس المقدسة ويلاحظ أن الفن بدأ في النهوض ، وكان فنا

اقليميا آخذا في التطور والنضوج فتقدم فن النقش تقدا ما ملحوظا
كما يتمثل في التواييت الحجرية للأميرتين « عشايت » و « كاويت »
بينما نم فنا النحت والتصوير عن نقص في التجربة والخبرة
أما العمارة الدينية والجنائزية فيكفي للدلالة على روعتها ذلك
المعبد الجنائزي الذي خلفه لنا « منتوحتب » الثالث بمنطقة الدير
البحري .

ولعل خير مثال لفن تلك الأسرة هو ما خلفته تلك النماذج
الخشبية ، التي أبدع الفنانون عن طريقها في تجسيم مناظر
الحياة اليومية بأدق تفاصيلها ، فمنها ما يمثل المنازل بحدائقها
أو تلك البيوت المصغرة التي تعرف ببيوت الروح ثم ما مثل شون
الغلال وحظائر المواشي وورش النجارة ومصانع الغزل والنسيج
ومراكب الصيد والنقل والاتجار والنزهة التي زودت بالمجاديف
إذا ما كانت متجهة مع التيار شمالا أو بالشرع التي تدفعها الرياح
في طريقها جنوبا . وقد أوضحت تلك النماذج عمليات عجن الخبز
وتخمير البيرة وذبح الماشية واستعراض القطعان وتقديم القرابين
وسير الجنود .

الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٨٥ ق م)

يعتبر عصر هذه الأسرة من أزهى عصور مصر القديمة وفيه
ارتقت الآداب وازدهرت الفنون ، وتقدمت الزراعة وتطورت الصناعة
ونشطت التجارة ، ونهضت البلاد نهضة لم ترتكز على الملك ،
وتتبلور في قصره أو من خلال بلاطه ، كما كان الحال أيام الدولة
القديمة ، وإنما تغلغت وتبلورت في الشعب نفسه وشملت وسادت
في مصر كلها .

وقد أسس هذه الأسرة الملك « أمنحات الأول » حوالي
عام ١٩٩١ ق م ، ودام حكمها ما يقرب من القرنين والرابع من

الزمان ، وقد وصل الى أيدينا من المصادر والوثائق التاريخية التي ترجع الى أيامها ، ما يكفي لاستخلاص العناصر الأساسية لسياسة الأسرة داخليا وخارجيا ولتتبع تألقها بالداخل ونشاطها في الخارج . كذلك تعتبر الأسرة الثانية عشرة الأولى بين أسر التاريخ الفرعوني التي توصلنا الى تحديد توقيت ملوكها على جانب كبير من الدقة نتيجة لعثورنا على نص يخبرنا بظهور نجم الشعري اليمانية في السنة السابعة من حكم الملك « سنوسرت الثالث » مما أتاح لعلماء الفلك المحدثين تحديد وقت ابتداء هذه الأسرة وفقا لتقويمنا الميلادي الحديث . هذا بالإضافة الى أن بردية تورين قد ذكرت سني حكم كل ملك من هذه الأسرة .

وفيما يلي أسماء ملوك هذه الأسرة ومدة حكمهم على وجه التقريب وفقا لتتابعهم :

- ١ - أمنمحات الأول - سحتب آيب رع - ٢٩ سنة تقريبا .
- ٢ - سنوسرت الأول - خبر كارع - ٢٤ سنة تقريبا .
- ٣ - أمنمحات الثاني - نوب كاورع - ٣٣ سنة تقريبا .
- ٤ - سنوسرت الثاني - خع خبر رع - ١٧ سنة تقريبا .
- ٥ - سنوسرت الثالث - خع كاورع - ٣٥ سنة تقريبا .
- ٦ - أمنمحات الثالث - ني ماعت رع - ٤٥ سنة تقريبا .
- ٧ - أمنمحات الرابع - ماعت خرو رع - ٧ سنوات .
- ٨ - سيبك نفرو (رع) - ٥ سنوات تقريبا .

أمنمحات الأول :

نجح الوزير أمنمحات (آمون في المقدمة) في الاستيلاء على الحكم ، بادئا سلسلة من الحكام الأقوياء الذين تولوا بعده فساروا

على نهجه ويجمع المؤرخون على أن أمنمحات هو صاحب الفضل الأكبر في بناء نهضة البلاد الجديدة . وهناك بردية كتبت في عهد الأسرة الثامنة عشرة محفوظة الآن بمتحف بطرسجراد (لنيجراد) ، تعرف ببردية نفرتي ، وترجع بلا شك الى أصل كتب في أيام الدولة الوسطى كانت بمثابة دعاية سياسية لهذا الملك ، اذ حاول كاتبها أن يصور للناس نبوءة حدثت في عهد الملك « سنفرو » الذي طلب من نفروهو (نفري) كبير كهنة « باستت » أن يحيطه علما بما سيحدث للبلاد في المستقبل ، فتحدث الكاهن عن ثورة ستقوم في مصر ، وعن الخراب الذي سيحل بالبلاد ، وعن الفوضى التي سوف تعم كافة الأنحاء ، حتى يأتي الانقاذ على يد ملك يولد في الصعيد من أم نوبية يدعى امنى (هو غالبا اختصار لاسم أمنمحات) الذي سوف يخرس العصاة بوقف الفتنة ، ويقضى على المحنة ، فتعيش البلاد بعد ذلك في سلام (٢٨) .

وقد اتخذ أمنمحات الأول عدة اجراءات مهمة ، حرص خلفاؤه على اتباعها وتنفيذها . فقد اقتضت الضرورة السياسية نقل العاصمة من طيبة ، التي تبعد أكثر من سبعمائة كيلو متر عن الدلتا الى مكان جديد متوسط بين شطرى الوادى ، يقع عند بلدة اللشت الحالية بمحافظة بنى سويف ، وتبعد خمسين كيلو متر جنوبا من العاصمة القديمة منف ، وقد أطلق على العاصمة الجديدة اسم « ايثت تاوى » ومعناها « القابضة » على الأرضين (أى اراضى الشمال والجنوب) .

كذلك استن أمنمحات الأول سنة جديدة ، ما لبث خلفاؤه ان حذوا حذوها ، من أجل تثبيت حكمهم على البلاد ، وذلك عندما أشرك سنوسرت ابنه معه في الحكم . ويبدو أن الأزمات التي كانت تعترض تعيينه خليفة للملك عند موته ، كانت الدافع لابتداع هذه السنة الجديدة .

وقد كانت الحملات الحربية التي قام بها ملوك الأسرة الحادية عشرة محدودة ، اذ وجه هؤلاء الملوك جهدهم نحو تثبيت أقدامهم في حكم البلاد عن طريق تحجيم نفوذ حكام الأقاليم وسحب الكثير من السلطات التي حصلوا عليها ابان الحكم الذاتى فيما سبق . ومن ثم فقد عمل أمنمحات الأول على اخضاع حكام الأقاليم خاصة الذين كانوا لا يزالون على جانب كبير من القوة والسلطة المركزية كما تدل عليه مقابرهم المنحوتة في الصخر في بيتى حسن والبرششا وأسيوط . وقد استخدم امنمحات القوة تارة والمساييرة تارة أخرى وذلك عن طريق السماح لهم ببعض الحقوق مقابل تعضيدهم له . وقد أشار « حتوم حتب الأول » حاكم بنى حسن في أيام أمنمحات الأول على جدران قبره الى انه قد صحب الفرعون فى أسطول من عشرين سفينة لضرب الخوارج من حكام الأقاليم ، كما تباهى أمنمحات بسيطرته على حكم الأقاليم بقوله « لقد خضعت لى الفنتين ثم تقدمت شمالا حتى توغلت فى الدلتا ، ومن ثم وصلت الى حدود البلاد ، ومكثت هناك اتفقد معالمها : لقد اعتمدت على قوتى ومددت نفوذى فى كل مكان وأصبحت كلمتى تطاع على الفور » (٢٩) .

وقد اهتم أمنمحات بتحديثه حدود الأقاليم لتجنب المنافسة بين حكامها ، مما ساعد على توزيع المياه بالعدل بينها ، والعناية بالترع وتحسين استغلال الأرض الزراعية مما حقق بذلك الرخاء للبلاد . كذلك استمر فى ارسال البعثات الى المحاجر والمناجم فما نسمح له بنشاط معمارى ملحوظ وساعد على تشييد المباني الدينية فى شتى أنحاء البلاد .

وقد بذل أمنمحات جهدا كبيرا فى سبيل تأمين حدود مصر الشرقية فقوى الحصون القديمة وأقام عددا من الحصون الجديدة

أطلق عليها اسم « حانط » الحاكم أو الأمير ، وذلك لمنع تسرب البدو الذين طاردهم وأوقف هجماتهم تقريبا . كما يبدو أن هجمات الليبيين كانت تهدد الدلتا كما تشير الى ذلك تنبؤات « نفرتى » الذى أكد أن امنى سوف ينقذ البلاد من الليبيين . ومن ثم فقد شيد بعض الحصون ، لا يزال بقايا بعضها فى اقليم وادى النطرون ، كما طارد الليبيين وأرسل جيشا بقيادة ولى عهد « سنوسرت » لصددهم ، نجح فى أسر عدد كبير منهم وفى الحصول على قطعان من الماشية « تفوق الحصر » كغنيمة .

كذلك أفادتنا نصوص من عصره انه خطط لاختضاع بلاد « واوات » النوبة السفلى لتأمين سلامة جنوب مصر وضمن مرور تجارة العاج وريش النعام وجلود الحيوانات والأبنوس وغيرها من منتجات الجنوب وكذلك الحصول على الذهب والأحجار وخاصة الإجرانيت والديوريت بالإضافة الى تجنيد رجال « الماجاي » (قبائل البجاه الحالية فى صحراء النوبة الشرقية) ذوى القدرات والمهارات العسكرية المتميزة .

ورغم سيرته المجيدة وما حققه خلال حكمه من منجزات ، فانه يبدو أن نهايته كانت مفاجئة ، اذ دبرت احدى زوجاته مؤامرة ضده ، هادفة الى اقصاء ابنه « سنوسرت » عن العرش وتولية ابنها مكانه ، فاقترح المتآمرون مخدعه فى محاولة لقتله ، وليس لدينا حتى الآن من الوثائق ولا نملك من القرائن ما يسمح لنا بالقول بفشل المؤامرة أو بنجاحها اذ ربما كانت الحكمة وقتذاك قد اقتضت استثناء القضية من اجراءات القضاء العادية محافظة على سريتها (٣٠) .

وترتبط قصة « سنوهى » وهى من القصص الواقعى الذى يلقى ضوءا على الأحداث التى جرت فى ذلك الوقت ، وتعد مرآة

صافية لوجه الحياة في فلسطين حينذاك ، كما تشير بطريق غير مباشر الى الأزمات المتعلقة بوراثة عرش البلاد . ذكر سنوهي أنه قرر الفرار من مصر بمجرد سماعه بخبر وفاة الملك أمنمحات الأول وبعودة ولي عهده سنوسرت الفورية الى العاصمة للسيطرة بلاشك على الموقف ومن ثم فقد اتجه سنوهي من ميدان القتال في الصحراء الليبية شمالا ثم سار مع اتجاه البحر المتوسط شرقا حتى وصل الى أرض فلسطين ، حيث ظل ينتقل من مكان لآخر ، حتى استقر به المقام عند أحد شيوخ البدو . وقد نجح سنوهي في الحصول على ثقة ذلك الشيخ ، الذي اغراء بالاقامة معه وزوجه إحدى بناته وأقطع خيرة أراضيه . وقد عاش سنوهي هناك مكرما حتى أدركته الشيخوخة ووفق في العود الى مصر بعد أن طلب من ملك مصر (سنوسرت الأول) العفو عنه ، ودون أن يذكر في قصته السبب في طلب العفو ، وقد كرمه الملك بعد عودته وسعد سنوهي بتلك العودة الى الأرض التي ولد بها .

ويبدو من هذه القصة أن سنوهي ، كان في أغلب الظن من الحزب المعادي لولي العهد سنوسرت فلما بلغه خبر وفاة أمنمحات وخاف اكتشاف أمره ، قرر الفرار الى فلسطين حيث مكث بها الى أن هزه الحنين في أواخر أيامه للعودة الى مصر ، ونجح أخيرا في تحقيق أمنيته .

وقد كتب أمنمحات وصية لابنه لتكون بمثابة دستور يسترشد به في حكمه للبلاد فذكره فيها بالمؤامرة التي دبرت ضده والتي هاجمه فيها المتآمرون بينما كان يغط في النوم وأنه نهب لصدهم بشجاعة ولكنه على حد قوله « لو كان لدى سلاح لجعلت هؤلاء الجبناء يفرّون ، ولكن أهنأك شجاعة في الظلام ؟ وهل يمكن احراز النصر دون مساعدة ؟ » ويرجح هذا القول الرأي الذي

يؤكد نجاح المؤامرة ، وأن الوصية قد كتبت لتكون بمثابة مبادرة يستند اليها سنوسرت في حكمه للبلاد . ولكن هناك رأيا آخر يتصور أن أمنمحات سواء أصيب أو لم يلحقه أذى كبير قد نجا من تلك المؤامرة وأنه قد كتب هذه الوصية توطئه لاشتراك سنوسرت معه في الحكم ولتقوية موقفه عند امتلاكه للعرش .

وتوضح الوصية كيف ان أمنمحات قد املأت نفسه بالشك والريبة فأخذ يحذر ابنه من الناس ، حتى من أقرب الناس اليه ، ويوصيه بعدم الثقة بأحد ذاكرا له أنه « قد أعطى السائل وأعان اليتيم وساعد المسكين وعامل الضيع كعاملته للكبير ، ومع ذلك فان كل من أعانه قد رد معونته بالكيد » .

وقد توفي أمنمحات الأول بعد حكم دام قرابة الثلاثين عاما وتولى من بعده سبعة حكام ، نهضت البلاد في أيامهم نهضة شاملة ، وتمتعت بقسط كبير من الرخاء والعمران ، وخاصة في عهد سنوسرت الثالث وخليفته أمنمحات الثالث . وقد أقام أمنمحات الأول لنفسه هرما في اللشت من الطوب النى ، كساه بالحجر الجيري كما بنى الى الشرق منه معبدا جنائزيا ، كما شيد عظاما عصره ورجال بلاطه قبورهم بالقرب من هرمة .

٢ - سنوسرت الأول (٣٠) :

اشترك سنوسرت مع أبيه في الحكم لمدة اختلف العلماء في تقديرها ، كما أشرك هو بدوره ابنه أمنمحات (الثانى) معه في الحكم . وقد نجح سنوسرت في السيطرة على البلاد بعد وفاة والده وسلك مسلكه ، وهو مسلك كله حزم وعزم ، وواصل خطط أبيه الخاصة بنشر الرخاء وتأمين الحدود . وقد عثر على بردية ممزقة في معبد الرمسيوم بطيبة الغربية تشير الى حفل تشويجه (٣٢) .

وقد أرسل سنوسرت الحملات لتأديب البدو على حدود مصر الشرقية ولتأمين التجارة مع جنوب غرب آسيا ، كما بعث بحملات تأديبية ودوريات عسكرية الى الصحراء الغربية للمحافظة على المواصلات وتأمين الاتصالات مع واحات تلك الصحراء وقد حمل أحد وزرائه « منتوحتب » لقب رئيس الصحراء الغربية ، كما تشير لوحة لذلك الوزير الى مواصلة سنوسرت لسياسة أبيه في النوبة اذ مثل الملك واقفا أمام الاله منتو « اله الحرب » يستعرض أسرى الأراضي الجنوبية ومن بينها أسرى من بلاد كوش (النوبة العليا السودانية) .

والواقع أن سنوسرت قد قوى قبضته على النوبة السفلى واقام التحصينات هناك (٣٣) .

وقد استغل سنوسرت مناجم الذهب بالصحراء الشرقية واستخرج المعادن من وادي الحمامات كما عثر على اسمه في محاجر حاتنوب وقد يسر له ذلك اقامة العديد من العمائر عثر على آثارها في الكثير من الأماكن كما بنى معبدا لاله الشمس في هليوبولس (المطرية بالقاهرة حاليا) لم يبق منه الا مسلة ، يبلغ ارتفاعها حوالي عشرين مترا ، وقد ذكر الجغرافي عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر في القرن الثاني عشر الميلادي ، أنه شاهد مسلتين عظيمتين متوجتين بقمعين من النحاس ، وكانت احدهما قائمة أما الثانية فملقاة على الأرض .

وقد شيّد سنوسرت مقصورة من الحجر الجيري الأبيض عثر على أحجارها داخل الصرح الثالث بمعبد أسوان بالكرنك . وقد أعادت مصلحة الآثار اقامتها بالقرب من الصرح الأول للمعبد وتعد نقوش هذه المقصورة البديعة من أروع ما أخرجته الفنان المصري

خاصة تلك التي سجلت رموز أقاليم مصر في تلك الفترة وجددير بالذكر أنه قد عثر لذلك الملك على آثار في جبيل (ببلوس) بلبنان مما يدل على سعيه لاعادة العلاقات التجارية القديمة .

وقد شييد سنوسرت لنفسه هرما بجوار هرم والده الى الجنوب منه بجبانة « اللشت » وقد بناه أيضا بالطوب التي وكساه بالحجر الجيري كعادة ملوك تلك الأسرة وترك لنا رجل يدعى « مري » نقوشا تشير الى أنه قد أشرف على بناء ذلك الهرم وقد عثر على عشرة تماثيل من الحجر الجيري تمثل الملك جالسا بجوار معبد هرمة وتعد هذه التماثيل التي تفوق في حجمها حجم الملك الطبيعي والمعروضة الآن في المتحف المصري من أجمل آيات النحت التي نرجع الى الأسرة الثانية عشرة .

وقد لعب « حبي جفاى » الذي يعد من أهم رجال عصره ، دورا مهما في السيطرة على بلاد النوبة وقد عثر له على مقبرتين ، احدهما في كرما بالنوبة العليا والثانية في أسيوط ، تعد من أضخم المقابر التي ترجع الى أيام الدولة الوسطى .

٣ - أمنمحات الثاني :

شارك أباه في الحكم كما أتبع سياسته . وقد تميز عصره بالهدوء والاستقرار وازدهرت في أيامه أحوال البلاد الاقتصادية وازدادت ثروتها : .يوقد أعطى أهمية خاصة لاستغلال المناجم والمهاجر في الصحراء الشرقية وسيناء والنوبة كما أرسل البعثات الى بلاد بنبت ، ويرجع البعض قصة « الملاح الغريق » الى أيامه وهي قصة تشبه قصص السنديباد البحري وروبنص كروزو وتحكى قصة بحار غرقت سفينته في البحر الأحمر وتصور مغامراته حتى عاد الى وطنه .

وقد اشترك ابنه معه في الحكم كما فعل سلفه • ويشبه عصره بعصر الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة نظرا لأن عهده كان عهد سلام بين فترتي حرب ولأنه اهتم باستخراج ثروة مصر الحجرية والمعدنية الكامنة في صحارى مصر كما أرسل بعثة الى بلاد بتت وأيضا قام باصلاح وترميم بعض آثار الأقدمين كما فعلت حتشبسوت بما خربه الهكسوس (٣٤) •

ويشير نقش على لوحة جنازية بابيدوس الى أن «سى حتحور» أحد رجاله قد قام بزيارة للنوبة لاحضار بعض منتجاتها ، كما يبدو أنه نجح في تطوير علاقاته مع الدول المجاورة ، اذ عثر في معبد طود على اوان تدل صناعتها على أنها جاءت من جزيرة كريت أو من جنوب غرب آسيا • كذلك كشف دى مورجان في مقبرة الأميرة «خنمنت» وغيرها من الأميرات ، على عقود واكاليل ، وكذا على خناجر من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة تتميز بالبراعة وحسن الذوق ، معروضة الآن في متحف القاهرة •

وقد ذكر مانثيون أن هذا الملك قد قتل بيد بعض رجال بلاطه ويبدو أنه قد خلط في هذا الشأن بين نهاية هذا الملك ونهاية أمنمحات الأول الذى دبرت مؤامرة في أواخر أيام حكمه لاغتياله • وقد بنى هذا الملك لنفسه هرما بدهشور الى الجنوب من هرمى سنفر وأضحى الآن مخربا تماما •

٤ - سنوسرت الثانى :

كان عصره عصر سلام ، وان كان هناك ما يوحي بأن بعض الاضطرابات قد بدأت في أيامه ، ولكن ذلك لم يمنعه من انجاز الكثير من المشروعات وخاصة في مجال العمارة الدينية كما بنى معبدا للاله حريشاف في أهناسية المدينة ، عثر على انقاضه

الأثرى السويسرى « نافيلى » فى أوائل القرن الحالى • ولا تقل
الحلى التى عشر عليها فى قبور الأميرات من عصره باللاهون فى
روعتها عن تلك التى عشر عليها فى عهد سلفه فى دهشور ، والمحفوظة
هى الأخرى بمتحف القاهرة • وقد عشر على تمثال له فى أوجاريت
« رأس شمرا » بفينقيا (لبنان الحالية) ، مما يدل على استمرار
الصلات التجارية بتلك البلاد •

وهناك نقش فى مقبرة حاكم إقليم الوعل « خنوم حتب
الثالث » بجبانة بنى حسن ، يمثل وصول مجموعة من
(الفلسطينيين) يبلغ عددهم ٣٧ فردا بقيادة أميرهم « ابشا » فى
السنة السادسة من حكم ذلك الملك • وكانوا خليطا من الرجال
والنساء والأطفال وقد صحبوا معهم حيواناتهم وحملوا متاعهم
وأسلحتهم وآلاتهم الموسيقية ، وأرتدوا ملابس مزركشة وتزينوا
بزينة تختلف تماما عن زينة المصريين • وعلى الرغم من أن زعيم
القبيلة قد تلقب بلفب « حكا خاسوت » أى حاكم البلاد الأجنبية
الذى اشتق منه مانتيون لفظ (هكسوس) فان الأبحاث الحديثة
لا تربط بين هذه القبيلة وغزاة مصر من الهكسوس فيما بعد (٣٥) •

وقد أقام سنوسرت الثانى هرمه باللاهون عند مدخل إقليم
القيوم الجنوبى فوق ربوة صخرية قام باصلاح جوانبها • ورغم
صغر حجم ذلك الهرم نسبيا ، فان بانيه قد حرص على الاكثار
من الغرف والسراديب داخله وعلى اخفاء مداخله أملا فى تضليل
الصوص اذا ما حاولوا نهبه •

ونظرا لأن اللاهون كانت من الأماكن البعيدة نسبيا عن
العمران فقد اضطر فرعون الى تشييد مدينة صغيرة ليقطنها العمال
الذين شيّدوا هرمه ويبدو أنها هجرت بعد مدة قصيرة ، ولذا لم

تتعرض لعوامل الهدم والتدمير كما حدث لغيرها من المدن ، وظلت مدفونة تحت الرمال الى أن عشر العالم الانجليزي « بترى » في أواخر القرن التاسع عشر على اللاهون التي حرفها في كتاباته الى كاهون وهكذا أباط هذا الكشف المهم عن مدينة عمالية قديمة ذات مساكن متماثلة التنظيم ، وان اختلف اتساعها وفقا لمركز شاغلها الاجتماعي وقد عثر بمساكنها على الكثير من أدوات البناء والتجارة والاستعمال اليومي وبقايا قطع الأثاث ولعب الأطفال وغير ذلك من لوازم الحياة اليومية وكذا على عدد كبير من البرديات الخاصة بالادارة والقانون وما يتصل أيضا بالعلوم الرياضية والفلك . وهناك من العلماء من يعتقد أن سنوسرت الثاني هو الذي بدأ المشروع الخاص بالتحكم في مياه النيل عند الفيوم ، واستغلالها في التخزين وري الأرض .

وبموت هذا الفرعون انتهت فترة السلام التي سادت في الفترة الأولى من حكم هذه الأسرة ومن ثم بدأ نشاط حربي ملحوظ منذ تولى خامس ملوك الأسرة « سنوسرت الثالث » حكم البلاد .

٥ - سنوسرت الثالث :

يعد هذا الفرعون من أهم ملوك الدولة الوسطى (٣٢) لتمييزه بشخصية حربية حازمة ، مما جعل بعض المؤرخين يشبهونه بتحتمس الثالث الذي بنى فيما بعد امبراطورية مصر في الشمال والغرب مثلما بناها « سنوسرت الثالث » في الجنوب . وقد ظلت ذكراه عاطرة لدى الأجيال التي تلت عصره ، كما روى عنه من الأساطير ما وصل الى آذان كتاب الاغريق ، بل لقد رفع في العصور المتأخرة الى مصاف المعبودات .

ولعل أهم أعماله هو مطاردته للعصاة من النوبيين وهزيمتهم من خلال أربع حملات ، ربما قاد بعضها بنفسه ، ومن ثم فقد نجح

في توطيد الأمن بالنوبة وربطها بمصر برباط قوى . ورغبة منه في ضمان استمرارية انتصاراته العسكرية ، فقد شيد عددا من الحصون ، لعل أهمها حصنان متقابلان بالقرب من وادي حلفا في منطقة الجندل الثاني ، هما حصنا « سمنا وقمة » لمراقبة تحرك من تسول له نفسه الاعتداء ، كما وضع في هذه الحصون حاميات مصرية يمكنها القيام بالردع الفوري اذا لزم الأمر . وقد قام أيضا بشق طريق للسفن من خلال صخور الجندل الأول ، سمي « طريق خع كاورع » (أي سنوسرت الـ ٣ الجميل) وذلك لتسهيل الملاحة والحد من قوة تيار المياه ، وقد وضع لوحة في سمنا حذر فيها أي زنجي من محاولة اجتياز الحدود عن طريق النيل أو برا الا باذن خاص وقد ختم حديثه بقوله « أن من يحافظ على هذه الحدود سيصبح ابني الذي ولد مني أما من يتجاهلها أو يهملها فليس بابني ولم يولد مني » (٣٧) .

ومما لاشك فيه أن الاستراتيجية العسكرية في ذلك الوقت كانت استراتيجية دفاعية ، فقد عثر على بردية ربما ترجع الى أيام سنوسرت الثالث ذكرت سبعة عشر حصنا مصرية ، ما بين منطقة الجندل الأول ، ومنطقة سمنا (جنوب الجندل الثاني مباشرة) ، وهي المنطقة التي عدها المصريون بمثابة منطقة عازلة بين مصر ومصدر الخطر الحقيقي وهو بلاد « كوش » ومما يؤكد الطبيعة الدفاعية لتلك الحصون أن المصريين قد أسموها بأسماء تدل على طبيعتها مثل « قمع القبائل » و « صيد المجا » (قبائل ذات طبيعة عسكرية ، أغلب الظن أنها تعرف الآن بقبائل البجاء) و « قنص الرتنو » (بدو سيناء وجنوب فلسطين) .

وقد غزا سنوسرت الثالث جنوب فلسطين ، ومهد بذلك لملوك الدولة الحديثة غزو سورية ، مثلما سبق أن مهد ملوك الدولة القديمة لملوك الدولة الوسطى فتح النوبة . وقد ذكر ضابط يدعى

« سبك خو » على لوحة عثر عليها في أبيدوس ، أنه وصل الى بلدة سكييم (في أواسط فلسطين) حيث رد هجمات أهل هذه المنطقة من الرتنو ، ولو أن ما ذكره الضابط لا يعنى اطلاقا استيلاءه على تلك المنطقة (٣٨) .

وقد اتخذ سنوسرت الثالث اجراءات حاسمة للقضاء على نفوذ حكم الأقاليم وأخضع من ناواه بالقوة ، فتوقفوا فجأة عن نحت مقابرهم في مقاطعاتهم ، واختفت مظاهر الحكم الاقطاعي ابتداء من عصره وطوال أيام الدولة الحديثة من بعده ، ويبدو رغم ذلك أن حكام الأقاليم قد ظلوا على جانب كبير من الثراء فهناك منظر بقبر « تحوتى حتب » حاكم اقليم الأشمونين بجبانة البرشنا بمحافظة المنيا الحالية ، تمثل نقل تمثال للحاكم ، تدل ضخامته وكذا عدد العمالة المستخدمة في نقله ، على قدرات ادارية ومادية فائقة وكذا على التنظيم الرائع لمئات العمال الذين اشتركوا في النقل من خلال نظام عسكري محكم . ومع ذلك فقد أكد تحوتى في النص المدون على المنظر انه لم يقم بهذا العمل الا بعد استئذان ملكه وبعد أن سمح له بقطع الحجر من محاجر المرمر بحاتنوب ، كما اشاد برضا الملك عنه وعطفه عليه .

ويبدو أن الأمن كان مستتباً الى حد كبير بالصحراء الغربية ، وأن التبادل التجاري بين مصر والقاطنين في الصحراء قد استمر ، إذ يذكر لنا « حغو » في نقش له مدون بوادى الحمامات أن ملكه « سنوسرت الثالث » قد أرسله ليحلب له منتجات بلاد « التحنو » . ومن المعتقد أن سنوسرت الثالث قد حفر قناة في شرق الدلتا ، وصل بها بين النيل وخليج السويس عن طريق وادى الطميلات والبحيرات المرة . وتعد هذه القناة أقدم طريق مائى وصل ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عن طريق النيل . وقد أسماها المؤرخون القدماء قناة سيزوستريس .

وقد أرسل سنوسرت البعثات الى الصحارى المصرية لجلب الأحجار والمعادن مما أدى الى تقدم الفن ، وبعد تمثال « أبو الهول » من حجر الديوريت ، والذي عثر عليه في طيبة ومعرض الآن في متحف متروبوليتان من روائع ما تركته تلك الأسرة من تماثيل كما أنه فن يمثل الدولة الوسطى خير تمثيل وقد ذكر لنا « خعو » على لوحة بوادى الحمامات انه قد صدرت اليه الأوامر بالذهاب الى وادى الحمامات ليحضر لمليكة أحجارا جيدة لاستخدامها في بناء معبد في أهناسية لمعبودها المحلى « حريشاف » .

وقد أقام سنوسرت عمائر دينية فى الكرنك وأبيدوس وغيرهما كما شيد هرما يشبه أهرامات أسلافة فى دهشور ، أقيمت من حوله مقابر النبلاء وسيدات بيته ، حيث عثر على بعض الخنثى الرائعة .

وقد توفي سنوسرت بعد أن حكم مدة طويلة ، كما أشرك ابنه أمنمحات (الثالث) - فى السنوات الأخيرة - فى الحكم ، تاركا مصر فى أوج مجدها ، وقد أصبحت دولة متحدة ، ذات حكومة مركزية قوية ، كما أصبحت فى مأمن من غارات جيرانها . وقد جعلت هذه الأعمال منه بطلا أسطوريا فى نظر الأجيال المقبلة فأقام له تحتمس الثالث عادة خاصة به فى « سمنة » ، وأضحى من معبودات النوبة الرئيسية بجانب خنوم معبود أسوان وددون رب النوبة وقد عبر المصريون عن تقديرهم وتمجيدهم له فى قصيدة شعر عشر عليها فى اللاهون ، نقتطع منها ما يلى :

أنت عظيم يا ملك بلده : أنت كالسد القوى الذى يوقف
ثورة النهر عند فيضانه .

أنت عظيم يا ملك بلده : أنت كالظل الوارف الذى أنعشنا
فى أيام الصيف .

أخذه عظيم يا ملك بلده : أنت كالركن الدافئ في أيسام
الشتاء .

أنت عظيم يا ملك بلده : أنت كالجبل الذى يحمى من
العواصف عند زمجرة السماء .

كما أشادوا به فى هذه القصيدة التى جاء بها .

جاءنا فوجد الأرضين وحمل رمز الوجهين

جاءنا فحمى القطرين ومنح أرضهما السلامة

جاءنا فأحببه الناس إذ أذهب عنهم الغمة

جاءنا فمد الحياة للناس وجعلهم يتنفسون الهواء

٦ - أمنجات الثالث :

كان اداريا حازما وسياسيا حكيما وبناء كبيرا ، وكان عهده
الطويل المزدهر عهد سلام واستقرار وتعمير ، بعد الحروب التى
خاضها أبوه ، ويبدو أنه قد أحسن الاستفادة من استقرار الأمن
وتوطد السلام (٣٩) ، وعدم تعرض فترة حكمه لمشاكل تذكر ،
فاتجه الى تحسين احوال البلاد اقتصاديا وكرس وقته لتوفير الرخاء
واقامة المشروعات التى تعود بالخير على البلاد . وقد احتل
أمنجات مكانة رفيعة فى نظر معاصريه ، كما ظلت سيرته تتردد فى
ثنائنا العصور ، ورفعته الأجيال المصرية التالية كما رفعت والده
من قبل الى مصاف الآلهة والأرباب .

وقد تميز عهده ببرنامج طموح للرى والتوسع الزراعى ،
تركز بوجه خاص فى منخفض الفيوم ، الذى يمثل واحة فى الصحراء
الغربية تنخفض كثيرا عن مستوى سطح البحر . وتصل اليها مياه

النيل عن طريق فتحة في التلال في جنوب المنخفض عند اللاهون يمر فيها بحر يوسف ليصب مياهه في بحيرة موريس التي تقع في النصف الشمالي من المنخفض (٤٠) . وقد أقام أمنمحات الثالث خزاناً طبيعياً يمتلئ وقت الفيضان بالمياه التي تستخدم في وقت التخاريق (قبل مجيء الفيضان الجديد) وقد ذكر هيرودوت أن ذلك الخزان كان يسمح برى الأرض وقت الحاجة لمدة مائة يوم كما أشاد استرابو عند زيارته للمنطقة بنظام تخزين المياه هناك ، مما يدل على استمرار المشروع حتى القرن الأول قبل الميلاد ويبدو أن أمنمحات قد شق الترع وبني الجسور في إقليم الفيوم مما نتج عنه استصلاح أرض شاسعة هناك ، ساعدت بلا شك على رخاء مصر الاقتصادية في عهده وذكر هيرودوت أنه شاهد بنفسه تمثالين عظيمين نصبهما أمنمحات لنفسه ليشرفاً على مشروعه الكبير

كذلك أقام أمنمحات مقياساً للنيل في سمنا عند الجندل الثاني لتسجيل مناسيب الفيضان منذ دخوله إلى مصر . وتشير النقوش الصخرية إلى الأعوام التي ارتفع فيها منسوب المياه نتيجة لتدفق الفيضان عالياً . ولا شك أن هذه التسجيلات قد ساعدته في تقدير كميات الحبوب المطلوبة كضرائب وكذا تلك التي يجب تخزينها وتوزيعها لوقت الحاجة .

وقد اهتم ذلك الملك بإرسال البعثات إلى النوبة والصحراء الشرقية ، كما أبدى اهتماماً خاصاً باستخراج النحاس من سراييط الخادم في غرب سيناء حيث أقام مساكن للعمال وحفر الآبار لإمدادهم بالماء ، وبني معبداً للإلهة حتحور والإله ميدو الذي عبد في شرق الدلتا وسيناء .

وقد شيد أمنمحات الثالث هرما في دهشور في حين تم دفنه في هرمة في هواره بالقرب من مدخل الفيوم الشمالي والذي نهب تماماً رغم محاولات أمنمحات كأسلافه لتصميمه بشكل يضمن

الليصوص ، وقد بنى بجانيه معبده الجنازى الذى عده الاغريق اعظم عجائب مصر المعمارية وأسموه قصر اللابرنته (٤١) . وتميز بكثرة عرفه وممراته ومن ثم فقد أطلق عليه أيضا اسم قصر التيه ، وقد مات أمنمحات الثالث قبل أن يتم العمل فيه فأكملة أمنمحات الرابع ثم من بعده الملكه سبك نفرو آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة .

وقد بدأ أمنمحات فى اقامة معبد فى كوم ماضى فى جنوب غرب اقليم الفيوم للمعبودة « زتنوب » ربة الحصاد ، أكمله ابنه أمنمحات الرابع . ويكاد هذا المعبد أن يكون المعبد الوحيد الذى بقى قائما من أيام الدولة الوسطى كذلك عثر على بقايا عمائر ديتية لهذا الملك فى ادفو والكرنك وايبيدوس وأهناسيه وكيمان فارس بالفيوم ومنف والكاب (٤٢) .

ومما لا شك فيه أن فن النحت قد ارتقى فى عهده ، كما يبدو من تماثيله التى فى مقدمتها تمثال له وهو فى مية الصبا ، معروض الآن بمتحف القاهرة . وقد توفى ذلك الملك الذى يعد من أبطال السلام ، والذى بذل جهدا كبيرا فى سبيل توفير حياة كريمة لشعبه ، بعد أن حكم مدة طويلة وبعد أن اشرك ابنه أمنمحات الرابع معه فى الحكم فى أواخر أيامه .

٧ - أمنمحات الرابع :

حكم مدة قصيرة ، قدرتها بردية تورين بتسعة أعوام . ولم يكن قويا كآسلافه مما أدى الى فقدان الأسرة المالكة لقوتها وحيويتها . ومن ثم فقد بدأ الانهيار يذب فى أوصال المملكة كما أخذت عوامل الاضمحلال والضعف تنخر فى كيان الدولة ، وقد أكمل هذا الملك معابد أبيه ، كما عثر له على بعض الآثار فى طيبة واللاهون ويعتقد البعض أنه قد دفن فى أحد الهرمين القائمين فى مزغونة بالقرب

من دهشور بينما دفنت الملكة سسبك نفرو (٤٣) « التي شاركته
أو خلفته » في الهرم الثاني . وقد توفي هذا الملك دون أن يترك
وريثا يخلفه في حكم البلاد .

٨ - الملكة سسبك نفرو :

احدى بنات أمنمحات الثالث في أغلب الظن ، علما بأن مانشيون
ذكر أنها أخته . وقد تلقبت بالألقاب الملكية كاملة ، كما تدلنا على
ذلك اسطوانة من الأردواز بالمتحف البريطانى بلندن . وتعد هذه
الملكة الثانية بعد نتو كريس التي وضعت اسمها داخل خرطوش ،
وقدرت برديه تورين مدة حكمها بثلاث سنوات . وقد عثر لها على
عدد محدود من الآثار في تانيس وهواره وأهناسية .

ومن الواضح أننا لم نتعرف بشكل حاسم على الطريقة التي
أوصلتها الى العرش أو العوامل التي أدت الى انتهاء حكمها بعد مدة
قصيرة ومن ثم الى انهيار الأسرة الحاكمة والى اضمحلال البلاد
اضمحلالا شبيها بالانحلال الذى حدث في أعقاب الأسرة السادسة
وان كان في هذه المرة قد تميز بعنصر الفجائية والغموض التام .

نظرة سريعة في أحوال مصر أيام الأسرة الثانية عشرة :

نهضت مصر في عهد هذه الأسرة نهضة شاملة وتمتعت بقسط
لا بأس به من الرخاء لاهتمام الدولة بالنشاط الاقتصادى وسعيها
لتحقيق الإنجازات التي تعود على الشعب بالخير ، ونتيجة لسيادة
القانون واستتاب الأمن . وقد تمكنت مصر في عهد هذه الأسرة من
اتخاذ اجراءات حاسمة للقضاء على نفوذ حكام الأقاليم التقليديين
وتحويلوا الى حكام يرعون مصالح أقاليمهم ولكنهم في نفس الوقت
ينفذون توجيهات وطلبات الملك نفسه ، وقد اختلف ملوك الدولة

الوسطى عن أمثالهم في الدول القديمة اذ أضحى الملك يعتمد على قوته وشخصيته بدلا من الاعتماد على قداسته والوهبتة ، وأصبح الملك في عهد هذه الأسرة زعيما ورئيسا من البشر يتولى ادارة شؤون البلاد في ظل الاجلال والتقدير الذي تحوطه القداسة والتبجيل .

كذلك سعى ملوك هذه الأسرة الى حماية حدود البلاد في الشرق والغرب والجنوب ضد المغيرين وعمدوا الى تكوين جيش مدرب على القتال مستعد دائما للنزال ، يمثل في نفس الوقت قوة البلاد وسطوة الملك . وقد عمل ملوك هذه الأسرة على تقوية ذلك الجيش النظامى وبنوا له الحصون فى النوبة وغيرها وخاضوا به العديد من المعارك فى سبيل تمصير الجزء الشمالى من النوبة وردع الليبيين فى الصحراء الغربية بل لقد وصل هذا الجيش حتى مشارف فلسطين .

وقد قامت هذه الأسرة بمحاولات لتوطيد علاقاتها السلمية بجنوب غرب آسيا وخاصة فى فينيقيا فعثر فى أوجاريت على تمثال لسنوسرت الثالث وتمثال لزوجته سنوسرت الثالث وآخر لأمنمحات الثالث على شكل أبو الهول . وكذا على مجموعة تمثل أحد وزراء مصر مع سيدتين من أسرته ، مما يدل على علاقة قوية بين مصر وذلك المركز التجارى المهم ، كما ظلت الصلة قوية مع جبيل وكذا مع بلاد ينت . ويرجع أيضا قيام صلة تجارية بين مصر وجزر شرق البحر المتوسط اذ عثر على بعض الآثار المينوية (حضارة جزر بحر ايجه) ، كما تدل هجرة قبيلة ابشاش التى سجلتها احدى مقابر بنى حسن على العلاقة السلمية السائدة حينذاك بين مصر وفلسطين .

وقد أدت حالة الاضطراب فى العصر المتوسط الأول الى تدهور وسائل الرى وازمحلال الزراعة مما ألقى بمسئوليته تنمية موارد

البلاد على كاهل ملوك الأسرة الثانية عشرة الذين بذلوا الكثير من الجهد في سبيل ضبط المياه وتنظيمها .

ويبدو أن فراغنة الدولة الحديثة قد استغلوا معابد ملوك الأسرة الثانية عشرة وبنوا على انقاضها معابدهم فلم يبق لنا من عمائرهم الدينية سوى معبد كوم مدينة ماضى ومقصورة سنوسرت الاول بالكرنك أما أهراماتهم في دهشور واللشت ومزغونة وهوارة واللاهون فقد تميزت بصغر حجمها نسبيا وبأنها مبنية باللبن المكسو من الخارج بالحجر الجيري ، كما عملوا على أخفاء معالم مداخلها والاكتار من السرايب والممرات بداخلها . وقد بلغت صناعة الحلى الذهبية والمرصعة بالأحجار الكريمة والشبه الكريمة التى تضم تيجانا وصدريات وعقودا وأساور وغيرها درجة كبيرة من التقدم والابداع سواء من حيث دقة الصناعة أو جمال الذوق أو القدرة على الابتكار وخاصة تلك التى عشر عليها في اللشت واللاهون ودهشور والتى قد لا تقل في روعتها عن الحلى التى عشر عليها في المقابر الملكية أيام الدولة الحديثة .

ويعتبر عصر الدولة الوسطى بوجه عام والأسرة الثانية عشرة بوجه خاص أزهى عصور الأدب المصرى . وقد عد المصريون الذين عاشوا بعد أيام الدولة الوسطى مخلفاتها الأدبية نموذجا للأسلوب الجيد فعمدوا الى تقليده والاحتذاء به . وقد شملت النهضة الأدبية في ذلك العصر كافة مجالات الأدب من دينى وتهذيبى وشعوى ثم القصص بوجه خاص .

وقد تميز عهد الدولة الوسطى بوجه عام بشيوع عبادة اوزوريس وخاصة في أبيدوس التى أضحت مقرا لعبادته دون ان يكون لتلك المدينة طابع سياسى معين ، أو لكهنتها مطمح سياسى

أو مادي . وقد كثر الحجيج الى ابيدوس لأهداف جنازية بوصفه رب الموتى كما صور على نصوص الأكفان التي انتشرت في عهد هذه الدولة ، ومع ذلك فبالرغم مما تمتعت به مصر أيام الدولة الوسطى من قيم ديموقراطية فقد أخذت في التقلص تدريجاً . ومن ثم فإن مصر قد تمكنت في أيام الدولة الوسطى في ظل حكومة تركزت على نفس الأسس الدينية والسياسية والإدارية التي ارتكزت عليها حكومة الدولة القديمة ، من استرداد مكانتها الأولى التي عرفتها لها الدنيا في عصر بناء الأهرام ، كما نجحت بعد اتحادها للمرة الثانية في بعث حضارة تماثل حضارة الدولة القديمة من حيث طابعها المصرى الأصيل ، إلا أن الأحداث التي سبقت أيام الدولة الوسطى وعاصرتها قد أكسبت تلك الحضارة بعض الملامح والاتجاهات مما قد يختلف في بعض النواحي عن مظاهر حضارة الدولة القديمة .

وقد كانت نهاية الدولة الوسطى شبيهة الى حد كبير بختام أيام الدولة القديمة إذ خلف الملك أمنمحات الثالث ملك ضعيف تلاشى على يديه نفوذ فرعون ، فكان ذلك نذيراً بانتهاء أيام تلك النهضة . وسقوط الأسرة الثانية عشرة وأفول نجم الدولة الوسطى ، ثم ما تبع ذلك من دخول مصر في عصر من عصور الفوضى والظلام هو العصر المتوسط الثانى حوالى سنة ١٧٨٥ قبل الميلاد .

العصر المتوسط الثاني الأسر ١٣ - ١٧ (١٧٨٥ - ١٥٥٢) :

تمهيد :

يعد عهد الأسرة الثانية عشرة من أزهى عصور مصر دون شك ، وخاصة أيام الملك أمنمحات الثالث الذى يمكن اعتباره من أعظم الفراعنة ، ومع ذلك فقد بدأت البلاد فى الضعف ونهضتها فى الاضمحلال فى عهد أمنمحات الرابع وسبك نفرو (رع) وما لبثت مصر أن دخلت فى عصور من عصور الاضمحلال والفوضى جرت العادة على تسميته بالعصر المتوسط الثانى (٤٤) . ولعل أشد أيام ذلك العصر اضطرابا وغموضا هى الأيام التى تلت سقوط الأسرة الثانية عشرة مباشرة حين كثر تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش وكل ذى قوة أو سطوة الى عرش البلاد ، ما يكاد يجلس أحدهم عليه قليلا ، حتى يخلفه أو يغتاله آخر ليحل محله ، كذلك اشتد النضال بين حكام الأقاليم بعضهم مع بعض من جهة وحكام الأقاليم والقصر من جهة أخرى وقد نتج عن ذلك أن تمهدت المؤامرات واندلعت الثورات وتتابعت الحروب الأهلية ، فساد التفكك واضطرب الأمن واختل النظام وتسرب الفساد الى كل مرافق الحياة وساءت الأحوال السياسية والاقتصادية وعجزت البلاد

عن دفع عجلة التقدم وعاد الحال - بعد فترة الدولة الوسطى التي تعد من ازهى عصور مصر - الى مثل ما كانت عليه في أعقاب الدولة القديمة .

وقد كانت النتيجة الحتمية لذلك ان سقطت البلاد حوالى سنة ١٧٨٥ ق م فريسة في يد عدو متربص بها اذ غزاها المغيرون من القبائل الرعوية التي أطلق عليها مانثيون اسم « هكسوس » واجتاحت مصر بسهولة وخضعت البلاد للمغيرين الذين سيطروا على الدلتا وتوغلوا في أرض مصر الوسطى بينما سيطر الليبيون على بلاد النوبة ولم تبق من مصر المستقلة نسبيا سوى رقعة ضيقة تحيط ببلدة طيبة أخذ حكامها في تقوية أنفسهم تدريجا ثم التحموا مع الهكسوس المغيرين فأيدهم الله بنصره ونجحوا في تطهير البلاد من هؤلاء الغزاة فانهوا بذلك عصرا بغيضا من عصور مصر الفرعونية وبدأوا عهد جديدا مشرقا هو عصر الدولة الحديثة .

ولم نتوصل حتى الآن الى عوامل الانحلال الذى أخذ بتلاييب مصر في ذلك العصر وهل كان سببه خارجيا ؟ ربما سببه في رأى البعض ظهور أعداء جدد لمصر في سوريا وفلسطين وكذا في بلاد النوبة ، خاصة بعد العثور على عدد غير قليل من الأواني الفخارية والتماثيل الطينية الصغيرة سجلت عليها نصوص تعرف حاليا تحت اسم نصوص اللعنة وتشتمل على تعاويذ سحرية وأدعية سحق أعداء فرعون في تلك الجهات مما يدل على ضعف حكام مصر وعدم قدرتهم على مجابهة الأعداء في ميادين القتال (٤٥) في حين يعتقد البعض الآخر أن ذلك الانحلال انما يرجع الى عوامل داخلية كانقسامات في العائلة المالكة أو المشاحنات بين حكام الأقاليم الذين استردوا سلطانهم بعد وفاة أمنمحات الثالث أو لغير ذلك من العوامل التي أدت الى تردى أحوال البلاد داخليا وخارجيا .

والواقع انه لم تمر بمصر طوال تاريخها القديم فترة أشده

غموضا وأكثر تعقيدا عند محاولة فهم أحوالها وتتبع أحداثها من تلك الفترة ، فالمصادر التاريخية يصعب الارتكان اليها ، والآثار قليلة ومتناثرة ، وقوائم الملوك لا تفيدنا كثيرا كما أن كتابات مانثيون والكتاب الاغريق لا يمكن الاعتماد عليها فيما يتعلق بذلك العصر . ورغم أن بعض المؤرخين يعطى هذا العصر مددا طويلة تضم مئات السنين فان الاتجاه العام الآن يتجه نحو تقدير فترة العصر المتوسط الثانى بما يقارب قرنين من الزمان ، ويمكن تقسيم ذلك العصر بوجه عام الى ثلاث فترات :

الفترة الاولى :

وتضم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، وهى فترة تفكك واضمحلال مهدت للفترة التالية .

الفترة الثانية :

وتضم الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وفيها وقعت البلاد فريسة للحكم الأجنبى بعد دخول الهكسوس مصر .

الفترة الثالثة :

التي تقابل أيام الأسرة السابعة عشرة لمانثيون والتي عاصرت ذلك الصراع المرير بين ملوك الهكسوس فى الشمال وأمراء طيبة فى الجنوب والتي انتهت بتحرير البلاد وقيام الدولة الحديثة .

الأسرتان ال ١٣ وال ١٤ (١٨٥ - ١٦٣٣) :

تعتمد الدراسة التاريخية لهذه الفترة على مصادر تاريخية محدودة للغاية ولقد حدثنا مانثيون عنها ذاكرا أن الأسرة الثانية عشرة قد خلفها ملوك نسبهم الى أسرة ترتبها الثالثة عشرة فى تقسيمه ، وأسماءهم الملوك الذين جاءوا بعد أسرة « أمنمحات » وأرجعهم الى

مدينة طيبة (٤٦) وقدر عددهم بسبعين ملكا حكموا لمدة ٤٥٣ عاما ،
أما ملوك الأسرة الرابعة عشرة فقد نسبهم الى مدينة سخا في شمال
غرب الدلتا وقدر عددهم بستة وسبعين ملكا حكموا مدة
١٨٤ عاما (٤٧) . ويبدو أن قوائم طويلة لحكام يدعى كل منهم انه
كان ملكا على مصر قد كانت أمامه وأوصلته الى تلك الأعداد الكبيرة
التي أوردها ، وربما لم يكن هؤلاء الملوك سوى حكام اقليميين
محليين يدعون لأنفسهم سلطة وسلطانا يتعدى حدود أقاليمهم .
ومما هو جدير بالذكر أن مانثيون لم يمدنا بأسماء أولئك الملوك .

وفيما يتعلق بقوائم الملوك فقد قدم مسرد الكرنك ما يقرب من
ثلاثين اسما لملوك تلك الفترة ولكن بطريقة غير متتابعة أو منظمة
بخلاف مسردى أبيدوس وسقارة فقد تعمدوا عدم الاشارة الى
هذه الفترة وانتقلا مباشرة من أيام الأسرة الثانية عشرة الى أيام
الأسرة الثامنة عشرة ، متجاهلين تماما فترة العصر المتوسط الثاني ،
في حين ذكرت بردية تورين أربعين ملكا من ذلك العصر . كذلك عثر
على بعض المقابر في منف وبعض البرديات واللوحات والتماثيل التي
قد تفيدنا فائدة محددة ، كما أن هناك العديد من الجعارين التي
وردت عليها عشرات من الاسماء الملكية . وتتميز بعض هذه
الجعارين بطلبها الآسيوي مما يرجعها غالبا الى عصر الهكسوس ،
أما تلك التي تميزت بطلبها المصري فان من الصعب في كثير من
الأحيان تحديده عصرها وهل ترجع الى الأسرة الثالثة عشرة أو الرابعة
عشرة أو لملوك جاءوا بعد ذلك .

وقد اتصفت هذه الفترة بالانهيار السياسي والاداري والأمني
وبالتدهور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وحدثت تطورات
أو هزات عنيفة انعكست على الفن والأدب اللذين فقدوا عناصر الإبداع
والتجديد وانحسرت مظاهر المساواة والعدالة الاجتماعية التي
تمنح عنها العصر المتوسط الأول .

الأسرة الثالثة عشرة :

كما سبق أن ذكرنا اعتبر مائثيون الأسرة الثالثة عشرة أسرة طيبية والواقع أن الآثار التي خلفها بعض ملوكها في طيبة ومدامود والطود ترجيح أصل هذه الأسرة الطيبية رغم العثور على مقابر عدد من ملوكها في جبانة منف (سقارة ودهشور ومزغونة) بجانب بعض التماثيل واللوحات وموائد القرابين والكتل المعمارية في العديد من أنحاء مصر مثل الفنتين وقفت وابدوس ثم اللاهون حيث عثر على كميات كبيرة من أوراق البردي (٤٨) .

وقد اتخذ كثير من ملوك هذه الأسرة الأسماء الشخصية لملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة مثل انتف وسنوسرت ، وقد عثرنا على تماثيل لبعض هؤلاء الملوك في هيئة أبي الهول ، شبيهة بتلك التي ترجع الى الأسرة الثانية عشرة ، ولكنها تعوزها الدقة والجمال الفني اللذين عرفا في تماثيل الأسرة الثانية عشرة . ويبدو من دراسة هؤلاء الملوك أن الأسرة الثالثة عشرة كانت بمثابة امتداد للأسرة الثانية عشرة ، كما أنها حاولت فيما يتعلق بأسلوب حكم البلاد أن تسير على نفس الطريقة التي انتهجتها الأسرة السابقة . كذلك يبدو أن انتقال الحكم بين الأسرتين قد تم في هدوء دون اضطرابات تذكر (٤٩) .

ويمكن تقسيم الأسرة الثالثة عشرة الى مجموعات ثلاث :

— ملوك تلوا ملوك الأسرة الثانية عشرة ، كان معترفا بهم في مصر العليا ، حكم بعضهم من منف ودفن في جبانتهها .

— ملوك جاءوا مباشرة بعد الملوك السابق ذكرهم وحكموا مصر العليا من طيبة ودفنوا هناك .

— مجموعة غير مؤكدة العدد ، ربما كانوا حكاما اقليميين ، وحمل بعضهم الألقاب ، وربما كانوا أو كان بعضهم معاصرا لحكم المجموعتين السابقتين .

وقد وردت الينا من عصر تلك الأسرة أسماء أكثر من عشرة ملوك تسموا باسم سبك حتب مما يدل على أنهم كانوا يقدرسون الاله سبك (التمساح) الذي كان يعبد في منطقة جبلين جنوب الأقصر . ولا يزال ترتيب هؤلاء الملوك موضع تناقض واختلاف بين العلماء (٥٠)

ومن أهم هؤلاء الملوك على سبيل المثال الملك سبك حتب (سخم رع خوى تاوى أمنمحات) الذي ورد اسمه في قائمة الكرنك وكذا في بردية تورين . وقد ذكرت تلك البردية أنه جلس على العرش ست سنوات .

وبينما يرجح بعض العلماء أنه وصل الى الحكم عن طريق زواجه (بسبك نفرو) يرى البعض انه كان مغتصبا للعرش ، وانه أراد أن يغطي اغتصابه بتسمية نفسه أمنمحات . وعلى كل حال فليس هناك ما يثبت أو ينفي انتماءه للبيت الحاكم أيام الأسرة الثانية عشرة ، وقد عثر له على آثار في الأقصر ومدامود ، كما قام بتسجيل ارتفاع مياه النيل عن مقياس سمنة لمدة أربع سنوات . مما يدل على أن مملكته امتدت في أغلب الظن

من الدلتا في الشمال حتى الجندل الثاني جنوبا * ويختلف المؤرخون أيضا في ترتيبه بين ملوك هذه الأسرة فمنهم من يجعله مؤسسها ، ومنهم من يعده ثاني ملوكها ، أو رابعها في رأى ثالث *

ملك آخر من ملوك تلك المجموعة هو الملك « سبك حتب » ، سخم رع سواج تاوى « الذى حكم لفترة قصيرة لا تعدو ثلاث سنوات وقد وجدت له آثار في تل بسطة واللشت وجبلين والأقصر والكاب « جزيرة سهيل » بأسوان مما يدل على نشاطه في كافة أنحاء البلاد ، كما ذكر اسمه على لوحة عثر عليها بالكرنك (متحف القاهرة رقم ٥٢٤٥٣) سجل عليها عقد تنازل فيه حاكم إقليم الكاب عن منصبه لأحد أقاربه مقابل كمية من الذهب والثياب والحبوب * الخ * ولا ندرى آكانت هذه حالة فردية أم عادة متبعة في تلك الأيام *

أما الملك سبك حتب (خع نفر رع) فقد أقام لوحة بالكرنك من الحجر الجيري تمجيذا للاله آمون (متحف القاهرة رقم ٥١٩١١) ، كما عثر له على تماثيل وآثار متنوعة في صان الحجر (تانيس) وتل بسطة وتل الربع وغيرها من أماكن الدلتا توزعت الآن في متاحف مختلفة ، منها تماثيل يمثله في حجم طبيعي ، محطم الرأس في متحف الخرطوم ، تم اكتشافه في جزيرة أرجو (بين الجندلين الثاني والثالث) * ولكن ذلك لا يعنى اطلاقا أن ملكه قد امتد الى تلك المناطق وعلى كل حال فان من الواضح أن عهده كان الى حد ما عهد ازدهار نسبي *

أما الملك « خع سخم رع - نفر حتب » فهو أيضا من مجموعة « سبك حتب » ويرجح أنه أخ لفرعون آخر من تلك المجموعة ، وقد كشف له عن لوحة بالقرب من ببلوس تمثل حاكم المدينة يقدم آيات الولاء لهذا الملك مما يشير الى نوع من النفوذ المصرى .

هناك ، مما يتطلب سيطرته على شرق الدلتا ، وعثر له على لوحة في أبيدوس تسجل زيارته لمعبد أوزوريس بها . وقد عثر على هرم للملك « خنجر » (أوسر كارع) كشفت عنه حفائر مصلحة الآثار سنة ١٩٢٩ بسقارة وكان مشيدا بنفس الأسلوب الذي أتبع في الأسرة الثانية عشرة فهو مبنى باللبن ومكسو بالحجر الجيري . ويبلغ طول ضلعه حوالي ٣٥ مترا ويجاوز ارتفاعه كذلك ٣٥ مترا ، وبجانبه اطلال معبده الجنازى . وقد كشف على مقربة من هذا الهرم عن هرمين آخرين ربما يخصان ملكين من هذه الأسرة ، ولم يعثر على اسمي صاحبيهما (٥١) .

كذلك عثر على اسم وألقاب الملك مر مشع (سمنخ كارع) على تمثالين عثر عليهما في تانيس واغتصبهما الهكسوس فيما بعد . كما كشف بنهشور الى الشمال من هرم أمنمحات الثالث على هرم ملك يدعى « حور » ، يعتقد أنه من نفس الأسرة . وقد عثر بداخل ذلك الهرم على تمثال خشبي داخل ناووس يمثل ذلك الملك عاريا وفوق رأسه رمز الكا (القرين) وهو معروض بمتحف القاهرة . وقد عثر سنة ١٩٢٧ على هرم في دهشور للملك « أميني عامو » الذى جاء ذكره على أوانى الأحشاء الخاصة به ، ولكن ليس من المؤكد أن هكذا الملك ينتمى الى الأسرة الثالثة عشرة ، عدا أنه قد شيد هرمه بجوار هرم الملك حور (٥٢) .

ومن ثم يتضح أن الوجود التاريخي لعدد كبير من ملوك هذه الأسرة قد أصبح أمرا مؤكدا ، وأن اختلف المؤرخون اختلافا بينا فى أنسابهم وأحداث حكمهم وتتابعهم التاريخي .

الأسرة الرابعة عشرة :

لا تساعدنا المصادر التاريخية على التوصل الى الظروف التى أدت الى تولى هذه الأسرة الحكم ، هل بدأت مع بداية الأسرة

الثالثة عشرة أو قامت بعد ذلك عندما ظهرت أسرة محلية قوية في شمال غرب الدلتا ، وقد استطاعت هذه الأسرة الانفراد بالحكم في تلك المنطقة المليئة بالمستنقعات بيد أنها لم تمتد سلطاتها على أى أرض خارج منطقتها التي كانت تحكمها أسرة طيبة أو أمراء محليون . ولم نعثر على آثار لهذه الأسرة كما تناقضت بردية تورين التي ذكرت أنها قد ضمت ٢١ ملكا مع تقدير مانتيون لعدد ملوكها ب ٧٦ ملكا .

ومع ذلك فهناك ملك من الدلتا يدعى نحسى (أى الزنجى) عثر له على تمثال فى تل المقدم بشرق الدلتا وصف فيه نحسى بأنه حبيب ست صاحب أوارييس عاصمتهم ، مما يدل على أن هذا الملك كان معاصرا للهكسوس بعد دخولهم مصر واتخاذهم أوارييس عاصمة لهم . وقد اغتصب منفتاح من الأسرة التاسعة عشرة هذا التمثال ونقش اسمه عليه . وقد عثر فى تل بسطة وغيرها من مدن الدلتا جعارين تحمل اسم ذلك الملك . ويبدو أن الأسرة الرابعة عشرة قد امتدت أيامها بعد الأسرة الثالثة عشرة وانها استمرت بعض الوقت بعد غزو الهكسوس لموقعها فى الغرب بعيدة الى حد ما عن عاصمتهم . ويبدو كذلك أن هذه الأسرة لم تدخل فى أى صراع مع حكام طيبة وربما كانت موالية لهم ، على كل حال فمن الواضح وفقا لما لدينا من معلومات أنها لم تلعب أى دور خطير فى تاريخ مصر القديم .

عصر الهكسوس - الأسرتان ال ١٥ وال ١٦

كانت النتيجة الحتمية لاضطراب أحوال البلاد وتفككها وضعت حكامها ان سقطت حوالي عام ١٧٢٥ ق٠م تقريبا فريسة في يد عدو قوى متربص بها اذ دهمها المغيرون من القبائل الرعوية التي أطلق عليها مانتون اسم هكسوس والتي كانت تسكن فلسطين وما حولها من بقاع في أغلب الظن .

وقد ظل حكم الهكسوس قائما طوال أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ودخلوا في صراع مع أمراء طيبة في الأسرة السابعة عشرة انتهى بطردهم من البلاد (٥٣) .

ولدينا بعض المصادر المحدودة عن الهكسوس ، منها :

أولا :

ما كتبه المؤرخ المصرى مانتيون ونقله عنه جوزيغوس . وقد ذكر أنه في حكم الملك « تنيميس » استولى على مصر غزاة من جنس مجهول جاءوا من الشرق ، فأحرقوا وخربوا معابد الالهة وعاملوا المصريين بروح عدائية وقد حكموا من ممفيس ثم بنوا قلعة في « أفاريس » (أواريس) في شرق الدلتا . وأخيرا فقد هاجمهم ملوك من طيبة واستولوا على أفاريس وتركوهم يغادرون مصر بسلام .

وقد أورد جوزيفوس اقتباسات نسبها الى مانشيون وهي تعتبر مرجعا علميا نبني عليه معارفنا التاريخية . وقد تحدث عن غزوهم لمصر ثم خروجهم غير مدحورين وأسرف في تمجيدهم كأن هدفه من ذلك الرد على « أبيوس » الذي عاش في الاسكندرية في القرن الأول الميلادي وعاصر جوزيفوس وكتب كتابا نعت فيه اليهود بأسسوأ النعوت فحاول جوزيفوس في هذا الجزء الذي أورده من تاريخ مانشيون أن يدافع عن الهكسوس باعتبارهم أجداد اليهود .

ثانيا :

الآثار السابقة لعصر الهكسوس لقصة سنوحى التي ورد بها لقب « حكا خاسوت » الذي حرقه مانشيون الى هكسوس عند حديثه عن فلسطين . كما لقب ابشأ الذي سجل قبر خنوم حتب الثانى فى بنى حسن قصة مجيئه الى مصر على رأس قبيلته بنفسى اللقب .

ثالثا :

ما تركه الهكسوس من آثار وهي قليلة نظرا لانهم استقروا طوال مدة حكمهم بالدلتا ، التي اندثرت معظم أثارها . وقد عثر على كثير من الجعارين المصرية وكذا على كمية كبيرة من أسلحتهم المختلفة أيضا عن الأسلحة المصرية . وقد وجدت بعض آثارهم فى مقابر خارج مصر وخاصة فى فلسطين مما يدل على وجود صلة قوية بين الهكسوس وأرض فلسطين(٥٤) .

رابعا :

الآثار والنصوص اللاحقة لعصر الهكسوس كبردية تورين التي أعطتنا أسماء ستة من ملوك الهكسوس حكموا مدة ١٠٨ سنوات كما كشفت عن اللوحة المعروفة بلوحة الأربعمئة عام التي سجل

عليها العيد الأربعمائة لاعلان تنويج الاله ست لها للبلاد والذي احتفل به في عهد حور محب . وهذا التنويج لابد أنه قد وافق سيطرة الهكسوس على مصر وقد أمر رمسيس الثاني الخليفة الثالث لحور محب بإقامة تلك اللوحة في أواريس . واذا قدرنا أن هذه اللوحة أقيمت حوالي سنة ١٣٠٢ ق م ورجعنا أربعمائة سنة الى الوراء فستكون سنة ١٩٢٠ ق م تقريبا هي وقت تأسيس أواريس بعد أن سيطر الهكسوس على البلاد .

ومن هذه النصوص اللاحقة لعصر الهكسوس ما دونته حتشبسوت على معبدها المنحوت في أسطبل عنتر المعروف باسم « سيبوس ارتميدس » تقول « لقد أصلحت التالف ، وأكملت الناقص بعد أن كانت البلاد تحت حكم الآسيويين من عاصمتهم أواريس بالدلتا . لقد أتلف هؤلاء القوم الآثار عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع » .

كما جاء في بردية سالبيه ، من عهد « منخاع » ابن رمسيس الثاني ، المحفوظة الآن بالمتحف البريطاني « وأصبحت مصر في أيدي قوم قذرين غاصبين ، بعد أن تعذر على المصريين أن يملكوا على أنفسهم أحدا منهم وكان في ذلك الوقت الملك « سقنرع » يحكم قسم طيبة الجنوبي والملك أبوفيس الهكسوسي يحكم البلاد من « أواريس » ويجمع الجزية من سائر الأقاليم من الحاصلات والخيرات التي أنتجتها أراضي الوجهين القبلي والبحري . واتخذ الملك أبوفيس المعبود « ست » الها دون معبودات مصر كلها وشيد له معبدا جميلا » .

اسم الهكسوس وأصلهم :

كان مانتيون هو الذي أطلق على هؤلاء الغزاة لفظ الهكسوس المشتق من الكلمة المصرية القديمة « حكا خناسوت » أي حكام

البلاد الأجنبية وقد سماهم المصريون بأسماء تدل على مدى كرههم لهم مثل « الوباء » و « الطاعون » إذ نهبوا رزقهم وأذوهم وخاصة في البدء في دينهم ودنياهم .

أما عن أصلهم فقد تعددت الآراء في هذا الشأن ولكن الرأي الأكثر شيوعا الآن أن حملة الهكسوس على مصر لا تعد من الحملات التي قام بها شعب له جيشه الخاص بل قامت بتلك الغزوة مجموعة من الشعوب التي سكنت فلسطين واضطرت تحت ضغط الشعوب الهند أوربية الذين استقروا في شمال سوريا وربما أيضا بسبب جفاف وقحط أصاب بلادهم إلى أن تزحف على مصر . وقد أساء الهكسوس معاملة المصريين في بادئ الأمر ولكنهم لم يلبثوا أن تمصروا فتكلموا لغة المصريين وعبدوا معبوداتهم وقلدوا المصريين في أزيائهم وألقابهم وتقاليدهم . والرأي السائد الآن أن مدة حكمهم لمصر منذ غزوها حتى طردهم منها لا تتجاوز مائة عام على أكثر تقدير .

حكم الهكسوس :

نجح الهكسوس في احتلال مصر بسهولة لضعفها من ناحية ولجيئتهم في أعداد كبيرة من ناحية أخرى ثم لاستخدامهم للأسلحة متطورة كالقوس والمركب والسيوف العريض وربما الخيل والعربات الحربية التي اكتسحت خطوط المشاة المصريين (٥٥) أما أوراييس فقد اتخذوها عاصمة لهم طوال مدة حكمهم وكان في اعتقاد البعض أنها مكان تانيس الحالية أو « قننير » القريبة منها ولكن حفائر البيعة النمساوية تدل على أن موقعها هو تل الضبعة في صحراء الاسماعيلية حيث وجدوا الكثير من أسلحة الهكسوس وآثارا متنوعة لهم .

وقد أراد بعض المؤرخين أن ينسبوا إلى أوراييس ابتكار طابع فن خاص أسموه طراز تانيس ولكن تأكد الآن أن القطع الفنية

الرائعة التي عشر عليها هناك مثل تماثيل النيل وأبو الهول المعروضة في متحف القاهرة الآن انما يرجع الى الأسرة الثانية عشرة . كما حاول « وثلوك » اثبات ان الشادوف والنول والقيثارة وكذا أسلوب ختم الماشية انما دخلت الى مصر بواسطة الهكسوس ولكن « ويلسون » قد فند هذا الرأي تفنيدا قويا (٥٦) .

وقد أقام الهكسوس ديانة رسمية في أواريس اقتبست من الديانة المصرية ، واتخذوا لهم من بين الآلهة المصرية ذلك الاله الذي كان مقدسا في تلك المنطقة وهو المعبود « ست » الذي عبد هناك منذ الدولة القديمة . وليس بمستبعد أن الهكسوس قد عرفوا في ست أواريس صورة أخرى لأحد آلهتهم الآسيوية وهو الاله « سنوتخ » ، وقد نجح الهكسوس في مد سلطانهم على الدلتا ، وربما تركوا شمال غرب الدلتا تحت امرة ملوك الأسرة الرابعة عشرة ثم ما لبثوا أن تقدموا في مصر الوسطى حتى القوصية بمحافظة أسيوط ، كما فرضوا على بقية الصعيد بما فيه امارة طيبة نوعا من الاستقلال الداخلي . ومما لا شك فيه أن احتلال الهكسوس لمصر وسيطرتهم على البلاد قد أثر تأثير عميقا على المصريين وهز الازلال الجديد شعورهم القديم بالتفوق والأمن في ظل آلهتهم ، ومن ثم فلم يلبثوا بدأوا حرب تحرير قادها حكام امارة طيبة .

أما بلاد النوبة ، فقد فقد المصريون سيطرتهم عليها بعد انهيار الدولة الوسطى وغزو الهكسوس لمصر . ونجح النوبيون في استرداد استقلالهم ، وأقاموا مملكة عرفت باسم مملكة كوش ، يبدو مرجحا أنها اتخذت بلدة كرما جنوب الجندل الثاني عاصمة لها . وقد ازدهرت هذه المملكة أبان العصر المتوسط الثاني وكانت لها علاقات تجارية ودبلوماسية مع مملكة الهكسوس .

ملوك الهكسوس :

من الصعب حتى الآن حصر ملوك الهكسوس حتى لو اعتمدنا على ما ذكره جوزيفوس وأفريكالوس نقلا عن مانتيون أو من ذكر منهم على الآثار والجعارين . ووفقا لتقسيم مانتيون فان هناك ثلاث أسر تلتبعت الواحدة تلو الأخرى هي : الأسرة ال ١٥ التي ضمت ستة ملوك ، والأسرة ال ١٦ التي ضمت اثنين وثلاثين ملكا ثم الأسرة ال ١٧ وعدد ملوكها ٤٣ ملكا ، عاصرهم عدد مماثل من أمراء طيبة وتنتهى هذه الأسرة بخروج الهكسوس من مصر . أما بردية تورين فقد ذكرت ستة ملوك يمكن أن يطلق عليهم اسم ملوك الهكسوس الكبار ثم أوردت البردية فى الجزء الذى تلا ذلك عددا كبيرا من الملوك لم تذكر سنى حكمهم ولم تقسمهم الى مجموعات . ولاشك أن هذا العدد الكبير يحوى أسماء ملوك الأسرات التى ذكرها مانتيون .

ويعد الملك خيان من ملوك الهكسوس الذين تركوا لنا بعض الآثار (٥٧) وان كانت ترتيب هؤلاء الملوك لا يزال غامضا . وقد ورد اسم هذا الملك على بردية تورين وربما هو نفس الملك «ايناس» الذى ورد اسمه فى قائمة مانتيون . وقد تلقب بألقاب ملكية مصرية ، كما احتفظ بلقب الهكسوس التقليدى « حكا خاسوت » . وقد عثر له على آثار فى الدلتا بوجه خاص ذات طابع مصرى من بينها اجزاء من تمثال من الجرانيت عثر عليه فى بوبسطة وخاتم وجعارين بمتحف ليدن بهولندا الآن ، كما عثر له على حلقة معمارية فى جبلين بمصر العليا . كذلك وجد لهذا الملك بعض الجعارين بسوريا وفلسطين وجزء من اناء من الأبسوديان عثر عليه فى نوغاز كوى (عظمة الحثيين بأسيا الصغرى) كما تم العثور ببغداد على تمثال صغير لأسد طوله ٤٥ سم تقريبا ، وقد دون على صدره اسم الملك خيان وهو الآن فى حوزة المتحف البريطانى بلندن .

كذلك عشر له على غطاء آنية متوسطة الحجم من المرمر في كنوسوس
بجزيرة كريت وهي الآن في متحف كنديا بتلك الجزيرة . وقد
استنتج بعض المؤرخين نتيجة العثور على تلك الآثار خارج مصر
أمر قيام دولة كبرى للهكسوس امتدت من النوبة حتى الغرب . ولكن
أغلب الظن أن الأمر لن يتعدى وجود علاقات تجارية بين الهكسوس
وتلك المناطق .

وقد عشر على آثار كثيرة تحمل اسماء ثلاثة من ملوك
الهكسوس باسم « ايبيي » يصعب التأكد من ترتيب تتابعهم ،
فهناك الملك « ايبيي عاقن رع » الذي يغلب على الظن أنه صاحب
أول معركة من سلسلة المعارك التي انتهت بطرد الهكسوس (٥٨)
ويبدو أنه قد بنى معبدا ورممه في « أواريس » وقد عشر له آثار
عديدة في الدلتا منها تمثال من تانيس يحمل اسمه وألقابه ، ومن
بينها لقب « أمير الجيوش » أو جزء من دعاء يحمل اسمه وجد
في منف ، وهو الآن بمتحف برلين ، وكذا مذبح من الجرانيت
الرمادي ، لا يعرف أين وجد وهو الآن في جيزة المتحف المصري وقد
كتب عليه نص ترجمته « لقد عمل ايبيي هذه الآنية لست سيد
أواريس كما جعل ست البلاد تحت قدميه » .

أما الملك « ايبيي أو سر رع » فمن آثار أيامه بقايا أدوات
كتابية عشر عليها بالفيوم ويزعم صاحبها أنها أهديت له من الملك
وقد نعته بأنه بطل حرب ورجل نزال تمتد شهرته الى أطراف
الأرض ، كما وجد اناء من الجرانيت في قبر أمنحتب الأول بوادي
الملوك عليه اسمه ، كذلك عشر على حجر لا يحمل غير اسمه في
« جبلين » جنوب الأقصر وهو محفوظ الآن بالمتحف المصري ومما
يذكر أيضا أن اسمه قد وجد في بردية رند الحسابية في حوزة
المتحف البريطاني .

وهناك ملك ثالث من هذه المجموعة هو « ايبيى نب خبش رع »
ومن أهم الآثار التى ترجع الى أيامه خنجر من البرونز عليه نقوش
متأثرة بالفن الكريتى ، عثر عليه فى قبر رجل يدعى « عبدو » بسقارة ،
ولو أن صاحبه هو رجل آخر يدعى نحماني وهى أسماء سامية ترجح
الرأى القائل بأن الهكسوس قد وفدوا من فلسطين ، وكان نحماني
من حراس الملك ، وربما والد « عبدو » ويبدو أن ايبيى (أبوفيس)
اتخذ حراسه من الآسيويين نتيجة لعدم اطمئنانه للمصريين . كذلك
وجد اثناء حجرى عليه اسم هذا الملك وبجانبه ألقاب مصرية قديمة
« كالاله الخير ، وابن الشمس حبيبها » .

طرد الهكسوس :

مرت أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة دون أن
يكون بين المصريين من يستطيع مقاومة الهكسوس ، خاصة أنه لم
يكن باقيا من مصر المستقلة سوى شريط ضيق فى مصر العليا
يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى ، ويخضع نسبيا لنفوذ طيبة ،
ويمتد من القوصية فى محافظة أسيوط التى مثلت أقصى جهات مصر
الخاضعة تماما للهكسوس فى مصر الوسطى ، حتى الفنتين (٥٩) ولكن
ما لبث أمراء طيبة أن شعروا بنوع من القوة فبدأوا فى التحالف
مع جيرابهم فى الشمال والجنوب كما عمدوا الى كتابة أسمائهم
فى خراطيش مسبوقه بالألقاب الملكية .

فاما أخذت قوة الهكسوس فى الضعف وسطوتهم فى التدهور ،
انتهز هؤلاء الحكام الطيبيون الفرصة فبدأوا العمل فى سبيل
استرداد حرية بلادهم ويسعون لتخليص وطنهم من ذلك الدخيل
البغيض . وقد كتب الله لهم الفوز والنجاح بعد حرب طويلة قادها
على التوالي سقنرع الثانى ثم ولداه كامو سا وأحمس .

ولا ندرى بالضبط الأسباب المباشرة لبدء الاحتكاك بين الهكسوس وحكام طيبة ومحاولة للهكسوس للقضاء على حكام طيبة قبل أن يستفحل أمرهم ، ذلك رغم عثورنا على عدد من الوثائق توضح لنا الدور الذي لعبه كل من هؤلاء الحكام في طرد الهكسوس والوثيقة الأولى قد وردت في بردية سالبيه ٢ من أيام الأسرة التاسعة عشرة ، مسجلة بطريقة شبه أسطورية قصة اشتباك سقننرع مع أبونيس ملك الهكسوس في أول معركة في ذلك الكفاح . وهي تصور أبونيس كأنه يبحث عن مبرر للتحرش بأمر طيبة فيرسل اليه برسالة يشكو فيها من أفراس النهر التي تسبح في البركة المقدسة بمعبد آمون بطيبة فتمنعه من الاستمتاع بالنوم (في عاصمة أواريس) ويطلب منه قتلها . وقد رد عليهم سقننرع ردا يدل على الرغبة في السلام ، كما أكرم الوفد الذي حمل اليه تلك الرسالة بعد أن استشار رجال البلاط في الأمر ونصحوه بذلك . وهنا ينتهي المخطوط فتكمل مومياء سقننرع المحفوظة في المتحف المصري تلك القصة فهي تثبت أن صاحبها قد مات متأثرا بجراحه . وقد تأكد هذا الأمر بعد أن جربت بعض الأسلحة التي استخدمها الهكسوس فتطابقت مع معظم الجراح التي بالجمجمة بجانب أن رداءة التحنيط تؤكد سرعة تحنيطه في ميدان القتال .

أما كفاح ابنه كاموسا فقد وصل الينا النبأ عن طريق ثلاث وثائق أكملت كل منها الأخرى مما قدم لنا قصة شبه كاملة لكفاح ثاني أبطال حرب التحرير . فقد جاءت الوثيقة الأولى لتلميذ كتبها على لوح يعرف بلوح كارنارفون أما الثانية فمدونة على لوحة عثر عليها سنة ١٩٢٨ تقص القصة التي تروى أن كاموسا قد ضاق بعد وفاة والده وجلسه على العرش بالموقف ازاء الهكسوس فدعا رجال البلاط وقواد الجيش وشساورهم في الأمر فأخذوا في مدحه والتغنى بشجاعته والاشادة بقوته فتعجب من أقوالهم وذكرهم

بموقفه بين ملكين أحدهما آسيوى يحكم بلاده فى الشمال والآخر يحكم بلاده فى الجنوب (٦٠) وقد بدأ من رد المجتمعين أنهم راضون بحالهم وأنهم كارهون للحرب يؤثرون الرضاء بالأمر ولكن كاموسا صمم على قتال الهكسوس ، فتأكد من أن البلاد كلها ستتهتف لكاموسا حامى مصر . ويفهم من بقية النص أنه تقدم مستخدما النيل نحو الشمال حتى بلدة نفردس وانتصر على حاكمها تتى الذى كان مواليا للهكسوس (٦١) .

أما الوثيقة الثالثة فعبارة عن لوحة كاملة من الحجر الجيرى عثر عليها فى الكرنك سنة ١٩٥٤ وهى تكمل الوثيقتين فتنحدث عن استمرار انتصارات كاموسا على الهكسوس وعن الرعب الذى أصابهم من جيش مصر ، وكذا عن الغنائم التى حصل عليها من أسره لرسول بعث به أبونيس لتوصيل رسالة منه الى ملك كوش ، يحثه فيها على مهاجمة مصر من الجنوب أثناء انشغال كاموسا فى الشمال ، ثم يعدد المدن التى استولى عليها .

ونحن وان كنا لا نعرف كيف انتهت أيام كاموسا أو سبب موته فان من المؤكد أن المنية قد وافته قبل أن يحتل أواريس فترك بذلك مهمة طرد الهكسوس من مصر الى أخيه أحمس .

ورغم أننا لم نعثر على أى أثر أو وثيقة ملكية تقص علينا قصة طرد أحمس للهكسوس فان قائدين من قواده هما القائد البحرى أحمس ابن ابانا والقائد البرى أحمس بن تخيت (أى أحمس الكابى) قد سجلا على قبريهما بمدينة الكاب ما قاما به من حملات حربية تحت قيادة الملك أحمس ، الذى تمكن من الاستيلاء على العاصمة أواريس واقتفى أثر الهكسوس شرقا حتى جنوب فلسطين حيث تحصنوا فى حصن شاروهين المنيع (فى منطقة غزة) فحاصره لمدة تقارب الثلاث السنوات حتى تمكن أخيرا من الاستيلاء

عليه بعد هزيمة منكرة وشنتهم في بقاع الأرض ولم يعد لهم ذكر
في التاريخ .

ويجدر هنا الإشارة الى ثلاث ملكات لعبن دورا مهما في حرب
التحرير وتوارثن الأهمية السياسية للمرأة طوال هذه الحقبة
المهمة من تاريخ مصر . وتتصدر قائمتهن الملكية تنى شرى زوجة
سقنرع الأول وأم سقنرع ثانيا . وربما كانت أما أيضا
لزوجته « اباح حتب » وقد عثريا على تمثالين لها في مقبرتها بغرب
طيبة وعلى لوحة في أبيدوس يشيد فيها أحمس بأفعالها كما شيد
لها ضريحا في تلك المدينة المقدسة .

ثم تأتي بعد ذلك الملكة « ايساح حتب » زوجة سقنرع
الثاني وأم كاموسا وأحمس . وقد لعبت دورا مهما في الكفاح لتحرير
البلاد أيام زوجها وولديها . وتشير لوحة أقيمت في الكرنك الى أنها
كانت ترعى الجنود وتهتم بشئون مصر وأنها قضت على الأعداء
. الخ (٦٢) . وقد عثر في مقبرتها على بلطة وخنجر وحلي رائعة
تحمل اسمى كاموسا وأحمس ، ويظهر في بعضها تأثير واضح لفن
كريت وجزر بحر ايجيه .

أما الملكة الثالثة فهي أحمس نفرتارى التى كانت في أغلب الظن
زوجة لكاموسا ثم أحمس من بعده ، والتي ظل نفوذها قويا أيام
ابنها أمنتحتب الأول . وقد صورت على لوحة أبيدوس التى سبق
ذكرها وهى تشارك في بناء ضريح الملكة تنى شرى هناك . وقد
اكتسبت هذه الملكة تقديرا أدبيا كبيرا والتهت مع ابنها أمنتحتب
الأول في العصور اللاحقة .

هكذا نجحت مصر بقيادة أحمس الأول في تسجيل فصل الختام
من ذلك العصر البغيض المشؤوم ، عهد الاحتلال والحكم الأجنبي
للبلاد وبدأ بذلك عهد جديد زاهر هو عهد الدولة الحديثة ، عهد
المجد العسكرى والانفتاح على الخارج .

الهوامش

(١) يطلق الأورثون على هذه الفترة التاريخية أسماء مختلفة مثل « عصر الانتقال الأول » أو « عصر الاضمحلال الأول » أو « عصر الاقطاع » أسماء مشتقة من الحالة العامة وقت ذلك . كذلك اختلفت الآراء في تقدير المدى الزمني لتلك المرحلة ، فهي تمتد عند البعض الى ما يزيد على مائتين وخمسين عاما وان كانت الآراء الحديثة تقدرها بقرابة المائة والخمسين عاما .

(٢) نسبة الى العاصمة منف التي ظلت من الناحية الاسمية عاصمة للبلاد . ومن ثم فهناك من ينادى بضم الأستين السابعة والثامنة الى عصر الدولة القديمة تمشيا مع بردية تورين التي وضعت ملوك الأسرة الاولى ومن تلاهم من ملوك حتى نهاية الأسرة الثامنة (وفقا لتقسيم مانتيون) ضمن نطاق واحد . وبعبارة أخرى كانت هاتان الأستتان في نظر تلك البردية مكملتين للعصر الذي سبقهما .

(٣) انظر أحمد بدوي - في موكب الشمس - جزء ٢ - القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٢٠ .

(٤) يمكن الرجوع فيما يتعلق بهذه الفترة التاريخية الى مراجع منها :

محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية - الاسكندرية ١٩٦٦ .

— Stöck, Die Erste Zwischenzeit Agypten, Rome, 1940.

— B. Bell, The Mark Ages in Ancient History, I, The First Mark Age in Egypt, American Journal of Archalology, 75, 1941, P.P. 1 — 26.

(٦) حكم لمدة سنتين وفقا لبردية تورين .

(٧) ليس هناك من شك في أن هذه البردية وكذا مقطوعة أيب أورا ترجعان الى العصر المتوسط الاول وتعبيران عن الحالة السائدة وقتذاك .

(٨) لا تعرف الأسباب التي دعت ماثيون الى تقسيم ملوك البيت الأهناسي الى أسرتين ، خاصة أن بردية تورين قد دوت ملوكها في مجموعة واحدة قائمة بذاتها . والرأي السائد أن الأسرة التاسعة قد حكمت ثلاثين عاما تقريبا في حين أن الأسرة العاشرة قد حكمت مائة عام فهي أطول كما أن تاريخها أقل غموضا من التي سبقتها .

(٩) اشتق اسم أهناسية من الاسم المصري القديم « حن نسوت » أي مدينة الملك الطفل ، والتي حرفت في الكتابة القبطية الى « هناس » . ونطقها العرب « أهناس » وتعرف اليوم « بأهناسية المدينة » . وقد كانت هذه المدينة عاصمة للأقليم العشرين من أقاليم مصر العليا ، وتميزت بموقعها الجغرافي والاستراتيجي المهم فهي تقع في الجانب الغربي للنيل في منتصف المسافة بينه وبين منخفض الفيوم ، كما تميزت أهناسية بأهمية سياسية وتاريخية في فترات عديدة من العصر الفرعوني . وقد أطلق عليها الإغريق اسم « هيراكليوبوليس » نظرا لأن معبودها المحلي كان يمثل بوجه كبش . انظر :

G. Mokhtar, Thnaga, el Medina (Herapepola

Magnal ; M. Prez?Die, P. Vernus, Exearations in Ehpasya El Medipe, Madrid, 1993.

(١٠) « عشر في المعلا (جنوب الاقصر بأربعين كيلو مترا تقريبا) على مقبرة « عنخ تي في » حاكم اقليم الكاب الذي عاش أيام بيت أهناسية وكان مواليا للوكها . وقد نجح في الاستيلاء على اقليم ادنو وحاول السيطرة على اقليم أسوان . ولكن طيبة التي بدأت تقوى حينذاك عقدت تحالفا مع قفط نجحت من خلاله في السيطرة على اقليمه . انظر :

I. Vandier, Le Bombe d'Ankhtife à Moolla, Le Caire 1995.

ويجدر بنا أن نشير هنا الى قلة معلوماتنا عن طيبة قبل أن نعلو مكانتها ابان العصر الأهناسي ، وليس لدينا من آثار طيبة قبل ذلك العصر سوى قرابة

خمسین مقبرة حجزية محدودة القيمة التاريخية ، كما أنه ليس لدينا من أيام الفترة الأولى من العصر المتوسط الأول غير بضعة نقوش تحوى ثلاثة أسماء لحكام لهم صلة بأسرة انتنف التي أسست الأسرة الحادية عشرة الطيبية ، واحتضنت ذلك الصراع الطويل مع ملوك أهناسية .

Wè Schenkel, Demphis-Herapleopolis Theben, (11)
epigraphischen Zeugnessedes 7 — 11 Dynastie Agyptens, Weisbade
1956.

(12) من أحدث الكتب التي تناولت الأدب المصرى القديم :
— J. Priticfard (ed) Ancient near Easkrn Texts
related to the Oold Jestament, Princetion, 1969.

وقد قام بترجمة جانب منه د. عبد الحميد زايد وراجعه د. محمد جمال الدين مختار . عضوان : نعوض الشرق الأولى القديمة المتعلقة بالعهد القديم — الجزء الأول — القاهرة ١٩٨٣ .
— N. Lichtheims, Ancient Egyptian Literatue, Vol 1 The Oold and Middle Kingdoms, Besleclly, 1970.

— WèKè Simpson (ed.) , The Lilarture of Ancient Egypt,
New Heaven and London, 1973.

— O. Laluttes Textes, sacrés et textes profanes, de l'ancénne
Egypte des pharaone et deshimmes, Paris, 1985,

وقد ترجم الى اللغة العربية

د. سليم حسن . الأدب المصرى القديم — القاهرة .

د. أحمد عبد الحميد . الأدب المصرى القديم — القاهرة .

(13) يعتبره العديد من المؤرخين الملك خيتى الثانى وان كان موقعه بين ملوك أهناسية مازال موضع نقاش .

H. Winclovk; The Rise and Fall of the Middle (14)
Kingdom, in: Thebes, New York, -974.

Wè Hays, The Middle Kingdom in Egypt, (15)
(CAHI, CAH XV, Cambridge, 1976..

(١٦) على الرغم من أن ملوك هذه الأسرة قد تسموا جميعا باسمي « انتف » و « منتوحتب » فإننا لم نعثر على نصوص أو قرائن تاريخية تسمح لنا بترتيب هؤلاء الملوك ترتيبا تتابعيا مؤكدا ولذا فقد عمدنا الى كتابة اسمين لكل ملك لتسهيل التفريق بينهم .

(١٧) هناك من يخالف هذا الرأي معتقدا أنه قد سبق انتف الأول حاكم آخر لم يدع الملكية أيضا اسمه « منتوحتب الأول » انظر :
N. Grémal, Heslote de l'Egypté, Ancienne,
Paris, 1938.

وقد ترجم الى العربية .
نقولا حريسال : تاريخ مصر القديمة ، ترجمة ماهر جويجاتي ،
مراجعة زكية طبوزادة .

J. Vandier, La Femaine, dans l'Egypte Ancienne,
Le Caire, 1936, P. 111.

(١٩) يسميه العديد من العلماء منتوحتب الثاني نتيجة لاختلافهم فيما يتعلق بترتيبه وموقعه بين ملوك هذه الأسرة .

H.J. Fischer Inscriptions from the Coptionome (٢٠)
Dynasties VI ... XI Andecte, Drientalia 40, Rome, PP. 112 — 118.

(٢١) فرق المصريون القدماء بين «وأوات » أي النوبة السفلى أو المصرية أو الشمالية و « كوش » أي النوبة العليا أو السودانية أو الجنوبية .

W.S. Smith, The Fortress of Bufen — the inscrip- (٢٢)
tion, London, 1976.

(٢٣) هناك تعارض بين آراء العلماء في هذا الشأن .

(٢٤) أقام ستنحوت مهندس حثشبسوت خامس ملوك الأسرة الـ ١٨ مبيدها في الشمال من مستخدما نفس الطراز .

— E. Nairile, Deir El Bafari I, London, 1907. (٢٥) انظر

— A. Arnold, Der Tempel des Kanegs Mentoris,
von Deir El Bafari, I, II, Mainz, 1971.

— T.G. James The Herapachte Pafey and (٢٦)
other Early Middle Kingdom Documents, 1961.

— R. El Sayed, Quaeques Personnage, Célètes

مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد ٢٢٥ — ١٩٧٨ ،

ص ٣٢ — ٤٣ .

G. Goy on, Nouvelles Inscriptions Recentes (٢٧)
de Wadi Hammamat, Paris 1957, No. 52 — 68.

Dunas, La Civilization d'Egypte Pharaonique (٢٨)
Paris, P. 405.

من الواضح أن إمنحمت قد استولى على الحكم بطريقة غامضة ، لم
تتضح حتى الآن ، وربما كانت هناك صلة بينه وبين ملوك الأسرة الحادية عشرة ،
اذ أن ملوك الأسرة الثانية عشرة ، اعتبروا « انتف الكبير » جدا لهم ونصبوا
له تمثالا في الكرنك .

(٢٩) انسكندر شارف : تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى انشاء مدينة
الاسكندرية ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ، ص ٩٤ .

(٣٠) حفظ لنا التاريخ أخبار بعض مؤمرات حريم القصر الملكي ، ومن
بينها تلك المؤامرة التي حدثت في عهد الملك بيبي الأول ثاني ملوك الأسرة
السادسة ، والتي جاء ذكرها في السيرة الشخصية « لأوني » أحد المقربين من
ذلك الملك ، والذي ذكر انه قد شكل محكمة في القصر لحاكمة إحدى الزوجات
الملكيات برئاسته ، ثم اكتفى بالإشارة الى تقديم تلك الزوجة الى القضاء
الخاص دون أن يذكر سبب المحاكمة أو تفاصيلها أو الحكم الذي أصدرته
المحكمة . وهناك قصة المؤامرة التي دبرتها إحدى الملكات ضد رمسيس الثالث
ثاني ملوك الأسرة العشرين ، والتي أمدتنا الأوراق بكل تفاصيلها .

(٣١) يعنى اسمه : رجل (الآلهة) القوى : وقد أطلق الاغريق على
سنوسرت لفظ « سيزوستريس » ونسجوا حول هذا الاسم قصصا خيالية
والبسوه ثوبا من البطولة يفوق بكثير ما وصلنا من أعمال ذلك الملك أو الملك
سنوسرت الثالث بعد ذلك .

Jregger, Op. Cit., P.P. 130, 149. (٣٢)

Jregger, Op. Cit., PP. 130, 143. (٣٣)

Dumas, Op. Cit., P. 179. (٣٤)

أحمد بدوى - في موكب الشمس - جزء ٢ - ص ١٣٤ .

(٣٥) يربط البعض بين منظر هؤلاء القوم ومجيء النبي يعقوب وأهله
الى مصر ، ولكن الأبحاث الأثرية لا تقدم دليلا أو قرينة للربط بينهم وبين مجيء
ابراهيم أو يعقوب الى مصر .

(٣٦) لعل هؤلاء الفراعنة العظنام الأكثر أعمية هم مشنوحتب الشائى من الأسرة الحادية عشرة ، وامنحماث الأول ، وسنوسرت الثالث وامنمحات الثالث من الأسرة الثانية عشرة .

J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, (٣٧)
Chergeo, 1975, P.P. 136, 137.

وقد ترجمه المرخوم الدكتور أحمد فخرى الى اللغة العربية تحت اسم « الحضارة المصرية » .

(٣٨) ذنر الكتاب الاغريقى أن سنوسرت الثالث دخل بلاد السكيشين ، ومعنى ذلك أنه توغل فى غرب آسيا حتى البحر الأسود ويبدو أنهم قد خلطوا بين حملته وحملات ملوك الدولة الحديثة ، رغم ان الآخريين لم يصلوا قط الى تلك الجهات ، وربما يفسر ذلك بأن سنوسرت قد بلغ فى العصور التالية حدا من العظمة والقدسية ، ترامت الى آذان هؤلاء الكتاب .

(٣٩) هناك احتمال بأنه أرسل حملة الى النوبة ربما واصلت تقدمها حتى الجنادل الثالث .

(٤٠) يرجع اسم اللاهون الى تعبير مصرى قديم بمعنى فم القناة ، تسمية تدل على أن موقع اللاهون كان بالقرب من المكان الذى يترك فيه بحر يوسف وادى النيل ويتجه غربا نحو الفيوم .

اما بحيرة موريس فهو اسم أطلقه المؤرخون على هذه البحيرة ، تم من الاسم المصرى القديم الذى يعنى البحر الكبر وقد تقلصت هذه البحيرة الآن فيما يطلق عليه اسم « بحيرة قارون » .

(٤١) نسبة الى قصر اللاهوت الذى بناه الملك مينوس فى كنوسس عاصمة كريت القديمة . وقد ذكر هيرودوت (الكتاب الثانى ١٤٨ - ١٤٩) أن هذا القصر هو بناء يعجز القلم عن وصفه ويملو على قدرة البتر وأنه كان مكونا من اثنى عشر بهوا منقابلة ، وأنه قد ضم ٣٥٠٠ حجرة نصفها فوق سطح الأرض والنصف الآخر تحتها . وذكر هيرودوت أيضا أنه شاهد بنفسه الحجرات الموجودة فوق سطح الأرض أما الحجرات الموجودة تحت سطح الأرض فان المشرفين عليها لم يسمحوا له بدخولها . أما ديودور الصقلى فقد وصفه بأنه يدهو للعجب لدقة تشييده وان من يدخله لا يجد طريقته الى الخارج بسهولة ، فى حين تصور استرابو أن لكل اقليم من اقاليم مصر صالة بذلك المنى وعلى كل فان

من الصعب التحقق مما كتبه هؤلاء الكتاب بعد أن أصبح المبنى أكاداسا من الانقاض تغطي آلاف من الامتار المربعة .

V. Voglinano, Medinet Kommadé, Milano (٤٢)

G. Jeguer, Deux Pyrameds de Moyen Elmfire, (٤٣)
Le Caue, 1986.

(٤٤) بسميه البعض بعصر الانتقال الثانى أو عصر الاضمحلال الثانى
أسوة بتسمية العصر المتوسط الأول .

G Posener, Prénces et Pays d'Asie et de (٤٥)
Nubie, Bruxelles, 1910.

(٤٦) هناك من المؤرخين من يعتقد أن عاصمة هذه الأسرة كانت منف
نظرا لعثورنا على أهرامات في جبانة الدولة القديمة. قد ترجع الى ملوك من هذه
الأسرة ، ويعتقد أصحاب هذا الرأى أن الملك والبلاط الملكى كانا يتحركان
في بعض الأحيان الى طيبة .

(٤٧) من المعتقد أن مانتيون قد أعطى رقما حاليا لهذه الفترة (٤٥٣ عاما
للأسرة ال ١٢ ، و ١٨٤ عاما للأسرة ال ١٤) أى بلغت مدة حكم الأسرتين ما يزيد
على ستة قرون ، وهو أمر غير مقبول .

(٤٨) عشر على آثار للملك تارك الأسرة في منطقة الختاعنة (مركز فاقوس)
وأغلب الظن أن هذه الآثار قد جابت من منف لاستخدامها في أعمال البناء في
عصور تالية . وتدل الآثار التى عشر عليها في الدلتا والنوبة على أن نفوذ بعض
ملوكها امتد نحو الشمال والجنوب .

— R. Welill, La fin du Meyen Elmfire Egyptien- (٤٩)
né, Etude Sur, les monuments et l'histoire de la période compuse
entre XIIe et XIIIe dynasties, Paris, 1918.

— H. Stock, Studien sur Jeschichte and Archöologie der
18. bes 17 Dynastie Agyptiens, Glückslädt, 1942.

— A. Scharff, Ein Rechingsbech des Hafes ousder 13
Dynastie & AS, 57, P. 4.1

(٥٠) انظر مجموعة الملوك المسماة « سبك حتب » في الأسرة الثالثة عشرة
للدكتور أحمد محمود صابون ، الاسكندرية ١٩٨٨ .

G. Jequier, Deux Pyramédes du Mogen Empire, (٥١)
Le Caire, 1986.

- V. Maraglogle & Runaldi, Note Sulla . . . انظر (٥٢)
Pyramid de Ameny, Anu, Orientalia 37, 1968, P.P. 325 , 338.
- J. Von Becherath, Handmueder Agyptiachen Kone-
gsenamen, Muenchen, 1984.
- P. Lalob, Die Herschaft der Hghsos in . . . (٥٣)
Agypten, 1934.
- J. Seters, The Hyksos, 1968.
- J. Von Beckerath, Untersuchungen, Sur . . . politischen
Geschechte der Zwschen zeitim Agypten, Guckstadt, 1964, P.P.
27 — 8.

(٥٤) ومع ذلك فان الآثار القليلة التي تركها الهكسوس لا تعطى معلومات كافية عنهم بعكس فرهم من الأجانب الذين حكموا مصر كالفرس والافريق والرومان ، أما قصة طردهم من البلاد ، فقد عثرنا لحسن الحظ في طيبة على نصوص وكتابات أفادتنا كثيرا .

(٥٥) هناك رأى آخر يرى أن العجلات الحربية لم تستخدم الا في اواسط أو 'واخر عهد الهكسوس اذ لم تصل اليها أى اشارة الى العربات الا في عهد كاموسا نانى أبطال حرب التحرير كما صور المصريون في ذلك العهد حيوانات كثيرة على الجعارين لم يكن من بينها الحصان .

W. Winlock, The Rise and Fall of the Middle . . . (٥٦)
Kingdom at Thebes, New York, 1947.

الحضارة المصرية : تأليف جون دبلسون — ترجمة أحمد فخري — القاهرة
ص ٢١٨ .

(٥٧) لم يترك الهكسوس آثارا ضخمة ، وربما سبب ذلك أن المصريين قد حطموا فيما بعد ما يمت اليهم بصلة ، كما أن الظروف البيئية للندلتنا وكذا تعرضها الدائم للغزو وعدم وجود محاجر بها قد ساعد على تدمير آثارها .

(٥٨) أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ٢٤١ ، وكذا د. أحمد بدوى :
في موكب الشمس ص ٢٩٢ جزء ٢ .

(٥٩) الواقع أننا لا نعرف مدى الصلة بين ملوك الهكسوس وأمراء طيبة في تلك الفترة ، ويبدو أنهم كانوا يدفعون ذريبة للموك الهكسوس ولكنهم تمتعوا في نفس الوقت بقسط من الاستقلال .

(٦٠) كانت النوبة السفلى (المصرية) تابعة للملك كوش (مملكة كرما)
التي كانت على درجة كبيرة من التقدم نتيجة لزاولتها التجارة مستخدمة الدروب
الصحراوية وكذلك النيل . ومما هو جدير بالذكر ما روته هذه الوثيقة عن
استخدام كاموسا جنودا من الميجا (ربما هم أحفاد قبائل اليجة الحالية التي
تقطن صحراوات افريقيا الشرقية بين هضبة الحبشة والصحراء شمالي أسوان)
في هجومه على بلدة نفروس في مصر الوسطى المماثلة للهكسوس .

(٦١) انظر — J. Lacau, A.S.A. 39, 1939, P.P. 245 f.f.

—L' Habechi, Preliminary report on Kamese Snel, A.S.A., -53;
1955, P.P. 195. f. f.

— M, Wainmad, Decouoerte d'une Stela du Roi Kamosa,
Chronique d'Egypte, XXX, 1955, P.P. 198 — 218.

(٦٢) .. لقبته أياح حتب على هذه اللوحة بلقب أم « الحاونيو » أي
الكريتيين ، مما يدل على قوة العلاقات بين مصر وجزر ايجيه في ذلك الوقت ،
ومما يبعث على الظن بأنهم قد ساعدوا المصريين في حربهم مع الهكسوس .

الباب الثالث

عصر الدولة الحديثة

من ١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق م

بقلم : أ.د. محمد ابراهيم بكر

١٧٧

(م ١٢ - تاريخ مصر القديم)

عصر مجد مصر الحربى •

- عصر الوحدة مع أقطار الشرق العربى فى ذلك الوقت •
- عصر مجد طيبة سماها هومر بالمدينة ذات المائة باب •
- عصر الرخاء والتقدم الواسع النطاق •

كل هذه النتائج جاءت بعد مقاومة الهكسوس •

مطاردة الهكسوس علمت المصريين أنه لابد من القوة ومن الجيش لحماية البلاد والمحافظة عليها •

اضطروا فى مقاومة الهكسوس الى استعمال أسلحة أخذوها عن الهكسوس فتدربوا على أساليب الحرب •

انتصارهم على الهكسوس رد عليهم الثقة فى أنفسهم وبعث فيهم الروح الحربية •

مطاردة الهكسوس اتاحت لهم الفرصة للتعرف على شعوب وموارد البلاد الآسيوية ويدركون أنه ممكن لهذه الشعوب أن تؤلف وحدة كبرى متكاملة مكتملة بذاتها •

بعض المؤرخين يسمي هذه الفترة الامبراطورية المصرية ، أو عصر السيطرة العسكرية • الواقع أنها كانت أقرب الى وحدة افريقية آسيوية منها الى امبراطورية •

لم يتدخل المصريون في معتقدات هذه البلاد أو نظمهم،
وقوانينهم ولم يفرض المصريون عليهم لغتهم وتركوا الحكام
الأصليين في بلادهم ولكن المصريين اضطروا أحيانا بل كثيرا الى
استخدام القوة لما كان يسود وقتذاك من فتن ومؤامرات ودسائس .
هذه الوحدة الكبيرة تمثل أبرز الحوادث في تاريخ الشرق القديم
وقتئذ وقد صمدت هذه الدولة الممتدة على حد تعبير المصريين
القدماء من قرن الأرض الى أطراف المياه المعكوسة وشملت مصر
وشمال السودان وفلسطين وسورية ، صمدت ضد التوغل
الجبشي الذي كان يشكل أكبر خطر على المنطقة وقتذاك .

نقطة أخيرة يجب ذكرها هي أن الاتصال بين جميع جيران مصر
بما في ذلك بلاد بونت وجزر البحر المتوسط وبابل والحيثيين
أنفسهم لم يكن عن طريق الغزو والفتح فحسب بل كان أيضا
عن طريق الصلات .

الأسرة الثامنة عشرة

١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق م

تعتمد في معرفة هؤلاء الملوك على عدة مصادر :

- ١ - مسارد الملوك .
- ٢ - حياة الموظفين .
- ٣ - آثارهم .
- ٤ - أوزاق البردى .

الملك أخمس

١٥٧٥ - ١٥٥٠

يعد رأس عهد جديد هو عهد الدولة الحديثة ومؤسس أسرة جديدة كما ذكرنا لنا مانيتون وهي الأسرة ال ١٨ ، وهنا يتساءل البعض كيف نجعله رأس أسرة جديدة وهو أخو كاموزى وابن مسفن رع وهما من الأسرة ال ١٧ في تقسيم مانيتون ؟ الواقع أن مانيتون كان منطوقيا في ذلك ، حقيقة لم يحدث تغير في الأسرة الحاكمة ولكن عصره متميز حقا عن العصر السابق ويبدأ صفحة جديدة في

تاريخ البلاد فأحمس متم رسالة التحرر من الهكسوس والبطل الأخير في حرب الاستقلال ومؤسس مجد مصر الحربى ومع ذلك فان بعض العلماء مثل شارف يوضع أحمس وابنه أمنحتب الأول ضمن ملوك الأسرة ال ١٧ جاعلا تحتمس مؤسس الأسرة ال ١٨ ولو أن هذا مردود عليه بأن تحتمس الأول كان من نفس العائلة ، أضف الى هذا أن المصريين أنفسهم في حفلات تنويج الرعامسة اعتبروا أحمس على رأس عهد جديد ، فالكهنة قد حملوا في تلك الحفلات تماثيل ملوك ثلاثة : الملك مينا وهو موحد مصر الواحدة التاريخية الأولى التي مهدت لشباب مصر الفرعونية وهو عصر الدولة القديمة ثم تمال منتوحتب الثانى موحد مصر الواحدة التاريخية الثانية بعد عصر الاقطاع والاضمحلال والفوضى ثم أحمس وهو كما نعرف طارد الكهسوس وموحد مصر الواحدة التاريخية الثالثة ، بل ان المصريين قد قدسوا هذا الملك تقديرا منهم للأعماله وكانت عبادته ذات أهمية في أبيدوس أكثر منها في طيبة .

ويتكون اسم أحمس من كلمتين - اياح بمعنى القمر ومس وهى صيغة فعلية تعنى ابن القمر من الفعل ولد - وفي نفس الوقت نجد أسماء أخرى من هذه الأسرة قد احتوت على لفظ القمر مثل الملكة اياح-حتب أى القمر راضى وهى أم الملك أحمس ثم ذلك الاسم الذى انتشر في أيام هذه الأسرة وهو تحتمس ، وتحتوت كان الها للقمر كذاك .

هذه الأسماء ما زالت موضع مناقشة يجاول العلماء التعرف على السر فى ذلك وآخر الآراء تقول بأن الأسرة الحاكمة كانت مع الأشمونين أصلا وتحتوت اله القمر هو معبود الأشمونين ولم يكشف من الناحية الأركولوجية « الأثرية » على آثار أحمس قبل السنة الخامسة من حكمه وهو العام الذى تم فيه طرد الهكسوس

من مصر ، ففى ذلك العام أقام لوجا كبيرا لمعبد آمون بالكرنك مجد فيه أمه اياح حتب .

حروب أحمس :

تحدثنا عن طرده للهكسوس ومطاردته لهم فى شاروهين واعتمدهنا أساسا على نص أحمس وقد حدثنا القائد الثانى « أحمس ابن نخيت » أنه رافق الملك فى حربه ضد الهكسوس وبلاد زاهى « فينيقيا » ولسنا نعرف ان كان أحمس قد قام بهذه الحملة فى أعقاب حصار شاروهين ليشنت الهكسوس أم قام بها بعد مدة . ولكن ليس من شك فى أن هدف هذه الحملة كان تأمين الحدود من هجوم مفاجيء والشغور الفينيقية رغم مناعتها لم تقاوم المصريين أما عن النوبة فنحن نعرف أنه بعد أيام الدولة الوسطى انتهز النوبيون فرصة الغوضى فى مصر وشقوا عصا الطاعة فأسرع اليهم أحمس بعد قضائه على الهكسوس وقضى على الفتنة وأقام لوحة فى توشكا على بعد ٣٥٠ كم جنوب أسوان أشار فيها الى هذه الحملة ولم نسمع بعد ذلك بأى محاولات ضد مصر فى النوبة بقية أيام أحمس .

أعمال أحمس السلمية :

لم يكن أحمس بطلا من أبطال الحرب فحسب وإنما كان كذلك بطلا من أبطال التعمير والسلام وقضى أيام حكمه الباقية فى اصلاح البلاد وتوطيد النظام ، ونجح فى اخضاع معظم أمراء الأقاليم وجعلهم أقرب الى رجال البلاط منهم الى حكام وراثيين ، كذلك قام بفتح المحاجر واصلاح ما هدمه الهكسوس فى المعابد وترميم المقاصير وقبل ان أختم حديثنا عن أحمس لابد أن نشير الى سيدة ثالثة من أولئك العظيمات اللاتى لعبن دورا مهما فى مجريات الأمور فى ذلك الوقت ، تلك السيدة هى زوجة « أحموسا نفرتارى » وقد ظل نفوذ هذه

السيدة قويا أيام ابنها أمنحتب الأول وقد بذلت جهدا كبيرا في معونته
عندما كان صغيرا ، وقد نظر اليها المصريون منذ أواخر الأسرة ال ١٨
حتى نهاية الدولة الحديثة كمعبودة وأقاموا لها معبدا في طيبة
وجعلوا منها وابنها أمنحتب الهين حاميين للجبانة واعتاد الناس
تمثيلهما على جدران المعابد وكان يلون وجهها بلون أسود وأحيانا
باللون الأزرق لأسباب غير معروفة وعلى كل حال فتقاطيعها لا تدل
على أية ملامح زنجية ، وقد مات أحمس في سن مبكرة ودفن في قبر في
طيبة لم يعثر عليه بعد وان كانت موميأؤه قد عثر عليها وقد قدر
عالم انجليزى عمر أحمس بأربعين سنة ، وما هو جدير بالاشارة
أن أمه اياح حثب قد عاشت عشر سنوات بعد وفاته ، ويجب أن
نذكر هنا أننا قد عرفنا كثيرا من المقابر لموظفيه وقواده ومنها نستمد
الجانب الأكبر من معلوماتنا عنه ، وهكذا توفي أحمس بعد أن طرد
الهكسوس وطهر البلاد من الاحتلال وأصلح ما أفسده المحتلون
ووحده سلطنة العرش المركزى .

أمنحتب الأول

١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق.م

أربعة ملوك من هذه الأسرة تسموا باسم أمنحتب ومعناه :

آمون راض ، أما التسمية اليونانية أمنونيس فكانت في الأصل أمنوتس وفي العصر المتأخر أمنوفيس وهو ثالث أبناء أحمس من زوجته أحمس نفرتاري وقد ساعدته وتولت الوصاية عليه أمه وهو صغير كما حدث لأبيه مع إياح حتب وقد ورث أمنحتب صفات أبيه وجدته وتبار على منوالها سواء في الداخل أو في الخارج ولقد بالغ المصريون في التحدث عن قوته البدنية حتى لقد صوّروا وهو يمسك أسدا من ذيله ثم يرفعه في سرعة خاطفه ليقتضى عليه وهو أمر ولو أنه موضع شك كبير فإنه قد يرمز إلى قوته البدنية الخارقة . وقد ظل عمال الجبانة قزونا عدة يقيمون مقاصير العبادة ويقدمون له القرابين كما كان هناك تقليد خاص وهو أن كهنة معبده كانوا من العمال أنفسهم وقد سمي المصريون باسمه شهرا من شهور العام كان يقع فيه الاحتفال بذكره وهو شهر من شهور التقويم القبطي يسمى برمهاث ، ولم يقف تقديسه عند طوائف العمال فاحتسب وإنما قدسنا أيضا نقر من غلبة القوم ولدينا أثر من أخذ الكهان الكبار يدعى « حوى » يقطن فيه أمنوفيس وأمه أحموتنا نفرتاري وأباه أحمس .

ويعتقد العالم شرنى Cerny أن هذا الملك قد اعتنى بطوائف العمال ووضع لهم نظام العمل وقدم لهم أرزاقهم ومن ثم جاء تقديرهم له .

أعماله العسكرية :

سار أمنحتب الأول على نهج أبيه في اتجاهاته العسكرية مع اختلاف بسيط . فمن قبل كان الهدف إعادة حدوده الى أصلها ولكن الآن نشأت الرغبة في توسيع الحدود والواقع أن عهده كان منتظرا أن يكون عهد سلام وهدوء بعد جهاد أسلافه ولكن مما لاشك فيه أنه قد قام ببعض أعمال حربية ومعلوماتنا عن حروبه استقيناهها من أخبار حياة القائدين « أحمس بن أبانه ، وأحمس بن نخبيت » ويبدو أن الجيوش المصرية وصلت وقتذاك الى قرب نهر الفرات لأن الملك تحتمس الأول الذي أعقبه افتخر في السنة الثانية من حكمه بأن مملكته كانت قد امتدت الى الفرات وكان وقتذاك لم يقم بأى حملة على آسيا . بعد ذلك يبدو أنه حارب الليبيين كما يفهم من نص أحمس بن نخبيت ، ويبدو أن الليبيين قد اغتتموا فرصة وجود الهكسوس في مصر فنظموا أنفسهم لغزو الدلتا مما اضطر أمنحتب الأول الى سحقهم . أما عن النوبة فنحن نعرف أن أحمس الأول كان قد نجح في إخضاع العصاة ببلاد النوبة وفي تأمين حدود مصر الجنوبية وتوطيد الأمن بتلك المنطقة ، أما أمنحتب الأول فقد عمد الى غزو النوبة لتوسيع حدود مصر في تلك المنطقة فقد ذكر أحمس بن أبانه في سيرة حياته أنه سافر مع ملك الوجهين القبلي والبحري أمنحتب الأول عندما اتجه الى الجنوب قاصدا كوش لتوسيع حدود مصر ، وهذا التعبير الأخير يدل على التصميم على فتح

النوبة والسيطرة عليها ويبدو أن اقامة أمنحتب الأول باقليم
الشلال الثانى لم تطل ويبدو أنه اضطر للرجوع مسرعا حتى لقد
ذكر أحسن بن أبانه مفتحرا بأنه قد نقل الملك فى سفينة من الشلال
الثانى الى مصر فى يومين وعلى كل حال فيبدو أن أمنحتب لم
يستمر فى حروبه وقتنا طويلا فقد كانت الحالة هادئة والجو يبشر
بالسلام وقد أخذ يعمر المعابد واهتم بوجه خاص بالكرنك حيث أقام
هيكلًا أو مقصورة من المرمر أعيد تركيبه فى السنوات الأخيرة
كذلك شيد معبدا صغيرا فى الدير البحرى ووجدت له آثار فى
أبيدوس وكوم امبو والكتاب وغيرها ، أما قبره فنحن لم نعر عليه
حتى الآن ولكن تبعا لبردية « آبوت » فقد زارت لجنة الرقابة
والفحص أيام رمسيس التاسع قبر أمنحتب الأول وذكرت أنه كان
قبرا عميقا بلغ عمقه حوالى ١٢٠ ذراعا أى حوالى ٦٠ مترا وتبعا
لوصف تلك البردية يكون هذا القبر هو الذى اكتشفه كارنافون
عام ١٩١٤ بذراع أبو النجا ويقع على بعد ٨٠٠ متر من معبده
الجنائزى الذى سبق اكتشافه فى عام ١٨٩٦ فى الطرف الجنوبى
لجبانة طيبة وعثر على تمثال لهذا الملك بالمتحف المصرى الآن وهنا
يجدر بنا مناقشة موضوعين فى هذا الصدد ، أما الأول ففهم من بردية
آبوت أن قبر هذا الملك كان عميقا عمقا لم نألفه من قبل بين القبور
فى مصر القديمة وقد ربط بعض العلماء بين عمق هذا القبر وتقديس
عمال الجبانة لهذا الملك فهو أول من فكر فى هذه المقابر العميقة
وبذا أوجد عملا لهذه الطائفة من العمال التى تخصصت فى نحت
القبور ، وأما الموضوع الثانى فهو فصل هذا القبر عن المعبد فيكون
أمنحتب الأول أول من فكر فى فصل القبر عن المعبد حتى لا يعرف
للصوص مكان القبر وقد عثر على تابوت هذا الملك الخشبى على
هيئة آدمى فى خبيثة الدير البحرى ووجدت الجثة فيه ملفوفة فى

أكفائها دون أن تمس وقد غطيت بالزهر ، وهكذا هذا الملك بعد أن حكم أكثر من ٢٠ عاما أتبع فيها سياسة انشائية زادت من رخاء البلاد وعمرتها بالمعابد ، مات دون أن يترك ولدا يخلفه على العرش فخلفا أميرا من العائلة تمكن من الاستيلاء على العرش بعد فترة من الاضطرابات وهو تحتتمس * وعلى كل حال عند موت هذا الملك كانت الدولة الحديثة قد استقرت أمورها واستمرت من بعده وطيدة الأركان قرابة قرن ونصف *

تحتمس الأول

١٥٢٨ - ١٥١٠ ق م

لم يكن عند اعتلائه العرش صغير سن كمن سبقوه بل كان رجلا مكتمل الرجولة قد جاوز الأربعين عاما وكان عصره ايدانا ببداية عهد جديد هو عهد تسيير الجيوش المصرية على نطاق واسع الى الخارج . فهو في الواقع اول من خطا الخطوة الكبرى في سبيل تشييد دولة واسعة وعمل على بسط نفوذ مصر في الشمال والجنوب والواقع أن سيرة الرجل وما كان له من صفات تدل على ميله للأعمال البطولة والحرب واستئناف جهاد اسلافه وكذا ميله الى التعمير والأعمال السلمية .

لم يتأكد العلماء حتى الآن من نسب تحتمس الأول فبعضهم يرى أنه ابن أمنحتب من إحدى زوجاته الثانويات وبعضهم يرى أنه ابن أحمس الأول من أحموسا نفرتارى وفريق يرى أنه أحد أقرباء أمنحتب البعيدين وأنه قد نجح في الاستيلاء على العرش ثم تزوج من أحموسا بنت أمنحتب الأول ليصبح حكمه بالصيغة الشرعية . وقد كان لاعلان توليه الحكم بالنوبة شأن كبير فنقش موظفو الحكومة مرسوم التتويج في وادي حلفا وغيرها من مناطق النوبة ، وفي المرسوم الذي نقش بوادي حلفا مثل الملك وقد وقفت

عن ورائه زوجته أحموسا ثم الملكة أحموسا نفرتارى التى كانت لها مكانة كبيرة فى هذا العهد وفى رسمه لها معه ما يدل على أنها راضية عنه . ويظهر أن النوبيين لم يكونوا قد تلقوا درسا منذ وقت طويل فأخذوا يقومون بالقتال والاضطرابات وأحس تحتمس بتهديد مباشر لحدوده الجنوبية فقام فى العام الثانى من حكمه بحملة برية نهرية سجل أخبارها القائد أحمس بن أبانة الذى ذكر أنه رافق الملك لمعاينة الثوار وذكر أنه استطاع أن يقود الأسطول بعد تطهير القناة التى شقها سنوسرت الثالث فى الجندل الأول من الطمى الذى تجمع نتيجة إهمال تطهيرها فى أيام الهكسوس ، وقد هزمت هذه الحملة النوبيين وترك تحتمس الأول عند « تومبى » عند الجندل الثالث ، لوحة ذكر فيها أنه المهيمن على الأراضى الشاسعة الممتدة من تومبى جنوبا الى الفرات شمالا ، كما بنى قلعة هناك لاتزال آثارها باقية وقد سجل أحمس بن نخيت على مقبرته خصوصا تشير الى هذه الحملة .

||

كذلك حدثنا نائب الملك فى أقاليم الجنوب بأن فرعون قد أعاد حفر قناة سنوسرت ثم عاد عن طريقها بعد أن قتل أعداءه وكان ذلك فى العام الثالث من أعوام حكمه . على كل حال نستنتج مما سبق أن الملك لم يكده يتولى العرش حتى سار على رأس جيش الى جنوب الوادى وطارد الثوار حتى وصل الى الشلال الثالث . كما تدل شواهد الأمور على أن تلك الثورات لم تكن بالشديدة الخطر ولم تستغرق من فرعون أكثر من عام .

هكذا استطاع تحتمس الأول عقب توليه العرش تثبيت حدوده عند الجندل الثالث واستطاع أن يضمن هدوءا نسبيا عند الجنوب كما اصطبغت تلك البلاد بالحضارة المصرية التى أخذت تقهر الحضارة المحلية ، ثم توجه

تحتمس الأول بعد حملته في النوبة للقضاء على القلاقل في سورية
والمصدر الوحيد عن تلك الحروب هي أخبار القائدين المعروفين باسم
أحمس اللذين اشتركا في تلك الحملة ، وقد ذكرا أن الجيوش المصرية
لم تقابل بصعوبات بجبهة قادش وتمكنت من الوصول الى بلاد
نهارين « ميتاني » بين الفرات والعاص - اسم نهارين جاء في
النصوص المصرية وهي البلاد الممتدة بين نهري الفرات والعاص -
وقد ذكر هذان القائدان أنهما قد أظهرتا شجاعة كبيرة كالعادة
والمعروف أن خدمة أحمس بن أبانة انتهت في تلك المعركة
أما أحمس بن نخيت فقد حارب مع تحتمس الثاني ونال احتراماً
كبيراً في عهده تحتمس الثالث وقد دون تحتمس الأول على لوحة
كبيرة نصبها عند كركمش « قرقيمش » كيف وصلت حدود بلاده
في آسيا الغربية الى ضفة الفرات ، ولم نعثر على هذه اللوحة ولكن
قدر لحفيد تحتمس الثالث أن يعثر عليها بعد ذلك بـ ٥٠ عاماً
ويشير اليها في لوحة أقامها هناك وقد انتهت هذه الحملات بانتصار
المصريين وعباد الجيش المصري بطوائف كثيرة من الأسرى وغنائم
الحرب . هكذا حقق هذا الملك بعد سنة واحدة ما افتخر به على
لوحة تومبس ونعتقد أن مصر في ذلك الوقت لم تحتل الأقاليم
الآسيوية احتلالاً عسكرياً بل اكتفت بالجزية . كذلك أغار الليبيون
في عهده على حدود مصر الغربية فحمل عليهم بجيش وظل يقاتلهم
حتى شردهم .

امتاز هذا العصر بتمتع البلاد بخيرات كثيرة وبزيادة موارد
الدولة نتيجة الغنائم والجزية والهدايا مما ساعد على اصلاح
ما أتلف منذ عهد الهكسوس ، وقد أخذ الفراعنة في إعادة بناء وتوسيع
الكرنك لشكر الاله آمون على ما أحرزه من نصر وقد زاد تحتمس
الأول المعبد المتواضع - الذي كان قائماً منذ أيام الأسرة الـ ١٢
والذي أعادت مصلحة الآثار تشييده - وبنى أمامه مسلتين من

الجرانيت ما زالت احدهما قائمة في مكانها الى الآن كما أقام الصرح
الرابع وشيد بهوا كبيرا عشر على بعض أعمدته تحت أرضية المعبد .

كانت لتحتمس زوجتان احدهما الزوجة الشرعية أحموسا
وتسمى الزوجة الملكية العظيمة التي ماتت أثناء حكمه وهي
أم حتشبسوت والثانية تدعى (موت توت) وقد أنجب منها
تحتمس الثاني وكانت لتحتمس زوجات أخريات ، كما كان له أولاد
عديدون فله ولدان صورا على قبر (باحدى) حاكم مدينة الكاب
وقبر هذا الحاكم يعد من القبور الفخمة التي أعطتنا فكرة واضحة
عن الحياة الاجتماعية في عهد هذا الملك وقد كان والد هذا
الحاكم مربيًا لهذين الملكين الحاكمين وقد حمل شخص اسمه
أمنحتب لقب الابن الملكي لتحتمس ولكنه لم يكن أبنا ملكيا حقيقيا
وقد شغل وظيفة الكاهن وعندما توفي تحتمس دفن في قبره في
وادي الملوك (تحمل الآن رقم « ٨٨ ») أما جثته فقد عثر عليها في
مخبأ الدير البحري ولم نعثر بعد على معبد تحتمس الأول الجنائزي .
وعلى كل حال فقد بنيت له حتشبسوت مقصورة جنازية في معبد
الدير البحري ، وقد ذكر المهندس انيتي في مقبرته بغرب طيبة
كيف كلفه الملك بالبحث عن مكان في البر الغربي أمام الأقصر يكون
مقرا صالحا لقبره ، اذ فضل هذا الملك أن يدفن في مكان خفي بعيد
عن العيون وقد ذكر انيتي انه أثناء ذلك العمل كان وحيدا لم تقع
عليه عين انسان ولم يسمع به أحد وقد أضحي هذا الوادي
المكان الذي دفن فيه معظم ملوك الدولة الحديثة والذي نسميه الآن
وادي الملوك .

تحتمس الثانى

١٥١٠ - ١٤٩٠ ق.م

يغلب على الظن انه لم يعمر من اولاد تحتمس سوى ولد يحمل اسم ابيه من الزوجة الثانوية « موت نفرت » وهو الذى اصبح تحتمس الثانى وتزوج من ختشبسوت ليصبح ملكا شرعيا وهكذا تولى الحكم بنفس الطريقة التى تولى بها ابوه .

تحتمس	تحتمس	تحتمس
تزوج من	تزوج من	تزوج من
ايزيس	موت نفر	أحموسا
أنجب	أنجب	أنجب
تحتمس	تحتمس	ختشبسوت

منذ بداية حكم هذا الملك دب الخلاف بينه وبين ختشبسوت اذ كان الفارق بينهما كبيرا فكان تحتمس الثانى معتل الصحة ضعيف الشخصية دفعته الظروف الى اعتلاء العرش دفعا بينما كانت ختشبسوت فتاة طموحا قوية الشخصية ورثت الصفات الشخصية لنساء هذه الأسرة وكانت تتطلع الى الاستئثار بالملك وجعلت من تحتمس الثانى فرعوناً رمزياً وقد أشار أنيبي الى اعتلاء تحتمس الثانى العرش حين قال أنه بعد وفاة تحتمس الأول تولى ولده

١٩٣

(م ١٤ - تاريخ مصر القديم)

تحتتمس الثاني فأصبح ملكا على أرض السواد « مصر » كما سيطر على الأرض الحمراء - الصحراء - ثم ذكر أنه في بداية عهده بلغ سن الشيخوخة وأنه كان له حظوة من قبل في بلاد ذلك الفرعون وأنه نال على يد هذا الفرعون ما له ينله أحد فهو كما ذكر قد كان محظوظا في القصر قريبا من صاحبه يجلس معه الى الطعام ويأكل منه وان الكل كان يتقرب اليه لاهتمام الملك به وعلى كل حال كان نتيجة هذا الخلاف أن انقسمت البلاد لحزبين وسادت المؤامرات والديسائس فانتهاز الثوبيون هذه الفرصة وشقوا عصا الطاعة منذ السنة الأولى من حكمه وهذه كانت عادة النوبيين فهم ينتهزون فرصة الحكم من ملك لآخر لاشعال نار الثورة . وأغلب الظن أن النوبيين قد سمعوا بالخلاف الواقع في بيت فرعون وقد أرسل تحتتمس الثاني جيشا هزم الثوار وأعاد الأمور الى نصابها وقد سجل ذلك على لوح اقيم بين أسوان وقيلة ، ويزعم بعض المؤرخين أن جهود تحتتمس الثاني الحربية امتدت الى الشلال الرابع لأن اسمه وجد مسجلا على صخرة في جبل برقل هناك ولكن ليس في تسجيل الاسم أى دليل على غزو حربي ، كذلك حدثنا أحمس بن نخبيت عن حرب خاضها أيام تحتتمس الثاني ضرب فيها البدو الذين يعيشون على حدود فلسطين ، كذلك عثر في أنقاض الدير البحري على نقوش ترجع الى أيام ذلك الملك وتشير اشارات غامضة الى حملات قام بها فرعون في بعض البقاع السورية ، كذلك من الجائز أن تكون بعض القبائل في الصحراء الغربية قد انتهزت فرصة النزاع على العرش في بيت فرعون فأشعلت نيران الثورة مما اضطر الملك الى ارسال حملة حربية لاختضاعهم يشير الى ذلك تسجيل اسم فرعون في واحة الفرافرة المواجهة لأسيوط : وعلى كل حال فجهود هذا الفرعون الحربية لم تكن عظيمة كأسلافه فقد كفاه أسلافه مؤنة ذلك .

هذا وتشير ظواهر الأمور الى أن ذلك الفرعون قد كان وفيما
الأبيه الذى ترك آثارا لم تكمل فأتىها دون أن يسجل اسمه عليها
وقد أقام بعض العمائر فى الكرنك كما وجدت له آثار فى جهات
مختلفة من مصر . وقد تزوج تحتمس الثانى من زوجات أخريات
بجانب حتشبسوت التى أنجبت له نفرو رع ثم مريت رع حتشبسوت
وأغلب الظن أن زوجته الثانية الثانوية ايزيس قد أنجبت له ولدا
هو الذى سمي فيما بعد تحتمس الثالث ولا نعرف اذا كان تحتمس
الثانى قد مات موتة طبيعية أم لا ، وعلى كل حال فقد دفن فى قبر
غير مزخرف بوادى الملوك وعند فحص جثته تبين أنه كان طويل
القامة ولكنه لم يكن قوى البنية وكانت ملامحه جميلة تتفق مع
علامح أفراد أسرته كما لوحظ أنه كان يميل الى التأنق فأظافر قدميه
مسواة بعناية ويغضى رأسه شعر مستعار مجعد تجعيدا مصطنعا
يظهر طبيعيا ويدارى رأسه الأصلع .

حتشبسوت

١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق م

هى احدى ملكات الأسرة ال ١٨ وأول ملكة حكمت البلاد مدة طويلة وهى أشهر نساء مصر القديمة وأشهر الملكات اللاتى يعرفهن التاريخ القديم وأحد الحكام العظام الذين بنوا مجد مصر ، تميزت بنشاطها وذكائها وقوة شخصيتها وسعة حيلتها وهى لم تستخدم سلاحا طوال مدة حكمها ولم تحمل سيفها ولكنها فى نفس الوقت كانت تمسك بزمام الموقف فى أخرج اللحظات دون أن يكون لها سلاح سوى العزيمة الصادقة والحيلة النيرة والأنوثة الذكية وسيرة حياتها وآثارها وتمثيلها تنطق بالعظمة وقوة الشخصية ، ولقد وصفتها نصوص معبد الدير البحرى وصفا شعريا رائعا حين سجلت قصة مولدها اذ يقول النص : لقد كانت جميلة جمالا فريدا لقد كان النظر اليها أمتع من النظر الى أى شىء آخر لقد كانت فى صورة قديسة وقد كانت تتصرف كالآلهة ولها روعة الآلهة وبهاؤهم .

توليها الحكم :

كان تحتمس الأول قد تزوج من أميرة ذات دم ملكى هى أحموسا خلف منها ولدين هما آمون مس ، وواج مس وبنيتين بيت نفرد ، وحتشبسوت ماتوا جميعا عدا الأخيرة وكانت له زوجة

ثانوية هي موت نفر خلف منها تحتمس الثاني الذى اشترك مع حتشبسوت ليصبح ملكا شرعيا وبعد موت تحتمس الثاني بدأ صراع رهيب على العرش بين حتشبسوت وأمير ملكي صغير السن في ال ١٦ من عمره هو الذى عرف فيما بعد باسم تحتمس الثالث وقد اختلف العلماء في من هو أبوه ؟ . البعض يعتقد أنه تحتمس الأول فيكون أخا لحتشبسوت والبعض يعتقد أن أباه هو تحتمس الثاني فيكون ابن أخى حتشبسوت « تسمى هذه مشكلة التحامه » .

ويزعم تحتمس الثالث أن تحتمس الثاني أوصى بالعرش له كما يؤيده كهنة آمون ودبرت له حادثة الوحي بالكرنك ومن ناحية أخرى هناك امرأة مكتملة العمر وافرة التجربة هي حتشبسوت من أبوين ذوى دم ملكي تزعم أن والدها تحتمس الأول قد أوصى بها ملكة على البلاد بل انها تقول ان أباه الحقيقي هو آمون الذى تقمص شخصية تحتمس الأول فكان يؤيدها حزب كبير من كبار الموظفين وقد اضطرت الظروف حتشبسوت الى مشاركة تحتمس الثالث الحكم ولكنها كانت مشاركة صورية اذ ما لبثت حتشبسوت أن انفردت بالحكم تقريبا وقد زوجت تحتمس الثالث من ابنتها وسيطرت على الاثنين معتمدة على صغر سنهما ودمائهما الملكية وحزبها القوى .

قصة ولادة حتشبسوت :

أدركت حتشبسوت عدم ارتياح الشعب لانفرادها بالحكم وأرادت أن تخلع على مولدها ثوب القداسة فاخترعت قصة بنوتها لآمون وسجلت ذلك على جدران معبد الدين البحرى ، وتتابع صور هذه القصة على النحو التالى :

المنظر الأول :

اجتماع يعقد في السماء من الآلهة نرى فيه الاله آمون جالسا على العرش وحوله « ١٢ » من آلهة مصر يتقدمهم الاله منتو اله طيبة القديم ثم الاله آمون اله الشمس وهكذا قد أعلن آمون للآلهة بولادة أميرة ستحكم مصر يكون عهدها عهد رخاء وسعادة وقال :

• ساوحد الأرضين •

المنظر الثاني :

وفيه يقوم الاله تحوت رب الحكمة والمعرفة بذكر اسم الملكة التي ستكون أما للحاكم المقبل وهي أحموسا •

المنظر الثالث :

يتخذ آمون شكل الملك الحاكم تحتمس الأول « يتمثل للملكة بشرا سويا ويخبرها بأن ابنتها ستصبح ملكة على مصر » ومنظر آخر فيه يصدر آمون أمره الى ختوم اله الخلق بتشكيل جسم الأميرة على عجلة فخار كما تمنح الآلهة حقت روح الحياة الى تلك الصورة ثم يتعاون ختوم وحقت على مساعدة الملكة الأم في الولادة حتى يتم ولادة حتشبسوت • وفي لوحة أخرى نرى الملكة أحموسا تحمل حتشبسوت في يدها ثم نجد المعبودة حاتور تقدم لاله آمون ابنته حتشبسوت التي لم يكن قد رآها للآن وتقول له « لير ابنته ومحبوبته حتشبسوت كارع لها الحياة » •

وبعد ذلك يسير آمون لحتشبسوت ويضمها ويقول انها الملكة التي تعتلك عرش مصر ، ثم منظر الاله آمون يقدم الملكة للآلهة عاملا

بذلك على أن تعتلي عرش البلاد ولم تكثف حتشبسوت بذلك بل ادعت أن أباهما قد أعلن بحفل كبير بالقصر الملكي أمام عظماء البلاد ورجال الدين حقها في العرش وخاطبهم قائلاً : هذه ابنتي حتشبسوت لقد عينتها ولسوف تخلفني انها ستعتلي العرش وتأمّر الناس في كل مكان انها ستقودكم وستستمعون اليها وتتحدون تحت لوائها . ان من يظهر الخضوع لها سيسعد ومن ينطق بالسوء لها سيشتقى . وكما كان تولى امرأة على كل حال من الأمور النادرة فقد عمدت حتشبسوت لكي تكسب الموقف الي تقليد الرجال فارتدت ملابسهم ووضعت اللحية المستعارة وكافة التيجان وشارات الملوك وتلقبت بألقابهم واستخدمت ضمير المذكر في الكتابة هادفة بذلك الي ابطال أي معارضة في هذا الشأن وايهام الناس بأن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أي تغيير بتولى امرأة العرش ، وقد ذكرت هذا من ناحية تحتمس الثالث فقد ذكر نص بالكرنك جميل الأسلوب كيف تولى تحتمس الثالث العرش جاء فيه أنه لم يكن الا خادما بسيطاً يعمل في معبد آمون بالكرنك وفي يوم من الأيام كان آمون يقوم بجولة في صالة الأعمدة وتوقف أمام الأمير الصغير الذي خر على الأرض ساجدا فرفعه آمون من سجوده ووضعته على العرش وكان ذلك بحضور والده ومعنى هذا أن تحتمس الثالث عين ملكاً بالوحي الالهي وهنا نتساءل هل كتب هذا النص في أول عهده بالحكم تحت وصاية حتشبسوت أو بعد أن تولى منفرداً ؟ وعلى كل حال فهو أمر مازال موضع تحقيق وهناك نص معاصر قد نعتمد عليه الي حد كبير في تقرير تتابع الأمور في ذلك الوقت فقد سجل المهندس العجوز « أنيني » على جدران قبره النص التالي :

« رحل الي السماء واتحد مع الآلهة تحتمس .. »

« ولكن أخته الزوجة المقدسة حتشبسوت أدارت شؤون البلاد وفقاً لادارتها وخضعت مصر لرغبتها ولا غرابة في ذلك فجلالتهما

من النيل المقدس العظيم الخارج من صلب الآلهة ، وقد كانت جلالتها بمثابة حبل مقدم السفينة في البلاد الجنوبية وحبل مؤخر السفينة في البلاد الشمالية ، لقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهي والمشروعات السديدة القول المليح الذي ملأ أهالي القطر فرحاً وسروراً وقد جعلتني عظيماً ومالأت داري فضة وذهباً » .

ويفهم من هذا أن تحتمس الثالث قد تولى العرش بعد موت تحتمس الثاني ولكن حتشبسوت كانت هي التي تدير شؤون مصر بعد وفاة تحتمس الثاني كوصية ، ويقدر المؤرخون ذلك بسبعة أعوام ثم ما لبثت أن تجاهلت تحتمس الثالث وحكمت البلاد منفردة مدة تبلغ قرابة ١٤ عاماً وقد عهدت حتشبسوت الى تقليد الرجال فارتدت ملابسهم ووضعت اللحية المستعارة وكافة تيجان وشارات وعلامات الملوك وتلقبت بألقابهم واستخدمت ضمير المذكر في الكتابة ذلك لأن المصريين كانوا ينفرون الى حد كبير من تولى امرأة العرش فأرادت تقوية مركزها وابطال أى معارضة في هذا الشأن وايهام الناس بأن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أى تغيير بتولى امرأة العرش .

سياسيتها :

كان عصرها عصر سلام واستقرار بين عهدين اندلعت فيهما الحروب . تحاشت ارسال جنود الى الخارج . سياسيتها الخارجية كانت مبنية على العلاقات السياسية والثقافية ، لا على القهر والقوة . هذه السياسة الخارجية أدت الى تقدم ورفاهية داخلية في البلاد ولكن كان لها تأثير عكسي فقد أضعفت هذه السياسة من نفوذ مصر في غرب آسيا التي أخذ أمراؤها في تحطيم نفوذ مصر هناك واتخذوا من مدينة قادش مركزاً لهذه المؤامرات .

أهم أعمالها المعمارية :

• معبد الدير البحرى « جنة آمون »

المعبد على ثلاثة مدرجات تستند الى الجبل وتعلو كل منها الأخرى ويوصل بينهما طريق صاعد . هذا المعبد كان معبدا جنائزيا لها ولأبيها تحتتمس الأول ولكن عبد فيه الاله آمون وحاتور ربة الجبانة وأنوبيس اله الموتى .

قلد المهندس هنا مقبرة منتوحتب الثانى ولكن تلاشى فيه نواحي الضعف فى بناء الأسرة ال ١١ .

بعد هذا المعبد من أعظم مخلفات مصر القديمة :

١ - لتصميمه الفريد .

٢ - للنقوش التاريخية والسياسية والدينية المهمة المدونة

عليه .

من أهم النقوش المسجلة عليه بعثة بلاد بونت التى أرسلتها حتشيبسوت فى السنة التاسعة من حكمها تحت قيادة رجل يدعى « نحسى » زنجى وقد سارت من طيبة فى النيل شمالا حتى شرق الدلتا ثم عبرت قناة وادى الطميلات التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر قرب السويس الحالية وطبعا من المعروف أنه أيام الدولة القديمة كانت السفن تسير من الموانئ على البحر الأحمر مباشرة الى بلاد بونت ولكن بعد أن حفرت القناة التى تصل بين النيل والبحر الأحمر والتى يغلب على الظن أنها كانت أيام الدولة الوسطى فقد أصبحت السفن تسير فى النيل ثم فى تلك القناة التى تخترق وادى الطميلات حتى السويس ومنها الى بلاد بونت وهذا الطريق هو الذى سلكته بعثة حتشيبسوت سواء فى الذهاب أو الاياب .

وكان قائد الأسطول يدعى نحسى ونراه ممثلا فى مناظر هذه

الرحلة ووراءه بعض جنوده وقد خرج ملك بونت ومعه زوجته وأطفاله بحفاوة واکرام وقد استوردت هذه البعثة نباتات وحيوانات حيه ومما استحضروه معهم شجر المر واستحضروا أيضا البخور والكحل .

كما أحضروا حيوانات حية كالنسانيس والقردة وغير ذلك من البضائع كالعاج والأبنوس والذهب وجلد الفهد بل ان بعض أهالى بونت حضروا مع البعثة الى مصر وقد قدم قائد الأسطول في طيبة هذه الخيرات الى الملكة وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن الأشجار العطرية التى أتت بها البعثة قد غرست أمام معبد الدير البحرى فى حفر ملئت بالطين وكذلك صورت لنا النقوش بلاد بونت بأكواخها التى ترتفع على قوائم خشبية بجوار شواطئ البحر كما استطاع الفنان رسم أسماك وحيوانات البحر الأحمر بطريقة واقعية جميلة . ومن مناظر هذه البعثة الجديدة بالذكر منظر ملكة بونت المترهلة التى لاشك أن الفنان قد بالغ فى تصوير جسمها البدين فجعله يتكفل شخما ولحما ويكاد أن ينثنى من ثقل ما يحمل .

وقد أضافت حتشيسوت بعض المباني الى معبد الكرنك ومنها معبد الجرائيت واستخدمت أحجاره بعد أن هدمه تحتمس الثالث فى بناء صرح الملك أمنحتب الثالث وقد أقامت مسلتين كبيرتين يبلغ طول كل منهما أكثر من ٣٠ مترا ويغلب على الظن أنهما كانتا أطول ما أقيم من مسلات حتى فى عصرها ولا تزال إحدى المسلتين قائمة الى اليوم فى ذلك المعبد أما الثانية فقد تحطمت وترقد قمتها على الأرض الآن وهى تتميز بصخرها وبنقوشها هذا بجانب مباني حتشيسوت فى أماكن أخرى غير طيبة وفى مقدمتها معبدها الصخرى فى بنى حسن وقد استلزم كل ذلك ارسال البعثات الى وادى مغارة بطور سيناء والبحث عن المعادن والى محاجر أسوان

لجلب الجرائيت وقد اعتمدت حتشبسوت في فترة حكمها على طائفة من الرجال الأقوياء المخلصين وفقت في اختيارهم ومنحتهم ثقتها فساندوها وعاونوها وساعدوها على التغلب على الصعاب والقبض على الأمور بيد حاسمة قرابة عشرين عاما وكان على رأس هؤلاء الرجال شخصية عصامية « بنى نفسه بنفسه » غير معتمد على حسب أو نسب وهي شخصية المهندس المعماري الكبير « سنحوت » الرجل الأول في عهد حتشبسوت وقد كان سنحوت صاحب خطوة كبيرة لدى الملكة التي ولته أعلى مناصب الدولة بعد أن اكتسب ثقتها وعطفها وإذا جاز أن نصدق ما ادعاه سنحوت فقد كان المسئول عن كافة المنشآت الملكية في طيبة وهو الذي بنى لها معبدها العظيم بالدير البحري وأقام لها مسلتها بالكرنك وقص قصة تلك المسلات على جدران معبد الدير البحري وقد عهدت حتشبسوت فيما عهدت الى سنحوت من أعمال تربية ابنتها الكبرى نفرو رع التي نجدها ممثلة فيما لا يقل عن ستة من تماثيل سنحوت العشرة وقد حملها على ركبتيه أو بين ذراعيه لذا لقب بوالد هذه الأميرة ومربيها العظيم .

وقد وصفنا سنحوت نفسه على جدران مقبرته قائلا اني كبير الكبراء في البلاد . ويرجع الى في تصديق كافة شئون الدولة . اني أشرف على موارد الشمال والجنوب وكل ما يأتي الى مصر من البلاد الأجنبية . لقد صرت عظيما عظيمة لا يستطيع القلم أن يصورها وسأحدثكم عن ذلك ايها الناس استمعوا الي وأصغوا الي ما صنعت من خير . ومع ذلك فلا تقابل على الآثار اسم هذا العبقري الا لما اذ محاه تحتمس الثالث عندما تولى العرش منفردا بعد وفاة حتشبسوت . وهناك رسم وحيد لهذا الرجل أفلت من التهشيم يبدو كأنه رسم كروكي وهو مع ذلك معبر حي عن التقاطيع « هذا الرسم في مقبرته » .

ويوجد بمتاحف العالم الكثير من تماثيل هذا المهندس وهو يحمل ابنة حتشبسوت الكبرى نفرو رع . منها تمثال من الجرانيت الرمادي عثر عليه عام ١٩٠٤ بالكرنك وهو معروض الآن في متحف القاهرة ونراه فيه متربعا متسدا بردائه واضعا نفرو رع بين ركبتيه ويفتخر سنحوت في النص المحفور في مقدمة التمثال بما فيه « صفاته » قائلا :

« لقد كنت أعظم العظماء في الأرض كلها . لقد كنت صادقاً غير متحيز حتى أرضى مولاى سيد الأرضين . لقد كنت داخل القصر محبوباً وأنطلق منه مرضياً عنى ، لقد كنت كبير الكبراء وعظيم العظماء أنا سنحوت الصديق الموثوق به لدى الملك » .

وهناك تمثال آخر من الجرانيت الرمادي عثر عليه عام ١٩٠٤ وهو بمتحف القاهرة يمثل سنحوت راكعاً على إحدى ساقيه حاملاً على حجره الأميرة فى شكل طفلة صغيرة تضع اصبعها فى فمها كذلك هناك تمثال من الجرانيت الرمادى أيضاً بمتحف لندن الآن ترى فيه سنحوت جالسا جلسة عادية حاملا ابنة حتشبسوت وقد أحاطها بردائه . أما تمثال سنحوت بمتحف التاريخ الطبيعى « متحف فيلد يشيكاغو » فهو من الجرانيت الرمادى أيضا يمثله واقفاً يخطو الى الأمام وقد حمل الأميرة الطفلة بين ذراعيه وقد أمسكت بالصولجان فى يدها اليسرى وقابضة باليد اليمنى على كتف سنحوت وهناك تمثال سنحوت ممسك بحبل المساحة . وكبقية تماثيل سنحوت قد أصاب التمثال تهشيم فى الوجه وقد عثر لسنحوت على مقبرتين احدهما شيدها عندما كان موظفا عاديا على الطراز الخاص بهذا العصر وكانت مناظرها جميلة ملونة ولكنها هشمت تماما ويغلب على الظن أن ذلك قد حدث بعد تولى تحتمس الثالث الملك منفردا أما مقبرته الثانية فقد كشف عنها أخيرا أثناء أعمال الحفر والتنقيب التى قامت بها بعثة متحف المتروبوليتان بمنطقة الدير

البحرى وهى تقع قريبا من المعبد وتتميز برسوم تطابق الرسوم التى كانت وقفا على الملوك ، ومن أشهر تلك الرسوم رسم فلكى يعد أقدم خرائط السماء التى عثر عليها بين آثار قدماء المصريين وهذه المقبرة بالذات لم ينته العمل فيها كما انها لم تستخدم للدفن ويرى البعض أن هذه المقبرة الضخمة المتميزة دليل فى حد ذاتها على أن سنحوت كان يأمل أن يكون زوجا للملكة مصر ولذا يعدونه رجلا وصوليا نهازا للفرص وهبته الطبيعة من قوة العقل وبعد النظر ما جعله يقفز من ساحة الشعب الى مشارف القصر الملكى وهو لم يضيع وقتا فى اكتساب مودتها لأن زمام الدولة كان فى يدها غير أن القدر كعادته قد أعد لمثل هذه الأحلام بالسيادة والسيطرة خاتمة مؤسفة وقبل الأوان ، بل ان بعض العلماء يرى أن تحتمس الثالث لم يكن له يد فى تلك النهاية وينسبونها الى حتشبسوت نفسها وهم يعتقدون أن الملكة قد أدركت مقدار ما وصل اليه الرجل من قوة ونفوذ واتساع سلطان وأنها قد خشيت خطره وزهدت فيه فطردته من خدمتها وربما توقع سنحوت بذكائه مثل هذه النهاية فقد رسم نفسه سرا فى معبد الدير البحرى أكثر من مرة وهو يتعبد وقد حرص على أن تكون رسومه خلف الأبواب فلا يراها الناظر عندما تفتح ومع ذلك فلم ينس الحزب الذى فاز أن يحطم هذه الرسوم وأن يدمر مقبرة سنحوت بالدير البحرى .

ومن معاونى حتشبسوت سيمن شقيق سنحوت الذى أشرف على تربيته ابنتها الثانية مريت رع حتشبسوت ثم هناك حابو سنب ، ومن ألقابه :

الرئيس الكبير لكهنة الشمال والجنوب .
الذى كان وزيرا ورئيسا لكهنة آمون وقد كان صاحب شخصية مهمة يسيطر على الشؤون الدينية والدنيوية فى نفس الوقت، ومن رجال حتشبسوت كان تحوت « حجوتى » وزير الخزانة وتحس

قائد الأسطول في حملة بونت • وبوحي أن رع ثاني كهان آمون مدير أعمال الملكة، وأمنوفيس من كبار رجال الدين وقد اختفت حتشبسوت فجأة من مسرح التاريخ حتى مومياء هذه الملكة لم يعثر عليها وإن كان من المحقق أنها قد حفرت مقبرة لنفسها بجوار الدير البحري ولا بد أن نهاية هذه الملكة العظيمة كانت محزنة ولا نعرف إلى الآن إذا كانت ماتت ميتة طبيعية أو قتلت أو عزلت وكما ذكرنا سابقا كانت مقبرتها خلوا من جثتها وإن كان قد عثر بها على تابوت باسم تحتمس الأول وتابوت آخر بجواره لحتشبسوت خال من الجثة أيضا وقد عمد تحتمس بعد وفاتها - رغم أنه كان في أغلب الظن ابن أخيها ثم زوج ابنتها ثم شريكها في الحكم ثم خليفتها - عمد إلى تهشيم تماثيلها التي عثر على عشرات منها تمثلها واقفة أو راكعة تقدم القرابين أو على شكل أبو الهول مهشمة بجوار معبد الدير البحري وقد أمكن جمع الكثير من أجزائها وترميمها وهي الآن بالمتحف المصري وبمتحف المتروبوليتان • كذلك عمد إلى تحطيم آثارها واغفال « إخفاء » تاريخها ومحو اسمها والتنكيل بأنصارها وكان ذلك حقا منه عليها وقد جعلت منه أثناء مشاركتها في الحكم دمية ليس لها أي قيمة • لقد جعلت ذلك الملك الذي لعب بعد أن انفرد بالحكم دورا خطيرا في دول الشرق ، جعلته مغمورا لا حول له ولا قوة وقد لقيت حتشبسوت من حقد تحتمس الثالث بعد وفاتها وبعد أن أصبحت لا تستطيع الدفاع عن نفسها أضعاف ما لقيه هو أثناء حياتها ، فقد كانت التماثيل ضرورية في حياة المصريين ليحيا الإنسان حياة أخرى فأراد أن يحرمها تلك الحياة ومع ذلك فإن تلك الأعمال التخريبية التي تعد وصمة عار في جبينه لم توصله إلى شيء فقد بقيت حتشبسوت رغم ذلك خالدة على مر الأيام والسنين ولم تتمكن أي قوة مهما كانت من محو ذكراها التي بقيت خالدة حتى اليوم •

تحتمس الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦

١٤٦٨ - ١٤٣٦

هناك فارق كبير بين السياستين اللتين اتبعتهما كل من حتشبسوت وتحتمس فالأولى كانت سياستها سلمية تهدف الى تقديم أمجاد في الداخل بدلا من انتصارات في الخارج ، سياسة سلمية أساسها تقوية أواصر المودة بينها وبين الأصدقاء القدماء بدلا من التشاحن مع أعداء جدد ، سياسة تهدف الى العودة الى سياسة مصر القديمة المسالمة المتسامحة ويمكن أن نقول في عبارة أخرى انها سياسة تنشيط رقيا وتقدما داخليا دون الاهتمام كثيرا بالخارج ولذا اهتمت باقامة العمائر والنهضة باقتصاد البلاد وقد أظهر المعاصرون من الشيوخ كثيرا من التقدير والاعجاب لحتشبسوت وسياستها وعملها ومن هؤلاء أحمس بن نخبيت والمهندس أنين اما تحتمس الثالث فعندما استقل بالحكم كان قد أصبح رجلا يافعا قويا له قدرات كبيرة فعمل على توسيع الدولة ونشر نفوذها واشتهر بشجاعته ومهارته الحربية كقائه وبمرونته وحزمه وقدرته على التنظيم الادارى باصلاحه وأعماله المعمارية حتى لقد اعتبره العلماء أبرز شخصيات التاريخ المصرى القديم وألح قواد الشرق القديم حتى سماه بريتن نابليون مصر ، وقد بالغ المعاصرون أيضا في الإشادة بموهبته وقدرته وذكر عنه وزيره « رنجما رع » « أنه كان

يعلم كل شيء • لا يترك صغيرة أو كبيرة الا أحاط بها « بل ان هناك قصيدة شعرية نسبتها كهنة آمون الى الاله آمون نفسه شبه فيها تحتمس بالملك المصور من النور وبالكوكب الذى ينشر النور فى الظلام وينثر الندى فى الصباح وبالثور القوى الذى تستحيل مقاومة قرنيه وبالتمساح ملك البحار القاهر وبالصقر الذى يأخذ كل ما يريد وبالأسد الذى يفزع كل من ينظر اليه بل ان المصريين يعدون مئات السنين من موته اعتقدوا فى وجود صفات سحرية فى اسمه فنقشوه على الجمارين تيمنا بذلك •

أعماله الحربية :

توجه الى آسيا بعد حوالى شهرين ونصف من انفراده بالحكم اذ تحالفت بعض الامارات ضد مصر : فما الدافع الى ذلك ؟ هل كانت وفاة حتشبسوت هى السبب فى تكوين هذا الحلف ، أو ان الحلف كان قد تكون وتحدى حتشبسوت مما عجل بسقوطها ؟ وعلى كل حال. فما لاشك فيه أن الخلاف بين تحتمس الثالث وحتشبسوت قد هيا أمام هؤلاء الحكام الفرصة السانحة للتمرد ضد النفوذ المصرى وقد سجل تحتمس الثالث حروبه التى استغرقت عشرين عاما وخاصة معركة « محبو » على جدران معبد الكرنك ويعتبر هذا التسجيل الأول من نوعه فى تاريخ البشرية اذ أنه بمثابة تقارير حربية تشبه الى حد كبير اليوميات التى يكتبها قادة الجيش فى عصرنا الحالى • ويغلب على الظن أن تحتمس الثالث كان يصطحب معه فى حملاته كتبة يسجلون كل ما يحدث على أوراق البردى ثم تنقل مقتطفات منها على جدران الكرنك ، وكان الهدف من هذه الحملات الضرب على أيدي العابثين والمتآمريين والقضاء على التكتلات ضد مصر وعلى دويلات المدن الكبيرة وخاصة دويلة مدينة قادش التى كانت تمثل مركز مقاومة السيادة المصرية ثم انشاء

خط ديباع قريب من دولة الميتاشي الطموح التي مدت سلطانها في شمال غرب سورية وأخذت في تهديد المصريين ، وقد قاد الحملات الست عشرة بنفسه وكان موفقا في اختيار الطرق التي يسلكها الجيش والبيادين الصالحة للقتال وكان ماهرا في توزيع قواته بنظام وفي استخدام الخدع الحربية وفي القيام بحركات الالتفاف والمباغتة كل ذلك في مهارة حربية فائقة وتدير عسكري دقيق . وفي قصة الاستيلاء على يافا - وهي قصة خيالية ادخرتها لنا آداب العصور التالية - مثل طريف للخدع الحربية التي استخدمها قواد تحتس الثالث لبلوغ أهدافهم ، تشير حوادث تلك القصة الى أن المدينة كانت حصينة صعبة المنال حتى امتنعت على جيش فرعون وحتى اضطر تحوتى قائد القوة المصرية التي تحاصرها الى استخدام الحيلة فأشاع أنه ساخط على أعمال فرعون عازم على الغدر به والانضمام الى عدوه ثم راسل حاكم يافا في هذا الشأن حتى جاءت على الحاكم الخدعة ولما خرج حاكم يافا لمقابلة القائد اخذ الأخير يبالح في حديثه عن فرعون مما أثار دهشة الحاكم وأرهب قلبه ولكن القائد طمأن الحاكم ذاكرة أن قوة فرعون منشؤها عصا سحرية يمتلكها يضرب بها الأرض فيعطيها الله ما يريد ثم يذكر له أنه قد تمكن من الحصول على تلك العصا فلما طلب الحاكم أن يراها أخبره أن ذلك ممكن اذا اختليا في مكان بعيد وعندما تم ذلك عاجل الحاكم بضربة صرخته ثم عمد الى مائتين « ٢٠٠ » من الجنود المصريين فأخفاهم في زكائب ثم أمر بهم أن يحملوا في تلك الزكائب الى المدينة يتقدمهم ساقى خيل الحاكم برسالة الى زوجة « الحاكم » وأرسل في عونهم حرسا من الجند المصريين أوصاهم باطلاق الجنود الذين في الزكائب بمجرد دخولهم المدينة ولم تكد أبواب المدينة تفتح حتى نفذوا أمر القائد فانطلقوا يحتلون

شسوارعها وميادينها ييشما هاجمها المصريون من الخسازج وتم الاستيلاء على يافا بتلك الطريقة .

حملات تحتمس الثالث :

ـ الحملة الأولى :

الاستيلاء على مجدو .

كانت في السنة الثانية والعشرين من حكمه .

ـ الحملة الثانية :

في السنة الرابعة والعشرين أعمال حربية محدودة

ـ الحملة الثالثة :

في السنة الخامسة والعشرين أخضر النباتات والحيوانات التي رسمها بالكرونك .

ـ الحملة الرابعة :

في السنة السادسة والعشرين هذه الحملات لا تعتبر حملات حربية ولكنها زيارات تنظيمية واستعراضات عسكرية .

ـ الحملة الخامسة :

في السنة التاسعة والعشرين بغرض السيطرة على الساحل الفينيقي تمهيدا للاستيلاء على قادش . استولى على مدينة ارواد المنيعه .

ـ الحملة السادسة :

استولى على قادش في السنة الثلاثين

– الحملة السابعة :

في السنة الواحدة والثلاثين تنظيمية واقامة قواعد على شاطئ
فينيقيا .

– الحملة الثامنة :

استولى على قرقميش في السنة الثالثة والثلاثين .

– الحملتان التاسعة والعاشره :

في السنة الرابعة والثلاثين قليلة الأهمية الحربية كذلك
الجملة العاشرة في السنة الخامسة والثلاثين .

– الحملة الحادية عشرة :

في السنة السادسة والثلاثين .

– الحملة الثانية عشرة :

في السنة السابعة والثلاثين عسكرية .

– الحملة الثالثة عشرة :

في السنة الثامنة والثلاثين .

– الحملة الرابعة عشرة :

في السنة التاسعة والثلاثين .

– الحملة الخامسة عشرة :

في السنة الأربعين .

٣- الحملة السادسة عشرة :

في السنة الثانية والأربعين استولى على قادش للمرة الثانية
وبعد هذه الحملة وجدت في حوليات الكرنك العبارة الآتية :

« لقد أمر جلالته بتدوين الانتصارات التي أحرزها منذ
العالم ال ٢٢ من حكمه حتى الثاني والأربعين فلاشك أنها كانت آخر
غزواته » .

هذه الأعمال الحربية انتهت باتفاق نص على احتفاظ
الميتانيين بمناطق شمال سورية مع مدينتي حلب وقرقيش ولكنها
ضمنت للمصريين طريقا الى الفرات كما احتفظت لهم بالساحل
الفينيقي وفلسطين وجنوب سورية وقد تطورت علاقة المصريين
بالميتانيين بعد ذلك حتى ان فراعنة مصر تزوجوا من أميرات ميتانيات
كذلك ازدادت هيبة مصر وقدمت لها بلاد ختيا وأشور وبابل
وقبرص الهدايا هذا بجانب الفائدة الاقتصادية الكبيرة التي عادت
على مصر .

ادارة الأراضي الآسيوية :

انتهج تحتمس الثالث سياسة حكيمة في البلاد الآسيوية فلم
يتدخل في ديانتها أو شئونها الداخلية كما ترك حكام تلك المناطق
يزاولون سلطانهم تحت اشراف المصريين بل انه استدعى بعض اولاد
الأمراء وأنزلهم في قصور طيبة ليتربوا في بلاط فرعون وقد نجحت
هذه السياسة في كسب أولئك الأمراء الى جانب مصر وهكذا توطدت
أواصر الصداقة بين الأسرات الحاكمة في فلسطين وسورية ،
وفرعون والادارة المصرية ونجد صدى هذه العلاقة بعد خمسين عاما
في رسائل تل العمارنة .

حملاته في النوبة :

قام بحملة في العام الخمسين من حكمه وكان وقتذاك في السبعين من عمره وتمكن من اخماد فتنة هناك بنفسه ولم نعثر على نصوص تتحدث عن معارك بين ليبيا ومصر كما أرسل حملة الى بلاد بونت على غرار حملة حتشبسوت .

اعماله المعمارية :

وقد قام تحتمس الثالث عادة بحملاته في الصيف على أن يعود لمصر في أوائل الشتاء ليبقى بقية أيام السنة يعمل على اصلاح البلاد وتعميرها كما أنه لم يقيم بحروب تذكر في ال ١٢ سنة الأخيرة من حكمه مما يسر له اتمام منشآته المعمارية .

الكرنك : very important

١ - أنشأ بهو الأعياد الذي لا يزال محتفظاً بروعته وبهائه والى جواره شيد عددا من الحجرات الصغيرة نقش على جدرانها رسوما لحيوانات وطيور ونباتات كانت جديدة وغريبة على المصريين وقد زرع الكثير من تلك النباتات في حدائق المعبد كذلك خصص احدى الحجرات لكتابة السماء وألقاب أجداده عليها ونحن نطلق على هذه الحجرة « غرفة الأجداد » كما تسمى تلك القائمة سرد الكرنك وهو الآن بباريس كذلك دون غزواته على جدران الكرنك وقد شيد معبدا للاله بتاح هناك .

٢ - شيد ثلاث مقاصير لا تزال قائمة للآن في فناء رمسيس الثاني بمعبد الأقصر .

٣ - كشفت الحفائر عن معبد له بجوار معبد حتشبسوت بالدير البحري والى الجنوب منه .

٤ - شيد معبدا قرب دنقلة وآخرا عند سمنة كما أقام الكثيرين من المقاصير والمعابد في مدن الصعيد والدلتا وخاصة الفيوم ودندرة وقفت والعرابة المدفونة وأرمنت والكاب وادفو وكوم أمبو وأسوان .

وكذلك عشر على آثار له في كلابشة وكوبان والدكة ببلاد النوبة كما أقام معبدين هناك في عمدا والليسيه أما معبد العمدا فيقع على بعد ٢٠٠ كم جنوب أسوان وهو معبد صغير ولكنه يعد أجمل وأبرع معابد النوبة الستة عشر ومع أنه مبنى أى من السهل فكه واعادة تركيبه فانه حرصا على نقوشه وألوانها قامت الحكومة الفرنسية بنقل ذلك المعبد كتلة واحدة على عجل يسير فوق قطبان .

أما معبد الليسيه فهو معبد صغير منحوت في الصخر وفي حالة الآن غير جيدة ولم يكن هناك مشروع لانقاذه ولكن أهالي بلدة تورين الايطالية جمعوا أموالا كافية لانقاذه وتم لهم ذلك في اللحظات الأخيرة وقررت حكومة ال ج . ع . م . اهداءه الى تلك المدينة ليقيم في متحفها . وقد أقام تحتمس الثالث ما لا يقل عن سبع مسلات ولتحتمس تماثيل كثيرة ولكننا لا بد أن نشير الى تمثال بالمتحف من الحجر الشست وهو يعد من أجمل التماثيل .

كبار الموظفين في عهده :

تقدم لنا مقار كبار الموظفين والضباط العظام والأشرافا في طيبة صورة مليئة بالحياة الاجتماعية وتعد أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية ودستور الادارة في ذلك العصر وقد عمد القواد الى تسجيل الحملات والمغامرات التي اشتركوا فيها أثناء حملات تحتمس الثالث وان كان ذلك التسجيل لم يعين الغزوة التي حدثت أثناءها المغامرة وان كان مما يبدو من هيئته

التسجيلات ان تحتمس قد قدر شجاعة رجاله واخلصهم وقدم لهم الهدايا والانعامات ولنضرب لذلك مثلا ما سجله القائد « آمون أم حب » « آمون في العيد » في مقبرته عن اشتراكه في مغامرة لعيد الفيلة في شمال سورية وقد أظهر شجاعة فائقة حين أنقذ الملك من فيل كبير كاد أن يفتك به لولا ان أسرع آمون أم حب ببتن خرطومه وعند ذلك هاج الفيل وكاد أن يفتك بالقائد .

رخمي رع :

وتعتبر مقبرة الوزير رخمى رع بطيبة من أهم مصادرنا عن الحياة المصرية في ذلك الوقت ، وكان رخمى رع « العارف كرع » من أسرة نبيلة كريمة نشأت في طيبة وتقلد عدد كبير من رجالها المناصب الادارية الكبرى ، فأجداده وعمه تولوا منصب الوزارة اما أبوه فكان كاهنا لآمون ونحن لا نعرف الكثير عن حياة رخمى رع اذ عندما سجل التاريخ اسمه كان قد وصل فعلا الى منصب وزير مصر العليا وحاكم طيبة وقد تولى هذا المنصب في السنة ال ٣٢ من حكم تحتمس الثالث وظل به حتى توفي في السنين الأولى من حكم امنحتب الثانى ويعد رخمى رع من أشهر وزراء الدولة الحديثة ومن أهمهم مكرما وقد كان الوزير في مصر القديمة بمثابة رئيس الوزراء الآن أى أكثر رجال الدولة مسئولية وكان يختار من أحسن الناس سيرة وأرجحهم عقلا وكان مع الوزير الكبير وزراء آخرون فهناك وزير للمالية والاقتصاد وآخر للعدل وثالث للأشغال العامة وهكذا . وقد ترك لنا رخمى رع مقبرة بالبر الغربى بطيبة تعد من أغنى المقابر بالمناظر التى ترسم لنا صورة عن نظام الحكم والمهام الجسيمة الملقاة على عاتق الوزير في ذلك الوقت وقد سجل رخمى رع

على جدران مقبرته أصله ونسبه ثم حدثنا عن أسرته ووضف لنا حفل تنصيبه وزيرا وما أوصاه به فرعون يومئذ حين وجه إليه الكلام قائلا « عامل من تعرفه كمن لا تعرفه ؛ ليكن غضبك لما يستوجب الغضب ، لا تصرف شاكيا دون أن تسمع شكواه . . . فهذه وصايا صالحة لكل زمان ومكان » ثم يتكلم عن كفايته ومهارته في النهوض بواجباته نحو أمته وظهاره يده وحسن معالجة الأمور الدولة وقيامه بالمهام الجسام التي وضعها فرعون على كنفه ثم تقدير الشعب لكفايته وتعمقه في القانون وتمسكه بالقانون عند الفصل في الأمور فهو كما يصف نفسه « لا يميل في جنب عن الآخر ، ولا يزن الحق بميزان الرشوة أو المكسب وهو صبور مع الشهود دقيق في أحكامه هدفه إيصال الحق إلى أهالي السماء ونشر العدل في طول البلاد وعرضها ومساعدة الأراذل والمغلوبين على أمرهم ومعاينة المغتربين والطفنة » وقد صور لنا رخمى رع على جدران مقبرته أعمال الوزير الرسمية وحياته اليومية خير تمثيل حتى لتعد مقبرته بمثابة سجل ادارى لمصر في ذلك الوقت بجانب ما تتميز به من بديع النقش وروائع الفن ، هكذا حققت تلك المقبرة أمنية رخمى رع التي نقشها على جدرانها حين قال « انها يستبقى الى الأبد وان اسمه سيكتب في سجل الخالدين » . . .

وقد توفي تحتمس الثالث حوالى نهاية السنة ال ٥٤ من حكمه ودفن في مقبرة بوادى الملوك أما موميأؤه فقد عثر عليها بمخبر الدير البحرى فى حين تهدم معبده الجنائزى ويقع فى شرق الرامسيوم .

هكذا توفي تحتمس الثالث ذلك الرجل الذى ملأ الدنيا دويا والذى كان دائما فى مقدمة جيشه والذى وضع أسسا سليمة للتكتيك الحربى وفن الاحكام والاغارة ، ذلك الرجل الذى بدأ فى جميع مواقفه ذكيا ماهرا حسن التدبير وفى نفس الوقت انسانا يمتلئ قلبه

بالمروءة والنفور من القسوة الا فيما يتعلق بحتشيسوت ، كما
كانت حياته كلها نضالا يتميز بالبطولة والشجاعة وقوة العزيمة
من أجل مصر ووحدة الشرق القديم ، وعندما ودع هذا الرجل
دنياه تصوره المصريون منقذا يتخلصون عندما يحملون تماثم تحمل
اسمه مما قد يصادفهم من مصائب الحياة أما أعداؤه فتصوروه بشرا
فوق البشر يمكنه أن يفعل المعجزات ولا يمكن لانسان أن يمسه
بسوء *

أمنحتب الثاني ١٤٣٦ - ١٤١٣ ق م

يعد أمنحتب الثاني من الفراعنة العريقى النسب فقد ولد من أبوين يجرى فى عروقهما الدم الملكى ، وقد رباه أبوه تربية رياضية عسكرية فقد اعتقد أنه لا بقاء لهذا الملك الواسع الا اذا خلفه ملك قوى . فعهد بتربيته الى أحد ضباطه ويدعى « مين » وقد صور لنا هذا الضابط على جدران مقبرته منظرا يمثله وهو يلقي على ولى العهد درسا فى الرماية ويقول له « شد القوس حتى أذنيك واستعمل كل قوة ذراعك وثبت السهم أيها الأمير أمنحتب » وقد تولى وهو فى الثامنة عشرة من عمره تقريبا وكان مشهورا بالفروسية بارعا فى ألوان الرياضة وخاصة الرماية والتجديف والجرى وركوب الخيل ولذا عندما دقت طبول الحرب لم يظهر أى ميل للتساهل أو المسالمة بل أسرع ليظهر بطولته وشجاعته .

حروبه فى آسيا :

قام بحملتين حملة فى السنة الثانية من حكمه وحملة فى السنة التاسعة أخبارها تبين الحملتين على لوحين احدهما اكتشفها شامبليون بالكرنك بمعبد آمون والثانية اكتشفت منذ حوالي

٢٥ سنة تقريبا اكتشفها د. أحمد بدوي في معبد بتاح بمنف وهي الآن بالمتحف المصري « انظر كتاب د. زايد الحروب وكذلك مبانيه بالكرنك » وغيرها .

من ناحية النوبة :

أتم معبد والده الذي أقامه في عمدا وترك لوحة تاريخية هناك لها صورة مماثلة في الفنتين جاء فيها أنه عند عودته من حملته الأولى في آسيا أحضر معه سبعة أمراء من المناطق التي هزمها ، وصلوا الى طيبة وقد أوثقت أيديهم وعلقوا منكسي الرءوس وذبح ستة منهم بيده أمام الاله آمون وعلق جثثهم على جدران طيبة وبجانبيهم أيديهم المبتورة أما السابع فأرسله الى بلدة نباتا عند الجندل الرابع حيث أعدم بنفس الطريقة وعلق على جدرانه

الواقع أن أمنحتب الثاني كان يحدثنا باستمرار عن أعمال تثير الرعب والتخاذل بين أعدائه ، لقد حدثنا عن اطلاقه لسهامه على هدفين من النحاس أمام الآسيويين بعد أن استولى على مدينة قادش وحدثنا أنه ساق عربته الى إحدى مدن سورية وقد أحضر معه ستة عشر أسيرا أسرههم بنفسه ، وحده ، وجعلهم يجرون بموازاة عربته وقد علق عشرين يدا مقطوعة على جبهة جواده وذكر أن هذه المدينة سلمت دون قتال وذكر أيضا أنه قام بنفسه على حراسة أكثر من ٣٠٠٠ « ثلاثة آلاف » أسير آسيوي خلال الليل كله وقد ظل ساهرا بمفرده وفي يده فأس الحرب بينما كان الجيش بعيدا عن سماع صوته ، وقد هاجم كثير من المؤرخين أمنحتب الثاني يتهمونه بالوحشية ولكنه كان يهدف أغلب الظن الى اعطاء دروس لأعدائه وقد نجح فعلا في ذلك إذ خمدت روح المقاومة الجدية عشرات السنين بعد وفاته ولكن تلك السياسة تخالف ما سبق أن عرفناه عن المصريين بل تخالف تمام المخالفة سياسة أبيه تحتمس الثالث الذي يعد حضارة

لجده ، ومنح الأمان لكافة الجنود من الأعداء الذين طلبوه وسمح لهم بالعودة الى ديارهم بعد أن أقسموا يمين الولاء له وقد كان هنا الترفع عن الصغائر والعفو عند المقدرة والتسامح الكريم هو حجر الزاوية في بناء صرح تلك الدولة الكبيرة التي أقامها تحتمس الثالث .

وقد عثر د . سليم حسن عام ١٩٣٦ على لوحة في شمال شرق أبو الهول تتحدث عن مهارة وبراعة هذا الملك في الفروسية والرياضة « انظر كتاب مصر الخالدة د . زايد » .

وقد أحاط أمنحتب الثاني نفسه بشباب رافقه بعضهم أيام شبابه ومنهم « قنمة آمون » أخوه في الرضاعة الذي أكرمه وولاه مناصب مهمة . وهناك خلاف على اسم زوجته الرسمية والرأى الغالب أنها الملكة « تاعا » ابنة تحتمس الثالث ويغلب على الظن أنه أنجب خمسة أولاد من الذكور عهد بتربيتهم الى مرب صورهم على جدران مقبرة بطيبة جالسين على ركبتيه وأسمائهم قد محيت عدا اسم الأمير تحتمس الذي تولى العرش بعد ذلك وقد توفي أمنحتب الثاني بعد أن حكم ربع قرن تقريبا ودفن في قبر بوادى الملوك اتخذه ملوك الأسرة الـ ٢١ مخبأ لمومياءات الفراعنة بعد أن عجزوا عن حماية قبورهم وقد بقيت هذه الجثث ثلاثة آلاف عام أو يزيد حتى نقلت الى المتحف المصرى في أوائل القرن الحالى ويعتقد قبر أمنحتب الثاني من القبور الرائعة النقش وقد عثر بجوار جثة أمنحتب الثاني على قوسه المشهور الذى كان يفخر بأنه لا يوجد رجل بين رجال جيشه أو من الأجانب يستطيع أن يشد ذلك القوس لأن قوته أعظم بكثير من قوة أى ملك عاش من قبل .

تختتمس الرابع ١٤١٣ - ١٤٠٥ ق م

يغلب على الظن أنه لم يكن صاحب حق في العرش وأنه تولاه عقب نزاع في الأسرة المالكة يدلنا على ذلك قصة الحلم التي سجلها في لوحة بين مخلبي أبي الهول بالجيزة « كتاب د. زايد » .

حروبه :

عبارة عن حملات تأديبية في النوبة أو سورية ولكن ربما ما يهمنا من هذه الحروب :

أولاً - أنه كان آخر ملوك مصر المحاربين الذين قامت على اكتافهم الدولة العظيمة .

ثانياً - أنه سجل انتصاراته في تلك الحروب بطريقة مبتكرة وبشكل ضخم . على عجلته الحربية مثل عليها منظران : أحدهما يمثله يخوض معركة ضد نوبيين والثاني يمثله في هيئة أبي الهول يطاء بأقدامه أعداءه الآسيويين . وتعد هذه الرسوم النموذج الأول للأسلوب الفني الرائع الذي انتشر أيام الأسرة ال ١٩ فوق جدران المعابد .

ثالثاً - أن حروبه انتهت مع الميثانيين حتى لقد تزوج من ابنة ملكهم التي سميت في مصر « موت أمويا » وهي أم أمنحتب الثالث الذي خلفه على العرش والذي قضى بتوليته على العرش على فكرة أن أم ولي العهد تكون من العائلة المالكة المصرية ولعل هذا الزواج هو أول زواج لفرعون من ابنة ملك أجنبي وأول مصاهرة سياسية في التاريخ . أما عن آثاره المعمارية في الكرنك وغيره فهي متعددة « د . زايد » ونحن نذكر هنا أنه أقام تلك المسلة التي توفي تحتها الثالث بعد أن أحضرها ودون أن يقيمها والتي ظلت ملقاة في مكانها دون أن يؤدي أمنحتب الثاني واجبه في اقامتها .

من رجال عهده البارزين :

من آمنون ، وثاتوفى وتتميز مقابرهم بمناظر الحرب وقد مات تحتها الرابع بعد أن حكم مدة لا تتجاوز عشر سنوات وهو في ريعان شبابه وبموته بدأت فترة جديدة في تاريخ البلاد بعد أن انقضى قرن على انشاء تلك الدولة المترامية الأطراف .

أمنحتب الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق م

عرفه البابليون باسم نيموريا . بلغت مصر في عهده أقصى قوتها ونفوذها ورخائها المادى والاقتصادى وبلغت طيبة أوج عظمتها . كذلك يعد من الفراعنة العظام للأسرة الـ ١٨ . جنى ثمار المجهودات الضخمة التى بذلها أجداده ، وكان يحاط بالعزيز والرفاهية منذ أيامه الأولى وكان يميل الى اللهو والترف والمجون أما من ناحية نسبه فقد دون قصته وهى أنه زعم أنه ليس ابن تحتمس الثالث ولكنه ابن آمون من أمه « موت أم أويا » من ميثانى ، ليدفع أى تردد أو شك فى حقه على العرش .

هناك لوحة كبيرة بالمتحف كان قد أقامها فى طيبة تخليدا لانتصاراته ، معروف عنه أنه أرسل حملة واحدة الى النوبة تعتبر آخر غزو كبير قام به فراعنة الدولة الحديثة فى السودان . اذ بعد ذلك اصطبغت النوبة بالصبغة المصرية تماما كذلك نحن نعرف أنه لم يرسل أى حملة لآسيا ونحن نعرف ذلك من رسائل تل العمارنة « مصر الخالدة » . رسائل العمارنة اكتشفت عام ١٨٧٠ على يد سيدة فلاحه ومكتوبة بالخط المسمارى .

كان رياضيا ممتازا وصيادا بارعا « مصر الخالدة » اصطاد
أكثر من ١٠٢ أسد في العشر السنين الأولى من حياته ، وفي ذات
يوم سمع بوجود قطيع من الثيران الوحشية في إحدى المناطق فأمر
بإحاطة المكان بسياج ليعوق هروبها ودخل للمنطقة بعربة وظل
يصوب اليها السهام حتى قتل منها ٩٦ رأسا ، كذلك مما يذكر عن
هذا الملك تشجيعه لعبادة الشمس كما فعل أبوه تحتمس
من قبل وقد أطلق على قارب زوجته « تي » المكسو من ذهب
والذي كانت تنزه فيه في بركة القصر بالبر الغربي من طيبة ، أطلق
عليه اسم « بهاء آتون » ولكن رغم ازدهار مصر في عهده فإننا
نلاحظ :

أولاً - أن سلطة الملك المطلقة بدأت تضعف وتفتت .

ثانياً - النفوذ المصري في آسيا بدأ يتقهقر .

ثالثاً - التأثير الأجنبي في الحضارة المصرية بدأ يتغلغل .

أعماله المعمارية :

أقام معبدا ضخما وقصرا ريفيا في البر الغربي من طيبة ، لم
يبق منه الا التمثالان المعروفان بتمثالي ممنون « مصر الخالدة » ،
وتسمية ممنون جاءت عندما حدث تصدع في أحد التمثالين
عام ١٢٧ ق م . من زلزال فتراكمت قطرات من الندى في الفجوات
ولما تجيء حرارة الشمس تتبخر المياه فتخرج صوتا من الفتحات
ونغمة حزينة ربطت بأساطير أحد الشهداء اسمه ممنون ينادى في
الصباح أمه ، وسموا تمثالي ممنون حتى عام ١٩٦ م . وحين رمم
هذا التمثال أحد أباطرة الرومان بطل خروج الصوت منه .

من الأعمال المهمة أيضا لهذا الملك إقامة معبد الأقصر ثم أوصل
بطريق الكباش ثم بالكرنك « كان الاله آمون يمثل الكباش » .

س - لماذا وضعت الكباش ؟

١ - للزينة .

٢ - لتحديد الطريق .

٣ - لاعطائه صفة مقدسة .

أيضا وسع كثيرا في الكرنك وأقام معابد مونتو وموت هناك .

الرجال البارزون في عهده :

١ - أمنحتب بن حابو :

اله بعد وفاته . كان حكيما ذا ذكاء خارق ، عرف بالحكيم واستطاع أن يفوز بحق تقديره على غيره من معاصريه وأقيم له معبد خاص به في جبانة طيبة الغربية .

٢ - الوزير راموزا :

من الذين عاشوا في عهده وعهد اخناتون ، وتعد مقبرته من أجمل المقابر .

زوجاته وحياته العائلية :

تزوج أمنحتب الثالث من الأميرة كيلوجيبا إحدى بنات الملك الميتاني التي وصلت الى مصر يصحبها « ٣١٧ » من بنات بلاطها أغلب الظن أنهن تزوجن من موظفي وضباط بلاط فرعون . تزوج في أواخر أيامه من أميرة ميتانية أخرى اسمها تادوجينا كما تزوج من أميرة بابلية .

أما الزوجة الأولى فهي الملكة « تي » إحدى سيدات التاريخ المصري الشهيرات تزوج منها في العام الثاني بعد

توليه الحكم . ظنها البعض من دم ملكى ونسبوها الى البيت
المالك الميتانى الى أن كشفت الحفائر عن قبر أبويها فى طيبة
واتضح أنها مصرية لحما ودما بل من عامة الشعب فأبوها يويا من
الكهان وأمها تويا كانت تعمل فى القصر الملكى . ولسنا نشك فى أن
زواج أمنحتب الثالث من « تى » التى لم تكن من سلالة الأسرة المالكة
كان يعتبر فى ذلك الوقت خروجاً كبيراً على التقاليد الفرعونية
وخطوة جريئة فى تحديهم وقد استطاعت بنت الشعب هذه بما
وهبها الله من ذكاء وفتنة أن تستأثر بحب زوجها وأن تستهوى قلبه
فأمعن فى رضائها والتفتن فى تلبية طلباتها وبقيت أحب نسائه
واقواهن فى حياته أثرا بل لقد كانت بمثابة شريكة له حتى بات أمر
ذلك معروفاً عند الأمراء والحاكمين فى بلاد الشرق الذين كانوا
يقدرونها ويبعثون إليها برسائل الود والتقدير ، وقد خلد زواجه بها
فى جعران كتب عليه الملك :

« أمنحتب له الحياة : والزوجة الكبرى للملك « تى » لها
الحياة اسم أبيها يويا واسم أمها تويا » .

وما من شك فى أن مثل هذا الاعلان يحوى اعترافاً قوياً بأنه
أقدم على عمل جريء وهو متقبل لنتائج ذلك ، بل لقد ذكر أمنحتب
الثالث اسم « تى » على الجعران الذى أصدره بمناسبة زواجه
من الأميرة الميتانية جيلوخيبا اذ جاء فيه « العام العاشر من حكم
الملك أمنحتب وزوجته الكبرى « تى » اسم أبيها يويا واسم أمها
تويا لقد حدث أن وفدت الى جلالته جليوخيبا ابنة ملك
الميتانى .. » .

وقد أغدق أمنحتب الثالث على أبويها كافة أنواع التكريم حتى
أعطاهما الحق بأن يدفنا فى إحدى مقابر وادى الملوك وأتاح لهما
حياة كلها عز ورفاهية بدليل ما وجد من أثاث فى قبرهما يعد

أروع مخلفات المصريين في الأثاث باستثناء أثاث توت عنخ آمون
ولم يقتصر دور « تي » على عهد زوجها بل لقد كان تأثيرها
واضحاً على ابنها اخناتون سواء أثناء نشره للدين الجديد الذي
كان يدعو إلى توحيد العبادة أو ارتداده عنه في أواخر أيامه .

وكانت « تي » تتمتع بقسط من الجمال كما تشهد بذلك
صورها وتماثيلها التي تصورها قوية التقاطيع وجذابة في نفس
الوقت مما يدل على أن لها كانت تجمع الصحة إلى جانب ذكاء ودهاء
استغلتهما خير استغلال ، ومن أشهر آثارها رأس بديع من خشب
الأبانوس عثر عليه في نواحي الفيوم وانتهى الأمر به إلى متحف
برلين ويعد تحفة فنية رائعة فاللامع دقيقة والوجه معبر ولا ندرى
متى ماتت « تي » ولكن لا بد أنها فارقت الدنيا في أواخر عهد ابنها
ودفنت في مقبرتها التي كشفت عام ١٩٠٧ في مكان غير بعيد عن
مقبرة أبويها في وادي الملوك ، والمقبرة عبارة عن حجرة منحوتة في
الصخر عليها اسمها وبها الكثير من مخلفاتها وقد عثر في وسطها
على تابوت مغلف بالذهب ومطعم بالأحجار الكريمة. وفي قلب التابوت
اتخذت الجثة أبهى زينتها ، كسيت أيديها برقائق ذهبية وتوج الرأس
بأكليل ذهبي وهي أشياء تليق بمملكة عظيمة كانت زوجا لملك
كبير وأما الملك عبقرى ولكن عندما كشف عن الجثة أصيب الكاشفون
بمفاجأة وجدوا أنها لشاب في نحو الخامسة والعشرين وليست
تعجز ناهزت الستين ولا نعرف كيف نعل ذلك إذ سرق اللصوص
المومياء بما تحمل من حلى ووضعوا جثة ميت من مقبرة مجاورة
للتضليل أو ان المقبرة كانت مخصصة لها ولأحد أقاربها فسرقت
جثتها وبقيت جثة القريب ، أما أمنوفيس الثالث فنظرا لأنه انهمك
في مباحج الحياة الناعمة فسرعان ما انتابته الأمراض حتى لقد
أسند مقاليد الحكم إلى ابنه أمنحتب الثالث .

اخناتون

١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق م

احتل هذا الملك مكانا بارزا في التاريخ لسعة فكره وعمق آرائه فقد كان شاعرا مبدعا وفيلسوفًا قديرا ومصالحا دينيا فذا ولم يكن كأبيه مغرما بالصيد أو اللهو أو المجون بل كان يقضى معظم وقته في مناقشات فلسفية مع أمه « تي » وزوجته نفرتيتي كما كان يتحلى بالصدق والبساطة وعدم الميل الى التصنع أو المبالغة وقد تولى وهو صغير السن وحكم حوالي ١٧ عاما واختلف العلماء في أمر مشاركته لأبيه فالبعض يعتقد أنه لم يشترك معه مطلقا بينما البعض الآخر يعتقد أنه شاركه في الحكم مدة اختلف العلماء في تقديرها ، وقد كتب المؤرخون كثيرا في تاريخ ثورة العمارنة وان كانت كتاباتهم مركزة حول شخصية اخناتون بدلا من الثورة نفسها وما أحاط بها من رقى فكري وثقافي ولعل مما يبرر ذلك أن اخناتون لم يكن شخصا عاديا بل كان الزعيم المعترف به وبسلطانه على جميع القوى في ذلك العهد وقد اختلف العلماء في دوافع ثورة اخناتون أكانت للقضاء على نفوذ كهنة آمون والايقاع بهم والتخلص من نظامهم الاقطاعي أم كانت لايجاد معبود تفهمه الدولة المصرية الممتدة امتدادا كبيرا في آسيا أم كانت نتيجة لتفكيره وإيمانه

أو لهذه العوامل جميعاً مجتمعة ، لقد شرفت مصر عبادة الشمس منذ أقدم الأزمنة وكانت للشمس مظاهر متعددة عبادت في شكل رع وآتوم وخبر وخور آختي أما آتون فقد عرف في الدولة الحديثة فقط في أيام تحتمس الرابع ثم أمنحتب الثالث ذلك الإله الواحد الذي لا شريك له والذي خلق هذا الكون ووهب كل من فيه الحياة والذي تمثل في قرص الشمس ترسل أشعتها التي بأيد آدمية على أهل هذه الأرض فتحمل اليهم تلك الأشعة النور والحياة ولم يرمز اخناتون لمعبوده بغير هائه الصورة ولم يتخذ له صنما ولم يجعل له زوجة أو ولداً وقد أبقت الأيام على طائفة من أناشيد وصلوات الشمس من أبام اخناتون نقتبس منها ما يلي :

« أنت أيتها الشمس الحية التي وجدت منذ القدم أنت أيها الإله الواحد الذي لا إله غيره خلقت المخلوقات من بشر وحيوان وكل ما يدب على الأرض أعطيت كلا مكانه وقدرت له رزقه ثم ميزت شعوب الأرض باختلاف لغاتهم وألوانهم وأشكالهم ثم فجرت النيل لمصر من باطن الأرض ثم رفعت السماء على الأرض لترسل منها ضياءك أيها المشرق البهي البعيد القريب ما أعظم أعمالك أيها الرب كلها بحكمة صنعت وأنت واحد » .

الأزمة :

- ١ - اشتدت الأزمة في العام السادس من حكمه لتعطيمه تماثيل آمون واغلاقه لمعابده ومحوه لاسمه .
- ٢ - تأسيسه مدينة اخيتاتون « تل العمارنة » وهجرته اليها .
- ٣ - فرضه عبادة الشمس آتون واقامته لمعابده التي وجدنا أمثلة لها في تل العمارنة والكرنك .

٤ - اتخاذه أسلوبا جديدا في الرسم والنحت والأدب
« مصر الخالدة » .

الحالة السياسية :

كانت سيئة في عصر خناتون داخليا وخارجيا ، أما في الداخل فقد انتشر الفساد وكثرت الرشاوى والفساد نتيجة انصراف اخناتون الى دينه انصرافا كليا . أما الخارجي تدلنا عليه رسائل العمارنة « مصر الخالدة » فهي مليئة بتحذير فرعون وطلب المعونة منه بعد أن أدرك أمراء غرب آسيا أن فرعون قد أصبح معلما دينيا لا قائدا عسكريا فدبروا المؤامرات وحاكوا الدسائس حتى ان مصر لم تكن في وقت من الأوقات في حاجة كحاجتها وقتذاك الى حاكم قوى يعيد لها نفوذها ولكن للأسف كان يحكم مصر ملك فيلسوف عجز عن فهم الخطر المحقق ببلاده وقد استخدم فرعون في بلاطه عددا كبيرا من الرجال الحديثي النعمة الذين لم تكن لأسراتهم أهمية من قبل فتولوا أعلى المناصب بينما اختفت العائلات القوية العظيمة التي كانت تتوارث الوظائف العظيمة ، معنى ذلك أن الطبقة الاقتصادية الأرستقراطية وقفت بجانب كهنة آمون ضد فرعون وفي مقدمة من عاونوه « أي » الذي بدأ كمروض للجياد ثم تزوج مربية اخناتون ، ومرت زرع كبير كهنة آمون ، و « ماي » قائد الجيش . « وراموزة » الذي كان في الواقع وزيرا منذ أيام أمنحتب الثالث وقد ارتد اخناتون في أواخر أيامه عن دينه محاولا ارضاء كهنة آمون ولكن ارتداده لم يفده شيئا ولم يعره الشعب أو رجال الدين أى التفات واختفى فجأة من التاريخ ونحن نجهل تماما ما حدث له في نهاية عمره وان كنا نرجح أن موته قد حدث نتيجة مؤامرة دبرت للقضاء عليه كما أن عدم عثورنا على جثته يجعل من الصعب

التكهن بعمره وقت أن فارق الحياة • وقد محا المصريون اسمه
واسم الهه من كل مكان وتجاهلت قوائم الملوك عصر تل العمارنة
وأطلق عليه المصريون اسم « مجرم أخنيتى » وقد حفر اخناتون
مقبرة صخرية لأسرته اختار لها موقعا فى واد صخرى الى
الشرق من تل العمارنة ولم تسمح الظروف باتمام تلك المقبرة كما
لم يدفن فيها الا أنه يبدو أن ابنته الثانية التى توفيت فى سن
مبكرة قد دفنت فى هذه المقبرة وقد عثرنا على تابوتها الخشبى هناك
أما التابوت الخارجى الجرانيتى الضخم فقد حطم الى قطع صغيرة
نتيجة لحملات الأخذ بالثأر التى شنها أعداء اخناتون بعد سقوط
دعوته •

هكذا أسقط اخناتون إذ أنه لم يحظ بتأييد من أى قطاع
فى البلاد • لقد وقف رجال الدين ضده بعد أن نكل بهم وعارض
الشعب دعوته الجديدة فهو شعب يتمسك بالتقاليد ويميل الى
القديم وتبرم به رجال الجيش بعد أن رأوا تلك الدولة المترامية
الأطراف التى بنوها بدماء آبائهم يعث بها فتى خيالى منصرف
عن واجباته كملك مسئول ، ومع ذلك فقد حظى عصره باهتمام من
المؤرخين لم نشاهده فى أى عصر آخر ، وقد اختلف المؤرخون فى
فكرتهم عنه ، البعض قد أعجب به ومجده ورفعته الى مرتبة تقرب
من النبوة والبعض الآخر هاجمه واتهمه بالضعف والتخاذل
والتهاون واستنزل عليه اللعنات فهو كحاكم قد أهمل واجباته
الأولى وتسبب فى انهيار البلاد بل لقد اتهم بالشذوذ بل بالجنون
وشك فى قواه العقلية • ومهما يكن الأمر فقد امتلك اخناتون قوة
عقلية عبقرية وعقلا نضج بدرجة لا تناسب زمانه وكان بلا شك
فيلسوفاً ومفكراً عميقاً وفدائياً كرس حياته لدعوة رائعة ستظل
أحد معالم الحضارة المصرية القديمة بل إحدى مفاخرها وستظل
تمثل وثبة فكرية رائعة من خوالد الفكر فى العالم •

زوجته نفرتيتى :

لعبت زوجته نفرتيتى - ومعنى اسمها الجميلة مقبلة « آتية » - دورا خطيرا في اتجاهات زوجها الدينية والسياسية ويبدو أنها كانت تتمتع بجاذبية وجمال كبيرين وبشخصية قوية كان لها تأثير كبير على زوجها ويبدو أن حياة نفرتيتى واخناتون كانت حياة هائلة سعيدة في ظل الألفة والتبادل العاطفي والحنان الذي يسبغانه على بناته الست ، والواقع أنه ليس هناك في مصر الفرعونية ما يماثل صور نفرتيتى مع زوجها اخناتون وبناتها في الدلالة على مدى قوة العلاقات الزوجية والأسرية فكثيرا ما صورت نفرتيتى مع اخناتون يتعبدان لأتون أو يطلان على الجموع المحتشدة يوزعان الهدايا والعطايا . حين اختطف الموت احدى بناتهما صورا معا باكيين نادمين يودعانها الوداع الأخير . كذلك من المناظر الطريفة لهما منظر على حجر جبرى بمتحف اللوفر يمثل اخناتون يقود نفرتيتى ممسكا بيدها في صورة تدل على مدى الانسجام بينهما بل هناك منظر يمثلهما يتنزهان في مركبتهما ويتبادلان القبلات علنا ولكن عندما ارتد اخناتون في أواخر أيامه الى دين آمون بعد زيارة أمه « تى » له في تل العمارنة غضبت نفرتيتى التي كانت متحمسة للدين الجديد وربما كانت أكثر ميلا منه وأشد تعصبا فهجرته وعاشت في قصر منعزل في أقصى أطراف المدينة متزعمة الحزب الذي ظل مؤمنا بعقيدة آتون .

ولنفرتيتى بعض رءوس تماثيل تعد من أروع ما خلفه المصريون القدماء وكذلك الرأس الملون من الحجر الجبرى الذى عثرت عليه بعثة ألمانية عام ١٩١٢ وهربته للخارج - يمتلكه الآن متحف بولن - فهذا الرأس التى يبلغ طوله نصف متر تمكن فيه الفنان من إبراز معانى الجمال بشكل قوى أخذ فالتقاطع متناسقة ناطقة والعيون بيضاوية ساحرة والأنف صغير دقيق والشفاه ممتلئة

معبرة والواقع أن النظر الى هذا الرأس الذى مضى عليه أكثر من ثلاثة آلاف عام لا يزال يثير الإعجاب ويبعث على التقدير وان الانسان ليعجب في هذا الرأس بجمال صاحبتة وفن صانعه .

ولنفرتيتى رأس آخر من الحجر الجيري الصلب بالمتحف المصرى يبلغ ارتفاعه نصف متر وهو غير تام الصنع ومع ذلك فقد مثل الفنان معانى الجمال بشكل جعل صاحبتة مضرب الأمثال فى الملاحظة والرشاقة كما نجح فى اعطاء الشفتين ليونة وحيوية تبلغ حد الإعجاز ولم تترك نفرتيتى ابنا يرث العرش بعد أبيه بل أنجبت بنات بلغ عددهن ستا فتمكن أزواج بعضهن من الجلوس على العرش .

سمنخ كارع ١٣٥٠ - ١٣٤٧ في م٠

في اثناء حكم اخناتون اخذ أخوه الصغير سمنخ كارع في الاستئثار بمحبته وتدليله وخاصة بعد أن هجرته. نفرتيتي وقد تزوج من ابنته الكبرى « مريت آتون » وقد أشركه اخناتون معه في الحكم وقد هاجر سمنخ كارع الى طيبة في العام الثالث من حكمه وكان اخناتون ما يزال حيا على الأرجح ولم يحكم سمنخ الا فترة قصيرة ولم يترك الا آثارا محدودة وربما قد توفي اخناتون بعد وفاته وعلى كل حال فبموته أصبحت مصر بدون وريث شرعي للعرش وبدأت المؤامرات تحاك من أكثر من جانب وأخذت البلاد تسير بخطى واسعة نحو الهوة العميقة .

توت عنخ آمون ((آتون))

١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق م

معنى اسمه الصورة الحية أو التمثال الحى لآمون أو لآتون :

سارغ أهل الرأى لايجاد حل للأزمة التى أصابت البلاد فاختاروا صبيا فى سن الحادية عشرة هو توت عنخ آمون ونصبوه ملكا على مصر على أساس أنه قد اكتسب شرعية الجلوس على عرش مصر عن طريق زواجه بابنة اخناتون الثالثة « عنخ سن أم آتون - تحيا من أجل آتون » ولا يوجد أى أثر يوضح لنا أين ولد توت عنخ آمون ولا فى أى قصر نشأ ولكن لاشك فى أنه كان ينتسب للعائلة المالكة كما هو واضح ليس فقط فيما جاء من أشارات على تمثال أسد جبل يركل عند الجندل الرابع والموجود الآن بالمتحف البريطانى بل أن صفاته الجسمية التى تظهر فى صورته وتمثيله توضح مدى قرابته الحقيقية لآخناتون ونفرتيتى وبالرغم من قصر عهده وصغر سنه فإن البلاد أخذت تنهض فى أيامه وقد نشطت حركة الاصلاح فيما ضرب من معابد كما بدأ تشييد معابد جديدة فى جهات متعددة ولم يقتصر الأمر على طيبة بل تعداها حتى منف شمالا والنوبة جنوبا وقد استعان فى ادارة شئون البلاد برجلين قويين أحدهما « أى » الذى أشرف على ادارة البلاد والثانى « حور محب » الذى تزعم الجيش وظل فى منف بعيدا عن طيبة وعن

تل العمارنة وقد قام حور محب قائد الجيش في السنة الأولى من حكمه بحملة لاعادة الأمن في بعض ولايات فلسطين وفينيقييا أما سورية وشمال الفرات فقد كانتا شبه ميترس منهما إذ كانت دولة الحيثيين قد أخذت في التوسع في تلك الجهات على حساب مصر منذ أيام أمنمحتب الثالث وقد حدث احتكاك بين القوتين وكانت الحرب كما يبدو سجالا بين الفريقين وأذاعت النصوص الحيثية بان النصر كان لها بينما ذكرت النصوص على جدران مقبرة « حور محب » في سقارة ومقبرة « حوى » في طيبة أن النصر كان لمليف مصر .

ونحن نعرف أن كهنة آمون كانوا قد رفضوا أى حل وسط بينهم وبين اخناتون كما لم يتقبلوا محاولات سمنخ كارع أيضا أما توت عنخ آمون فقد خضع لجميع رغبات كهنة آمون وسلم تسليمًا كاملًا وأضحى العوبة في أيدي هؤلاء الكهنة المنتصرين وقد قام بتغيير اسمه واسم زوجته بان حل آمون محل آتون وحاول التقرب إلى الإله آمون بكل طريقة فضاعف من أملاك معابده وجعل لها ثلاثة أو أربعة أمثال ما كان لها من فضة وذهب وأحجار كريمة وزاد في خدم المعابد على حساب القصر وفي نفس الوقت قام أنصار كهنة آمون بتخريب مدينة أخيتاتون وتحطيم آثارها ونهب قبورها إذ اعتبروها مكانًا منبوذاً وبذلك انتهت ثورة اخناتون بالفشل وإن كانت آثارها استمرت بعد ذلك في نواح كثيرة وعاد إلى طيبة رجاؤها وعزها واسترد آمون نفوذه القديم وعاد كهنة آمون إلى مجدهم الضائع ومع ذلك ورغم كل ما فعله لنصرة عقيدة آمون فإن الكهنة لم يغفروا له صلته باخناتون ومن ثم أغفل اسمه في كل مناسبة ممكنة وكان يرجى أن يصل الفن إلى ذروة رفيعة لو استمرت مدرسة تل العمارنة في مجهوداتها غير أن الرجوع لعبادة آمون مكن طيبة من العودة إلى سيطرتها الأولى ولكن مع

ذلك ظلت مدرسة العمارنة باقية حتى الأسرة ال ٢٢ على الأقل وقد نجحت في ادخال الكثير من الرقة والرشاقة الى منتجات مدرسة طيبة مدن قرن على الأقل ، وعلى كل حال فاننا نرى في محترقات مقبرة توت عنخ آمون وفي مقابر عهده ومن خلفه من ملوك الأسرة ال ١٨ كثيرا من مظاهر التحرر المعروفة عن فن تل العمارنة .

أما عن حياته الزوجية فيدل ما بقى من آثار على أنه كان سعيدا مع زوجته كما توضح صورها معه على كرسى العرش وعلى صناديق الثياب والمجوهرات وعلى المقاصير وغيرها غير أن المؤرخين قد اتهموا عنخ آمون بتهمة خطيرة وهي أنها أرسلت الى الملك الحيثي تطلب منه أن يرسل أحد أبنائه ليتزوجها ويصبح ملكا على البلاد . هذا الحادث لم يصلنا الا بعض فقرات قليلة عنه عن طريق بعض النصوص التي ظهرت في بوغاز كوى العاصمة القديمة للحيثيين ونعرف من هذه النصوص أن الملك الحيثي قد استجاب لهذه الدعوة وأرسل أحد أبنائه . أما المصادر المصرية فلم تذكر أى شىء عن ذلك ويبدو أن المؤامرة قد فشلت وقتل الأمير الحيثي فى الطريق قبل أن يصل الى مصر ، وقد نسب بعض المؤرخين هذه المؤامرة الى نفرتيتى لا الى زوجة توت عنخ آمون . وعلى العموم فقد انتهت أخبار عنخ سنس با آتون فجأة وربما تكون قد حوكت عندما اكتشف أمر المؤامرة كما يلاحظ أن اسمها لم يرد على جدران مقبرة الملك « أى » خليفة توت عنخ آمون التى قيل انها تزوجته بل وجد اسم زوجة أخرى تدعى « تى » وقد مات توت عنخ آمون وهو صغير السن بعد أن حكم قرابة تسع سنوات ودفن فى تبر صغير ربما أعد لغيره إذ لم يتسع له الوقت لإقامة قبر ملكى ، وقد كدس أثاثه رغم فخامته وتشير هذه المقبرة وما كدس فيها من أثاث الى اسراف كبير فى المظاهر والترف والثروة المنقطعة النظير ، وقد اكتشفت هذه المقبرة التى تعد أصغر مقابر وادى الملوك فى نهاية عام ١٩٢٢ بواسطة العالم الانجليزى « كارتير » .

الملك « أى »

١٣٣٩ - ١٣٣٥ ق م

بعد وفاة توت عنخ آمون لم يتجه الكهنة الى أمير من أمراء العائلة التى حكمت أكثر من مائتى سنة بل وصل للعرش رجل من الشعب هو « أى » ونحن نعدده أول القواد العسكريين الثلاثة الذين حكموا البلاد على التوالى وهم أى ، وهور محب ، ورمسيس الأول مؤسس الأسرة ال ١٩ ولذا يسمى بعض العلماء هذا العهد بعهد القواد العسكريين وهناك من العلماء من يرى أن « أى » اشترك مع توت عنخ آمون فى الحكم اذ عثر فى الصرح الثانى بالكرنك على بقايا معبد صغير أقيم أثناء حكمهما المشترك هدمه حور محب واستخدم، أحجاره فى بناء الصرح ، وكان « أى » من عامة الشعب انخرط فى سلك الجندية حتى بلغ القصر عن طريق زواجه بالسيدة « تى » مرضعة نفرثيتى وكانت الأم المرضعة عند المصريين القدماء تكاد تكون فى مرتبة الأم الوالدة ولاشك أن « أى » قد لعب دورا مهما أثناء حياة اخناتون وكان هو المدبر لانتقال توت عنخ آمون الى طيبة وقد لوحظ على جدران مقبرة توت عنخ آمون منظر لم ير له مثيلا من قبل ، يظهر الملك « أى » وهو يقوم بعملية فتح فم الملك الذى سبقه وربما أراد بذلك أن يسجل لنفسه الحق فى

العرش ، ومن آثار « أي » المعروفة هيكل أقامه في أخميم ، وإذا كان أمر مؤامرة زوجة توت عنخ آمون للزواج بأمر حيشي أمرا حقيقيا فربما تم ذلك بعد وفاة توت عنخ آمون مباشرة وعلى كل حال فليس لدينا أي دليل على أنها تزوجت « أي » ، فعلى جدران قبر « أي » ذكر فقط اسم زوجته « تي » فربما هو كتم أمر هذه الملكة عندما عرف أمر تأمرها وكان « أي » شيخا هرما عندما تولى الحكم ولذا لم يتجاوز بقاؤه على العرش أربع سنوات .

حور محب

١٣٣٢ - ١٣٠٨ قى م٠

يعد بعض المؤرخين مؤسس الأسرة ال ١٩ على اعتبار أن « أى » كان آخر ملوك العمارنة وأن حور محب كان عهد تجديد وتغيير فى كثير من النواحي ولكن لا يمكننا أن نركز الى هذا الرأى فالواقع أن حور محب قد ختم عهد العمارنة ختاماً لا رجعة فيه ومهد للأسرة جديدة هى الأسرة ال ١٩ وقد نشأ حور محب من أسرة شريفة فى بلدة الشيخ فضل بشرق النيل محافظة المنيا حالياً وكان قائداً للجيش فى عهد اخناتون وتوت عنخ آمون وقضى أكثر أيامه فى منف المركز الرئيسى للجيش وبنى قبل أن يتولى الحكم قبره فى سقارة وقد قام بعدة مهام أيام اخناتون كجمع الجزية من بلاد النوبة كما أظهر مهارة كبيرة فى عهد توت عنخ آمون عندما قاد حملة عسكرية الى آسيا وعندما تولى « أى » الحكم كان مركز حور محب الإدارى متيناً فقد كان حائزاً لثقة الجيش ولكهنة آمون وكان قائداً عاماً للقوات العسكرية ورئيس المستشارين الملكيين حتى ل يبدو أنه كان الحاكم الحقيقى للبلاد ومع ذلك فلم يحاول الاستيلاء على العرش من « أى » بل ترك الأمور تسير كما تشاء بغير تدخل أو تغيير ، وقد تميز حور محب بيقظته وإخلاصه فى تأدية واجبه وبوقوفه على الحياد بين دعوة اخناتون وعقيدة آمون

فأبعد بذلك الجيش عن ذلك الخلاف المذهبي فلما مات « أى » تمكن حور محب من اعتلاء العرش دون اراقة نقطة من الدماء وتزوج من أميرة من الأسرة المالكة هى « موت نجم = حلو عزب » ليصبح حقه فى العرش شرعيا وقد تمسك عند اعلانه رسميا لحكمه بأن أعضاء عائلة العمارنة ملحدون وأنه أول ملك شرعى منذ موت أمنحتب الثالث كما قام بتسجيل اسمه على كل المباني التى أقامها توت عنخ آمون كما أمر بمحو اسم « أى » من على آثاره ومن ثم أخذ يعيد بسرعة هائلة ما كان لعبادة آمون من حقوق مسلوقة وأمر بإصلاح المعابد وترميمها فى كل مكان ، ومع حملة حور محب الشديدة على اسم وعقيدة اخناتون فانه حاول ارضاء أعدائه أيضا وأسند بعض المناصب الى مؤيدى اخناتون وقد قام حور محب بتنظيم أمور الجيش وتزويده بالسلاح ومع ذلك فقد كانت تجارب الحياة قد علمته فاتجه رغم أنه من رجال الجيش الى الأعمال الداخلية والاصلاح الادارى اذ أدرك أن ذلك يجب أن يسبق أى محاولة للتوسع فى الخارج وأن الاستقرار الداخلى أجدى بكثير من افناء موارد الدولة فى حرب غير مأمونة العواقب وقد راعى حور محب ما أصاب النظام الادارى من فساد عندما أغفل اخناتون شؤون مصر ودولتها وانصرف للتسبيح بمعبوده الجديد ففسدت ادارة البلاد وانتشرت الرشوة وكثرت الاختلاسات وأساء الموظفون استخدام وظائفهم وأخذ رجال الدولة فى ارهاق الفلاح ليمالؤوا مخازنهم لذلك نرى حور محب يعقد معاهدة مع ملك الحيثيين ليضمن استقرار الحدود ثم يندفع نحو الاصلاح بكل ما أوتى من قوة نحو الاصلاح الداخلى فأصدر مرسوم قوانينه الذى عثرنا عليه مهشما على لوحة حجرية طولها خمسة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار بالكرونك كذلك عثرنا على صورة أخرى مهشمة فى أبيدوس مما يدل

على أن الملك تولى نشر هذا المرسوم في أماكن مختلفة وقد بدأ حور محب هذا المرسوم بقوله « سن جلالته هذا القانون وأصدره لضمان رفاهية شعبه » كما يقول في آخره « هذه هي أوامري التي أصدرتها نظرا لما شاهدته من الظلم الصارخ لهذه البلاد » . مما يظهر أن الغرض من وضع هذه القوانين هو العمل على رفاهية الشعب وتخليصه من الظلم الذي كان واقعا عليه وينص هذا المرسوم على عقوبات شديدة تصل إلى جندع الأنف والنفي إلى الحدود لمن يسرق السفن التي تحمل الضرائب إلى خزائن الدولة أو إلى المعابد أو إلى القصر الملكي ولمن يتلاعب من موظفي الضرائب ومن يحتال على الفلاحين بأخذ بعض الحبوب أو من يقسو أو يرهق الأرقاء كما نص على قتل من يأخذ رشوة من القضاة وعلى كل حال فلا يمكننا أن نعد هذا الأمر مرسوما قانونيا بمعنى الكلمة كما نفهم الآن بل هو عبارة عن مجموعة تعليمات تنظيمية موجهة ضد من يعيشون في الأرض فسادا ، أمر بها فسجلت تحت أعين الناس في المعابد الكبرى وعلى كل حال يعده المؤرخون من أعظم رجال الإصلاح الاجتماعي في التاريخ القديم كذلك أمر بالتفتيش على المقابر لأنه حدثت بعض الاعتداءات والتعدييات ، وقد أقام حور محب الصرح الثاني بالكرنك واستخدم في إقامته كثيرا من أحجار معابد اخناتون وخلفائه وقد عثرنا على تماثيل له بعضها يصوره في هيئة الكاتب مما يدل على تعلقه بالثقافة والكتابة .

هكذا حكم حور محب ما يقرب من ثلاثين عاما أعاد فيها أمنها وسلامتها ولما مات دفن في مقبرته الكبرى بوادي الملوك التي تتميز جدرانها الداخلية بنقوشها الرائعة ومما هو جدير بالذكر أنه كان تقاسيا على « أي » إذ اغتصب معبده الجنائزي الذي لم يتم وأكمل هو

بناءه وأخذه لنفسه ونذكر هنا أن لحوور محب مقبرة أخرى أقامها
في سقارة قبل أن يتولى الحكم ، سرقت جدرانها وتوزعت بين
متاحف لندن وفينيسيا وبرلين واللوفر والمتحف المصري وبولونا
بايطاليا .

وعلى كل حال فقد كان حور محب مصلحاً قديراً وإدارياً
حازماً تمكن من تجنب البلاد شر الظلم ورد إلى القوانين المصرية
احترامها وتقديرها .

الرعامة

احتاحت مصر الى جيل كامل لتستعيد ما فقدته في أمورهما الداخلية أثناء ثورة العمارنة ، أى أنها لم تقم بأى مجهود يذكر لاستعادة امبراطوريتها خلال فترة حكم حور محب ، وقد وقف الحظ بجانب مصر خلال هذه الفترة ووفر لها رجالا كان لهم من قوة البأس ورباطة الجأش ما استطاعوا به أن يعيدوا للبلاد جزءا من مجدها .

وعلى الرغم من أن حور محب كان رجلا عسكريا فى المقام الأول ، وعلى الرغم من أنه صور لنا على جدران مقبرته بسقارة ما يشير لحملات قام بها لاستعادة مجد مصر الحربى ، فاننا نفتقد من الأدلة والقرائن الأثرية ما يثبت ذلك ، فعلى العكس من ذلك تماما فقد كانت مصر فى حاجة الى اتخاذ خطوات جريئة لاعادة الأمن والثقة داخل البلاد ولعل مرسومه الذى أصدره ليصلح به المساوىء ويعيد به الأمن للبلاد أصدق دليل على ذلك .

وقد عاون حور محب فى مهامه الاصلاحية فى البلاد وزياران من العسكريين من مدينة أواريس هما رمسيس وابنه سيتى ، ولعل ذلك مما ساعد على انتقال العرش فى أعقاب موت حور محب الى

بيت رمسيس الذى حافظ على العرش لسنوات عديدة وعلى أجيال متعاقبة فيما نعرفه بعصر الرعامسة .

وهكذا يتضح لنا كيف أن عائلة رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة لا تنتسب إلى العائلة المالكة بل كانت من طبقة العسكريين ، وموطنها الأصلي شرق الدلتا ، ولعل قننير كانت مسقط رأسها .

ومن المفترض أن حور محب قبل وفاته قد أشرك معه فى الحكم وزيره « رعمسو » نظراً لما كان يتمتع به من نفوذ سياسى ، وتزوج رمسيس الأول من ابنة أحد العسكريين وهى « سات رع » ورزق منها ولدا عرف باسم سيتى الأول عند توليه العرش فيما بعد ، وهكذا نرى أسماء ملوك هذه الأسرة الجديدة تأخذ اتجاهها يخالف ما عرفناه من قبل ، فقد حل مكان تحتمس وأمنحوتب أسماء رمسيس وسيتى ومرنبتاح ، ومعنى ذلك أن آلهة الجنوب تحوت وآمون حل محلها آلهة الشمال رع ست وبتاح ، ورع هو اله الشمس المعروف طوال عصور التاريخ المصرى ، أما ست الذى كان يعتبر فى ديانة أوزير من الآلهة الشريرة لأنه قتل أوزير ، فان ديانة رع فى أون قد اعتبرته أحد الآلهة القوية المهيبة الجانب إذ كان يقاتل الثعبان أبو فيس ، وهو يرمز إلى القوة التى تجمع السحب وتدفع بها على صفحة السماء .

وقد قام يونكر بدراسات واسعة خرج منها بأن ست فى صورته التى تمثله من الأعوان الأقوياء الذين يدافعون عن اله الشمس عبد فى أواريس أو فى مكان قريب منها وأن له فيها معبداً شيد فى عصور قديمة ترجع إلى أوائل عصر الدولة القديمة على الأقل .

أما بتاح فهو اله الخالق المبدع الأول لمنف العاصمة الحضارية الكبرى طوال عصور التاريخ المصرى .

وتعود الى رمسيس الأول رأس هذه الأسرة ومؤسسها ،
فنجد أنه حين ولي العرش كان كهلا فلم يعمر أكثر من عامين ،
بل ان مانيتون ذكر أنه حكم سنة واحدة وأربعة شهور ، فاستعان
رمسيس الأول بولده سيتي الأول على تصريف شئون البلاد ،
فعهد اليه بالوزارة والقيادة ورئاسة الشرطة والرياسة التقليدية
للكهنة ، وبهذا لم يذكر للكهل من جديد أكثر من أنه ضمن الحكم
الأهله وخلفه فيه ولده الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للأسرة .

ونظرا لقصر عهد الرجل فلا نجد غرابة من قلة أعماله
وانشاءاته ، ولعل أهمها ما عثر عليه من آثار محراب له صغير أتمه
ولده سيتي بناحية العرابة المدفونة وقد نقل المحراب الى الولايات
المتحدة الأمريكية ، كما ذكر اسمه على بعض الآثار بالقرب من
البوابة الثانية بالكرنك ، كما كتب اسمه أيضا عليها وربما تدلنا
هذه الكتابة على أنه هو البادى بالبناء .

أما مقبرته فقد نحتت في وادى الملوك وتحمل رقم (١٦)
وكانت بسيطة في تصميمها وهي عبارة عن حجرتين ، زينت واحدة
منهما فقط بمناظر رحلة الشمس الليلية ووضع التابوت في وسط
الحجرة وهو من الجرانيت وقد لونت نقوشه بدلا من أن تنحت ،
ثم عبت بها ونقلت الجثة الى خبيئة الدير البحرى .

على أن أهم ذكر لرمسيس الأول كمؤسس للأسرة التاسعة
عشرة قد جاء على لوحة الأربعمائة التى كشف عنها فى تانيس .
وكذلك على تمثالين عثر عليهما فى الكرنك عام ١٩١٣ .

هذا عن أعماله الداخلية ، أما على الصعيد الخارجى فان عهده
لم يسجل أى حدث يذكر فى السياسة الخارجية ، ولم تستطع مصر
أن تلعب دورا مهما فى تاريخ الشرق القديم كسابق عهدها الا فى

عهد ابنه وخليفته في الحكم سيئتي الأول ، ومن الغريب حقا وعلى الرغم من كل ذلك أن الناس أحبوا رمسيس الأول حتى أنهم ألوهه كما سبق لهم من قبل تأليه أمنحوتب الأول الذي حكم فترة قصيرة أيضا ، وفي الواقع ان الناس لم يقدسوا هذين الفرعونين دون تفكير ، وإنما لمسوا فيهما اخلاصا للوطن وقدرة على تحمل الأعباء ، وكلاهما قد مهد لخلفائه من بعدهم بناء دولة قوية ، فأمنحوتب الأول وضع اللبنة الأولى في تأسيس امبراطورية شاء الله لها أن تمتد حتى الشلال الرابع جنوبا ، ووصلت شمالا الى أطراف الفراتين ، أما رمسيس الأول فقد كان مؤسس أسرة جديدة استطاعت أن تعيد للبلاد عزها ومجدها في الداخل والخارج .

سيئتي الأول :

كان سيئتي الأول من العسكريين الذين خدموا في الجيش أيام حور محب وتعلم على يد هذا القائد والسياسي العظيم والاداري الفذ ، من ذلك نرى أنه نشأ في بيئة عسكرية ، فوالده رمسيس الأول كان أيضا من العسكريين الممتازين ، فلم يكن سيئتي من سلالة ملكية ، فأبوه وأمه كانا من عامة الشعب كما أسلفنا الذكر .

وحينما بلغ سيئتي أشده واستوى عوده وتجاوز الثلاثين من العمر قلده رمسيس الأول المناصب الرئيسية في الدولة ، التي كان يشغلها هو قبل بلوغه العرش ، وقد جاء ذكر الوظائف التي تقلدها سيئتي قبل وصوله العرش على لوح الأربعةمئة ، فقد كان حامل المروحة على يمين الملك ، ورئيس كتائب الرماة في الجيش ، ومشرفا على الحرس في قلاع ثارو ، ورئيسا لحرس الحدود ، ووزيرا للملك ، ومشرفا على كتائب الفرسان ، وفي الواقع كان سيئتي اليد المحركة للدولة أيام والده رمسيس الأول .

وبالرغم من أن سييتى قد اعترف بالجميل لوالده فإنه اعتبر نفسه فاتح عهد جديد ، اذ نجده يكتفى بالعبارة التالية « مجدد الميلاد » ، وقد جاء ذلك الوصف فى السنتين الأولى والثانية من حكمه ، فنجد مثلاً «السنة الثانية من عهد مجدد الميلاد سييتى الأول» ، وهذا التعبير يودى الى معنى كلمة النهضة باللغة العربية ، وقد استخدمها المصريون فى أواخر الأسرة العشرين كتعبير عن العودة الى القديم ، وقد أدخل هذا اللقب فى لقبه الخاص بالسيدتين وأحياناً فى اللقب الحورى كما فعل من قبل أمنمحات الأول فى بداية الأسرة الثانية عشرة ، اذ اعتبر هذا الأخير حكمه بداية عهد جديد أيضاً .

على أى الأحوال فقد بلغ سييتى الأول العرش وقد ناهز الأربعين من عمره وعلمته الأيام التى عاشها مع حور محب السياسة الحكيمة التى أتبعها ذلك الأخير فى علاجه ما أفسدته الأيام فى عهد اخناتون ، فعمل سييتى على أن يكسب ود الشعب باهتمامه باصلاح ما هدمته الأيام من دور العبادة . كما سجل على أحد صخور تلال النوبة مرسوماً لحماية مخصصات منشآته الدينية بناحية العرابة المدفونة فى بلدة (نورى) ، وتبلغ مساحة هذه اللوحة ٢٨٠ × ١٥٠ من الأمتار ويشاهد فى جزأها العلوى سييتى الأول يقدم القرابين للآلهة الرئيسية للدولة آمون رع ، وحور آختى ، وبتاح ، وتجدد الإشارة الى عدم تصوير الآله أوزير اله معبد العرابة الذى أصدر المرسوم لحماية مخصصاته ، وقد أرخت اللوحة بالسنة الرابعة من حكم سييتى الأول .

وتعددت مثل هذه القوانين والمراسيم التى أصدرها سييتى بشأن مثل هذه المنشآت ويتضح من نصوصها كيف التجأ سييتى الى العقوبات القاسية التى لجأ اليها حور محب وذلك ليعطى مرسومه أهمية كبرى .

نشاط سبتي الأول الحربى :

كانت لبداية الأسرة التاسعة عشرة أصداء داخلية تختلف عن صدها الخارجى ، ففى حين اعتبرها المصريون فى الداخل بشيرا بعصر نهضة ، فقد ظنتها بعض الطوائف الخارجية لحدائتها فرصة ذهبية لحرمان مصر مما بقى لها من نفوذ خارجى فى عالم التجارة والسياسة ، وشجعتها على هذا الظن عدة عوامل أخرى ، كان منها قلة النشاط العسكرى لمصر فى أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وانهيار دولة حلفائها الميثان تحت ضربات الحيثيين (الخاتيين) ، تفرغ الحيثيون لتحريرىض من والاهم من أمراء الشام على المصريين ، وزادت هذه الملابس سوءا بظهور هجرات آرية الطابع أشاعت التوتر فى الشرق ، وقد خرجت طوائفها الأولى من مواطنها المجهولة منذ أوائل القرن الرابع عشر ق.م . وتسلمت الى الحوض الشرقى للبحر المتوسط واختلطت بسكان جزره وسواحله اختلاطا جزئيا ، وعمل رجالها مرتزقة عند من يجزلون العطاء لهم من أمم الشرق الغنية ثم رنت بعض طوائفهم الى الشواطىء الجنوبية للبحر فى أواخر القرن نفسه ، ولما عز عليها أن تقصد السواحل المصرية مباشرة اتجهت الى النزول غربها على الشواطىء الليبية .

وهكذا حتمت الظروف السياسية على مصر أيام هذه الأسرة والأسرة التى تلتها أن تكرس جهودها الجبارة للدفاع عن كيانها ، وألقت الأيام على ملوكها وشعبها عبئا ثقيلا أرهق جيشها وخزانتها حتى استنفدت كل ما كانت تملك من قوة ومال فى سبيل النود عن حياضها والدفاع عن حدودها وتأمين سلامتها والمحافظة على أملاكها ، وادخار ما كان لها من كرامة سياسية موفورة .

وكان حظها يومئذ فى يد القضاء يتردد بين أفقين بعيدين ولا يكاد يعرف الى الاستقرار سبيلا ، فكانت مصر تبذل أقصى

ما تملك من جهد في سبيل المحافظة على فلسطين وتلاقى العنت والمشقة في سبيل اخماد ثوراتها التي لا تكاد تنتهي ، وكان عليها أن تطيل السهر على سلامة الأقطار السورية والساحل الفينيقي ، ولقد قامت في وجه مصر يومئذ عقبات وصعاب ، نظرا لما أصيب به حكام تلك البقاع من غرور فتنهم على أيدي دولة الحيثيين ، فباتوا ينخدعون بسلطان وهمى يجيب الى نفوسهم الثورة بغية الخروج على ملك مصر والانفلات من قيده .

وأخذ سيئى الأول الذى ارتقى العرش وهو فى سن الرجولة الناضجة على عاتقه تنفيذ تلك المهمة الشاقة وهى اعادة السيطرة المصرية على ربوع فلسطين وسوريا فبدأها فى العام التالى لتوليئه الحكم مباشرة ، لعله يستعيد الامبراطورية الآسيوية فاهتم بصيانة وحراسة الطريق الحربى الذى كان يشق صحراء سيناء الموحشة وذلك بإنشاء نقط الحراسة ، وحفر الآبار التى وضعها تحت الحراسة . وعلى أحد جدران معبد آمون بالكرنك نرى نقشا يمثل ما يشبه الخريطة الحربية لصحراء سيناء بين ثارو (الحصن المصرى على الحدود) ومدينة رفح (أول قرية فى فلسطين) .

وشيد سيئى الأول عند كل بئر أو مورد ماء على طول الطريق قلعة محصنة تقيم فيها حامية صغيرة ، ونرى من أسماء تلك الواحات الصغيرة فى الصحراء أنها أعمال حديثة التشييد ، أو على الأقل حديثة التنظيم ، ونفهم من الأسماء أن بعض تلك الواحات كانت موجودة من قبل ولكن أعيد تنظيمها .

كما اتخذ سيئى اجراءات حاسمة فى اعادة تنظيم الجيش المصرى الذى أصبح يتكون من عدة فرق كاملة أطلق على كل منها اسم اله من آلهة مصر الكبرى كما ألحق بكل منها مجموعة كبيرة

من العربات الحربية لعبت دورا كبيرا في المواقع الحربية في عصر الرعامسة ، اذ كان دخولها المعركة بمثابة التعجيل بالفوز والنصر .

واستن سیتی الأول سنة جديدة بتسجيل أخبار حملاته الحربية ، فبدأ بذلك عصرا جديدا في تسجيل الأحداث التاريخية ، اذ خصص جزءا كبيرا من المسطح الخارجي للجدار الشمالي لهذا البهو الكبير للأعمدة بالكرونك ، الذي شرع في تشييده رمسيس الأول لتسجيل مناظر انتصاراته الكبرى التي حققها في فلسطين ، ولعل هذا الأمر أول محاولة لتنفيذ مناظر منقوشة على ساحات واسعة من عصر الدولة الحديثة ، اذ أن المناظر المشابهة التي وصلت إلينا من العصور السابقة لسیتی الأول كانت تنقش على أدوات صغيرة مثل الجوانب الواقية للمركبات الحربية أو صناديق صغيرة وما إلى ذلك ، وكانت مناظر الحرب التي سجلها سیتی الأول تصور بأسهاب كل أحداث الحملة ابتداء من خروج الجيش من « سيلة » أول حصن عند الحدود المصرية حتى رجوعه إليه .

حقا ان هذه المناظر لا يمكن أن تقارن بالوصف المادي الذي تميزت به حوليات تحتمس الثالث ، ومازلنا نأسف لأن معارك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين لم تصل إلينا مشروحة بتلك الطريقة الموضوعية التي اتبعت في عصر تحتمس الثالث وان كانت هناك بعض اللوحات الحجرية التي أقامها سیتی الأول مثل تلك اللوحة التي نصبها في بلدة « بيت شيان » (بيسان) في فلسطين والتي نقش عليها نصوصا تميظ اللثام عن بعض الحقائق الخاصة بهذه الحملات ، الا أنها لا ترقى مطلقا إلى ما وصلت إليه حوليات من اسهاب في الشرح الموضوعي ، وهذه النصوص تفصل لنا إحدى المعارك التي أدارها سیتی الأول على أرض الشرق ، فتصف لنا (كيف ان أمير حماة تزعم ثورة أهل فلسطين في ذلك الوقت ، وكيف

أنه استطاع الاستيلاء على مدينة « بيت شائيل » كما حالف أمانة « باهيريا » ، وكيف أنه أخذ من بعد ذلك يذيع الفتنة ويشعل نيران الثورة في أكثر البقاع المجاورة ، كما اشتد ضغطه السياسي والاقتصادي على بعض من جاوره من الأمراء ، ولما علم سيدي الأول بذلك صمم على أن يضرب في تلك الأقاليم ضربته الحاسمة ، فساق على العدو وحلفائه جيوشا ثلاثة في وقت واحد فأرسل بخير فرق آمون (عظيمة الأقواس) إلى مدينة حماة ، وخير فرق رع (مفرطة الشجاعة) إلى مدينة بيسان ، وخير فرق ست (قوية الأقواس) إلى مدينة ينعم ، وفي مدى يوم خضع الثوار لمجده وجلالته .

كما دونت أخبار تلك الحملة الأولى أيضا على جدران الكرنك بل إنها لم تقتصر على القول والحكاية فحسب بل تعدتها إلى التصوير ورسم المراحل رسما ، فصورت الطرق وبعض الحصون التي اتخذت معاقل لتمويل الجيش ومهبا لمواصلة زحفه .

أما الحملة الثانية على الشرق فقد سجلت أخبارها على جدران الكرنك أيضا وإن ضاع أغلبها ، ولكن عثر على تمثال لأبي الهول لسيتي الأول بالقرنة تشير نصوصه إلى هذه الحملة وإلى أن سيدي الأول قد سلك فيها خطة تحتتمس الثالث إذ اعتمدت على قواعد بحرية في بلاد أمور قبل أن يهاجم قادش ، واستولى فيها على سميرية ، وآلازا ، وأغلب الظن أنها ديار الأموريين وأهم ثغورهم .

وكانت الحملة الثالثة امتدادا للحملة الثانية ، فبعد أن استولى سيدي على بلاد أمور وصل إلى وادي الأورنت ، وقد ظهر في نصوص الكرنك سيدي في قادش يحارب الحيثيين ، وجدير بالذكر أن « موتالي » بن خاتوسيل الثاني الذي أثار الفتنة في فلسطين في الحملة الأولى ، وفي هذه الحملة الثالثة كان هو أول لقاء بين المصريين والحيثيين وانتصر المصريون وتراجع الحيثيون .

وبعد أن قام سيئى الأول بحروبه هذه على آسيا ، هاجم مصر بعض جماعات من الليبيين الذين صورتهم المناظر المصرية بأشكال مختلفة عما صورتهم به من قبل فكانت لهم شعور كستنائية وعيون زرق وبشرة فاتحة ولكن لم يعطهم المصريون اسما جديدا بل سموهم أيضا النحنو ، ومن الجائز أن هؤلاء هم العناصر الأولى للمشوش وغيرهم ممن سيأتى ذكرهم فيما بعد أيام رمسيس الثانى ، وقد صور رجال سيئى الأول بعض أحداث هذه الهجمات على جدران الكرنك ، كما ذكرت النصوص كذلك حملة لآسيا بعد هذه الحملة الليبية ، كما ذكرت هذه الحملة الآسيوية نصوص ألواح « بوغاز كوى » التى ذكرتها بالحرب المصرية الحيثية ، ذكرت نصوص الكرنك حملة أخيرة لسيئى الأول قابل فيها الحيثيين فى منطقة ما لم تحدد ، ولكن غالبا ما تكون شمالى قادش ، وأن النصر الذى أحرزه سيئى لم يكن نصرا كبيرا ، وأنه لم يستطع أن يعيد سوريا تماما الى الحكم المصرى ، وقد ظلت هذه المنطقة رغم حروب سيئى هذه متأثرة بحكم الحيثيين ، وهكذا فإن حكم تحتمس الثالث الزاهر لهذه المنطقة قد انتهى الى غير رجعة ولم تستطع مصر الى الأبد أن تعيد سلطانها الواسع فى آسيا مرة أخرى بعد فقدانه .

ولكن هذا بطبيعة الحال لا يقلل من شأن سيئى الأول وجهده وجهاده فى سبيل استعادة سلطان مصر القديم على الشرق ، بل يكفيه فخرا أنه أعاد النفوذ المصرى لأرض فلسطين . فثبت بذلك سيادة مصر وسلطانها ، ثم أفاح غالبا فى مد ذلك السلطان الى أقاليم سوريا الجنوبية ، وانه لعمل جليل على كل حال وأقل ما يمكن أن يوصف به أنه قد نبه دولة الحيثيين الفتية الطامعة الى أن قوة مصر ينبغى أن يحسب لها حساب .

نشاط سييتى الأول الداخلى :

سبق أن أشرنا الى أن سييتى الأول قد استهل عهده بإصلاح ما هدمته الأيام من دور العبادة ، كما أشرنا الى حرصه على البناء والتشييد بصفة عامة ، ودور العبادة بصفة خاصة ، ولعل ذلك كان اعترافا منه بفضل الآلهة الذين كان لهم الفضل الأول فى انتصاراته الحربية التى حققها ، ويذكر له فى هذا الشأن اتمامه لقاعة العمد التى شيدها ومسيس الأول وكان على سييتى الأول أن يزينها بالصور والنقوش البارزة التى ميزت عصره ، أما عمله الرائع الحقيقى فهو ذلك المعبد الجميل الذى شيده بالعرابة المدفونة بعدد من الأرباب لعبادة كل من حورس ، وايزة ، وأوزير ، وآمون رع ، وحور آختى ، وبتاح ، وظهرت ديمقراطية سييتى الأول فى وضعه هيكله فى الطرف الجنوبى من بهو الآلهة الثلاثة الأخيرة كما أقام معبدا على بعد حوالى خمسة وثلاثين ميلا شرقى ادفو على الطريق الصحراوى المؤدى لمناجم الذهب القريبة من البحر الأحمر ، وهو معبد منحوت فى الصخر ويعرف باسم معبد الرديسية (معبد وادى عباد) ، كما شيده معبدا جنائزيا صغيرا تخليدا لذكرى والده رمسيس الأول بالقرب ، ولم يتمكن من اتمامه وأتمه خلفه رمسيس الثانى كالعديد من المنشآت الأخرى ، وقبل أن نختتم الحديث عما شيده سييتى من دور العبادة فلعل من الانصاف أن نذكر له المعبد الذى شيده فى « بيسان » فى فلسطين فى موقع له أهمية حربية واضحة إذ كان يربط بين نهر الأردن والأماكن التى تقع الى الشرق منه .

وقد بلغت فنون النقش والتصوير والنحت فى عهده درجة عالية من الجمال المترف والذوق المبدع ولا سيما فى معبد شعائره فى أبيدوس ، ومناظر حروبه الخارجية ومناظر تقواه فى الكرنك حيث

صور في اثنين وعشرين وضعا خاشعا يتعبد فيها لربه آمون رع ويتخذ في كل وضع منها هيئة معينة ويدعو بدعاء خاص مختلف .

وكان من وجوه النشاط الداخلي في عهد سيتي الأول اتساع استغلال مناجم الذهب في الصحراء الشرقية ، وقد صور أحد مهندسيه خريطة على بردية (حاليا بمتحف تورين) لبعض مناجم وادي الحمامات ، لاسيما مناجم أم الفواخير ، حدد فيها مواقعها والطرق المؤدية اليها ، والطريق المؤدى منها الى البحر ، وموقع معبدها المحلي وموقع جبل بخن (جبل الشسبت) منها ، كما اتسع أيضا استغلال مناجم الفيروز في سيناء ، التي عادت من جديد منذ عهد رمسيس الأول ، ومع الاهتمام بالمناجم اهتم سيتي بتعبيد الطرق وحشق الآبار لسقاية البعثات حرصا على سلامتها في الطريق ذهابا وايابا .

ويذكر لسيتي الأول أنه وضع أسس كتابة التاريخ الرسمي للأسرة الثامنة عشرة وصدر الأسرة التاسعة عشرة ، وذلك عندما صور في معبده الجنازي بأبيدوس واقفا متعبدا أمام خراطيش الأجداد من الفراعنة الذين سبقوه ، وقد ضمت القائمة ستة وسبعين اسما تبدأ بالملك مينا لتنتهي عند الملك سيتي الأول ، ويلاحظ اغفال القائمة لملوك عصر العمارنة (اخناتون ، وسمنخ كارع ، وتوت عنخ آمون ، وآي) كما أغفل اسم حتشبسوت التي اعتبرت مغتصبة للعرش ، ويلاحظ في القائمة أنها سيعاد استخدامها كما هي حتى عهد رمسيس الثالث ولكن بعد اضافة من تلا سيتي الأول من ملوك .

وقبل أن نختم الحديث عن عهد سيتي الأول فلعل من الخير أن نشير الى أسرته بشكل يوضح لنا كيف انتقل العرش من بعده الى رمسيس الثاني . . كان سيتي الأول قد تزوج سيدة تدعى « تويا » وأغلب الظن أنها لم تكن من أسرة مالكة وأغلب الظن أنها

عاشت مدة بعد وفاة زوجها ، ويعتقد « ماسبيرو » أنها كانت وصية علي عرش ابنها رمسيس الثاني اثناء غيابه في الحروب التي شنها علي ختيا ، وأنجبت « تويا » لسيتي الأول عدة أولاد كان من بينهم الابن الأكبر « آمون نفر نب اف » الذي مات في حياة أبيه ، فانتقلت ولاية العرش منه الي شقيقه « رمسيس الثاني » .

علي أن من مظاهر الخلاف بين العلماء في عهد سيتى الأول مدة الحكم التي قضاها علي عرش مصر فهي بين أربعة عشر عاما وثمانية عشر عاما ، ولعل الفرق الممتد لسنوات أربع هذا يعود الي فترة الاشتراك في الحكم بين سيتى الأول وابنه وخليفته في الحكم رمسيس الثاني ، فقد كان نظام الاشتراك في الحكم هذا سنة نشأت علي ما يبدو من حرص الملوك الرعامسة الشديد علي تجنب الوقوع في مشاكل وراثية العرش التي قضت علي الأسرة الثامنة عشرة .

علي أي الأحوال فقد ودع سيتى الأول الحياة بعد أن حقق لمصر أجمل الذكريات ، فقد أفلح في إعادة ما يقرب من نصف امبراطورية مصر في آسيا ، كما أمن طرق المواصلات بين بلاده وفلسطين ، وأزال الخطر الذي كان يتهدد البلاد من ناحية ليبيا ، كما أنه حقق لها نهضة معمارية عظيمة بعد الخراب الذي لحق بها في أعقاب ثورة العمارنة ، ودفن سيتى الأول بمقبرته التي عثر عليها بلزوني عام ١٨١٧ بوادي الملوك ، كما عثر علي موميائه في خبيئة الدير البحري ، وهي الآن بمتحف القاهرة .

رمسيس الثانى

لم يكن رمسيس الثانى مجرد ملك من ملوك مصر القديمة فحسب ، بل انه اسم رفع وخلد فى التاريخ فوق أسماء الملوك ، وعلم رفيع من أعلام الشهرة الخالدة والصيت الذائع ، ولعله لا توجد أمة فى دنيا الناس تجهل اسمه ، بل اننا لا نظن أن دنيا الحكيم والملك والسياسة والتاريخ والبطولة والمجد والحرب والشهرة وبعد الصيت سوف تنسى ذلك العلم الى آخر الدهر .

حقا فما كان الرجل اماما لفراعنة الوادى ولا زعيما لهم ، بل كان واحدا منهم ، بل أكثر من ذلك أنه من بين أسلافه وخلفائه من كان أشد منه بطشا وأقوى أثرا وأوفر مالا وأكثر جندا وأعز نفرا ، ولكن الدهر قد منح « رمسيس الثانى » من عطاء التاريخ بعض ما ليس له ، فسجل له شهرة واسعة عريضة ، ونسب اليه من أعمال البطولة والمجد والعظمة على حساب غيره ما لا يحصى ولا يوصف .

سبق أن أشرنا فى نهاية الحديث عن سيسى الأول أنه قد أشرك معه فى الحكم ولده وولى عهده رمسيس الثانى ، ولعل أمر اشتراكه فى الحكم هذا مع أبيه لم يعد ذا موضوع يستحق الدراسة أو التحقيق خاصة بعد نص الالهاء المسجل بمعبد أبيدوس الذى يشير فيه رمسيس الى أن والده قد رفع شأنه منذ كان طفلا وأنه

قد منحها الأرض وهو في البيضة ، وقبل العظماء التراب أمام وجهه
كما قدمت التقارير اليه عن حالة الأرضين بوصفه قائدا للمشاة ،
وأنه توج ملكا وهو طفل ، ووضعت التيجان فوق رأسه والصل
على جبينه ، ووالده على الأرض حتى ، وكذلك نص « لوحة كوبان »
والتي يمجده فيها رجال القصر فيصفونه بأنه كان يضع الخطط
عندما كان طفلا ، وأنه كانت تلقي على كاهله أعباء الدولة حينما
كان صبيا يزدان رأسه بدوابة الصبا والامارة .

كل ذلك حدث على الرغم من أنه كما أسلفنا الذكر لم يكن
- رمسيس الثاني - أكبر أبناء أبيه ولم يكتب له نظام الحكم
والوراثة شيئا من الحق في عرش هذا الوادي ، ولكن القدر كان يدخر
له ذلك فأخلى له السبيل الى العرش بوفاة أخيه الأكبر وصاحب
الحق الأول في ذلك العرش ، ثم مهده له برغبة أبيه الملحة في الاحتفاظ
بالعرش فتوجه في حياته وجعله شريكا في الحكم تأمينا لآماله في بناء
مجده وأسرته .

نشاطه الحربي :

ولا بد ونحن بصدد دراسة الوقائع الحربية التي جرت أيام
رمسيس الثاني أن نحاول التفرقة بين الحروب التي خاضها فعلا
والمناظر التي نراها على دور العبادة ، والتي لا تعدو سوى
أن تكون مناظر للمتفاخر بقوة فرعون وبأسه وانتشار نفوذه فعلى
لوحة مؤرخة بالعام الثاني من حكمه عشر عليها في أسوان يتباهى
رمسيس الثاني بأنه سحق الآسيويين والحيثيين وبابل وأجانب
الشمال والتمحنو والنوبيين ، فأما حملة النوبة فمؤكدّة وأما حملة
ليبيا فيحيط بها الشك ، أما الحروب الأخرى المتعلقة بآسيا فلا وجود
لها الا في خيال الملك نفسه أو كاتبه الذي نسخ هذه اللوحة ، إذ أنه
لم يحارب في آسيا قبل السنة الرابعة من حكمه .

وتجدر الإشارة الى أنه قبل حروبه في آسيا قد خاض معركة مع الشروانيين الذين عاشوا في جزر البحر المتوسط ، لأننا نجد بعد فترة قصيرة من بداية حكمه أسرى كثيرين منهم في حرس الملك ، ثم سرعان ما جهز منهم الملك فيلقا في جيشه الذي حارب به الحيثيين عند قادش .

وفي العام الرابع من حكمه قاد وحدات جيشه وسار بها على شاطئ فلسطين الى الشمال حتى نهر الكلب على بعد قريب من وراء بيروت حيث أقام لوحا تذكاريا هناك وقام بتأمين طرق المواصلات والاستيلاء على الموانئ فقلدا في ذلك تحتمس الثالث وذلك ليتوغل في البلاد دون أن يتعرض لضربات العدو من خلفه ، ولعله من حملته هذه قد أراد أن يعيد النجاح الذي أحرزه والده في الشمال ويؤكد .

وفي العام الخامس من حكمه خرج رمسيس الثاني بحملة ضد الحيثيين وتبعه جيش كبير مقسم الى أربع فرق أطلق على كل منها اسما لأحد الآلهة ، آمون ، ورع ، وبتاح ، وست ، وسار بهذا الجيش في طريق يوازي الساحل الفينيقي نحو الشمال ، وكانت هناك فرق مساعدة تكونت من جنود مرتزقة من الشروانيين الذين أسرهم من معركته التي أسلفنا الذكر عنها خلال عامه الرابع .

كان رمسيس الثاني يرى في الحيثيين عدوه الأكبر وكان ملكهم آنذاك هو مواتال الذي أعد العدة لغزو فلسطين ، واستعان هو الآخر بفرق أجنبية ، ميزهم المصريون في نقوشهم التي سجلوها على معابدهم عن الحيثيين بطريقة تصف فيهم لشعور رؤوسهم وذقونهم بل بالآلتهم الحربية التي استعملوها ، وليس هناك من شك في أن هؤلاء القوم كانوا من الميتانيين الذين تحالفوا مع الحيثيين وخرجوا للحرب معهم .

وعرف الجانبان أهمية اشتراك العجلات الحربية في المعارك فاعتمدوا عليها بحيث أصبحت هذه المعارك أقرب لموقعة حربية بالعجلات دون سواها ، ولعل الفرق الوحيد بينهما هو أن العربية المصرية يفتليها مقاتلان أحدهما يتولى قيادة الحصانين بينما ينهمك الثاني في القتال ، أما العربية الحيشية فيفتليها ثلاثة من الرجال في الأغلب .

ودارت المعركة بين المصريين والحيشيين عند قادش ، وهو حصن على نهر الأورونط في سوريا ، وكان الملك يتقدم أولى الفرق الأربع التي سبق ذكرها عندما فوجيء بالعدو يدهمه ويخرب معسكر فرقة آمون الذي أقامته على مقربة من حصن قادش ، وبذلك انقطعت الصلة بينها وبين فرق الجيش الأخرى ، وحدث هذا نتيجة لمعلومات خاطئة وصلت الملك الذي أصبح في موقف حرج يهدد حياته ، فاتجه بدعائه لاله آمون يطلب منه النجدة ، وليس هناك من شك في أن الملك استطاع بشجاعته وقوته أن يحول الموقف ويستبدل بالهزيمة الانتصار ، وألقى الرعب في قلوب جيش العدو وأجبره على الفرار ، ويعتبر « ادوارد ماير » معركة قادش هذه انتصارا كبيرا للمصريين ، وذلك لأن رمسيس الثاني استطاع بهجومه الفردي أن يوقف تقدم الجيش الحيشي نحو الجنوب ، إلا أن علماء الحيشيات يرون أن المعركة قد انتهت بانتصار الحيشيين ، والواقع أننا إذا ما أردنا أن نتخذ موقفا محايدا بين الطرفين كان علينا أن نؤكد أن المصريين قد انتصروا فوق أرض المعركة ، ولكن نصرهم المفاجيء هذا لم يعد عليهم بأي كسب حربي ، إذ أنهم لم يقوموا بالاستيلاء على حصن قادش ، كما أن هناك حقيقة أخرى تؤكد ذلك وهي أن الحدود بين الدولتين الحيشية والمصرية بقيت في موقعها عند نهر الكلب في فينيقيا تماما كما كانت قبل المعركة ، بل أكثر من هذا لم يستطع المصريون فيما بعد أن يمدوا سلطانهم إلى ما وراء نهر الكلب سواء إلى الشمال أو إلى الشرق ، ولم

يحدث بالطبع ان اقتربوا من نهر الفرات بأى حال من الأحوال ،
وحدثت ثورات جارفة في كل من فلسطين وسوريا وذلك أثناء ارتداد
الجيش المصرى ، ومعنى هذا أن الملك اضطر لمهاجمة كثير من
الحصون لاستردادها من جديد .

ولعل هذه المعركة قد كانت في نظر رمسيس الثانى أعظم
المآثر الحربية التى وقعت في عهده ، وسجلت وقائعها مرارا وتكرارا
على جدران معابده المختلفة ، فدونت على الجدار الخارجى لمعبد
أبيدوس ، وفي ثلاثة مواضع مختلفة : معبد آمون رع بالكرنك : في
الركن الشمالى الغربى من فناء الخبيئة ، والواجهة الغربية من
الجدار الغربى من فناء الصرح التاسع ، والنسخة المعاد نقشها
على السطح الخارجى من الجدار الجنوبى من بهو الأساطين ، كما
سجلت مرتين في معبد الأقصر : الأولى على سطح البرج الشمالى
من صرح المعبد ، والأخرى على جدران الفناء الأمامى ، كما دونت
على برجى صرح الرامسيوم ، وأخيرا في معبد أبو سمبل على الجدار
الشمالى من القاعة الكبرى .

ويمكن أن نضيف الى ما سبق النسخ المدونة على لفافات
البردى ، وهى برديات : « ريفات » و « سالييه ٢ » و « شستر
بيلى ٣ » ، وهكذا يمكن القول بأن عدد ما وصلنا من روايات عن
معركة قادش يبلغ حوالى ثلاث عشرة رواية حتى أصبحت هذه
الملحمة النموذج الأمثل لانتصار المصريين على البلاد الأجنبية .
واستغرقت حروب رمسيس الثانى مع الحيثيين مدة العشرين سنة
الأولى من حكمه تخللتها بعض الفترات القصيرة من الهدوء والسلام
الى أن أدرك كل من المصريين والحيثيين أنه لا طائل من وراء افناء
جهودهم في حروبهم ، والأولى بهم أن يحتفظوا بها ليصمدوا اعتداءات
شعوب البحر ، وفي النهاية أدرك كلا الجانبين المصرى والحيثى
أنه لابد من ابرام تحالف أو معاهدة بينهما .

معاهدة السلام :

وقد تمت هذه المعاهدة في العام الحادى والعشرين من حكم رمسيس الثانى ، وكانت بمثابة معاهدة أمن طيب وأخوة ، كما اشتملت على تحالف دفاعى .

وقد وصل الى أيدينا لحسن الحظ كل من النصين الهيروغليفى والمسمارى لهذه المعاهدة ، وجاء فى النص المصرى أن الملك الحيثى خاتوسيل أرسل رسلا يطلبون الصلح من رمسيس الثانى « ثور الحكام الذى جعل حده حيثما أراد فى كل بلد » . فى حين ذكر النص الحيثى أن رمسيس الثانى هو الذى بدأ بالاتصال بخاتوسيل ، واقترح عمل معاهدة صلح بين البلدين ، أى أن كلا من البلدين احتفظ لنفسه بكرامته وذكر أنه وافق على طلب الآخر ، ومن المرجح أن المعاهدة حررت أولا فى العاصمة الحيثية بمعاونة السفراء المصريين ، وحملوا النص بعد ذلك الى مصر مكتوبا على لوح من الفضة ، وربما كان رمسيس الثانى أدخل بعض التعديلات التى رآها فى مصلحة بلاده ثم أعادوا كتابة النص الجديد على لوحين من الفضة أخذوا واحدا منهما الى خيتا ووضعوه عند قدمى اله العاصمة الحيثى ، ووضعوا النسخة الأخرى عند قدمى اله الشمس المصرى رع ، وفى كلتا الحالتين أقسم الملك يميناً أمام الآلهة ، وبهذا أصبحت المعاهدة مؤمنة بالسلطة والموافقة الآلهية .

وتعتبر مخالفة السلم هذه بمثابة الأولى من نوعها التى وصلت إلينا مسجلة ، ففي مصر نقشت نصوصها على جدران معبدى الكرنك والرامسيوم ومعنى هذا أنها كتبت بأسلوب دينى ، وفى بوغاز كوى عثر على النسخة الحيثية المكتوبة بالخط المسمارى وكتبت بالأسلوب القانونى ، أما النسخة الرسمية الأصلية التى نقشت فوق لوحة من الفضة فلم يعثر عليها بطبيعة الحال .

ويمكننا أن نقسم المعاهدة الى خمسة بنود أو أقسام على النحو التالي :

أولاً - المقدمة التاريخية وتشير الى وجود حروب ومعاهدات بين مصر وحثيا ، وأن كلا الملكين الحاليين يريدان السلام ، وتشير لتبادل اللوحين الفضيئين المنقوش عليهما النص .

ثانياً - تأكيد متبادل بشأن عدم الاعتداء من قبل أى من الجانبين على الآخر ، ولابد أنه كان هناك خط حدودى معترف به يفصل بين حدود المملكتين .

ثالثاً - حديث عن معاهدة تحالف دفاعى ضد أى عدو كبير يحاول تنازع حثيا أو مصر فى ممتلكاتهما ، وضد أى ثورات محلية فى كلتا الامبراطوريتين .

رابعاً - موضوع تسليم اللاجئين السياسيين الى بلدهم سواء كانوا من ذوى النفوذ أو المواطنين العاديين ، كما تشترط المعاهدة فى هذا القسم حسن معاملة اللاجئين المرحلين لبلادهم ، فلا يقتل ، أو يشوه جسده ، أو يحرم من عائلته أو من منزله .

خامساً - وفى الجزء الأخير من المعاهدة شأنه شأن أى وثيقة قانونية قديمة ، نرى أسماء الشهود الذين شهدوا على توقيعها وهم هنا ليسوا من الأفراد العاديين بل من الآلهة وتبدأ بالهة الشمس والصاعقة ثم تنتهى بباقى الآلهة والالهات ، والجبال ، وأنهار أرض مصر ، والسماء والأرض ، والبحر الكبير . . . الخ ، ولما كان كلا الملكين قد أقسم اليمين بشهادة تلك المجموعة الكبيرة من الشهود فان نقض المعاهدة يصبح أشنع الذنوب وأكبرها .

ولعل أبرز وأهم ما في هذه المعاهدة هو أن بنودها القانونية السالفة الذكر قد جاءت نتيجة لتجارب وقت طويل من العلاقات الدولية وصلوا فيه لمعرفة المساعدات العسكرية المتبادلة وتسليم اللاجئين السياسيين وحسن معاملتهم .

وكانت هذه المعاهدة هي باكورة عصر سادة الوثام والطمأنينة استمر طوال الفترة التالية من حكم رمسيس الثاني التي استغرقت حوالي خمسة وأربعين عاما ، لذلك فمن الخطأ أن نعتبر هذا الملك من المحبين للحروب بل ان شهرته تنصب على الأعمال الكبيرة والكثيرة التي أتمها أثناء فترة السلام هذه .

وامعانا في تقوية أواصر المحبة والسلام بين مصر وختيا فقد تزوج الملك المصري في عامه الرابع والثلاثين من حكمه بأحدى بنات الملك الحيثي خاتوسيل ، وجعلها الزوجة الأولى له وذلك خلفا لما كان يجرى في الزيجات التي تمت بين فراعنة مصر والأميرات الميتانيات خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة .

نشاطه الداخلي :

اتجه رمسيس الثاني بعد أن أمن ظهره بمعاهدة مع الحيثيين الى البناء والانشاء ، وظهرت لمصر عاصمة سياسية جديدة ارتبطت شهرتها باسمه فسميت « برعميس » أو دار رمسيس ، وأصبحت واحدة من أمهات العواصم في الشرق القديم ، ويفهم من الجدل الطويل الذي دار حول تعيين مكانها ، أنها كانت تمتد وتضم بضياعها ما بين قنتير وسان الحجر الحاليين في شرق الدلتا ، على الفرع التانيسي للنيل (قرب عاصمة الهكسوس القديمة أواريس) ، وكانت بهذا ذات موقع مناسب يتوسط دولة الرعامسة في مصر والشام ، ويسمح بوجود احتياطي عسكري كبير فيها يمكن أن ينجد

الحاميات الشمالية على وجه السرعة في عصر اشتدت فيه أخطار
الحيثيين وشعوب البحر ، وذلك فضلا عما توافر لها من استراتيجية
حيوية ودفاعية مقبولة نظرا لاشرافها على الفرع التانيسي للدلتا
وامكان وصول السفن البحرية الصغيرة اليها وامكان استغلال
الفيضانات في حمايتها من ناحية البر حين الضرورة ، وحماية ظهرها
بمناقع الدلتا الشمالية من ناحية البحر ، وأضحت هذه العاصمة
الجديدة تضيح بالحياة الصاخبة والتجارة ، وتلتقى فيها ثقافات
البلاد الأجنبية ، فكان يرد اليها خير ما تنتجه بلاد البحر المتوسط
وممالك آسيا من صناعات ومحاصيل ، وشيد الملك كثيرا في تلك
المدينة ، وورد في بعض القصص أن بنى اسرائيل كانوا في الأسر ،
وكانوا يبنون في هذه المدينة ، مما يدل على وجود عصر مليء
بالنشاط هناك .

وعلى أية حال فلم ينل مجد العاصمة الجديدة كثيرا من أمجاد
العاصمتين القديمتين منف وطيبة ، فاحتفظ الرعامسة بقصورهم
في منف وزادوا عمرانها ، كما ظلت معابد آمون رع تحظى بأكبر
قسط من رعاية الدولة وراثتها .

وشيد رمسيس الثاني العديد من المعابد ، فبالإضافة الى بهو
الأعمدة الكبير بالكرنك ، وما أضافه لمعبد الأقصر ، فقد شيد معبده
الجنازي المعروف بالرامسيوم ، كما شيد العديد من المعابد بالنوبة
لعل أهمها أبو سمبل ، وجرف حسين ، وبيت الوالى ، ووادي
السبوع ، فالدر ، واتسمت هذه المعابد بالضخامة التي تؤثر في
النفوس دون اهتمام كاف بالنواحي الفنية ، وليس أدل على ذلك من
وجود ذلك التمثال الضخم في تانيس الذى كان يرتفع لتسعين قدما
بحيث يصل وزنه الى ما يزيد على ألف طن، وبطبيعة الحال فلا وجود
للملامح وسط هذه الضخامة ، ولم يكتف رمسيس الثاني بما شيده

من مبان فخمة علت كل مباني مصر بل استخدم دون حياء مباني
أجداده السابقين فاغتصب لنفسه مبانيهم وتمثيلهم باضافة اسمه
عليها وهدم بعض منشآتهم السابقة ليستخدم أحجارها في تشييد
مبانيه ، حتى أضحي بحق امام المدعين وزعيم المعتدين في دنيا الملوك
عموما وفي دنيا الفراعنة خصوصا .

وسارت سياسة الحكم الداخلي خلال هذا العصر على نحو
ما كانت عليه خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة دون جديد بالذكر .

على أية حال فقد عمر رمسيس الثاني ما يقرب من تسعين
عاما ، ونعم بحكم طويل بلغ سبعة وستين عاما ، واستمتع في حياته
الخاصة بأكثر مما استمتع به الفراعنة الذين سبقوه ، وتفوق على
أمنحوتب الثالث المزواج في عدد زوجاته وجواريه ومحظياته ، ونحن
نعرف على أقل تقدير ثلاثا من زوجاته الرئيسيات من أميرات البيت
المالك لعل أولاهن وأشهرهن هي نفرتارى صاحبة المقبرة الجميلة
بوادى الملكات والتي شيد لها معبد أبو سمبل الصغير بجوار معبده
الكبير بالنوبة ، ثم الملكة است نفرت التي أنجب منها الأمير
« نخع أم واست » ، ومرنبتاح ، ثم الملكة التي أطلق عليها اسم
ماعت نفرو زع وهي ابنة ملك خيتا ، وأنجب رمسيس الثاني عددا
كبيرا من الأبناء قدر بعض المؤرخين عددهم ب ٥٩ بنتا و ٧٩ ولدا
أو مائة ولد ، غير أن هذا التقدير لا يدخلو من شك كبير ، وقد
تنقلت ولاية العهد في أيام رمسيس بين ثلاثة عشر ولدا من صلبه
مات اثنا عشر منهم في حياته ، وكان أشهرهم على الاطلاق الأمير
خعمواس (نخع أم واست) الذي اكتسب سمعة واسعة في عصره
بعلمه الدينى فكان كاهنا وكبيرا للكهنة ثم انه كان المرمم الأول ،
فكان يجوب البلاد من الجنوب الى الشمال لترميم المعابد والمقاصد
التي خلفها الأسلاف ، وهذا يتنافى تماما مع ما كان يفعله والده

من اغتصاب لكل ما يقابله من هياكل أو تماثيل ، وأشرف كذلك على تنظيم الاحتفال بأعياد سد الخاصة بوالده رمسيس الثانى ، ونعرف أن رمسيس الثانى قد احتفل بهذا العيد أربع عشرة مرة أشرف خعمواس على تسع منها ، وودع رمسيس الثانى الدنيا تاركا عرش مصر لولى عهده الثالث عشر مرنبتاح ، وكانت عوامل الانحلال قد بدأت تتجمع فى الخارج والداخل لتضرب ضربتها فى مصر ، ودفن رمسيس الثانى بمقبرته (رقم ٧) بوادى الملوك ، وانتهى به المطاف لخبيثة الدير البحرى ، واحتفظ بموميائه المتحف المصرى بالقاهرة .

مرنبتاح

سبق أن أشرنا الى أن ترتيب مرنبتاح بين أبناء رمسيس الثاني من الذكور كان الثالث عشر ، وأن والده قد اختار ولياً للعهد في أعقاب وفاة شقيقه الأكبر خعمواس ، وذلك في السنة الخامسة والخمسين من حكمه .

وكان مرنبتاح قد وصل الى مرتبة الكاهن الأعظم للاله « بتاح » ، وكان يقوم بالمراسم في جبانة السرابيوم بسقارة للعجل أبيس .

وعلى أحد الجعارين التي عثر عليها شمالي فاقوس باسم مرنبتاح كتب النص التالي :

« الأمير النائب عن « جب » اله الأرض (الملك) والابن الالهى الذى أنجبه الثور القوى ، ومن فى يده تجمع البلاد الأجنبية ، الكاتب الملكى ، قائد الجيش الأعلى ، الابن الملكى مرنبتاح المخلد أبداً » .

ولا نزاع فى أن هذا النص يشير الى الأيام الأخيرة من حكم رمسيس الثاني الذى اعتزل كل سياسة تؤدى الى الحرب ، فترك حراسة حدود امبراطوريته الواسعة لابنه ، وأغلب الظن أن الذكرى

التي أراد بها مرنبتاح تخليدها كانت هي تنصيبه وليا للعهد وقائدا للجيش .

وتدل شواهد الأمور في مصر نفسها على هدوء نسبي بعد تولية مرنبتاح مقاليد الحكم في البلاد ، حتى أنه وجه اهتمامه في سنى حكمه الأولى لتوطيد النظام في ممتلكاته الآسيوية ، الا أن ذلك الهدوء لم يمتد طويلا فهددت مصر بعض الأخطار التي دقت أبوابها من الشرق والغرب ، الا أن الحروب الدامية أبعدها عن مصر ولو الى حين .

نشاطه الحربي :

وترتبط أبرز أحداث عهد مرنبتاح في أنه ظل يتمتع في آسيا بنتائج المعاهدة التي عقدها رمسيس الثاني مع الحيثيين ، واحتفظت مصر بحامياتها في مناطق سوريا وفلسطين ، ومع ذلك فقد اضطر مرنبتاح في بداية حكمه الى أن يجرّد حملة لسوريا ، كما سحق تمردا في كوش .

علي أننا لا نملك وثائق محددة عن حملته الى سوريا ، اللهم الا من الاعتقاد بانديلاخ ثورة عارمة هناك في أعقاب وفاة والده ، فقاد الملك حملته الى هناك وأحرز نصرا سريعا مؤكدا أن مصر لم تفقد هيبتها بعد ، وعلى لوحة اسرائيل التي اغتصبها مرنبتاح من أمنحوتب الثالث (بالمتحف المصري بالقاهرة) والتي عشر عليها بالمعبد الجنائزي الخاص بمرنبتاح في البر الغربي بطيبة ، جاء ذكر للقبائل التي قام الملك بقهرها ومعاقبتها من المدن الآسيوية مثل كنعان ، وعسقلان ، وجزر ، وينعام ، ثم تذكر اسرائيل على أنها قد قضى عليها الى الأبد ولن يكون لها نسل بعد اليوم .

ودعت هذه العبارة الأخيرة عن إسرائيل الى التساؤلات عن مدى ارتباط حملتها بطرد بني إسرائيل من مصر ، وهل تم أيام مرنبتاح أو قبلها ؟ وهل مرنبتاح هو قرعون موسى أو غيره ؟ ، ولكن لعله لم تتوافر حتى الآن أدلة كافية لاثبات خروج بني إسرائيل في عهده أو في عهد غيره ، ويبدو أن قرائن النفي في ذلك أقوى من قرائن الاثبات فيه ، ومنها أن النص السالف الذكر قد اعتبرهم من قبائل أو نزلاء فلسطين ولم يذكر تتبع الملك لهم من مصر ، مما يعنى أنهم قد نزلوا فلسطين قبل عهده وخرجوا بالتالى قبل عهده .

ويلاحظ مع ذلك أن قصة غرق فرعون موسى لا تحل المشكلة ، فالقرآن الكريم يذكر أنه أنجى ببدنه بعد غرقه ليكون لمن خلفه آية ، أى أننا لن نستغرب عدم غياب جثته من بين جثث الفراعنة ، ولم يكتف المؤرخون بوضع احتمالات عهد مرنبتاح في هذا الشأن الى جانب احتمالات عهد أبيه ، والى جانب ما روجه المؤرخ القديم يوسيفوس اليهودى عن الربط بين هجرة الهكسوس والعبرانيين وخروجهم معهم في عهد أحمس ، وإنما أضافوا الى ذلك فرضا آخر باحتمال خروجهم في عهد تحتمس الثالث أو ولده أمنحوتب الثانى وذلك على أساس ذكر اسم العايرى في نصوصهما ، مع تقريبه الى اسم العبرانيين ، وما زالت القضية حائرة ومعلقة بغير حل مرض حتى الآن .

وفي العام الخامس من حكم مرنبتاح اندفع عدد من قبائل شمال افريقيا والصحراء الغربية نحو الحدود المصرية ، سواء كان ذلك نتيجة لزوال شخصية أبيه صاحب الشهرة والمجد ، أو تحت ضغط هجرات آرية جديدة نزلت سواحل افريقية الشمالية أو نتيجة لقمح محلى شديد ، فإن من تزعمهم كان شيخا لقبيلة

« ربو » (لببيا) وضم اليه أعدادا من خمس جنسيات آرية مهاجرة ، وهى جماعات : الأقوش ، والتورشيا ، واللوكى ، والشردانا ، والشكاش ، واندنوا جميعا بنسائهم وأولادهم وقتلعانهم القليلة ، وطمعوا فى أن يعبروا البرارى الى الدلتا ويستقروا فى أرضها الخصبة ، ووصفت المصادر المصرية تحركاتهم بأنهم ظلوا يهيمنون خلال الحدود ويقاتلون فى سبيل ملء بطونهم يوما بيوم ثم وصلوا مصر يتلمسون فيها طعاما لأقواهم ووصل هؤلاء المهاجرون حتى الفرع الكانوبى وكانوا فى أعداد كثيرة فأعد لهم مرنبتاح ما استطاعه من قوة واستنصر ربه بتاح فأيده بالنصر ، ولم تستمر المعركة أكثر من ست ساعات وانتهت بأن أعلن المهاجرون الطاعة ، وكان المصريون يدركون حقيقة الفوضى التى يمكن أن تحيق بأرضهم لو دخلها المهاجرون منتصرين ، ولما كانت معركتهم معهم من المعارك المحدودة التى دارت رحاها على مشارف أرضهم منذ طرد الهكسوس ، فقد كان لنبا النصر عندهم رنة عظيمة ، فوصف شاعر الملك أثر انتصار جيوشه بأنه شمس بددت الغيوم التى كادت أن تغطى سماء مصر ، وأنه جعل مصر ترى أشعة كوكب الشمس ، وأنه كمن أزاح جبلا من التحاس من فوق أكتاف الناس ، ووهب نسمة الحياة لشعب كاد يخنق .

وجدير بالذكر أن محاربة المصريين لليبين الجدد وحلفائهم فى هذا العهد ، لم تمنعهم فى الوقت نفسه من استخدام أهل الحدود الغربية الأصليين المسلمين فى حراسة معاقلهم الصحراوية ، بل أكثر من ذلك أنها لم تمنعهم من استخدام بعض المهاجرين الآريين القدماء من المشاوش والقهق فى جيوشهم وفى مراقبة المهاجرين الشرسين الجدد بأنفسهم .

نشاطه الداخلى :

كان حكم رمسيس الثانى طويلا للغاية ، وكان مستقلا جدا بالحكم ومستبدا بسلطانه حتى أنه لم يتبع العادة القديمة بتسمية ولى عهده شريكا فى الحكم ، لذلك فعندما تولى مرنبتاح الحكم فى البلاد خلفا لوالده كان رجلا مسنا وكان يناهز الستين من العمر ، وتزوج من أخته است نفرت ، ربما لتأكيد أحققيته فى مرش البلاد ، وعلى الرغم من أن مدة حكمه لا تكاد تصل الى النثر السنوات ، وعلى الرغم من شيخوخته فقد استطاع أن يحافظ على الهيبة المتبقية للبلاد خلال فترة حكمه ، وليست الهيبة المقصودة هنا مجرد خروجه على رأس حملة أو فى مقدمة معركة ، بل ان الهيبة المقصودة هى الهيبة بمعناها الأشمل ، فكان لحفاظه على العهود وحرصه على المواثيق القديمة أكبر الأثر فى رفع سمعة مصر الى عنان السماء ، وليس أدل على ذلك من امداد الحيثيين بشحنات كبيرة من الحبوب والغلال حينما خربت شعوب البحر أرضهم وأشاعت المجاعة فيها ، فلم يتصل هنا من عهد سابق كان بين والده وملك الحيثيين •

ويذكر مرنبتاح أنه أبقى على برعمسيس عاصمة مصر ، على الرغم من تعاظم مكانة مدينة منف فى عهده فشيده فيها قصرا ، ثم معبدا كرسه لاقامة الشعائر الجنائزية ، كما بدأ العمل فى بناء معبد للاله بتاح ، كما أقام معبدا صخريا فى جبل السلسلة ، وسار على درب أبيه فى تسجيل اسمه على تماثيل ومنشآت أسلافه ، ولعل دافعه الأكبر وراء ذلك كان رغبته فى الاسراع بتسجيل ذكراه عن أقرب سبيل نظرا لكبره وتقدم العمر به ، فاغتصب على كل حال أوزيريون أبيدوس ، والمعبد الذى خصصه منتوحتب الثانى لحتحور فى دندرة ، كما شيده لنفسه معبدا جنائزيا الى الشمال

من معبد أمنحوتب الثالث بطيبة الغربية واستحل أحجاره من معبد
هذا الأخير .

على أية حال فإن الأحوال كانت عند نهاية عهده لا تؤذن بالخير
فكان الاضطراب يسود الشرق القديم كله ، كما كانت الأحوال
في الداخل مضطربة كنتيجة للمؤامرات الداخلية في البلاط ، ولوجود
عدد ضخم من الأمراء والأميرات والمحظيات ٠٠ وكلهم طامع في
تحقيق أمل من الآمال ، ولئن لم تظهر هذه المحاولات في عهده
فقد تجلت في وضوح قبيل وفاته ، حتى لنرى العرش يهتز من
تحت خلفائه كنتيجة لذلك ، وحتى لنكاد نضل في الوصول الى
حقيقة صاحب التاج من بعده . وعندما توفي مرنبتاح لم تكن مقبرته
في وادي الملوك قد انتهى العمل بها بعد ، ونهب قبره بمرور الزمان
ونقلت جثته الى قبر أمنحوتب الثاني ، وعثر بمقبرته على الغطاء
الخارجي للتابوت الذي اتخذ هيئة الملك وصورته ولا يزال محفوظا
بالمقبرة حتى اليوم .

وبوفاة مرنبتاح تفجرت أزمة وراثة العرش .

نهاية الأسرة التاسعة عشرة ومشكلة تتابع الملوك

سبقت الاشارة الى أن مصر قد تعرضت في نهاية الأسرة التاسعة عشرة الى موجة من الاضطرابات والقلقل الداخلية والمتاعب الخارجية وذلك في أعقاب مرنبتاح حيث خلفه على العرش ثلاثة ملوك وملكة واحدة ، وكانوا ملوكا ضعافا حكموا مصر مددا قصيرة ثم ضمرت بعدهم شجرة الأسرة وانتقل الحكم الى أسرة جديدة أسسها ست نخت وهي الأسرة العشرون .

وتناول العلماء أمر تتابع هؤلاء الملوك وعلاقاتهم ببعضهم البعض وثار بينهم جدل طويل ، حتى نادى بعضهم بوجود مشكلة لوراثة العرش مثل مشكلة حتشبسوت والتحامسة ، وتقوم مرة أخرى على اثبات الخراطيش الملكية ومحوها نتيجة لولاء أو عداا لا نستطيع تقدير مدى أى منهما ، ونتيجة لذلك أصبح تعاقب الملوك الذين خلفوا مرنبتاح على العرش موضع جدل طويل بين العلماء وعلى أية حال فان نتيجة الدراسات التي قام بها كل من جاردنر ، والدريد ، وبيكرات قد انتهت الى ترتيب الملوك بعد مرنبتاح كالتالى :

أممس ، وسيتى الثانى وسبتاح (رمسيس) وسبتاح ثم

مرنبتاح ، وسبتاح) ، وتاوسرت وصيبة على سبتاح أولا ثم منفردة بالحكم بعد ذلك ، وأخيرا فترة قدرها جاردنر بعشر سنوات استولى فيها على السلطة باى السورى (ارسو فى بردية هاريس) .

وهناك اشارات من هذه الفترة عن اضطراب داخلى شمل منطقة طيبة أراد أصحابه من أنصار آمون أن يعبروا به عن سخطهم على فراعين الرعامسة واستغل أمنمس هذا السخط ونادى بحقه فى العرش مكونا حكومة فى مصر العليا ، اعترف بها الطيبيون وان كان هذا غير مقبول الا بانقسام مصر الى دولتين فى هذه الفترة وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين ومع ذلك فهو يشير الى الفوضى التى سادت البلاد وقت ذلك ويبدو أن ضعف الملوك وقصر مدة حكم كل منهم قد أدى الى اضطراب الأمور وتعقيدها وزادت الحالة سوءا بالتدريج حتى آلت آخر الأمر الى فوضى شاملة وصفقتها بردية هاريس .

على أى الأحوال فان كل هذه الأمور لم تعد ذات موضوع خاصة بعد أن قام أحد الباحثين باصدار رسالته عن نهاية الأسرة التاسعة عشرة فى مصر واستطاع بعد أن عرض للأراء وحلل المصادر والنصوص أن يصل الى ترتيب أقوم وأوضح لترتيب الملوك الأواخر لهذه الأسرة .

فبعد وفاة مرنبتاح اعتلى عرش مصر ولده وولى عهده سبتي مرنبتاح (سبتي الثانى) الذى كان متزوجا من الملكة طاخعت ابنة رمسيس الثانى وأنجب منها أمونموس ثم تزوج سبتي أيضا من تاوسرت التى ربما كانت سليلة البيت المالك ، واما أن يكون قد أنجب منها سبتاح ، أو أن سبتي قد تزوج من زوجة أجنبية هى أم سبتاح .

وما أن توفى سبتي الثانى حتى بدأت بوادر النزاع حول

العرش حيث ساندت الملكة تاوسرت الملك الصغير السن سبتاح ، وساعدته في الوصول للعرش خاصة بعد وفاة الابن الأكبر لسيتي الثاني المدعو سيتى مرنبتاح في حياة أبيه ، ولكن اعتلاء سبتاح للعرش ووجود سيده وصية عليه قد أغضب أمونمس الذي رأى أنه صاحب الحق الشرعي في حكم مصر ولذا قام بثورته التي أسلفنا ذكرها ، والتي بدأها من الجنوب بمساعدة كهنة آمون كما يغلب على الظن ، ثم زحف الى الشمال وخلع سبتاح من على العرش ثم حكم مصر ، ولكن ثورته باءت بالفشل اذ تكاتف كل من سبتاح وتاوسرت ومعهما حامل الختم (ارسو) وبعض كبار رجال الدولة واستردوا العرش واكمل سبتاح سنى حكمه حتى وفاته ، وهنا سنحت الفرصة لتاوسرت كي تتوج نفسها ملكة على مصر شمالا وجنوبا قرابة العامين .

وما أن اختفت تاوسرت من على مسرح الأحداث حتى حاول باي (ارسو) أن يمسك زمام الأمور في يده ويتولى السلطة في البلاد . الا أنه دخل في نزاع مع ست نخت استمر حوالي العام وانتهى لصالح ست نخت الذي أعلن تأسيس أسرة جديدة هي الأسرة العشرون .

وعلى هذا يكون الترتيب الأكثر ترجيحاً لدى الباحث والذي نرى أن من الأجدي أن نأخذ به ونسير على هديه معتمدين على ما حمله من نصوص ووثائق في ترتيب الملوك الأربعة الأواخر من الأسرة التاسعة عشرة هو كالتالي :

سيتي الثاني ، وسبتاح (أمونمس) وسبتاح ، وتاوسرت .
وأهم ما في هذا الترتيب هو وضع أمونمس الذي اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعي في حكم مصر بعد وفاة أبيه الملك سيتى الثاني ، وليس أخاه غير الشقيق سبتاح الذي كان ابناً لزوجة ثانوية لذا فقد قام بثورته التي باءت بالفشل واسترد سبتاح العرش

وأكمل سني حكمه ، وبذلك حسم الأمر في وضع أمونمس في قائمة ملوك هذه الأسرة على أنه مجرد محاولة اغتصاب للعرش واقضاء شقيقه من عليه ، الا أن شقيقه نجح في استعادة عرشه مرة أخرى كما سلف الذكر .

وهكذا وقبل أن نفصل الحديث عن كل من الملوك الأربعة فلعل من الخير أن نوجز الأسباب التي أدت الى انتهاء الأسرة التاسعة عشرة ، فكان بعض منها اقتصاديا نظرا لانخفاض موارد الدولة مما أثر على خزانتها وبالتالي يتضح لنا ذلك من قلة ما خلفه لنا ملوك هذه الفترة من منشآت ، وكان بعض من هذه الأسباب سياسيا تمثل في ازدياد تحركات شعوب البحر نحو الحدود المصرية وكذلك تسلل القبائل الليبية الى غرب الدلتا (وهو أمر قد فصلناه عند الحديث عن أخريات عهد رمسيس الثاني وولده مرنبتاح) ، هذا فضلا عن ازدياد نفوذ الكهنة الذين ربما ساعدوا أمونمس في الوصول للحكم ، وأخيرا فلعل من أهم هذه الأسباب التي أودت بالأسرة قد كان اجتماعيا يتمثل في انتشار الرشوة والفساد وسوء الإدارة وازدياد السرقات ، التي لم تسلم منها حتى مقابر الملوك ، وكذا ضياع هيبة الحكم والملك وعدم احترام الشعب لملكه فضلا عن تولي العديد من الأجانب المتمصرين لبعض المناصب الإدارية العليا وكان بعضهم من غير الموالين الولاء الكامل لمصر أو فرعونهم ، ولعل أصدق دليل على ذلك هو نشوب الصراع بين البيت المالكي وحامل الختم باي ذي الأصل الأجنبي .

الملك سيتي الثاني :

كان سيتي الثاني (سيتي مرنبتاح) هو الوريث الشرعي للملك مرنبتاح وخليفته المباشر الذي أنجبه من الملكة ايسست نفرت إحدى بنات الملك رمسيس الثاني ، وقد صور سيتي كأمر على

عدة تماثيل للملك مرنبتاح عثر عليها في مناطق عديدة من مصر حيث كان وليا للعهد خلال عهد أبيه ، كما حمل من الألقاب ما يشير الى تدرجه في بعض المناصب العليا كالأمير الوريثي ، وحاكم الاقليم ورئيس الأرضين والقائد الأعلى للجيش ، فضلا عن ابن الملك الأكبر ، وابن الملك من جسده وحامل المروحة على يمين الملك ، وولي العهد في مكان جب على عرش جب وأخيرا مسئول الأرضين نيابة عن أبيه ، تجدر الإشارة الى أن معظم هذه الألقاب السالفة الذكر كانت تمنح للأمراء وأولياء العهد خلال الدولة الحديثة ولا سيما خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة .

أما عن تاريخ توليه العرش فلعلنا لا نكاد نعرف عمره حين ذلك ، ففي حين يرى البعض أنه كان في السادسة بعد الخمسين فان البعض الآخر من خلال دراسة المومياوات الملكية يرى أنه كان في السابعة عشرة من العمر عند بداية حكمه كما يقدرون لعمره حدا أقصى هو خمس وستون عاما ويرى آخرون أن عمره لم يتجاوز الواحدة بعد الستين على أنه بدراسة مومياء هذا الملك قد ثبت أنه كان رجلا في منتصف العمر ، وعلى أي الأحوال فان الرأي الغالب أنه قد اعتلى عرش مصر كبيرا في السن خاصة اذا أخذنا في الاعتبار زواجه من الأميرة طاخعت في العام الثالث والخمسين من عهد رمسيس الثاني .

ونعرف لسيتي الثاني زوجتين على أقل تقدير هما طاخعت ، وتاوسرت ، هذا بالإضافة الى زوجة ملكية تتبعه على إحدى اللوحات الحجرية المحفوظة بمتحف اللوفر تدعى سوترر ، وتبدو من اسمها أجنبية الأصل .

أما عن أبناء سيتي الثاني فلا نكاد نعرف منهم بصورة مؤكدة سوى ابنه المدعو سيتى مرنبتاح .

حكم سييتى الثانى ما يقرب من ستة أعوام ، ولعله لم يخلف وراءه من المنشآت الكاملة مثل ما تركه أسلافه وذلك شأنه شأن سائر ملوك هذه الفترة كما أسلفنا الذكر ، الا مجموعة من النقوش واللوحات المتناثرة هنا وهناك ، ودفن سييتى الثانى بالمقبرة الملكية التى أعدت له بوادى الملوك والتى تحمل رقم ١٥ .

سبتاح :

تولى عرش مصر بعد سييتى الثانى الملك رمسيس سبتاح (مرئبتاح سبتاح فيما بعد) ، ويبدو أن انتقال العرش قد تم اليه فى هدوء ودون أى منازعات تذكر ويستدل على ذلك من أحد النصوص التى وردت على إحدى الشقافات المحفوظة بمتحف القاهرة والتى تذكر أن الصقر قد طار الى السماء أى سييتى واعتلى آخر مكانه .

وقد تعددت الآراء واختلفت فى نسب هذا الملك ، وفيما اذا كان هو الأمير رمسيس سبتاح أم الأمير سبتاح ؟ !

حيث عشر لهما على آثار سابقة على عهد هذا الملك ومما لا شك فيه ان سبتاح كان ابنا لملك ما مما جعل حامل الخنم باى يحمل لقب مثبت الملك على عرش أبيه ، وربما ذلك اشارة الى أنه قد ساعد سبتاح فى استعادة عرشه عقب اخماد ثورة أمونمس ، واعتقد البعض ان سبتاح كان ابنا لسييتى الثانى من زوجة أجنبية اعتقد البعض أنها سوتور ، واعتقد البعض الآخر أن والده هو مرئبتاح وأنه قد أنجبه فى أواخر عهد رمسيس الثانى ، افترض آخرون أنه ابن لسييتى الثانى من تاوسرت ، الا أن الباحث يرجح أن سبتاح كان ابنا لسييتى الثانى وأنه هو نفسه الأمير رمسيس سبتاح وأن أمه هى الملكة سوتور صاحبة نقش اللوفر التى كانت أغلب الظن زوجة ثانوية لسييتى الثانى .

وأغلب الظن أن تاوسرت - التي ربما لم يكن لها أولاد من بيتى الثانى - قد ساندت سبتاح فى اعتلائه العرش ضد آمون مصر صاحب الحق الشرعى فى العرش باعتبار ابنا لزوجة رئيسية سليلة بيت ملكى هى الملكة طاخعت ابنة رمسيس الثانى ، لعل ذلك كان من أهم الأسباب التى دفعت آمون مصر للقيام بثورته ابان حكم الملك سبتاح الذى كان صغيرا فى السن وابنا لزوجة ثانوية .

أما عن ألقاب سبتاح حينما كان أميرا فلا نكاد نجد له غير لقب ابن الملك ، وابن الملك من جسداه ، لعل ذلك يدلنا على أنه لم يتقلد أى وظائف عليا مثل التى تقلدها أبوه عندما كان أميرا أو كأخيه من أبيه سبتى مرنبتاح الذى كان وليسا للعهد الذى توفى أغلب الظن فى حياة أبيه ، بل ان كل ذلك مما يعضد حداثة سن هذا الأمير رمسيس سبتاح التى منعتة من أن يكلفه بأى مهام وظيفية .

وافترض البعض أن سبتاح عندما تولى الحكم كان عمره يتراوح بين سبع وتسع سنين فى حين افترض البعض الآخر أنه كان يتراوح بين عشرة وتسعة عشر عاما ولعل ذلك الأقرب الى الصحة .

واتخذ سبتاح الألقاب الفرعونية المعتادة الا أنه اضطر الى تغيير اسمى الولادة والعرش فى السنة الثالثة وذلك بعد اخماد ثورة أمونمس ، فبالنسبة للاسم الشخصى كان اسمه رمسيس سبتاح (أى رع انجبه ابن بتاح) فى الفترة الأولى من حكمه أما فى الفترة الثانية فقد أصبح اسمه مرنبتاح سبتاح (محبوب بتاح ابن بتاح) .

أما بالنسبة لاسم العرش فى فترة حكمه الأولى فكان « سخع بن رع سبتب بن رع » « سخع بن رع مري آمون » (أى

المتوج بواسطة رع محبوب آمون أو مصطفى رع) ، وفي فترة حكمه الثانية أصبح اسمه « آخ بن رع ستب بن رع » (أى مجد رع مصطفى رع) .

ولعله لم يعثر حتى الآن على ما يشير صراحة الى وجود زوجة ملكية أو أبناء لهذا الملك ، ما عدا العثور على صندوق من الألبستر لأواني الأحشاء ذكرت عليه زوجة الملك تى - عا الا أن البعض فسرها على أنها أم الملك وليست زوجته .

ومع الأخذ في الاعتبار الفترة التي قام فيها أمونمس بثورته خلال حكم سبتاح فقد ظل سبتاح على عرش مصر تحت وصاية تاوسرت ثم مساندة باى حتى السنة السادسة من بداية حكمه ، وودع سبتاح حياته تاركاً عرش مصر ، ودفن بمقبرته الملكية بوادى الملوك رقم ٤٧ . دون أن يترك لنا من المنشآت المعمارية أو المخلفات الأثرية ما يمكن ذكره وذلك لنفس الأسباب التي ذكرت بالنسبة لسيتى الثانى المتمثلة في قلة موارد البلاد وضعف خزانتها .

أمموس :

لم تخط الآثار اللثام صراحة حتى الآن عن ترتيب هذا الملك بين ملوك نهاية الأسرة التاسعة عشرة ، الا من ذلك الترتيب الذى انتهى اليه الباحث أحمد سعيد في رسالته وأسلفنا ذكره من أن أمموس قد ارتقى العرش لفترة محدودة خلال حكم سبتاح ، ومن المحتمل ظهور أسمه هذا ضمن قائمة مانيشيون باعتبار اسمه الاسم قبل الأخير في ملوك نهاية هذه الأسرة .

وفي حين يرى البعض أن هذا الملك ابن لسيتى الثانى والملكة تاخمت ابنة رمسيس الثانى وأنه قد اعتلى العرش بعد أبيه ، فإن

البعض الآخر يرى أنه كان ابنا لرمسيس الثانى واعتلى العرش بعد مرنبتاح ، وأعتقد آخرون بأن أمنموس كان حفيدا لرمسيس الثانى من ابنته تاخعت التى دعمت أحقيته فى العرش ، وربما كان أمنموس أحد نواب الملك فى كلوش ولم يكن ابنا لأى ملك ولا تسرى فى عروقه أية دماء ملكية .

ولعل أقرب هذه الآراء للصواب هو كون أمنموس ابنا لسيتى الثانى من زوجته تاخعت باعتبارها « الزوجة الملكية العظمى تاخعت » التى صورت على تماثيل سيتى الثانى ، وأيضا هى نفسها « أم الاله وأم الملك تاخعت » التى ظهرت ضمن نقوش مقبرة أمنموس (رقم ١٠) بوادى الملوك ، اذ يحتمل أن أمنموس قد وجد أحقيته فى العرش قد اغتصبها ابن صغير الأبيه وربما كانت أمه أجنبية ، ألا وهو سبتاح ، وربما ذلك قد تم بمساعدة الملكة تاوسرت بعد وفاة أمه تاخعت ، وبعد أن اطمأن لمعاودة كهنة آمون قام بثورته حيث استقل بحكم الجنوب بل لعله زحف نحو الدلتا وتمكن من خلع سبتاح ، وهو ما لم تؤكده الآثار ، وانما يستدل عليه من اتخاذه لجميع الألقاب الفرعونية كملك للوجهين ، كما تفاخر فيما بعد حامل الختم باى بأنه « ثبت الملك سبتاح على عرش أبيه وذلك بعد أن تم اخماد ثورة أمنموس » .

ومن المحتمل أن عمر أمنموس خلال عهد سبتاح أكثر من عشرين عاما ، فى حين يرى البعض أنه كان يناهز التاسعة والثلاثين عندما تولى العرش ابان عهد سبتاح .

أما عن فترة حكمه فافترض البعض أنه حكم أربع سنوات على الأكثر على اعتبار أنه حكم فترة مستقلة عقب مرنبتاح ، بينما افترض البعض أنه حكم سنة واحدة كسلف لسيتى الثانى ، كما

احتسب له البعض ثلاث سنوات تقريبا خلال عهد سيئتي الثاني ، ويرجع اختلاف الآراء هنا الى ان الملك أمنموس لم يعثر له حتى الآن على آثار عليها نقوش مؤرخة بأى من السنين التي صاحبته اسمائه وألقابه صراحة ، وانتهى أحمد سعيد بعد عرض كل هذه الفروض وغيرها الى أن فترة حكم أمنموس الفعلية قد بلغت حوالي سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما .

أما عن أسرة هذا الملك ففضلا عن معرفتنا بأمه تاخمت التي أسلفنا الحديث عنها ، فاننا نعرف زوجته الملكية باكت ورنرو التي ظهرت لها نقوش عدة على جدران صالة الأعمدة بمقبرته الملكية بوادي الملوك .

ولا نعرف حتى الآن ما اذا كان أمنموس قد مات ميتة طبيعية أم أنه قد قتل ، وهل دفن في مقبرته بوادي الملوك ، أم أن عدم العثور على موميائه يدل على أنه لم يدفن فيها ؟ لاسيما أن نقوش هذه المقبرة قد محى معظمها عن عمد وربما تم ذلك بواسطة أتباع الملك سبتاح خلال فترة حكمه الثانية ، هذا فضلا عن أنه لم يعثر على أثاث جنازى في هذه المقبرة حتى الآن ، بل أكثر من ذلك أن هناك أجزاء معمارية منها لم يتم نحتها كاملا .

تاوسرت :

كان لتاوسرت مكانتها ودورها البارز في نهاية الأسرة التاسعة عشرة على الرغم من أنها لم تكن تحمل لقب ابنة ملك على أى من آثارها المكتشفة حتى الآن ، ولعلها كانت ابنة لأحد الملكين رمسيس الثاني أو مرنبتاح ، ولعل هذا ما دفعها الى اعتبار نفسها وريثة شرعية للعرش حيث اتخذت لقب الأميرة الوراثية ، ولعل جهلنا بأمر تاوسرت يرجع الى عدم التأكد من والدها .

على أى الأحوال فقد بدأ نجمها يسطع فى الأفق منذ عهد زوجها سيسى الثانى حيث حملت لقب زوجة الملك العظمى ، ويعتقد البعض أنها قد بدأت فى بناء مقبرتها الملكية فى نهاية حكم زوجها ، وازداد نفوذ تاوسرت وقويت شوكتها فى عهد ابن زوجها سبتاح حيث رفعتة للعرش وأصبحت وصية عليه ، واتخذت فى عهده ألقاب زوجة الاله ، سيدة الأرضين ، سيدة مصر العليا والسفلى ، وكان الدور الذى لعبته تاوسرت فى فترة حكم سبتاح الثانية أهم من الدور الذى قامت به فى الفترة الأولى ، ولعل ذلك كان أحد العوامل التى ساعدتها على تبوؤ العرش بعد وفاة سبتاح .

وكل ذلك انما يدل على ما كانت تتمتع به هذه السيدة من حنكة سياسية اكتسبتها على الأرجح بحكم سنها ، ولعلها قد ارتقت عرش مصر فى الثامنة والخمسين من عمرها أو فى الحادية والسبعين تبعاً لاختلاف الآراء فى سن وفاتها الذى يراه البعض الآخر فى الثالثة والسبعين .

وكان جلوس تاوسرت على العرش مجرد اقرار للواقع حيث كانت هى المسيرة الأمور البلاد بمساعدة باى ابان حكم سبتاح فلما توفى انفردت بالسلطة واتخذت ألقابها الملكية كفرعون لمصر وشرعت فى بناء معبدها الجنائزى واستبدلت بخراطيش سبتاح فى مقبرتها خراطيش زوجها سيسى الثانى لتؤكد على امتداد حكمها منذ وفاته .

ويرجع تاريخ انفرادها بالعرش فى السنة السادسة من حكم سبتاح . وعلى الرغم من أن مدة حكمها لم تتجاوز العامين فانها ضمت فى تاريخها فترة حكم سبتاح واعتبرت عهدها يبدأ منذ وفاة زوجها سيسى الثانى ولا تكاد نعرف كيف ماتت تاوسرت ، وربما

كانت ميبتها طبيعية ، وربما أزيحت من على العرش أثر تدبير
سياسي محكم ربما من قبل باي الذي أمسك بزمام الأمور لمدة
تقارب السنة حتى أقصاه ست نخت مؤسس الأسرة العشرين .

سبق أن ذكرنا أن تاوسرت قد شرعت في نحت مقبرتها بوادي
الملوك (رقم ١٤) خلال حكم سبتاح ، وقد اغتصبها ست نخت
ووسع بها وغير الألقاب الملكية بما يناسبه ، كما عثر داخل تابوته
على مومياء اعتقد أنها لتاوسرت بناء على أن ملكات هذا العصر
الأخريات دفن في وادي الملكات .

الأسرة العشرون

سبقت الإشارة الى تغير مقاليد الأمور في منطقة الشرق الأدنى القديم بزوال بعض القوى وظهور قوى أخرى غيرها أكثر فتوة وشبابا وكان على مصر أن تراقب عالم البحر المتوسط وأن تحمي نفسها منه ، لذا لجأت الى اقامة عاصمتها من قبل في مصر السفلى ، ولما أصبح المركز الإداري يقع في أقصى الشمال ، فقد أصبحت مصر العليا مستقلة الى حد ما ، ونتيجة لذلك نجد أنها نزعته عن نفسها كل مقومات القوة في انفصال قطريها ومملكتها ، والى جانب هذا العامل الذي لا يمكن تفاديه أو علاجه ، فقد ظهر عدم توازن آخر سوف يزيد الأمر سوءا أيضا في أمرين ثانويين ولكن لا يمكن اغفال أثرهما بأي حال من الأحوال ، وهما :

١ - أن طيبة وكهنة آمون أصبحوا يمتلكون الكثير من الهيبة في نظر المصريين وظلت بالنسبة لأهل الشمال تمثل مركزا يجذب الجميع ويسبب المضايقات نظرا لاقامة العاصمة الإدارية القوية في الدلتا .

٢ - عدم وجود رؤساء أو ملوك كبار يستطيعون بهيبتهم الشخصية أو بواسطة حسن تصرفهم أن يحتفظوا للبلاد بنوع من الوحدة أو شبه الوحدة في ذلك الجسد الكبير المحطم .

وكان لِهَدين العاملين أكبر الأثر في تفكك مصر وسقوطها السريع ، وأصبحت بلاد الملوك الكبار أمثال أمنمحات الأول ، وسنوسرت الثالث ، وتحتمس الثالث ، فريسة لمن يطمع فيها ويريد الاستيلاء عليها ، فموقعها الجغرافي المتميز جعلها باستمرار عرضة للأطماع ، ولكن خطر هذا الموقع لم يتضح الا عندما أصبح البحر المتوسط أهلا بالسكان ومتقدما في الحضارة وأصبح مركزا للاشعاع الثقافي . وانتقال مركز التقاء حضارات العالم القديم في الشمال ، جلب الكثير من النكبات على مصر ، اذ تطلع الجميع اليها ، وكل هذه المظاهر التاريخية التي تؤثر في التوازن القديم للحضارات تجلب معها الانهيار لبعض أصحاب هذه الحضارات في حين أنها تدفع بالبعض الآخر الى مكان الصدارة .

انتهى أمر الأسرة التاسعة عشرة كما أسلفنا الذكر بازاحة تاوسرت من على العرش بتدبير سياسى محكم ، أو بوفاتها وفاة طبيعية ، وامساك باى - أرسو بزمام الأمور والحكم في البلاد لمدة تقارب العام . حتى تمكن أحد الأمراء المسنين المسمى « ست نخت » من عزل باى وتأسيس الأسرة العشرين ، ولعله قد اعتمد في ذلك على رد فعل شعبى أو أنه قد نال تأييد كهنة آمون ، وعلى الرغم من طول فترة الفوضى التي تعرض لها البلاد من قبل ، فان أسرته قد نجحت أيضا في الحصول على بعض الهيبة لمصر في البخارج .

وان كنا نجهل طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بالبית المالك السابق فان البعض يعتقد أنه أحد أبناء رمسيس الثانى الكثيرين ، واستمر حكم ست نخت عامين فقط ، ونجح في اعادة النظام والهدوء بوجه عام في البلاد دون أن يقترن ذلك بعنف يذكر .

وكان من الطبيعي أن يعتبر مؤسسو الأسرة الجديدة أنفسهم
ساخطين منقذين موهوبين تخيرتهم الأقدار ، شأنهم في ذلك شأن
كل جماعة حاكمة جديدة ، وعندما صور دعاة هذه الأسرة رأيهم
فيما مرت به مصر بين عهد مرنبتاح وعهد ست نخت قالوا : « وقعت
مصر فريسة للاضطرابات وأصبح كل انسان فيها يقنن لنفسه ،
ولم يكن لأهلها زعيم لسنوات عدة ، وكانت مجرد بلد ، موظفين
وعمد ، يفتك الانسان فيها برفيقه كبيرا كان أم صغيرا ، وتلت ذلك
سنوات فارغة ، ظهر بينهم فيها ارسو الخورى الذى اعتبر نفسه
أميرا ، وحاول أن يخضع البلاد كلها لرأيه وألزها بدفع الضرائب
اليه ، وأصبح كل انسان يلتمس رفيقا يسايره في طريقه خوفا
من أن يعتدى أحد عليه ، وعملت الأرباب معاملة البشر ، وامتنع
هو عن تقديم القرابين في المعابد ، وعندما شاء الأرباب أن يظهر
رحمتهم ويصححوا الأوضاع في مصر ويعيدوها الى سيرتها الأولى ،
نصبوا ولدهم الذى خرج من صلبهم « ست نخت » حاكما على
البلاد كلها وجعلوه على عرشهم الكبير ، فتجلى على هيئة خبرى ست
الغضوب وأعاد السلام الى الأرض القلقة وفتك بالجادرين فيها
وطهر عرش مصر العظيم » .

ولعل ما جاء به هؤلاء الدعاة عن الفترة القلقة التى سبقت
عصرهم الجديد صحيح ، وكذلك تمسحهم فى الدين وغضب الأرباب
على الأمس وأملهم فى الغد مما أوحى به التقاليد ، أما تضخيمهم
لشأن « ست نخت » فقد كان مسرفا بعض الشيء ، فالرجل الكهل
الذى زكته للناس سنه وخبرته لم يعمر فى الحكم بالشكل أو الهيئة
التي صوروه عليها ، ولعل ذلك هو الذى دفعه للقيام بما قام به
رمسيس الأول فى ضمان الحكم لأسرته وتقديم ولده أمامه ليتم
ما أراد هو ولم تسمح له به سنه .

وعلى الرغم من أن ست نخت كان ينتسب الى أسرة تعيش في العاصمة بررمسيس في شرق الدلتا - ودليلنا على ذلك احتواء المقطع الأول من اسمه على اسم الاله ست - فانه منذ أن ارتقى عرش الحكم في البلاد فكر في التو في اقامة مقبرة له بوادي الملوك بطيبة الغربية شأنه في ذلك شأن من سبقوه أو لحقوا به من ملوك الدولة الحديثة ، الا أن العمال بعد أن أتموا حفر الممر على بعد قليل في الصخر ، عثروا فجأة على المقبرة السرية لأمنموس التي لم يكن معروفًا مكانها أو لأنها كانت بعيدة عن الأنظار خلال سنوات الاضطرابات الاثنتي عشرة بعد رحيله ، لذلك توقفت كل الأعمال في نحت مقبرة ست نخت ، وعند وفاته دفن بمقبرة الملكة تاوسرت بوادي الملوك بعد أن غيرت من أجل ذلك بعض النقوش والمناظر على الجدران .

الا أن هذه المقبرة فتحت فيما تلا ذلك بعدة أجيال وقام الكهنة بإعادة النظام في المقبرة التي لم يعثر فيها الا على مومياء الملكة ، فوضعوها في التابوت الفارغ لست نخت الذي لم يعثر على موميائه حتى اليوم .

رمسيس الثالث

كان ست نخت كما أشرنا من قبل ملكا هماما ، لكنه لم يكده يتولى حتى مات ، ولحسن الحظ فان ابنه وخلفه في الحكم رمسيس الثالث قد ورث هممة أبيه الغريزية ، وكان حكمه الذي طال بما فيه الكفاية لاتمام عمل مفيد ، هو آخر حكم طويل في الدولة الحديثة .

وأغلب الظن أن رمسيس الثالث قد اشترك مع أبيه في الحكم بصفتهم وريثا للعرش ، ولعله يقترب من سن الأربعين عند توليه العرش ، لذلك لم يجد صعوبة في ذلك ، ونظرا لأنه يحمل اسم رمسيس فلعله بذلك يكون قد ولد وسمى بهذا الاسم في حياة رمسيس الثاني بالفعل ، ولعله يدل أيضا على أن والده ست نخت كان من العائلة المالكة ، وربما كان بالفعل أحد أبناء رمسيس الثاني ، لذا لم يكن من الضرورة عمل فاصل حقيقي بين الأسرة التاسعة عشرة والعشرين ، وليس هناك ما يعطى مانثيون الحق في أن يبدأ هنا أسرة جديدة ، ولكن يبدو أنه لجأ الى ذلك بعد سنوات الفوضى التي أعقب حكم سيتي الثاني .

على أية حال فقد سارت الأمور في مجراها الطبيعي وتولى رمسيس الثالث مقاليد الحكم في البلاد واعتبر بحق المؤسس الحقيقي للأسرة وسياستها وجعل من سميته وسلفه القديم رمسيس الثاني

مثله الأعلى ، فتلقب بأغلب ألقابه وكنياته ، واستطاع مثله أن يدفع بجيشه عن مصر أخطارا جسيمة ، كما خلف لنا من المنشآت المعمارية ما يحاكي سلفه ، ولكنه رغم ذلك قد اختلف عنه في أنه كان الشخصية العظيمة الوحيدة في أسرته الكبيرة ، وبدأ عهده ببداية مشرقة ثم انتهى الى خاتمة غير معهودة نؤجلها لحينها .

نشاطه الحربي :

كان هم رمسيس الثالث الأول هو اصلاح الادارة واعادة تنظيم الجيش وهذا التقويم الداخلى كان في الواقع الشرط الضرورى للمحاولات التى يعتزم الملك القيام بها كى يعيد لمصر الدور الراجح الذى لعبته من قبل في سياسة العالم الشرقى الخارجية حتى عادت مصر في عهده للمرة الأخيرة تفرض نفوذها الأاكيد على المنطقة .

وتخرج الموقف في الخارج على غرار الموقف الذى واجهه « رمسيس الثانى » فالليبيون الذين تصدى لهم مرنبتاح من قبل وطردهم قد عاودوا الكرة وهاجموا غرب الدلتا ، وحاول رمسيس الثالث أن يحل مشكلاتهم بأن ولى عليهم شابا ليبيا من جنسهم تربى في مصر فرفضوه ، ولعل ذلك أمر طبيعى أن يرفضوا مثل هذا الحاكم المصرى أو الموالى لمصر اذا سلمنا بكونه ليبيا في الأصل ، ويغلب على الظن أن ذلك كان السبب الحقيقى وراء ثورتهم وزحفهم ، خاصة وقد اشتدت عزائمهم بنزول هجرات جديدة عليهم من بنى عمومتهم الهندو آريين أو لعلهم على العكس من ذلك قد تخوفوا من نزولهم فرحلوا أمامهم الى حدود الدلتا ، ولاقتهم الجيوش المصرية في العام الخامس من حكم رمسيس الثالث ، واكتفت بأن أضعفت شوكتهم وردتهم على أعقابهم ، وأبقت على مجموعات منهم كانت تستخدمهم في جيشها ، وتذكر نصوص معبد هابو أن الملك قد

انتصر عليهم انتصارا بالغا وذبح الكثيرين منهم حتى ترك جثثهم
أكداسا كالأهرام وقبض على العديد منهم كأسرى ، وتباهى
النصوص بأن ملكهم قد أباد شعوب البحر الى الأبد ، لكن شيئا
من ذلك لم يحدث بطبيعة الحال كما سنرى فيما بعد .

ونجد ضمن نصوص الحرب الليبية التي حدثت في العام
الخامس بعض تلميحات الى حرب آسيوية لا بد أنها قد تمت بحكم
المنطق قبل السنة الخامسة ، فتذكر النصوص : « أن رئيس أمور
لم يعد الا رفاتا ولم يبق له بذر ، وكل قومه أخذوا أسرى ،
وأحضر الأعداء الآسيويون والليبيون أسرى ، هؤلاء الذين خربوا مضر
فيما مضى بحيث تركت البلاد في حالة خراب تام » . وكلها عبارات
عامة ولعلها تشير لحرب السنة الثامنة ولا عجب في أن نجد شيئا
من عدم الدقة مع كثرة المعارك والنصوص التي سجلت وصورت
على جدران معبد هابو .

وفي العام الثامن من حكم رمسيس الثالث خاضت مصر معركتين
كبيرتين مع شعوب البحر احدهما كانت برية والأخرى بحرية ،
أما الأولى فكانت مع هؤلاء المهاجرين الذين وصلوا الشام عبر آسيا
الصغرى وانتشروا في أرض أمور ثم نزحوا على أرض كنعان عن
طريق البر ، وأما الثانية فكانت مع من اندفعوا بمراكبهم الى
شواطئ جنوب سوريا ووصلوا حتى مصبات النيل عن طريق البحر ،
ووصفت النصوص المصرية تحركات هؤلاء المهاجرين وخيبة مسعاهم
وصفا شائقا على لسان الملك نفسه : « تأمرت شعوب أجنبية في
جزرها ، وسريعا ما أزالمت بلادا وشردت الحرب أهلها ولم يستطع
بلد أن يثبت أمام أسلحتهم ، وابتداء من خاتى وقدى وقرقميش ،
وأزورا الى آلاسيا في آن واحد ، واجتمع عسكرهم في بقعة واحدة بأرض
أمور ، فشردوا أهلها وأصبحت الأرض كأنها لم تكن ، ثم تقدموا

نحو مصر ، ولكن النار كانت على استعداد للقائهم ، وتآلف حلفهم من البلستى والنكر والشكلش والدانيين ، والوشاوش ، واتحدوا جميعا ووضعوا أيديهم على البلاد في مدار الأرض كلها فاستبشروا وملاّتهم الثقة بأنفسهم وقالوا : سوف تنجح مشاريعنا ، ولكن قلب الاله كان واعيا وعلى استعداد لأن يقتنصهم كالطيور ، وهكذا نظمت حدودى في جاهى وأعددت أمامهم الأمراء وقادة الحاميات وأمرت بتحسين مصبات الأنهار لتكون كالسد الكبير وزودتها بسفن وزوارق وناقلات للجنود ، وامتلات جميعها بمحاربين مهرة مسلحين ، وتآلفت قوات المشاة من خيرة شباب مصر ، وكانوا أشبه بالأسود ، وتآلفت فرقة الفرسان من عداة بن مهرة وقادة قادرين ، ومن كل فارس عربية متين ، وهزت الخيول أعطافها وسحقت الشعوب الأجنبية تحت حوافرها ، وكنت منتو المقتدر ، أقف على رأسهم ، ليشهدوا بأنفسهم ما تفعله يداى ، أما من بلغوا حدودى فليم يبق منهم باقية وانمحت قلوبهم وأرواحهم الى الأبد . . . وأما من أتوا بجموعهم معا عن طريق البحر ، فقد واجهتهم نار حامية على مصبات الأنهار ، وأحاط بهم على البر سد من الحراب ، واستدرجوا الى الداخل وحوصروا وألقوا على وجوههم على الشاطئ ، ثم قتلوا ومزقوا اربا من القدم الى الرأس ، وغرقت سفنهم وأمتعتهم في البحر » ،

وعلى نحو أمتع الكاتب في وصف حال شعوب البحر ومصيرهم ، أبداع الفنانون في تصوير هزيمتهم على جدران معابد طيبة ولاسيما هابو ، فصـبـورهم يفرون على البر بعربات تشبه الصناديق تجر كل عربة منها أربعة ثيران ، وصوروا ساحبة الحرب بعد الحرب خرابا اجنت أهلها من فوق الأرض كما اجنت شجرها سواء بسواء وعندما صور الفنانون قتال البحر صوروا سفن الفريقين وقد طوت أشرعتها ، ورمى المصريون أعداءهم بالنبال ثم صادموهم بالمراكب

وقاتلوهم وجها لوجه بالسيوف والخناجر حتى انتهت المعركة بانتصار المصريين .

واستحق رمسيس الثالث لقب قاهر جميع البلاد الأجنبية دون مغالاة ، وذلك لأنه أنقذ البلاد من خطر أبشع بكثير من خطر الهكسوس ، واستطاعت مصر أن تنقذ نفسها وجيرانها من غزو كثيف حطم ممالك عدة قبلها ولكنه تحطم عند أرضها وعلى شواطئها بحرهما .

وتجددت مشكلات المهاجرين على حدود مصر الغربية في العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث ، ولم يكن قد مضى على هزيمتهم الأولى في العام الخامس غير ست سنوات ، حتى عاودوا شغبهم على الحدود من جديد ، ولعلمهم لم يحمدها الملك مصر أنه سمح لهم بالمعيشة قربها ما داموا أعلنوا السلم والطاعة ، وظهرت بينهم هذه المرة جماعات جديدة واستجاب لهم عدد من بنى جلدتهم الذين عاشوا في غرب الدلتا وعاونوهم وتزعمهم هذه المرة زعماء قبائل الليبو والمشائوش ، ولكن القوات المصرية اشتدت عليهم واحبطت مشاريعهم وكسرت شوكتهم ، وبذلك انتهت محاولاتهم لدخول مصر عن طريق العنف ، وبدأوا يتسللون اليها تسلا سلميا بطيئا وتسامح رمسيس الثالث معهم باسم مصر كما تسامح مع أسراهم من قبل ، وهذا التساهل النسبى يعتبر مكرمة للخلق المصرى في جملته ، الا أنه جر على مصر بعد ذلك شرورا كثيرة كانت في غنى عنها لو أنها استأصلت شأفة أعدائها من جذورها .

وبعد انزال الهزيمة بالقبائل الليبية وحلفائها حاول رمسيس الثالث استعادة السياسة التقليدية لمصر في آسيا ، فاضطر للقيام بحملة الى سوريا في نفس العام للقضاء على ثورة هناك ، واستطاع

أن يقضى بذلك على جماعة من البدو كانوا ينتقلون في الصحراء جنوب فلسطين ، ولم تكن هذه الحملة سوى مجرد غارة لم تتكرر ثانية ، إذ أنه لم يتعرض بعد ذلك الأية مضايقات وعاشت مصر في سلام تام من قبل ما تبقى من مستعمراتها الآسيوية .

وأصبح لرمسيس الثالث شهرة كبيرة ، وفي كل مكان حيث كان يخشى اسمه ، وكان جيشه وأسطوله الدعامة الأساسية لتأكيد تلك السيطرة المصرية لعدة سنوات ، وأصبحت حدوده وشواطئه آمنة وغدت سفنه التجارية تستطيع التجوال بين شواطئ مصر وفينيقيا دون التعرض لأي خطر .

نشاطه الداخلي :

وحاولت مصر أن تنعم بفترة من الرخاء والسلام بعد انتصاراتها المتعددة ، وبعد أن أكدت ثقتها بنفسها وتدفقت الثروات عليها من غنائم الحروب والجزية وكذا من عودة الأمن الى مسالك التجارة الخارجية ، وكالعادة كان أكثر المصريين استفادة من هذه الحال الجديد هو فرعونهم وبطانته من حاشية القصر وكبار رجال الجيش فضلا عن رجال الدين . فتميز عهد رمسيس الثالث بنهضة معمارية جدد بها الملك عهد العمائر التي شهدناها على أيام رمسيس الثاني من كثرة وضخامة واتساع لا حد لها . ولعل من أروع ما شيد مهندسوه من عمائر معبدتين وبقايا قصرين ، أما المعبدان فأحدهما ضخم شاهق خصص لإقامة شعائره وشعائر الإله آمون وبقية الأرباب في غرب طيبة وقد أقامه على غرار معبد سلفه العظيم رمسيس الثاني والمعروف بالرامسيوم في تخطيطه العام وأعمدته الأوزيرية ، وكذلك في احتواء كل منهما على فناءين ، كما تتشابه كذلك ملحقات المعبدتين كالقصر الملاصق للجدار الجنوبي للفناء الأول ، وكذلك مباني الموظفين والكهنة والمخازن المحيطة بالقصر ، هذا فضلا

عن أن كثيرا من نقوش المعبدتين حربية ، وان تميزت نقوش رمسيس الثالث بأنها أقل مغالاة من نقوش سلفه ، وكذلك تسجيل مراحل (عيد خروج الاله مين) وخاصة اطلاق أربعة طيور الى أركان العالم الأربعة لإعلان نبأ الاحتفال بالعيد .

ومع ذلك فان من مميزات معبد رمسيس الثالث أنه المعبد الوحيد المحصن في مصر ، وكذلك نقوشه الغائرة وخاصة اسم الفرعون حتى لا تتعرض للمحو أو كتابة أسماء أخرى بدله ، كما تتميز نقوشه بالحركة وخاصة مناظر صيد الثيران البرية ، حيث صور الفنان حركة الثيران العنيفة وهي تندفع بين الأشجار بطريقة تثير الإعجاب ، وتنفي عن الفنان المصري القديم صفة الجمود الى حد كبير ، وأخيرا فان نقوش هذا المعبد قد صورت أقدم وأجمل تصوير لمعركة بحرية بين مصر وشعوب البحر بلا نزاع ، حيث جاء التصوير حيا جديرا بكل اعجاب .

وأما المعبد الآخر فهو معبد صغير ولكنه ممتع خصص لاحتفالات يوبيله وأعياد ربة آمون في رحاب الكرنك ، ويقع الى اليمين خلف الصرح الأول ، ولا يزال كلا المعبدتين يعتبر من أكمل المعابد المصرية الباقية في عناصره المعمارية وفي لوحاته المنقوشة .

ولم يقف نشاط رمسيس الثالث المعماري - ولا سيما في بناء المعابد ... على مصر فحسب بل تعداها الى آسيا ، حيث احتفظت الأيام بذكرى معبد لآمون في كنعان أجرى عليه رمسيس خراج تسع مدن (أو قرى) في منطقتة ، وكذلك معبد آخر في عسقلان شيد باسم الاله بتاح .

ونعود الى مصر لنرى مقصودته بتل اليهودية الى جانب هياكله وآثاره القليلة الأخرى على امتداد الوادي من منف الى الكاب .

وتشير النصوص الى حى جميل شاده لآمون فى بر رمسيس ،
فضلا عن مدينة جديدة أنشئت فى عهده فى شمال غرب الدلتا ، تشير
أغلب الآراء الى أنها نا آمون رع بمنطقة نا آمون التى كانت فى
عهد رمسيس الثانى منطقة كروم .

وكان من حق رمسيس الثالث وحق زمانه أن يفخرا معا
بنشاطه الواسع أيام السلام ، فجهز حملة بعث بها عن طريق البر
والبحر الى مناجم النحاس فى شبه جزيرة سيناء ، فعاد رجالها
بما وجدوا من نحاس حملوه يومئذ الى طيبة ، ولما عرض تحت
نوافذ القصر وشرفاته أخذ يتلأأ فينبعث منه بريق يشبه بريق
الذهب فيثير اعجاب الناظرين .

كما بعث الملك بأساطول الى بونت لاضمار البخور والعطور
الى معابد الوادى كما فعلت حتشبسوت من قبل ، وتلك حملات
تجارية لا صلة لها بأعمال الحروب على كل حال .

وطال عهد رمسيس الثالث نحو واحد وثلاثين عاما ، استمتع
فى أغلبها بما دلت عليه ضخامة منشأته من ثراء ومجد ونعيم ، ثم
تحولت أموره وأمور بلده من حال الى حال ، وكانت عوامل هذا
التحول أربعة وهى :

• تزايد أعداد الأجانب المتمصرين فى البلاط والجيش .

• تزايد أعداد الأرقاء الأجانب فى القصور والمعابد .

• مؤامرات النساء فى القصر الفرعونى .

ضيق الطبقات العاملة بحرمانها من مجهود يمينها ، ومما نعم
به الكهان وأهل البلاط .

وقد سبقت الإشارة الى أن مصر قد فتحت حدودها وتقبلت أعدادا من الوافدين ، وكيف تقبلت الجيوش المصرية أعدادا من الأجانب باعتبارهم مرتزقة أو من الأسرى أو نسلهم ، ورفع رمسيس الثالث بعض هؤلاء الأجانب الى مناصب القيادة في البلاط ، وزاد نصيب القصر الفرعوني من الزيجات الأجنبية ، كما تقبل أعدادا أكثر من الجوارى ، وقلدت قصور الأثرياء قصور الفراعنة في هذا السبيل لظروف الحرب وكثرة سباياها ، أو حبا في ملاحاة الشماليات ودفع الجنوبيات .

أما المعابد فكان نصيبها من الأرقاء والأسرى الأجانب والتمصريين أضخم ، وذكرت النصوص أن رمسيس الثالث قد خصص ٢٦٠٧ من أسراه للأملاك آمون ، و ٢٠٩٣ للأملاك رع ، لكي يعملوا بأسماء هذه المعابد في المزارع والحاجر والمناجم ، بل شئون العبادة نفسها .

ولم يكن هناك بأس فيما جرت عليه مصر في استقبال أبناء خيرانها وأسرها والمرتزقة المسلمين ما دامت قوية يقظة وما دامت يدها اليد العليا ، ولكن الخطر كل الخطر في أن يتمصر هؤلاء النزلاء بمظهرهم فقط وليس في مخبرهم ، وأن يظل بعضهم على استعداد للتنكر لها متى سنحت لهم فرصة أو ألت بها نكبة وما أكثر فرص النكبات في ذلك العهد ! . وكشفت عن حال حريم رمسيس الثالث وأوضاع الأجانب في بلاطه ، مؤامرة من إحدى ملكات الملك - من الطبقة المتوسطة غالبا وهي تى - بعد أن أحست برغبة الملك في اقضاء ولدها بنتاور عن ولاية العهد باختياره لأحد أولاده المسمى رمسيس (الرابع فيما بعد) لهذه الولاية فتآمرت مع بعض سقاة البلاط ونسائه وحرسه وخدمه من المصريين والنزلاء المتمصرين ، واستعان المتآمرون بأعمال السحر ، وكان الهدف من

المؤامرة احداث انقلاب داخل القصر في نفس الوقت الذي تشتعل فيه ثورة في المدينة ، ولكن المؤامرة انكشف أمرها ، وتولى التحقيق فيها بأمر الملك أربعة عشر قاضيا كان بينهم أربعة من الأجانب ، وقبل انتهاء التحقيق تمكن بعض أقارب المتهمين أن يرشوا ثلاثة من القضاة وضابطين ، انكشف أمرهم وتحولوا الى متهمين ، وحكمت المحكمة على بنتاور وثلاثة من شركائه بالاعدام ، وتركت لهم مهمة ازهاقهم لأرواحهم بأنفسهم ، وحكمت على متهمين آخرين بالجلد والسجن ، وعلى البعض الآخر بجدع الأنف وصم الأذنين ، وكان من بين هؤلاء القاضيان والضابطان الذين ثبتت ادانتهم من قبل ، أما القاضي الثالث فعزت عليه نفسه أو صحا ضميره فانتحر ، أما ما أصاب رمسيس الثالث من هذه المؤامرة ، واسم الملك الذي تمت المحاكمة في عهده ، ان كان هو نفسه أو ولده رمسيس الرابع ، فكلاهما موضع جدل حتى الآن .

والى جانب هذه المؤامرة فقد وقعت في اقليم أتريب ثورة أو أزمة عزل على اثرها الوزير من منصبه .

وساءت الحالة الاقتصادية في البلاد حتى اضطر عمال الجبانة في طيبة الى الاضراب عن العمل لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين في العام التاسع والعشرين من حكم الملك ، فتوقف العمال عن عملهم وحاولوا أن يلفتوا نظر رؤسائهم لحالتهم دون جدوى ، وفي اليوم التالي تجمعوا وهاجموا مخازن الرامسيوم وهم يصيحون بأنهم جائعون وعندئذ اضطر كبار الموظفين لمحاولة تهدئتهم ، وتكرر الاضراب بعد ذلك مرات عديدة حتى اضطر الوزير للتدخل لاعطائهم ما يستحقونه ، وتعطينا هذه البردية فكرة عما آلت اليه حالة البلاد من فوضى ، كما تعطينا فكرة عن كهنة المعابد الذين كانوا أول من يسمع صياح العمال من الجوع دون أن تتحرك فيهم ذرة من

عطف وذلك فى الوقت الذى كانت فيه مخازن المعابد مكدسة بكل أنواع الحبوب وأكوام الذهب ، بل اننا نعرف من هذه البردية كيف ان رجال الدين كانوا سوط عذاب على الفقراء ، ففى أحد الأيام تجمع المتظاهرون خلف معبد مرتتاح وأخذوا يصيحون « نحن جائعون » وتصادف مرور عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل اليهم كمية من الحبوب ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر الملك بصرف استحقاقاتهم لهم ، ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة من كبير كهنة آمون بأنه قد أخذ بدون وجه حق من ممتلكات معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين ووصف كبير الكهنة عمله « أن ما فعله جريمة كبرى » .

وهكذا كانت تسير الأمور ، فالكهنة يكسبون الأموال ويظلمون الشعب ، والموظفون يستغلون كل موارد الدولة لمصلحتهم ، والملك لا يحرك ساكنا ، والأجانب يتحكمون فى شأن الدولة .

والواقع أن هذه البردية التى أسلفنا ذكرها تبرز لنا وجهين وجها يعيب الفراعنة بصفة عامة وسياستهم ، ووجها آخر ايرحب به التاريخ لأنه يكشف عن حقيقة روح شعبية مصرية لم تكن تهضم الضيم ولا تأبى أن تعارضه رغم أنف التقاليد وأذنان الحكام ، على عكس ما ألقه بها كثير من المؤرخين من صفات الاستكانة واللامبالاة والتسليم المطلق بما يقضى به الرؤساء ، وان اقتضرت هذه الصورة فى حالتنا هذه على العاملين فى الجبانات الملكية بطيبة الغربية ، فانه ليس هناك ما يمنع اطلاقا من اعتبارها نموذجا لما كان يجرى فى مناطق كثيرة غيرها مما لم يبق من أخبارها شىء مدون .

وهكذا يبدو أن القدر لم يكافئ رمسيس الثالث على بطولاته وأمهجاده ، أو نشاطه وأعماله بما يجب ، فجاءت أخريات أيامه على

النحو الذى ذكرناه آنفا ، ولا ندرى هل أتم رمسيس الثالث محاكمة من كشفتهم مؤامرة الحرير في حياته ، أو أكملها خلفه رمسيس الرابع ؟ على أى الأحوال فقد ودع رمسيس الثالث حياته بعد أن بلغ السبعين من عمره ، وقبل أن يكمل عامه الثانى بعد الثلاثين على عرش مصر ، ودفن بمقبرته بوادى الملوك ، تلك المقبرة التى كانت فى بادىء الأمر للملك « ست نخت » الذى هجرها حين رأى أنها تداخلت فى مقبرة أمنموس ، ومن ثم كان على رمسيس الثالث أن يغير فى بنائها حتى يتجنب العيوب التى دفعت أباه الى هجرها ، ونجح فى اضافة بعض الممرات والقاعات حتى عمق ١٣٠مترا ، وتمتاز رسوم هذه المقبرة بالمنظر الشهير الخاص بطهى الطعام ، وكذلك منظر عازف القيثارة المشهور ، أما التابوت الحجرى الجرانيتى الخاص بالملك فاحتفظ به متحف اللوفر ، واحتفظ بغطاء التابوت فى كامبردج ، أما مومياء الملك فكانت من نصيب المتحف المصرى بالقاهرة .

نهاية الأسرة العشرين

بعد وفاة رمسيس الثالث بدأت سطوة الملك وقوته تنهار بسرعة فائقة ، وتولى عرش مصر من بعده ثمانية ملوك تسموا جميعا باسم رمسيس (من الرابع الى الحادى عشر) ، وحكموا فترة ثمانين عاما ، وبقيت عاصمة البلاد فى شرق الدلتا (برعمسيس) التى سميت فيما بعد تانيس ، واستمر التقليد القديم فى دفن الملوك فى مقابر وادى الملوك بطيبة وأعدت لكل من هؤلاء الملوك مقبرة متسعة مزينة بالنقوش والمناظر هناك ، وكما مضى عصر هؤلاء الملوك دون حدوث ما يسترعى النظر تاريخيا فانهم لم يخلفوا وراءهم آثارا تستحق الذكر ، وتضاءلت أملاك مصر خارج حدودها بحيث فقدت كل مناطق فلسطين .

وتشابه كل هؤلاء الملوك الرعامسة فى ضعفهم وفى خضوعهم لسلطان الكهنة ، وفى عجزهم عن التغلب على الأزمة الاقتصادية التى بدأت تطحن البلاد ، كما تشابهوا أيضا فى عدم استطاعتهم وقف الفوضى والانحلال فى جميع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة .

وعاش هؤلاء الملوك فى قصورهم فى شرقى الدلتا تاركين ادارة شمال البلاد للوزير فى منف ، وكان هناك وزير آخر فى طيبة ورغم

ذلك فقد كانت السلطة الحقيقية في يد كهنة آمون ، . كما بقيت مدينة العمال في دير المدينة على عمرانها وأمدتنا وثائقها من البردي أو الأوستراكا بالقبس الذي ينير لنا جزءا من الطريق في هذا العصر المظلم تاريخيا وحضاريا .

ولم يكن الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو الإصلاح ، لذا فلم نسمع عن أحد منهم خبرا اللهم اشارات عابرة مثل التي تحدثت بها بردية هاريس عن أعمال رمسيس الرابع وما قام به من اصلاحات وانشاءات في المعابد ، أو تلك التي صورت تصميم مقبرته والمحفوظة بمتحف تورين ، الا أن أهم ما جاء من عهده هو تلك البرديات التي تفيض بأنباء الفوضى والانحلال في البلاد ، والسرققات والرشاوى في إيرادات الدولة على السواء ، وتلاه رمسيس الخامس فلم يكن خيرا من سلفه ، وأهم ما وصل إلينا من عهده بردية ولبور الشهيرة التي نعتبرها مصدرا مهما لدراسة الضرائب وتقسيم الأراضي في ذلك العهد بوجه خاص وفي عصر الدولة الحديثة بوجه عام ، وتلاه رمسيس السادس الذي حكم أربع سنوات فقط ورغم ذلك فقد ترك اسمه في أنحاء البلاد من الشمال الى شمالي السودان ، وتلاه كل من رمسيس السابع فالثامن فالتاسع وكانت أيامهم جميعا أياما سوداء في تاريخ مصر ، وان كان رمسيس التاسع أشهرهم فان ذلك بسبب برديات سرقات المقابر الملكية في عهده ، وكان ذلك نهاية ما يمكن الوصول إليه من اضطراب الأمور .

وخلف رمسيس التاسع بعد حكم طال ثمانية عشر عاما رمسيس آخر ، وهو العاشر في قائمة الرعامسة ، ثم تلاه رمسيس الحادي عشر الذي طالت أيامه على غير العادة في نهاية هذه الأسرة حتى وصلت الى ثلاثين عاما على عرش البلاد ، وحاول الرجل أن يقوم بنهضة

ما في البلاد ، وربما كان من أوحى اليه بها هم كهنة آمون ، وبدأت هذه النهضة في السنة التاسعة عشرة من حكمه لكنها لم تدم أكثر من تسع سنوات اذ أننا نجد في نهايتها أن حريحور كبير الكهنة قد أصبح ملكا على مصر .

وبوفاة رمسيس الحادى عشر انقسمت البلاد الى دولتين احدهما تجمعت حول العاصمة الشمالية تانيس حيث حكم سمندس ، والثانية في العاصمة الجنوبية طيبة حيث حكم حريحور وكان ذلك ايداننا ببداية عصر جديد وأسرة جديدة هي الأسرة الحادية والعشرون ؛

الأسرة الحادية والعشرون

بدأت هذه الأسرة ولايتها لمصر عقب وفاة رمسيس الحادى عشر ، ومن عجب أن مصر أصبحت تحكم من عاصمتين منفصلتين طيبة فى الجنوب بزعامه كهان آمون من خلفاء حريحور واعتمدوا فى تدعيم سلطتهم على مكانة طيبة العريقة ، وعلى سلطان آمون القاهر ، وتانىس فى الشمال كانت تسيطر على مصر الوسطى والدلتا وحكم فيها سمندىس ، وأعتبر ملوكها أنفسهم الورثة الشرعيين للأسرة العشرين بحكم قرابتهم أو مصاهرتهم لها ، وذلك طبقاً للرأى القائل بأن سمندىس بعد ولايته للعرش قد تزوج من « موت نجمت » إحدى الأميرات الملكيات من بيت الرعامسة ، وساند ملوك هذه الأسرة حكمهم بشراء كانوا يحصلون عليه من تجارة مصر الخارجية ، ولعل من الغريب أن نعرف أن العلاقات بين شقى الوادى كانت ودية تعاونية .

وتتكون هذه الأسرة طبقاً لرأى مانيتون من سبعة ملوك حكموا من تانىس التى لم تكن موطناً أصلياً لهم ، وقد جاء ذكر خمسة منهم على الآثار أما السادس فيجده العلماء صعوبة فى توحيدهم مع نظيره على الآثار .

وقد طال عهد نس بانب جده (سمندىس) بعد وفاة رمسيس الحادى عشر ٢٦ عاماً ، ثم تتابع بعده الملوك : آمون منيسو لفترة

٣٠٥

(م ٢٠ - تاريخ مصر القديم)

٤ سنوات ، وباسبا نخع هنى (بسوسينس الأول) وطال حكمه
٤٦ أو ٤٨ عاما ، وأمنوبه (امنمؤبى) وقد شارك سلفه عامين ثم
استقل بالعرش نحو ٩ سنوات ، وأسوخوز الذى اشترك مع
سلفه ثلاث سنين تم انفراد بالحكم ست سنوات ، وسا آمون لفترة
١٧ أو ١٩ عاما ، وباسبا نخع هنى الثانى (بسوسينس الثانى)
٢٤ عاما ، وذلك مع بعض الشك فى أسبقية الملك الثالث فى قائمة
هؤلاء الملوك للملك الثانى منهم ، مع ملاحظة حرصهم للانتساب
لآمون رب طيبة ضمن اسمائهم .

وفى سبيل تحقيق الوفاق مع سلطات طيبة الدينية ، ومن أجل
تزكية امتداد نفوذهم فيها فى الوقت نفسه زوج بعض أولئك الملوك
بناتهم لكبار كهنة آمون الذين تتابع منهم بعد حريحور وولده
بى عنخ ستة أو سبعة وهم : بى نجم الأول ، وماساخرتا ، وحج
خنسف عنخ ، ومن خبر رع ، ونس بانجد (سمنس الثانى) ،
وبى نجم الثانى ، وباسبا نخع سنو (بسوسينس الثالث) .

وعلى الرغم من المعروف من انحلال هذا العصر وتدهور كل
شئ فيه ، فان الأشياء التى عثر عليها وبخاصة الحلى الذهبية
قد أثبتت أن الذوق الفنى والمهارة فى صناعة الحلى لم تتدهور كثيرا
فى مصر ، كما أن كميات الذهب والفضة التى دفنت مع هؤلاء
الملوك تثبت غناهم الكبير ، ويكفى لزائر المتحف المصرى أن يدخل
قاعة تانيس ويرى ما عثر عليه فى هذه المقابر ليقف على الكثير
مما يذهله ويحمله على الاعجاب بها .

الباب الرابع

العصور المتأخرة

٩٤٥ - ٣٣٢ ق م

أ . د . محمد إبراهيم بكر

الأسرة الثانية والعشرون

بدأت بعد انهيار عصر الأسرة الحادية والعشرين عصور امتدت من النصف الثاني للقرن العاشر ق.م حتى نهاية التاريخ الفرعوني ، وجرى الاصطلاح على تسميتها باسم العصور المتأخرة ، المتأخرة من حيث الزمن أساسا ، ومن حيث الحضارة ضمنا .

وبدأت هذه العصور بداية اضطرابية بعهد حكام ذوى أصول مهجنة لم يكونوا أغرابا تماما عن مصر ، ولم يفتحوا البلاد عنوة ، وإنما كانوا من قبائل خليطة من أهل الواحات والصحراء الغربية الأقدمين (التحنو ، والتمحو) ، وفئات من شعوب (أمثال المشاوش ، الشردانة ، الأقوش ، التورشيا ، الربو ٠٠ الخ) الذين أسلفنا أنهم نزلوا السواحل الغربية والليبية وعجزوا عن دخول مصر بالقوة أكثر من مرة ، فاكتفوا بالتسلل اليها مرتزقة رقى جيشها أحيانا ومدنيين برعاة وتجارا ورقيقا أحيانا أخرى ، واستقرت قبائلهم على حوافها الزراعية وفى واحاتها وجول حصونها الحدودية منذ أواخر عهد رمسيس الثالث ، ثم ما لبثوا أن تمصروا اختيارا أو خضوعا للأمر الواقع (خلال فترات أسرهم) ودانوا بدين المصريين وعبدوا أربابهم ، فاطمان الفراعنة اليهم ووزعهم فى حاميات متفرقة وأقطعهم أراضى زراعية واسعة كمرتببات دائمة ، ومع كل ذلك فلم ينس المصريون لهم أصولهم الأجنبية بسهولة .

وقد جرت أغلب المؤلفات الحديثة على تسمية العناصر الحاكمة في هذه الأسر ومالاتلاها حتى الأسرة الرابعة والعشرين بالليبيين ، الا أن وصفهم بالمهجنين أصبح لعدة أسباب :

أولها - أنهم لم يكونوا من عنصر واحد تصدق عليهم تسمية واحدة .

ثانيا - غلبت عليهم سمات المشاوش وقلت فيهم سمة الربو أو الليبيين .

وذلك على الرغم من الاعتراف بأن أسماء ملوك هذه الأسرة امثال شاشانق ، وأوسركون ، أو ثكرتى وما اليها هي أسماء ذات جرس غريب عن الأسماء المصرية المألوفة وتصعب ترجمة مدلولاتها ، الا أن كلا منهم قد جرى في صياغة ألقابه الملكية الأربعة الأخرى على نسق الطابع المصرى الموروث .

واستمرت عهود الحكام ذوى الأصول المهجنة أكثر من قرنين من الزمان تناسوا فيها أصلهم الغريب نوعا ، واعتبروا أنفسهم فراعنة مصريين ودانوا بديانة مصر ، ثم حاربوا باسمها خارج حدودها ، وحاولوا أن يستعيدوا لها بعض سمعتها الدولية القديمة ، لذلك لم يعتبرهم التاريخ أغربا بقدر ما اعتبرهم متمصرين . ومغتصبين ، ولم يؤثروا في الروح المصرية بقدر ما تأثروا بها ، ولم يمنع اغتصابهم لعرش البلاد من أن يظهر بينهم حكام مصلحون ، ولم تمنعهم أصولهم المهجنة من الاخلاص لسمعة مصر واستقلالها ولم يرض أهل البلاد بحكمهم بقدر ما قبلوه على مضض ومرارة .

وقد رتب كتشن ملوك هذه الأسرة على النحو التالي :

شاشانق الأول ، وأوسركون الأول ، وتكلوت الأول ، وأوسركون الثانى ، وتكلوت الثانى ، وشاشانق الثالث ، وبمبباى وشاشانق الخامس ، وأوسركون الرابع .

واتخذ ملوك هذه الأسرة عاصمتهم في شرق الدلتا في مدينة
تل بسطة الحالية بالقرب من الزقازيق الحالية .

وهكذا نجد أن شاشانق الأول مؤسس هذه الأسرة لم يجد
صعوبة في الاستيلاء على الملك في الشمال ، وان لم يرحب كهنة
آمون في طيبة بهذا التغيير الذي وجدوا فيه تهديدا لمركزهم وثروتهم،
ولم يمض وقت غير طويل حتى حدث الصدام بينهما ، ففر الكثير
من هؤلاء الكهنة الى السودان واستقروا بها مؤسسين أسرة هناك ،
كما نفى بعض منهم الى الواحات الخارجية ، وأخذ شاشانق الأول
بعد ذلك يوطد من سلطته ويصلح ما استطاع من الاصلاح لتوحيد
البلاد وتنقية ادارتها من نفوذ كهنة آمون ، وبعد أن استقرت له
الأحوال الداخلية أخذ الملك يحاول استعادة فلسطين للحكم المصري
وورد ذكر لهذه الحملة التي أرسلها الملك في السنة الخامسة من
حكمه الى فلسطين مكتوبا الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك
الأول من العهد القديم ، ومن هذا النص القصير نعرف أن الملك
الذي كان يحكم في اورشليم هو رحبعام من يهوذا كان معاصرا
لشاشانق الأول ، ويبدو أن هدف هذه الحملة لم يزد على السلب
والنهب على نطاق واسع ، وذلك ملء خزائن مصر التي كانت
خاوية ، أما شاشانق الأول فقد سجل انتصاراته في حملة فلسطين
على أحد حوائط الكرنك ، وأخذ يعدد في هذا النص أسماء المدن التي
احتلها مغاليا في ذلك كل المغالاة ، وعلى كل حال يعتبر هذا النص
الأخير من نوعه الذي يسجل لنا انتصارات تاريخية ، ولو أنه لم
يبرز هذا الانتصار العسكري في لوحات واسعة المدى كتلك التي
عرفناها في عصر الرعامسة ، ويبدو أن هذه الحملة قد وصلت
في زحقتها الى مناطق تبعد عن فلسطين شمالا اذ عشر على بعض الآثار
لملوك هذه الأسرة في جبلين ، وهي المدينة التي تفنن أميرها في
اذلال ون آمون مبعوث مصر في الأسرة الحادية والعشرين ، وأغلب
الظن ان هذه الآثار قد وصلت الى هناك كهدايا ملكية .

وأقام شاشانق الأول مدخلا إلى فناء المعبد الرئيسي في الكرنك مستمرا إلى غرب الجدار الجنوبي لبهو الأعمدة الكبير ، وهكذا حصرت البوابة البوباسطية كما تسمى عادة بين الصرح الثاني ومعبد رمسيس الثالث في طريق البهو الأول الذي كان شاشانق الأول قد صممه منذ البداية والذي لم يقدر له أن يتمه .

ولم يهمل شاشانق الأول وظيفة رئيس كهنة آمون فعين فيها ابنه ابوت فكان كاهنا أعظم وحمل في الوقت نفسه لقب « الرئيس العظيم لما » أو « رئيس الجيوش الكبير » وظل ابوت في هذا المنصب طيلة أيام حكم أبيه فلما مات شاشانق الأول بعد أن حكم واحدا وعشرين عاما خلفه على العرش ابنه أوسركون ، فكان أول أعماله وضع ابنه - الذي كان شاشانق أيضا - في هذا المنصب لأنه خاف من أخيه لئلا يترتب على وجوده ووجود أبنائه على عرش كهنة طيبة أسرة أخرى كهنوتية تنافسه في حكم البلاد .

وهكذا غدت وظيفة كبير كهنة آمون من نصيب ابن الملك أما وظيفة الكاهن الثاني فكان يحتفظ بها الأبناء الأمراء أو الأحاد أزواج الأميرات ، بينما خصصت وظيفتا الكاهن الثالث والرابع لأبناء الأسرة النبيلة التي تنتمي لسلالة المشاوش ، وهكذا ارتبطت الكهانة بالملكية حتى وصلت الأمور في أخريات أيام الأسرة إلى مرحلة تعقدت الأمور فيها حتى بات من الصعب التفرقة بين العاملين لارتباط الواحد منهما بالآخر ، كما كان كبير كهنة آمون يحمل كذلك لقب « رئيس الجيش » ، « الرئيس الأعظم » وزاد ابوت بن شاشانق الأول على ذلك لقب « الذي على رأس الجيش العظيم للجنوب كله » وأضافت المصادر المتأخرة إلى ذلك لقب « حاكم مصر العليا » .

وكعادة الحكام ذوي الأصل الخليط فقد أظهر ملوك العصر اهتماما مفرطا بالدين ومعابده وأربابه ، وخصصت أغلب عمائرهم

الدينية لاله الدولة آمون شأنهم في ذلك شأن سابقهم ، غير أن ذلك كله لم يمنع طيبة من الثورات ضد أولئك المتسيطرين الجدد بين كل حين وآخر ، فقد ثار أهلها عدة مرات في عهد أوسركون الكاهن الأكبر ابن الملك تكلوت الثاني الذي سجلت باسمه نصوص كثيرة على البوابة البوباسطية ، ثم في عهد ابنه شاشانق الثالث ، واشتد الملوك في اخماد ثورات طيبة حرصا على مصالحتهم وهيبة سلطانهم فيها ، بحيث ألقوا بعض زعمائها في النار أحيانا .

ولما طال الأمد بالحكام ذوى الأصل المهجن وتشعبت أسرهم ومصالحتهم ، تفرقت وحدتهم ، وانتهى الأمر بأن ادعى الملك فيهم ثلاثة بيوتات ، بيتان مالكان في شرق الدلتا في تانيس وتل بسطة ، وبيت ثالث في سايس (صان الحجر على فرع رشيد بغرب الدلتا) ، هذا فضلا عن عدد من الأمراء الاقطاعيين في مصر الوسطى والصعيد .

الأسرة الثالثة والعشرون

انقسمت مصر على نفسها من أثر الثورات المتتالية التي أسلفنا ذكرها وضعفت سلطة الملوك وضاعت هيبة الكهان وقويت سلطة أمراء الأقاليم إذ أخذ كل منهم يقوى نفسه خشية من سطوة جاره ، أو طمعا في توسيع رقعة ملكه ، ولهذا لم يجد « بادي باست » الذي اعتبره مانيثون رأس هذه الأسرة كثيرا من المقاومة عندما أراد خلق عائلة مالكة جديدة ، ويظهر أن بادي باست قد حكم جزءا كبيرا من غربى الدلتا (صان الحجر) وحصل على معونة كهنة طيبة بينما ظل كهنة منف على ولأنهم للمبيت المالك القديم الذين ظل لهم النفوذ على شرقى الدلتا ومصر الوسطى .

وعلى أية حال فاننا نعرف تماما أن الأسرة الثانية والعشرين ظلت على العرش لمدة سبعة وأربعين عاما بعد ظهور بادي باست ، ويظهر أن البيتين المالكين تقاطلا في البداية ثم اصطلحا فيما بينهما ، وقبل كل منهما الأمر الواقع وصار في مصر أسرتان ملكيتان تحكمان في وقت واحد ، وان لم يكن الأى من هذين البيتين حكم كامل على البلاد التى يحكمها أمراؤها ، إذ أن هؤلاء الأمراء كانوا يعيشون شبه مستقلين وكان لكل منهم جيشه الخاص وبلاطه .

وإذا رجعنا الى عرش كهنة طيبة فاننا نرى أن الكاهن حورسا ايسى قد أصبح له الحق هو الآخر في كتابة اسمه داخل خانة ملكية ، وقبل أن ينتهي حكم بادى باست انتهت أيام حورسا ايسى في طيبة وخلفه على العرش الكهنوتي شخص آخر يسمى تكلوت ، أرخ بعض آثاره بالسنة السادسة من حكم شاشانق الرابع الذى يلوح أنه قد جاء بعد الملك بادى باست ثم جاء بعد ذلك أوسركون الثالث وغيرهما .

والواقع أن تاريخ مصر وتوالى الأحداث فيها في هذه الفترة غامض ومرتبك ، وبالرغم من حفائر صان الحجر فانه ما زال ينقصنا الكثير من المعلومات لنستطيع تحديد تولى الملوك في كل من الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أو تحديد الصلة بينهما أو بين أحد هذين الفرعين الحاكمين وكهنة آمون .

وقد رتب كتشن ملوك هذه الأسرة على النحو التالى :

بادى باست ، وابوت الأول ، وشاشانق الرابع ، وأوسركون الثالث ، ونكلوت الثالث ، ورود آمون ، وابوت الثانى ، وشاشانق السادس ،

وقد ترك ملوك هذه الأسرة بعض الآثار في مصر العليا وبخاصة طيبة ، وامتاز عصر أوسركون الثالث بحادثين مهمين أولهما حدوث فيضان عال جدا في الأقصر حطم الرصيف الأمامى وتدفقت المياه الى معبد الأقصر واتلفت كثيرا فيه فأمر الملك بترميم ما تهدم وبناء رصيف آخر أما ثانى الحادثين فهو أن الملك أوسركون الثالث لم يتبع ما اتبعه آباؤه من قبل بوضع أحد أبنائهم كبيرا لكهنة آمون ، بل زاد على ذلك أن وضع ابنته « شب آن أوبت » في

هذه المكانة الكهنوتية باسم (زوجة آمون الالهية) أو (الزوجة
أو الحرم المقدس لآمون) ، ولم يمض غير قليل حتى زاد نفوذ
الزوجات الالهيات لآمون وغطى على نفوذ كبار الكهنة وكانت
« شب آن أوبت » أولى سلسلة هذه السيدات اللاتي استمر
نفوذهن لمدة قرنين من الزمان .

ومن طرائف التاريخ أن مانيثون قد ذكر ملك ذكره باسم
بادى باست الذى اعتبره رأس هذه الأسرة أنه قد عاصر أول
أولبياد عرفها الاغريق حوالي عام ٧٧٦ ق.م .

الأسرة الرابعة والعشرون

وصلت الحالة الداخلية في البلاد الى الحضيض ، ولم يقتصر الأمر على وجود بيتين مالكين فقط بل ادعى آخرون الملك ، فلما توفي شاشانق الخامس ادعى أكثر من أمير من الأمراء أنه أحق بالملك وأعلن استيلاءه على العرش الى جانب الفرع القديم في تل بسطة ، وكان أهم هؤلاء جميعا أمير مدينة (صان الحجر) في غربى الدلتا ، الذى أسس بيتا مالكا جديدا وهو الأسرة الرابعة والعشرون ، وكان هذا الأمير يسمى « نف نخت » الذى وجد أن هناك ملكا آخر يناافسه في أهناسيا وآخر في الأشمونين وثالثا في تل بسطة ورابعا في تانيس . . الخ ، ولكن رغم كل ذلك فقد بقيت طيبة على شيء من الهدوء النسبى يحكمها كهنتها .

وامتازت نف نخت عن غيره من الأمراء جميعا بالكثير من القوة والطموح ولهذا أراد أن يكون لقبه الذى وضعه أمام اسمه حقيقة واقعة وصمم على إعادة وحدة البلاد الى ما كانت عليه وأن تكون مصر بأسرها مملكة واحدة كما كانت من قبل في أوج عظمتها .

وتيسر لنتف نخت اخضاع جميع أقاليم غربى الدلتا ثم ثنى بشرقى الدلتا حتى تم له اخضاع الدلتا بأكملها ، ووجه عنايته بعد ذلك الى مصر الوسطى ولكن الأمور كانت تسير سيرا آخر

اذ أن الحسالة السيئة التي دفعت بتف نخت الى انقاذ مصر دفعت أيضا غيره للتقدم لانقاذها ، ولم يكن هذا المنقذ الا الملك بيعنخي الذي تقدم من شمالي السودان لتخليص البلاد مما وصلت اليه من فوضى ، وهكذا قدر لجيوش بيعنخي أن تصطدم بجيوش تف نخت ثم بجيوش ابنه « باك ان رنف » وانتهى الصراع لصالح جيوش الجنوب وتأسيس أسرة جديدة هي الخامسة والعشرون .

والغريب حقا أن مانيثون لم يذكر شيئا عن تف نخت بل انه ذكر لنا من ملوك هذه الأسرة ملكا واحدا يدعى بوخوريس حكم لست سنوات وأغلب الظن أن هذا الملك هو الذي أخبرنا عنه مانيثون بأنه ظهر اسمه على إحدى لوحات سرايوم منف باسم « باك آن رنف » ، وهي اللوحة التي سجلت دفن أحد العجول في عامه السادس ومن المرجح أنها السنة الأخيرة من حكمه ، أما الأثار فتؤكد أن رأس الأسرة هو نف نخت ونخيفته هو « باك آن رنف » .

الأسرة الخامسة والعشرون الاثيوبية (النوبية)

سبق ان ذكرنا عند الحديث عن الأسرة الثانية والعشرين أن كهنة آمون قد هاجروا ابتداء من عصر هذه الأسرة الى بلاد كوش ، وأخذوا يتجمعون في مملكة مستقلة ، واتخذوا من نباتا عاصمة لهم .

وخلال عصور حكم الأسرات ذات الأصول المهجنة (٢٢ - ٢٤) تطورت الأمور في نباتا ، وخاصة بالقرب من الجبل المقدس (جبل برقل) حيث تكونت مملكة متحدة قوية اعتنق ملوكها الديانة المصرية ، وشيّدوا فوق جبلهم المقدس معبدا لآمون زينت جدرانها بمناظر لا تختلف في شيء عن المناظر في المعابد المصرية .

ومنذ هاجرت العناصر المصرية واستقرت في بلاد النوبة ، اندمجت بالتأكيد مع السكان السودانيين ، لذلك فان بيعنخي الذي كان يحكم هذه المملكة السالفة الذكر عند نباتا كان يحكم شعبا من أصل نوبي وسوداني نقي ، ولهذا فقد أطلق العلماء على الأسرة التي أسسها بيعنخي اسم الأسرة الأثيوبية ، وهو ان كان لا يدين بأي شيء على الاطلاق لمصر فانه قد طبق في بلاطه كل نظم الحكم الفرعوني .

بيعنخي :

كان بيعنخي على درجة كبيرة من الثقافة ، وكان جيشه يماثل الجيش المصري في فترات عصر الدولة الحديثة ، وكان بين قواته بعض القوات الزنجية ، وقد أثرى نتيجة لاستغلاله مناجم الذهب في الصحراء الجنوبية الشرقية ، وبفضل تجارته مع مصر التي جلبت عليه الرخاء الكبير وطبعت حياة مجتمعه بالطابع المصري .

وبعد أن حكم بيعنخي لمدة عشرين عاما في نباتا ، فإنه في العام الحادي والعشرين من حكمه بدأ يتدخل في شؤون مصر ، وكانت الظروف متاحة له كي يوسع نفوذه ولكي يظهر بمظهر المنقذ لطيبة مدينة آمون رع المقدسة .

وكان تف نخت رأس الأسرة الرابعة والعشرين قد شرع في لم شمل ممالك الشمال وضم الي صفوفه هرموبوليس وهيراكليوبوليس ، وبعد أن قويت شوكته بما ناله من تأييد وتعظيم بدأ يستولي على الجنوب ، ولكن سرعان ما تدخل بيعنخي وهزم هذه القوات المتحالفة وسرد لنا هذه المعارك على لوحة يصعبه آمون بحبل برقل ، صورت نصوصها بيعنخي كأنه الفرعون المصري الحاكم دون منازع .

وعاود تف نخت جمع ملوك وأمراء الشمال تحت قيادته ثائية وتركهم بيعنخي يزحفون حتى استولوا على هيراكليوبوليس وهنا أمر فيلقه المرابط بطيبة بالتصدي لهم عند الاقليم الخامس عشر ، كما أرسل التعزيزات العسكرية ، وحاصرت الفصائل النوبية (الأثيوبية) القوات المتحالفة وأجبرتها على خوض المعركة وبعد هزيمتهم لجأ رجال تف نخت الي هرمويوليس التي ضرب حولها الحصار من قبل قوات بيعنخي الذي توجه بنفسه في ذلك

الوقت الى مسرح العمليات ، ولم يكن في عجلة من الأمر ، فتوقف لبعض الوقت للاحتفال بالعام الجديد وبعيد أوبت في الكرنك ، وكان هدفه من الزيارة مزدوجا : اذ أراد أن يعلن على الملأ اعتراف آمون به ملكا ، كما استهدف اضعاف القوات المحاصرة باطالة مدة الحصار المضروب حولها ، واستسلمت المدينة للملك الظافر كما استسلم الملوك والأمراء المتحالفون .

ثم تقدم ببعنخي نحو الشمال واستولى دون مقاومة على القلعة التي شيدها أوسركون الأول لمراقبة مدخل الفيوم كما استسلمت ميدوم واللشت كما حاصر منف واستولى عليها واتجه بعد ذلك الى هليوبوليس وأقام الشعائر الخاصة برع ثم أعاد مراسم تتويجه ، وحتى تكتمل صورة الاحتفال الذي أخذ مظهر اليوبيل حضر أوسركون الرابع ملك تانيس معلنا الولاء للملك الجديد ، كما جاء أمير أتريب ليضع أملاكه تحت تصرف ببعنخي اقرارا بتبعيته له وحذا حذوه باقي الزعماء المتحالفين عدا تف نخت الذي فر من منف الى شمال الدلتا ليعيد تنظيم قواته .

ثم عاد ببعنخي الى نباتا مفضلا الا يحكم البلاد شخصيا ، ربما لأنه اعتبر نباتا عاصمته الحقيقية ، أو لأنه أدرك فائدة التقسيم السياسي للبلاد فحافظ عليه بكل عناية واكتفى بالاشراف عامة وبالاشراف الفعلى على طيبة والدروب الغربية حتى الواحة الداخلة بصفة خاصة ، ونجحت هذه السياسة في مصر الوسطى بالشكل الذي رسمه ببعنخي ، وخاصة في هرموبوليس وهيراكليوبوليس وعلى الرغم من ذلك فان ببعنخي لم يتردد في تأكيد دوره كموحد لمصر على سطوح المنشآت التي شيدها أو زخرفها ، فهو حورس سيماتاوى الذى وحد الأرضين ، الذى تم تتويجه في طيبة ، وكان يعلن انتسابه الى الملكين العظيمين تحتمس الثالث ورمسيس الثانى .

وامتثلت طيبة لسيطرته تماما. ، فتولت شين أويت الأولى ،
وأمنارديس الأولى معا قيادة كهنة آمون .

أما في الشمال فقد ظلت فاعلية سياسته هذه محدودة بشكل
واضح .

وكان نجم آشور قد صعد ولاح في سماء الشرق الأدنى القديم
كقوة لا يمكن الاستهانة بها ، وضم ديارها تيجلات بيلاصر الثالث
دمشق وغزا إسرائيل واجتاح أراضيها وخضع له هوشع الذي اعتلى
عرش السامرة قبل وقت قصير ، وكان هذا الخضوع ظاهريا فقط
اذ أجرى اتصالات مع « سو - ملك مصر » حسبما ذكر سفر الملوك
(١٧ : ٤) واتفق أغلب العلماء أن هذا الملك هو اختصار لاسم
أوسركون وليس تف نخت .

وجاء الاستيلاء الآشوري على السامرة ليحقق انقلابا في
التحالفات الدولية آنذاك ، فوثق المصريون روابطهم مع « اليلستي »
وأصبح أعداء الأمم حلفاء اليوم ، ولعلمهم كانوا أفضل من يتصدى
للتهديد الآشوري . الذي أخذ يقترب من مصر أكثر فأكثر ، وتتوالى
الأحداث ويتولى سرجون الثاني التصدي للتحالفات الدولية ضد
آشور ، وفي هذه الأثناء حرض ملك حماة سكان دمشق على التمرد ،
وثار ملك غزة بمساعدة فرقة عسكرية مصرية ولكن الآشوريين
ظلوا سادة الموقف وضموا حماة الى امبراطوريتهم بصفة نهائية
واجتاحوا غزة ورفح .

وتدخلت آشور في الأردن مرة أخرى واستطاعت الوصول
الى العريش ، ولم يعد يفصلها عن حدود مصر الشرقية سوى
« سيللا » وهنا انتهج « أوسركون الرابع » نهجا دبلوماسيا جديدا
اذ قدم لسرجون الثاني هدية عبارة عن اثني عشر جوادا من خيرة
جياذ مصر ليأمن جانبه .

وفي نفس هذا العام توفي بيعنخي بعد حكم طويل دام واحدا
وثلاثين عاما على عرش نباتا ومصر ، ودفن بهرمه الذي أقامه لنفسه
في جبانة « الكرو » ، وعلى مقربة منه دفنت خمس من ملكاته واثنتان
من بناته .

وكانت فكرة العودة الى الهرم كدفنة ملكية متفقة مع محاولة
العودة للأصول القديمة ، وان بقيت أهرام نباتا بعيدة عن النماذج
الأصلية في منف .

شيباكا :

بعد وفاة بيعنخي اعتلى أخوه شيباكا عرش البلاد وقرر أن
يباشر شئون الحكم في وادي النيل ، فوصل الى منف في السنة
الثانية من حكمه ، وسار على نفس الخط الذي استهله بيعنخي
بالعودة الى القيم التقليدية القديمة ، وظهر ذلك واضحا في ألقابه
التي اتخذها عند تتويجه ، ومنذ البداية حرص شيباكا على أن ينهى
حكم « باك ان رنف » ، وتأمينه واحكام سيطرته على الواحات
والصحراء الغربية ، ولعله قد نصب حاكما أنيوبيا (نوبيا) على
سايس ، كما فرض هيمنته الكاملة على شئون الشمال .

وخلال هذه الأحداث ثارت إحدى المدن الفلسطينية على
آشور ، فأرسل سرجون الثاني قواته لاستعادة المدينة ، ونجحت
قواته في ذلك ، ولكن عمدة المدينة تمكن من الهروب ولجأ الى
مصر ، وهنا تروى المصادر الآشورية : « أن فرعون مصر التي
أصبحت تابعة لكوش قد سلم المتمرد مكبلا في السلاسل والأصفاد
والأربطة الحديدية » .

وأغلب الظن أن الفرعون المقصود هنا هو شيباكا الذي كان
حريصا أغلب الظن على تجنب المجازفة بالدخول في مواجهة أكبر

من قدراته مع سرجون الثانى ، ولعله قد حاول بذلك الوصول الى
اتفاقية أو معاهدة عدم اعتداء بينهما .

وكان شيباكا رجلا شامدا التقوى والورع حتى انه كان يأبى
عادة الحكم بالاعدام على المتهمين ، وقد عبر عن اهتمام نشط
بالآلهة فى أتريب ومنف ودندرة واسنا وادفو ، كما بدأ حكمه
بترميم مقبرة العجل أبيس فى منف ، أما طيبة فكانت محور اهتمامه
فأجرى توسعات بمعبد الأسرة الثامنة عشرة فى مدينة هابو ، وفى
الكرنك أقام ما يعرف اصطلاحا « بكنز شيباكا » الواقع بين الآخ
مينو والسيور الشمالى لحرم ال « ايت سوت » .

ولم يكتف شيباكا بنشاطه الانشائى فى طيبة بل رد الاعتبار
الى منصب كبير كهنة آمون بعد أن طواه النسيان ، وعين ابنه
« حور ام آخت » فى هذا المنصب الذى احتفظ بالسلطة الروحية
فقط فى حين احتفظت بالسلطة الدنيوية « عابدة الاله » أو « الزوجة
الآلية لآمون » التى كانت تشغلها زوجته أمنارديس الأولى .

وتوفى شيباكا بعد أن حكم خمسة عشر عاما ودفن مثل أخيه
فى الكرو .

شيباكا :

بعد وفاة شيباكا تولى عرش مصر ولدا بيعنخى شيباكا ثم
طهرقا ، وجلس الأول منهما على العرش بعد أن شارك عمه
شيباكا فى الحكم مدة سنتين ، وبذلك تصبح مدة حكمه حوالى اثنى
عشر عاما اتصفت فى مجملها بعدم الاستقرار لعدم استطاعته توحيد
البلاد من جديد باستمرار الصراع فى الدلتا ، فضلا عن اختياره
خطا متشددا فى سياسته الخارجية تجاه آشور التى اتسمت

مواقفه معها بالعدوانية ، وقد ساعدته الظروف نسبيا في التشجيع على الثورة ضد آشور في فلسطين ، وقد استجاب شبتاكا الى طلب المساعدة الذي تقدم به حزقيا الذي كان حاكما على مملكة يهوذا ، وأرسل حملة عسكرية بقيادة أخيه طهرقا بينما كان الملك الآشوري « سنحريب » يزحف على عسقلان ، ولكن طهرقا انسحب بجيشه وعاد الى مصر خوفا على رجاله الذين وجد أنهم ليسوا من القدرة والكفاءة للصمود أمام الآشوريين ، كما انسحب جيش سنحريب ولم يواصل تقدمه الى مصر لتفشي الوباء بين جنوده .

واصل شبتاكا الأعمال التي بدأها عمه في منف والأقصر والكرنك حيث شيد هيكلًا جنوب البحيرة المقدسة ، وفي عهده تبنت أمنارديس الأولى ابنتهما شين أوبت الثانية في أعقاب وفاة شين أوبت الأولى .

طهرقا :

تولى العرش في أعقاب وفاة شبتاكا شقيقه طهرقا ، وخلفا لما كان عليه سلفه لم يشاركه في الحكم قبل وفاته ، وكان يبلغ من العمر حينذاك خمسة وأربعين عاما ، ودام حكمه ستة وعشرين عاما ، بلغت مصر خلالها أزهى ما عرفت من ازدهار طوال عصر هذه الأسرة .

كان طهرقا متمصرا كلية فهو لم يترك مصر منذ بلوغه سن العشرين ، ومنذ البداية اتخذ من شروق الدلتا مقرا لحكمه ، وذلك بعد أن أدرك أنه لا يمكن مراقبة التهديد الآشوري من عاصمته البعيدة في الجنوب ، وقد حكم طهرقا أثناء الخمسة عشر عاما الأولى من حكمه في سلام تام قام خلالها بعدة أعمال معمارية مهمة في تانيس ومنف وطيبة ، ولعل أهمها جميعا هو ذلك البهو

الضخم من الأعمدة الذى أقيم وسط الفناء الكبير الأول بالكرنك ، كما نجده قد خرج عن التقاليد السابقة ولم يترك على الإطلاق كل السلطة فى الجنوب لكهنة آمون ، ولكنه جعل السلطة الدينية فى يد العابدة الإلهية ، وجعل السلطة السياسية أو الفعلية فى يد أمير طيبة وحاكم الجنوب « منتومحات » .

وعلى الجانب الآشورى نرى أن « أسرحدون » الذى تولى بعد سنحريب بعد أن توصل إلى توازن نسبى على جميع الجبهات المشتعلة ضده فى آسيا وفلسطين استطاع أن يتفرغ لمصر التى كانت بمثابة المحرض الأكبر على الثورات ضده ، ووقعت المجابهة بين الطرفين فى العام السابع عشر من حكم طهرقا ، ولكن الآشوريين اضطروا إلى التقهقر أمام ضغط المصريين ، ولكن سرعان ما اشتبك الطرفان قبل أن تمر ثلاث سنوات ، ودارت الدائرة لصالح أسرحدون هذه المرة ، فهزم طهرقا واستولى على منف وأسر ولى العهد والعديد من أفراد البيت المالک ، وانسحب طهرقا إلى الجنوب الذى ظل مسيطرا عليه على ما يبدو ، وقدم الآشوريون كل تعضيد لمنافسيه الشماليين وعلى رأسهم الصاويون من أهل سايس .

وتوفى أسرحدون وتولى من بعده ولده آشور بانيبال الذى أرسل حملة عسكرية هزمت طهرقا عند منف وفر إلى طيبة .

وأخيرا جمع الملك الآشورى قواته وأنصاره وتوغلوا فى أقاصى الصعيد دون أن ينجحوا فى القبض على طهرقا الذى فر هاربا إلى مملكته فى نباتا ، وسيطرت آشور على الوجه القبلى ودان الموظفون لها بالولاء أمثال منتومحات وامتد سلطانهم إلى أسوان على الأرجح .

واستحال على الآشوريين البقاء في بلد يعتمدون فيه على عملاء من أبناء الوطن المحتل فعادوا لبلادهم ، وهنا بدأ ملوك الشمال يفاوضون طهرقا فاعتقل منهم آشور بانيبال من اعتقل وأعدم من أعدم ، ولم يبق الا على حياة واحد منهم هو « تكاو الأول » ملك سايس ، وأقام على رأس مملكة أتريب القديمة ابنه بسمتك الأول ، وهكذا تيسر للصاويين الوصول لحكم مصر بمساعدة الغزاة المحتلين وبرضاهم .

وفي العام التالي لهذه الأحداث توفي طهرقا ودفن بمقبرته في نباتا ، وكان قد أشرك معه قبل وفاته ابن عمه تانوت آمون، ولعل دافعه الأكبر وراء ذلك كان كامنا في كبر سنه الذي بلغ حوالي السبعين عاما .

تانوت آمون :

توج تانوت آمون كفرعون على كل من نباتا وطيبة ، ولم يتردد في الذهاب للاقامة في طيبة لكي يعاود محاولة لم شمل البلاد من الجنوب الى الشمال .

وبالفعل قام تانوت آمون بشن حملة وصل فيها الى منف فاستولى عليها عنوة وسحق متمردي الشمال ، وأقام الشعائر للآلهة بتاح وبتاح سوكر وسخنمت ، واحتفى بهذا النصر في نباتا .

وكان من الطبيعي أن يتقدم آشور بانيبال لتأديب أعوانه الشماليين الذين أيدوا تانوت آمون ، وبالفعل تقدم بجيشه نحو مصر دون أن يقوم بمعركة فعلية وفر تانوت آمون الى طيبة ولكن آشور بانيبال أراد أن يعاقب عدوه بشدة فتنبعه حتى طيبة واستولى

على المدينة التي نهبها ودمرها وأشعلوا النار فيها وعاثوا فيها
فسادا ، وسطوا على الكنوز التي تراكت في المعابد على امتداد
قرون طويلة بدافع من الورع والتقوى ، وجاء سلب ونهب طيبة
ليضع حدا للسيطرة الأثيوبية التي أضحت مجرد سيطرة نظرية ليس
أكثر ، خاصة بعد أن فر تانوت آمون الى نباتا وبقي بها حتى مات
ودفن في جبانة الكرو ، وهكذا انتهت الأسرة الخامسة والعشرون
وانهارت الا من بقاياها التي ظلت في مملكتهم القديمة نباتا بعيدا
عن مصر شعبا وأرضا .

الأسرة السادسة والعشرون

((الصاوية))

وينسب هذا العصر الى اسم عاصمته « صان الحجر » في غرب الدلتا ، وهي المدينة التي ذكرتها النصوص المصرية القديمة باسم « ساو » ، وعرفها الاغريق باسم « سايس » ، والتي خرجت منها من قبل الأسرة الرابعة والعشرون ، ولما قضى عليها ظل أمراؤها يجاهدون في سبيل كيانهم خلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين ، ثم جامل الفاتح الآشوري زعيمهم نيكاو رغبة في استغلال عداة أسرته التقليدي للبيت النوبى المصرى خصيم الطرفين ، وعندما اختفى شبح تانوت آمون وريث هذا البيت الأخير كان أكبر المستفيدين من فراغ جو السياسة المصرية هو بسماتيك بن نيكاو بعد أن أنس الملك الآشورى اليه كما أنس الى أبيه ، فاستغل هذا الوضع الإضطرابى من أجل يوم لاحق يؤسس فيه دولة ويستعيد فيه لبلده استقلالها وكرامتها .

بسماتيك الأول

ولم تكن مهمة بسماتيك فى إقامة دولته يسيرة سهلة ، ولعله قد مهد لمشروعه هذا بمحاولة تجميع السلطة الداخلية فى يديه على غفلة من الآشوريين ، واستطاع بالفعل أن يسيطر على غرب الدلتا

بأكمله وعلى مملكتي أتريب وهليوبوليس ، واستعان بسماتيك في ذلك بأحلاف من اهناسيا في مصر الوسطى أعانوه بقواتهم البرية والملاحية ، أثابهم بعد ذلك بحكم ثلاثة أقاليم من الصعيد وجعل لهم الاشراف على الملاحة النهرية في الصعيد كله ، وعندما ضعف شأن طيبة بانتهاء حلفها مع نباتا وتدمير الآشوريين لها استفاد بسماتيك من الفراغ القائم فيها ففاوض أميرها منتومحات على أن يبقى له ادارتها المدنية ، كما فاض كبير كاهناتها على أن يدعها في منصبها بشرط أن تتبنى ابنته نيت اقرت (نيتوكريس) ، ونجح في ذلك وضمن لابنته الاشراف الروحي على معابد آمون ، والاشراف المادى على ثروات طيبة ، وجعل لها حاشية كبيرة تشبه حاشيات الملكات وتخبر رؤوسها من رجال الدلتا ، ثم عهد باقليم ادفو وأسوان الى أحد أنصاره ، وبهذه الاجراءات المتتابعة رأى بسماتيك أنه حقق التوازن بين أولياء السلطة في مملكته المرتقبة ، فالصعيد قسم سلطاته بين ثلاث سلطات حاكمة ، والدلتا أغرى بعض كبارها بمناصب في الصعيد ، وابنته أشرفت باسمه على كهنوت آمون وأملاكه .

وكما جرت العادة غالبا ما كان المنعم عليهم يعهد اليهم بوظائف كهنوتية كي يستفيدوا من مخصصاتها ، ويقللوا من تضخم ثرواتها دون أن يشغلوا في الوقت نفسه على ميزانية الدولة بأعباء مالية كبيرة ، فقد استمر بسماتيك في هذا النهج بالنسبة لرجالها وكبار دولته .

وهكذا استطاع بسماتيك أن يحقق التوازن الادارى من وجهة نظره ، واعتقد كذلك أنه يمكنه تحقيق التوازن في الجيش أيضا بالاستعانة بمرتزقة من الاغريق يقفون في مواجهة المجندين والمرتزقة التقليديين من النوبيين والليبيين وغيرهم ، وكان هؤلاء المرتزقة

الاغريق قد أخذوا يعرضون مهاراتهم العسكرية في سوق الشرق الأدنى القديم الذي كانت تمزقه الحروب الداخلية والذي يزخر بالفرص التي لا تعوض ، واتخذ بسماتيك من هؤلاء المرتزقة الاغريق قوة يعضد بها قوته ضد رعاياه المقربين ، فكان لهم الفضل المباشر في اعادة تنظيم القوة العسكرية ضد الآسيويين وتزويد الجيش المصرى بدماء جديدة ، حتى الأسطول المصرى قد أعيد تنظيمه على غرار النظام الاغريقى ، وحتى النظام الاقتصادى الداخلى نفسه للبلاد تعرض للتغيير بسبب قيام المستعمرات اليونانية ، فكانت سياسة الملك تقوم على اقامة علاقات تجارية معهم وتوطيد أواصر الصداقة مع هذه الشعوب ، ولما أصبح المرتزقة الاغريق يمثلون القاعدة الرئيسية فى جيشه أراد أن يمنع أى صدام بينهم وبين القوات المصرية فحدد لهم منطقتين مميزتين لاقامتهن ، احدهما فى شرق الدلتا والأخرى فى أطراف عاصمته سايس ، ولذلك تركزت القوات الاغريقية الرئيسية فى دفنة (تل الدفنة على الفرع الدمياطى للنيل) ، وهكذا نشطت التجارة مع المدن الاغريقية وكان المرتزقة الاغريق يعودون لبلادهم وهم يروجون لفنها وصناعاتها وديانيتها حتى ان الرحالة الاغريق بدأوا يتوافدون على مصر وبدأ الطلبة الاغريق فى الاختلاط فى الجامعات المصرية ، وهكذا نرى أنه عندما بدأت مصر تتخلى عن تقاليدها الموروثة استطاعت أن تتكيف مع مطالب الحياة الجديدة للعالم القديم .

وتطلع بسماتيك بعد ذلك الى الخارج ، وكانت الظروف مواتية ، فقد واصلت آشور نضالا عنيفا حينذاك مع منافستها اللدود عيلام ، كما واصلت انتقاما عنيفا من أختها اللدود بابل وحلفائها ، وواجهت كذلك عدة ثورات فى الشام ، واشتبكت مع دولة ليديا فى آسيا الصغرى ، فحالف بسماتيك « جيجيس » ملك ليديا على أن ينجده أحدهما الآخر حين الحاجة ، وكانت الشقة بعيدة بين الحليفين ولكن

قرب بينهما عداؤهما لآشور ، وعدم خوف أحدهما من أطماع الآخر ، وتقدير الاغريق لمصر على الرغم من النكبات التي حلت بها ، ومعرفة المصريين بالاغريق من قبل تجارا ومرتزقة وملاحين مهرة ، وفي هذه الظروف تخلص بسماتيك وأعوانه من النفوذ الآشوري ، وان كنا لا ندرى للأسف الشديد تفاصيل كفاحهم المسلح ضده ولا كيفية اجلائهم الحاميات الآشورية عن مصر

وتفرغ بسماتيك لتأمين مركزه وبلده ، وسلك في ذلك سبيل السياسة والقوة معا فأثر السلام مع نباتا وأوفد سفارة اليها عادت بالهدايا ، ولم يستمر في عدائه الصريح مع آشور بعد أن خلص بلاده من نفوذها ولعله قد هادئهم وهادئوه حتى يفرغوا من متاعبهم ، فاستفاد من هذه الهدنة وسعى بزجاله لضمان الخطوط الأمامية في فلسطين ، وحدث حينذاك أن وصلت الى جنوب الشام طلائع هجرات السكيثيين (ونهى لجزء من هجرات خرجت من أواسط آسيا وهددت آشور وخربت آسيا الصغرى وتسرب بعضها جنوبا الى فلسطين ، وكانوا غزاة جوا بين غير مستقرين) فاستغلت مصر هذه الصفة فيهم دون أن تستهلك قوتها الحربية معهم فأرضتهم بالعطايا حتى عادوا الى آسيا ، ومضى بسماتيك بعد ذلك حتى أتم فتح مدينة أشدود الحصينة ، وأصبح سيد الموقف في بلاده وعلى حدوده ، بل أكثر من ذلك أن مصر بدأت تمد يد العون للآشوريين في نكباتهم المتلاحقة أمام البابليين والمآذيين دفعا لخطر هذين الأخيرين على الوضع القائم في الشرق الأدنى .

طال عهد بسماتيك أربعة وخمسين عاما شغلت أغلبها فرحة التحرر من الغزو الآشوري واستعادة وحدة البلاد وعودة الأمن لأراضيها ، فاشتدت الإشادة بالقومية وبعراقة الأصول ، وسار بسماتيك قدما في الطريق الذي بدأه الأثيوبيون بتأكيد الشكل

القومي لنزعة العودة الى يناييع الدولة القديمة والوسطى ، وذلك ابرازا للتصميم الرافض للاحتلال الآشورى وتزايد وجود العناصر الأجنبية التي لم تعش دائما في صفاء وود مع المصريين خلال هذا العصر .

وفي ظل التأثير الواضح للصاويين لم تعد النبرة العليا لطيبة في الفن واللاهوت هي السائدة في المجتمع ، بل سادت التقاليد المنفية بعد العودة اليها واحيائها فقلد الفنانون أفضل النماذج لفن النحت في الأسرتين الرابعة والخامسة ، وكذلك في فن النقش والتصوير ، وأبقى الكتاب على اللغة الكلاسيكية في النصوص الرسمية وتأثرت بصيغ وألقاب الدولة القديمة ، أما الديموطيقية التي سُمعت كخط شعبي وحلت محل الهيروغليفية فقد انحسر استخدامها في مصر العليا واقتصرت على الكتابات غير الأدبية .

وأبقى بسماتيك المقر الملكي وجبانة البيت المالک في مدينة سايس ، الا أنه نقل العاصمة الى منف فاستردت بذلك دورها كمركز سياسي واداري ، ولن ننسى أنها احتفظت الى حد ما على مر الزمان بمركز الصدارة في شئون اللاهوت .

وعلى الرغم من جهود بسماتيك في اصلاح ما خربه الآشوريون في معابد طيبة ، فان المدينة لم تحظ بأى حال من الأحوال بشيء مما كان لها من قبل ، وكان نصيب مدن الوجه البحرى ومعابده وآلهته من تجديدات العصر اكثر من نصيب الصعيد بأكمله ، وذلك بحكم وجود عاصمة الدولة فيه ، ونشطت الاشادة بأربابه ولا سيما نيت ربة سايس ، وبتاح رب منف ، ورمزه الحيوانى أبيس .

وتوسع بسماتيك في سرايوم منف ، وطغت سمعة هؤلاء الأرباب على أرباب الصعيد ، خلا آمون الذي احتفظ بمكان الصدارة كاله للدولة .

ويعتبر هذا العصر دون جدال عصر ازدهار ورخاء وظلت مصر دولة قوية يعتد بها ، الا أنها لم تعتمد في ذلك على قوتها وازدهارها بمواردها الخاصة بقدر ما اعتمدت واستغلت أقول نجم آشور لاثبات وجودها بين بلدان الشرق الأدنى لحين ظهور قوة جديدة تبدد ما استردته من طموحات .

وبقى لعصر بسماتيك الأول أن يفخر بحده من تضخم ثراء الاقطاعيين الجدد من مدنيين ودينيين وكانت هذه سنة استئنها وأتبعها خلفاؤه من بعده وهي الايحاء الى كبار أولئك الاقطاعيين بالتبرع بجانب من ثرواتهم العقارية للمعابد التي تحتضنها الدولة ، وكان هؤلاء الملوك قد اشعروا الاقطاعيين المتبرعين بأن حكومتهم لا تبتغي أن تقاسمهم ثرواتهم لصالحها الخاص وانما لصالح الأرباب .

ويعاب على بسماتيك ظنه بتحقيق التوازن في جيشه بالاستعانة بالمرتزقة الاغريق أصحاب العزائم الجديدة التي لا يخشى من استغلالها نوضعهم في جيشه ، وكأنه أراد بذلك تزويد جيشه بدماء جديدة بعد أن استرخت همم المجندين والمرتزقة الليبيين والنوبيين وأمثالهم واستنموا الى أراضيهم الزراعية ومرتباتهم التي خصصتها الدولة لهم ولكنه أخطأ التقدير وعالج الخطأ بخطأ آخر واتخذ من خطئه الجديد حرسا خاصا وحاميات للحدود كما أسلفنا الذكر .

على أنه كان من حسن الطالع أن توافد في أعقاب هؤلاء المرتزقة التجار الاغريق الذين عملوا لحسابهم حينما ووسطاء بين مصر وبلادهم حينما آخر ، ويذكر لبسماتيك أنه أوصى بتكوين طائفة من التراجمة لتيسير التفاهم بين الوافدين الاغريق وهيئات الجيش والبلاط والتجارة فضلا عن أغراض الزيارة ، وكان نواتها عددا مختارا من الشبان المصريين النابهين ليكونوا مرآة لمصر في وجه الزائرين الأعراب /

نيكاو الثانى :

مات بسماتيك تاركا لابنه نيكاو الثانى مهمة استكمال ما بدأه من أعمال وحافظ نيكاو الثانى على التزامات مصر تجاه ما تبقى من مملكة آشور الشرعية ، فخرج نيكاو الثانى بجيشه الى فلسطين وسلك طريقه دون معارضة تذكر ، وعندما اعترضه حاكم اورشليم اليهودى يوشيا أنذره بالحسنى ولكنه لم يتعظ ففتك به عند مجدو ، ثم تابع مسيرته الى شمال سوريا ، وأحرز نجاحا ضد البابليين على ضفاف الفرات قرب قرقيش ، وبهذا استعاد الاشراف المصرى على أجزاء واسعة من الهلال الخصيب ، وعاقب نيكاو الثانى اورشليم مرة أخرى فعزل حاكمها وعين غيره يهويواقيم ليكون تابعه ، وألزمه بدفع الجزية .

ولكن المقادير بدأت تسلك وجهة أخرى منذ عهد الملك البابلى « نابوبولاسر » الذى عهد بجيشه الى ولده وولى عهده نبوخذ نصر ، وكان كفتا لمواجهة الأزمة من وجهة النظر البابلية ، الا أن نيكاو الثانى تجاهل هذه الحقيقة وركبه الغرور ، فترك المبادرة وتوقف بجيشه طويلا عند نهر الكلب ليسجل له رجاله أخبار نصره وآيات تمجيده فكانت فرصة لولى العهد البابلى دعم فيها جيشه وتأخير موضع معركته فتيسر له النصر عند قرقيش ، وحينئذ تخلى نيكاو الثانى عن شمال سوريا كارها واحتفظ بجنوبها لوقت غير طويل ، اذ تابع نبوخذ نصر مسيرته بعد وفاة والده واقاراه للأمور فتابع طريقه بجيشه الى فلسطين حيث أعلن له يهويواقيم اليهودى الطاعة ، وكان آخر ما استطاع نيكاو الثانى تحقيقه هو صده لهجوم شنته القوات البابلية على حدوده الشرقية ونجح فى الاستيلاء على غزة ، التى لم يتجاوز المصريون حدودها حتى نهاية عهده .

وتجملت سياسة مصر الحربية في بقية عهد نيكاو الثاني سواء نتيجة لعقد معاهدة عدم اعتداء بينه وبين بابل ، أو لاثمام عملية مصاعرة بينهما وهو ما لم يتأكد بعد ، أو نتيجة لانشغال نيكاو الثاني بحدوده الجنوبية ، أو لرغبته في الاتجاه لاحراز سيادة بحرية لأغراض التجارة وأغراض الحرب وحماية السواحل معا .

وواصل نيكاو الثاني سياسة الانفتاح على العالم الاغريقي ، وحاول بناء أسطول مصرى يمكن أن ينافس به خصومه في البحر المتوسط وفي البحر الأحمر على حد سواء ، ويذكر له محاولة ربط الدلتا بالبحر الأحمر بطريق مائى ، وذلك بشق قناة تجرى من فرع الدلتا البوبسطلى القديم حتى البحر قرب الاسماعيلية الحالية ، وأسس نيكاو الثاني مدينة جديدة لتكون بمثابة مركز لعبور القوافل وكانت تقع عند تل المسخوطة حاليا .

وهكذا تمكن الرجل من بناء أسطول طيب لمصر ولكنه ورغم ذلك لم يمكنه من منافسة أساطيل خصومه منافسة حقيقية ، ولكنه فتح الطريق أمام الملاحين الفينيقيين الذين حضروا بناء على طلبه للقيام برحلاتهم الافريقية التى ظلت أهم انجازات عصره وكان الغرض منها الكشف والمعرفة واظهار المهارة وفتح أسواق جديدة للتجارة فى آن واحد .

وخلف نيكاو الثاني عند وفاته ابنا ذكرا وثلاث بنات ، وتربع الابن على عرش مصر خلفا لوالده .

بسماتيك الثانى :

ترك نيكاو الثانى العرش لابنه بسماتيك الثانى الذى لم يدم حكمه ، ولا نكاد نعلم عن مدة حكمه التى لم تزد على السبب السنوات

ألا بالقليل ، وكانت توش تتبع سياسة أكثر حذرا ، ولكن يبدو أن الظروف قد ساءت بالشكل الذى دعا بسماتيك الثانى لايفاد حملة اشترك فيها مع المصريين جماعة من الاغريق والكيريين والليبيين وربما اليهود كذلك ، وعبرت الحملة النوبة العليا والشلال الثانى ووصلوا الى نباتا ، وربما تتبعوا العدو حتى الشلال الرابع وسجلت أخبار هذه الحملة على لوحتين عشر عليهما فى تانيس والكرنك ، وأغلب الظن أن هذه الحملة قد عادت بخيرات كثيرة على مصر سمحت لفرعونها بكثير من الانعامات على أعضائها وبمزيد من الانشاءات الدينية .

والغريب حقا أنه بعد هذه الحملة قد سادت موجة لازالة ملوك الأسرة الخامسة والعشرين (الأسرة الأثيوبية) من على سطوح العمائر والمنشآت ، وكأن بسماتيك الثانى قد أراد بفعلته هذه أن يلغى ذكرى هؤلاء الملوك ويمحو أى أثر لخصوم أسرته القدامى الذين ناصبوها العداة من قبل .

وكان البحث عن العظمة على رأس اهتمامات بسماتيك الثانى الذى كان ذا نشاط موفور يبرر حبه لمقارنة نفسه بجده العظيم .

وفى عهده خرجت بعثة حبية من مصر الى سوريا صاحبها عدد من الكهنة اختيروا من معابد مختلفة ، ومن طريف ما سجله كهنة آمون بهذه المناسبة أنهم أجمعوا رأيهم على كاهن منهم يدعى بادى ايسه وقالوا له : « لقد اخترت للذهاب الى بلاد خارو مع الفرعون وما من أحد فى هذه المدينة يمكن أن يقوم بهذا عداك ، وراع أنك كاتب دار الحياة وما من شىء تسأل عنه لن تجد له الجواب الملائم » . وظلت مصر على سياستها الشمالية السلمية تستقبل اللائذين بها من أهل الشام ومن اليهود الفارين من وجه البابليين .

ويذكر لبسماتيك الثاني أنه طلب من عابدة الاله « نيت
اقرت » ، أن تتبنى ابنته التي أنجبها من الملكة « تاخوت » واسمها
« عنخ نس نفر ايب رع » ، وبالفعل حلت محل نيت اقرت وظلت
تشغل هذا المنصب حتى الغزو الفارسي .

واح ايب رع « ابريس » :

توفي بسماتيك الثاني تاركا لولده واح ايب رع (ابريس عند
الاغريق) أن يواجه الموقف الناشئ عن ثورة صدقيا في اورشليم ،
وكانت مصر وفينيقيا مشاركتين فيها ، فزحف نبوخذ نصر الثاني
على اورشليم وضرب الحصار حولها لمدة سنتين ، واستولى على
صيदा ليضمن سيطرته على فينيقيا ، ولكنه فشل في الاستيلاء على
مدينة صور التي ظل ابريس يمدّها بالمؤن عن طريق البحر ليثبت
جدوى وأهمية أسطوله الجديد الذي سمح لصور بالصمود ، وكان
المصريون أقل توفيقا في المعارك البرية ، اذ حاولوا أن يقدموا يد
العون لصدقيا ولكنهم اضطروا للانسحاب ، وسقطت اورشليم بعد
ذلك وألقى القبض على صدقيا الذي شهد تنفيذ حكم الاعدام في
ابنه اجبارا ، ثم أرسل الى الأسر بعد أن فقئت عيناه ، ولم يقنع
حزب الحرب بالهزيمة فقام أنصار ارميا باغتيال الحاكم البابلي
الذي عينه الملك الظافر ثم ولوا هاربين مع زعيمهم الى مصر قبل
أن تجهز أعمال القمع والتنكيل .

ولم يكده ابريس ينتهي من هذه الحرب حتى ثارت حامية
الفنتين فور بلوغها نبأ هزيمة الجيش المصري أمام نبوخذ نصر
الثاني ، واستطاع القائد « نسي حور » أن يسحق التمرد .

ونشب صراع مرير بين القبائل الليبية الممتدة حتى تونس
الحالية وجماعة من الاغريق الذين استعمروا برقة وما حولها

استعمارا تجاريا تحول الى استعمار سياسى أصبحوا به سادة
البلد ، واتخذوا من مدينة قورنية عاصمة لهم ، وشيئا فشيئا ازدادت
أعدادهم بالمهاجرين ، وازداد ضدهم في الوقت نفسه ضيق الليبيين
لمنافستهم لهم في أرزاقهم وأرضهم وتعاليتهم عليهم ، وطلب هؤلاء
الآخرون عون مصر فأعانتهم عسكريا ، ولكن جيشها وقع في كمين ولم
يعد منه غير القليل ، فثار المواطنون ضد ابريس في مصر واتهموه
بأنه دبر هذه الحملة للتخلص من المصريين في الجيش حتى يزداد
تسلطا على بلدهم ، وأنه أسرف في احتضان الاغريق على حسابهم ،
وكان لكل من الاتهامين نصيب من الصحة .

ولعل مما ازاد التذمر ضده ضيق الكهنة في عهده من
اسرافه في منح مناصب المعابد لموظفيه المدنيين .

وندى ابريس قائده المصرى أحمس ، للتفاوض مع الثوار ،
ولكنهم اجتذبوه الى صفوفهم ، وعهدوا اليه بزعامتهم ، فهاجم
بهم ملكه ابريس وأنصاره ، وأسرره ويبدو أنه أجبره على اشراكه
في الحكم معه ، ولكن تجدد القتال بينهما وقتل ابريس على أيدي
الثوار أو اغتيل بأيدي أعوانه ، ودفن في سايس داخل سور معبد
الالهة نيت ، بعد أن حكم حوالي تسعة عشر عاما .

أحمس الثانى (أمازيس) :

تولى أحمس الثانى السلطة بتعصيب من القوى الوطنية
ومؤازرتها ، وكانت مشكلة الاغريق مع المصريين كبيرة للغاية ، ردها
هيروودوت الى اختلاف العقائد بين الطرفين ، وردها غيره من
المحدثين الى اختلاف حضارتي الفريقين ، والى اختلاف نظرة كل
منهما فى الأخذ بأمور النظافة المادية والمعنوية (وروى هيروودوت فى
ذلك كيف ان المصريين كانوا يأنفون من تقبيل الاغريق أو أستعمال

أذواتهم الخاصة ، كما أبدى عجبهم من اسراف المتدينين المصريين في نظافتهم) ، ولكل هذا صحته بطبيعة الحال ، ولكن دون استبعاد العامل القوي في القضية ، وتقدير مرارة المصريين من انتقال مقاليد الحرب والاقتصاد في بلدهم الى أيدي دخلاء يسهل تقبلهم على الرحب والسعة ان كانوا قلة أو رضوا بالقليل ، ولكن الاغريق غدوا كثرة ينعمون بالكثير ويتبادلون النفع والانتفاع مع الحكام ، ولا سبيل الى استهلاك تقاليدهم الاغريقية في المحيط المصري بسهولة ، وكان على أحمرس الثاني أن يحل المشكلة بعد أن ولته مصر عرشها ، وكان أميل الى السلم والسياسة ، مرحا ذكيا ساخرا محبا للشراب يميل الى الدعابة الشعبية على عادة أغلب المصريين . فجمع هؤلاء الاغريق الأجانب في مدينة نقرطيس ، جنوب شرق الموقع الذي أقيمت عليه مدينة الاسكندرية فيما بعد ، ومنح هؤلاء المستوطنين مزايا اقتصادية وتجارية ذات شأن ، فأقر للمدينة بحق اقامة وكالاتها التجارية ، وأماكن للعبادة ليمارس فيها السكان شعائرهم الخاصة ، وأزدهرت منطقة نقرطيس بأسرها وأسهمت في رخاء البلاد بأكملها ، وقد بلغ هذا الازدهار شأوا عظيما في أيام حكمه ، واستمر أحمرس الثاني في توثيق علاقات الود بالاغريق الخارجيين ، فعقد حلفا مع قرنيه ، وذكر هيرودوت أنه تزوج منها ، وتزوج من كريتيه ، وهادى المعابد الاغريقية ، واعتبره المؤرخون الاغريق أكثر الملوك الصاويين حنكة وحصافة ، كما أشادوا بنجاحه في تحقيق السلم الداخلي بين المصريين والاغريق في ظروف عسيرة ودون التضحية بمصالح اقتصادية أو عسكرية .

ويذكر الأحمرس الثاني أنه قد استن قانونا بفرض ضريبة على الكسب للحد من البطالة والتواكل بين الشعب .

على أية حال فإن روح السلام وحب الأمن الداخلى عند
أحمس الثانى كلاهما لم يوقف طموحه ، ولم تمنعه مجاملة الاغريق
من منافستهم فى البحر المتوسط فاستولى على جزيرة قبرص .

وعقدت مصر سلسلة من المعاهدات اتقاء للخطر الفارسى
المرتقب ، فتحالف أحمس الثانى مع كرويسوس ملك ليديا العظيم ،
وبوليكراتيس طاغية ساموس ، وثمة فرض باحتمال امتداد الحلف
الى اسبرطة وبابل أيضا .

وبدأ قورش ملك الفرس بليديا التى انهارت بسرعة ، ولكنه
لم يستطع أن يتغلب على حلفائها من المصريين ، وعقب قورش ببابل
فابتلعها ، وآثرت ساموس الخضوع ، وتبعها الفينيقيون ، وبقيت
مصر وحدها .

وقبل أن يتجه الغول الفارسى اليها توفى أحمس الثانى بعد
حكم دام أربعة وأربعين عاما ، ففقدت مصر به ركنا له كفايته
وله شعبيته .

بسماتيك الثالث :

خلف أحمس الثانى على عرش مصر ولده بسماتيك الثالث
الذى توج فى الوقت المناسب لكى يحاول أن يوقف الغزو المرتقب
الذى لا يمكن تجنبه بقيادة قمبيز خليفة قورش .

ترك أحمس الثانى لولده بسماتيك الثالث بلدا يفيض بالرخاء
والخير ، ولكن كانت المخاطر تلوح فى الأفق ، فبعد وقت طويل
من توليه العرش هاجمه قمبيز ، وخانه المرتزقة الاغريق ، وهزم
الجيش المصرى فى بلوزيوم ، ولجأ الملك الى منف على الرغم من

مقاومة المصريين بقوة ، وولى بسماتيك الأديبار بما تبقى له من قوات قبل أن يقع في الأسر ويرسل الى سنوسة مكبلا بالأغلال ، في حين يعتقد البعض الآخر أنه حكم عليه بالاعدام ، وهكذا توج قمبيز ملكا على مصر وخضع له الليبيون وأهل برقة وأصبحت مصر مقاطعة فارسية كما خضع غيرها من أمم الشرق القديم ، وسوف تنتفض مصر مرات عديدة سعيا وراء الاستقلال ، ولكن هذه الانتفاضات لن تعدو أن تكون فسحة من الوقت بين تسلط قوة غازية وأخرى •

الأسرة السابعة والعشرون

تحددت مقادير الشرق القديم بمولد الدولة الفارسية في منتصف القرن السادس ق.م ، وهي دولة أراد زعمائها أن يثبتوا لمواطنيهم بعقليتهم القبليّة الجبليّة أنهم يفوقون أسلافهم ذوى الميراث الحضارى الطويل من عيلاميين وماذيين ، قوة واقتدارا في الداخل والخارج معا ، وصمموا على بسط نفوذهم في الاتجاهات الأربعة ، مستغلين فتوتهم وشيخوخة جيرانهم ، فخرجوا بحملات مسعورة ، ولكنها منظمة وقوية ، تحت قيادة ملكهم قورش ، حتى بلغوا آسيا الصغرى واكتسحوا دولة ليديا ، ثم طووا بابل ذات الثراث المجيد ، وأدركوا بعد ذلك سهولة اخضاع العالم المحيط بهم ، والذي مزقته المنافسات والحروب المتصلة لحكومة عالمية واحدة ، هي حكومتهم بطبيعة الحال ، ومات زعيمهم قورش قبل أن يحقق حلمه بفتح مصر ، وتولى تحقيق هذا الأمل ولده قمبيز .

وعندما بدأ قمبيز مشروعته لغزو مصر من حدودها الشمالية الشرقية. عاونته الظروف ، فاستسلمت له بلاد الشام بدويلاتها الكثيرة ، ووضعت فينيقيا أسطولها الكبير تحت طاعته ، وتخلت قبرص عن التعاون مع مصر ، في الوقت الذي فقدت فيه مصر ملكها المحنك أحمس الثانى وخلفه على عرشها ملك سيىء الطالع هو بسماثيك الثالث ، وكان من كبار قادة جيشه قائد من المرتزقة

الاغريق خانة وهرب الى قمبيز وقاد له جيشه عبر مسالك الصحراء المؤدية اليها مستعينا في ذلك بالبدو ، المعارضين التقليديين ، وكذلك بمن كانوا فيها من اليهود الذين اعتبروا أباه قورش مسيحيهم المنتظر بعد أن فك أسر اليهود المنفيين في بابل وما حولها ، وأعادهم الى اورشليم وعمرها من أجلهم ، فكانوا لذلك على استعداد لتذليل أي صعاب في سبيله ، ورغم هذه الظروف قاومت مصر جهد الاستطاعة وخاضت بقيادة ملكها التعميس بسماتيك الثالث معركة عنيفة ضد الفرس في الفرما (بلوزيوم) على الحدود الشمالية الشرقية ، ولكن كل ذلك لم يغن عنه شيئا أمام الطوفان الفارسي الذي امتاز بكثرة عدده وحسن تنظيمه ، فضلا عن تمرسه على فنون القتال .

واستمرت المعركة من الفجر حتى الغروب ، وانكسر جناح المصريين عند الغروب ، وحمل الملك بعيدا ، وتراجع المصريون الى منف ، وتقدم قمبيز داخل الدلتا وأحكم الحصار حول هليوبوليس حتى استسلمت ، وقاوم بسماتيك بجيشه ولكن قمبيز تبعه ودارت معركة أخرى انتهت بسقوط منف ، ووقع بسماتيك أسيرا في أيدي الفرس الذين سخروا منه في البداية ، ولكن قمبيز أفرج عنه بعد ذلك ومنحه ما يستحق من توقيير يتفق ومركزه الملكي ، غير أن الملك المصري لم يكن يرضى الهوان ، فأعلن الثورة حين أخلى سبيله ، واختلفت الآراء حول مصيره ، فهناك من قال ان قمبيز قتله ، وقال آخرون انه بقي أسيرا في بلاد الفرس ، كما أن هناك من قال ان بسماتيك قد أنهى حياته بنفسه ، أما سايس عاصمة الأسرة السادسة والعشرين فهناك رواية تذهب الى أن قبطان البحر « وجاحررسنت » قد سهل أمر الاستيلاء عليها .

على أية حال فان اختفاء بسماتيك الثالث من مسرح الأحداث قد قضى على الشعور المتأجج في مدن الدلتا ضد الفرس ، أما الصعيد

فلم يقبل أبناؤه الذين لم يكتب عليهم حتى هذه المرحلة هوان المنذلة
فلم يعترفوا بسُلطان الفرس عليهم .

وبلغ من تقدير قمبيز لضخامة البلد الذي سيطر عليه أن
أقام في مصر ثلاث سنوات صحبها في بدايتها ما يتأتى عادة من
الغزاة من تخريب ونهب وهصادرات وغرامات ، ولم تسلم المعابد
من كل ذلك فخرب أغلبها وأنقصت مخصصاتها الى النصف وعسكر
فيها جنود الاحتلال ، ثم هدأت عاصفة الغزاة وتفتحت أمام قمبيز
في مصر آمال جديدة في الغرب والجنوب ، فاتجه الى طيبة ومن
هناك استطاع أن يصل الى الواحة الخارجة ويستولى عليها ،
وخطط قمبيز لثلاثة مشروعات بعد ذلك فشلت جميعها ، فمهد لغزو
قرطاجة الفينيقية الاصل ذات الشهرة التجارية ، وأراد أن يستعين
بالأسطول الفينيقى على فتحها ، ولكنه لم يجد الاخلاص والاستجابة
من أبناء عمومته الفينيقيين .

وأرسل قمبيز حملة الى سيوة مقر آمون ووجه ليتم بها
فتح الواحات ويفتح بها طريقا الى ما بعدها ، فابتلعت حملته
العواصف الرملية الكثيفة . وقاد قمبيز حملة الى نباتا طمعا في
ذهب النوبة وليفتح بها طريقا الى السودان ولكنها فشلت هي
الاخرى بسبب الاهمال في اعدادها وقلة الزاد وصعوبة الطريق
ومقاومة أهل نباتا .

وكان من الطبيعي أن يرى المصريون في هذا الفشل المثلث
انتقاما من السماء ، وأحاطوه بأساطير وجدت آذانا صاغية عند
الاغريق أعداء الفرس ، فروى هيرودوت أن الربيل أصابته لومة من
فشله وأنه عندما رجع من حملة النوبة بخفى حنين يجر أذيال الخيبة
بعد أن فقد الجزء الأكبر من جيشه ، وجد المصريين يحتفلون بمولد
أبيس جديد فظنها فرحة السماتة به فقتل كبارهم ، وطعن أبيس

بخنجره غير أن العجل المقدس لم يلق حتفه ، لأن طعنة اليد المرتعشة لم تصب منه مقتلاً ، ثم أمر بعد ذلك فبعثت القبور وأخرجت جثة الملك أحسن الثاني (أمازيس الصاوى) حبيب قومه واستنزل اللعنات عليها ثم أمر بحرقها ، وامتد عبثه بعد ذلك الى الديانة المصرية نفسها فهدم المعابد وأنقص مخصصاتها الى النصف واتخذ من بعضها مخيماً يقيم فيه جنده مثلما فعل نابليون في العصر الحديث بالأزهر الشريف .

وقيل ان ما اثار حفيظة قمبيز على واحة سيوة هو أن وحي آمون فيها ، كان قد تنبأ بفشله سلفاً ، ثم روى هيرودوت أن الرجل جن ، لا سيما بعد أن بلغه نبأ مؤامرة فارسية للاستيلاء على عرشه ، فسارع بالعودة الى بلده ، وهنا كان لا يزال للانتقام الالهى بقية ، فحدث خلال سفره أن وخر نفسه بسلاحه في فخذه ، وفي نفس الموضع الذى طعن فيه أبيس المقدس فتسهم الجرح وأودى به ، وقد تكون أمثال هذه الأساطير التى تتمسح فى القدر وفى انتقام الآلهة هى حيلة الشعوب المغلوبة على أمرها ولكن الخسارة الحقيقية لقمبيز كانت هى انتقال عرشه من فرعه الى فرع آخر من أسرته .

على أية حال فقد كان قمبيز دون شك ذلك الغاصب الذى احتل أرض الكنانة واستعان فى ذلك بكل الوسائل دنيئها وشريفها لتحقيق أطماعه الاستعمارية فى مصر ، لذا فقد شعر المصريون بارتياح كبير عندما غادر قمبيز بلدهم وعهد بحكم مصر الى « أريانديس » أحد أقربائه الذى استقر فى منف .

دارا الأول :

خلف قمبيز دارا الأول الذى حكم مصر بدون صعوبة ، وقد توج دارا الأول فرعوناً عن طريق التفويض ، وعند مجيئه الى مصر

استقبل بحفاوة كبيرة ، فوصل الى منف واستطاع أن يستميل الشعب اليه ، وذلك بأن سارع فور وصوله الى مصر في تخفيف القيود الصارمة التي كان قد فرضها قمبيز على البلاد من قبل .

ولعله اضطر في بداية حكمه الى ارسال حملة للقضاء على ثورة قامت في برقة « ليبيا » بقيادة واليه على مصر « أريانوس » ، واتهم هذا الأخير بأنه تسبب في كارثة حربية كادت تودي بهيبة الامبراطورية الفارسية بسبب أغراضه الشخصية ، واذا أضفنا الى ذلك اتهام دارا الأول له بالخيانة لقيامه بسك عملة ينافس بها عملة دارا الذهبية ، أو لقيامه بصهر النقود الذهبية المضروبة باسم دارا لبيعها سبائك ، فقد كان من الطبيعي أن يتهمه دارا الأول بعدم الولاء ويأمر باعدامه ، وعلى أية حال فقد كان اعدامه خيرا على مصر وعلى المصريين بعد سنوات عجاف من الظلم والقهر والتعذيب ، وحاول دارا بعدها محاولة كسب ود المصريين ، فضمد الجراح الدفينة ، وأوقف عمليات القهر ، كما حاول أن يمحو من الأذهان قسوة قمبيز وبنطشه فأمر بدفن العجل أبيس على الطريقة التي كان يتبعها الفراعنة من قبل مما جعل المصريين يفتحون له قلوبهم ويقدرون فهمه للأمور .

وتابع دارا الأول استكمال وتنفيذ مشروعات الأسرة الصاوية ولعله الوحيد من بين ملوك الفرس الذي تابع عمليات التشييد في المعابد المصرية ، فاليه ينسب اقامة أو اكمال المعبد الذي أقامه أحمس الثاني لأمون رع في واحة الخارجة ، كما أعطى أوامره بترميم المعابد ، وسار على سنة الفراعنة في اقامة المعابد وارسال البعثات لقطع الأحجار من وادي الحمامات ، وتذكر نقوش الوادي أن مهندسا مصرية كان يدعى « خنوم ايب رع » كان مشرفا على الأعمال في الأرض قاطبة في عهد دارا الأول قد قام بترميم معابد الآلهة

مين ، وجوز ، وايزة في قفط خلال عهد دارا ، فضلا عن معابد آمون موت ، وخونسو في طيبة ، بالإضافة الى معبد نيت في سايس ، هذا وقد شيّد دارا هيكلًا للاله حور في ادفو ، الى جانب عدة آثار له في أبو صير ، وليس من شك في أن هذا كله انما يكشف عن الطريقة المستنيرة التي مارس بها دارا واجباته كملك على مصر ، فهو لم يكن مجرد طاغية تواق للسلطان يرضى بأن يترك شئون ولايته في أيدي ولاته .

وأدرك دارا الأول أن البلد لن تستقر الا في ظل قوانينها الخاصة ، فألغى تنظيمات سلفه المتعسف ، ودعا للعودة الى ما كانت الأمور عليه في ظل التشريع الصاوي ، وأمر باختيار لجنة من حكماء البلاد عسكريين وكهنة وكتبة لجمع التشريعات المصرية المعمول بها حتى العام الرابع والأربعين من حكم أحمس الثاني واعادة تدوينها بكل من الكتابتين المصرية والمسمارية ، وهو عمل خدر الناس به وشغل به أصحابه نحو أربع أو خمس سنوات .

وحاول دارا الأول انعاش الأوضاع الاقتصادية لمصلحته بطبيعة الحال ، فأمر باعادة شق ما طمسه الطمي والرمال من قناة نيكاو المؤدية للبحر الأحمر ، مع نقش النصب التي أشادت بهذا العمل بكل من الهيروغليفية والمسمارية ، وكان من دوافع هذا المشروع تيسير وصول سفن الجزية الى فارس ، والتقليل من النشاط التجاري الملاحي المتجه الى اغريق نقراطيس غرب الدلتا ، ثم اعتبار القناة مرحلة من مراحل استغلال التجارة البحرية مع الهند .

وهكذا كما ذكرنا من قبل فقد ظهرت العملة في مصر مع الفرس ، فسكت عملة ذهبية في عهد دارا الأول ، ونسب الى أول

ولآتهم فى مصر أنه سك عملة من الفضة الخالصة دليلا على
ثرائه .

وبالإضافة الى الكتابة المصرية ، المسماة فقه استخدمت
اللغة الأرامية مع أتباعهم الساميين واليهود ، كما توسع الكتابة
المصرية فى استخدام الخط الديموطيقى المختصر .

وكعادة مصر والبلاد المتحضرة تقهر قاهريها بحضارتها ، فسمى
بعض الفرس المقيمين فى مصر أبناءهم بأسماء مصرية واتجهوا
بدعواتهم للأرباب المصريين .

ولم يخل الأمر من منتفعين من أهل البلد أنفسهم ، ظنوا حسن
السياسة فى التسليم بالأمر الواقع لانقاذ ما يمكن انقاذه بالتقية
والمداواة ، وكان من هؤلاء رجل من سايس يدعى أوجا حور رسنت ،
كان من المشرفين على الأسطول فى نهاية العصر الصاوى ، ثم
ظهر عالما بالدين والتقاليد ، خبيرا بالطب ، مشجعا للثقافات
العالية ، راعيا لاقليمه ، فى بداية العصر الفارسى ، وروى أنه قابل
قمبيز وأطلعه على ما أساء به رجاله الى معابد سايس ، ودعاه الى
تقوى أربابها ، فاستجاب له وزار معبد نيت فيها وركع أمامها . . . ،
ثم كان أكثر نجاحا من وجهة نظره فى عهد دارا الأول الذى استصحبه
معه الى فارس بعد زيارته لمصر ثم أعاده منها بما رد على سايس
اعتبارها وسمح له باصلاح قاعة دار الحياة (المتعلقة بالطب)
بعد أن تخربت ، وكانت دور الحياة أشبه بمعاهد الثقافات العالية
فى مصر القديمة ، وأضاف أنه زود هذه الدار بكل دارسيها من عالية
القوم دون أن يكون بينهم ابن وضيع ، وجعلهم تحت اشراف كل
ذى معرفة حتى يتعلموا منهم فنونهم جميعا ، ثم زودهم بكل نافع
لهم وبكل مهماتهم التى كانت مدونة لهم وفق ما كانوا عليه
من قبل .

وهبت خلال العصر الفارسي أربع ثورات على أقل تقدير ،
ارتبطت أغلبها بمصائر الفرس في نزاعهم الطويل مع الاغريق ،
فبعد هزيمة الفرس في ماراتون أمام الأثينيين ، هبت في مصر أولى
هذه الثورات ، وكان وقعها شديدا على دارا الأول الذي ظن أن
الشرق طوع يمينه .

وتعود الأسباب الحقيقية لهذه الثورة الى أن الهدف الأساسي
من السياسة التي أتبعها دارا كانت تهدف الى انتزاع أكبر ايراد
ممكن من تلك المستعمرة الغنية ، واستغلال الفلاحين في إعادة حفر
القناة ، وتسخير العمال في قطع الأحجار من وادي الحمامات ،
بالإضافة لفداحة الضرائب الباهظة ، فضلا عن ترحيل العمال
المهرة الى المدينة الفارسية « سوسا » .

كما تعددت العوامل التي أدت لهذه الثورة ، وكان منها ضعف
العرش الفارسي من ناحية وظهور قوة الاغريق من ناحية أخرى ،
وانصراف الملك الفارسي الى الانتقام من الاثينيين ، فضلا عن ظهور
القائد الذي يطمئن اليه القوم ويستطيع قيادتهم ، وأخيرا فقد كانت
هزيمة الفرس في ماراتون بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ،
فهبت ثورة عارمة في الدلتا بقيادة « خباش » الذي يرى فيه البعض
الفرعون « سهر ايب رع » ، في حين يرى فيه آخرون أميرا من أمراء
الدلتا ، وسببت الثورة للفرس خسائر كثيرة ، واحتل الثوار منف
وسايس ، وأظهر الاغريق فرحة الشمامسة بالفرس ، وأراد دارا
سحق المصريين والاغريق ولكنه مات قبل أن يفعل ذلك .

اكسركسيس :

وجاء بعد دارا ولده اكسركسيس ووقع عليه عبء اخماد
الثورة المصرية ونجح في ذلك في العام الثاني من حكمه ، وكان عنيفا
أكثر من سلفه قمبيز ، فاشتط في الانتقام والاستغلال ، وهجر

عددا كبيرا من أهل الحرف إلى فارس ، كما فرض على مصر أعداد مائتي سفينة استغلها في قتاله مع الاغريق ، وشدد الحاميات هنا وهناك واستعان فيها باليهود ، ثم عين أخاه واليا على مصر حتى ينفذ سياسته فيها ، ولكن منذ ذلك الحين اهتزت السيطرة الفارسية ولم تكتمل حلقاتها مرة أخرى .

وعندما حم قضاء اكسر كسيس وخلفه أخوه ارتا كسر كسيس هبت ثورة أعنف من سابقتها وتزعّمها أمير مصرى من الدلتا هو ارتن حر ارو بن بسما تيك (أو اناروس كما سماه الاغريق) واتخذ من مريوط مركزا لمقاومته بعيدا بعض الشيء عن حاميات الفرس وتغلب الثوار على جزء من الجيش الفارسى وقتلوا قائده والى مصر وشقيق ملك الفرس وأجبروا بقيته على التراجع الى منف ، ثم خرج زعيم الثورة بالمقاومة من نطاقها الاقليمي فحالف أثينا التى استغلت الفرصة لزيادة وارداتها من الغلال المصرية ، ولمضايقة عدوها الفارسى الذى كان يناهسها فى قبرص فأمدت الثوار بأسطول كبير ، ونجح الحلف فى استرجاع أغلب حصون منف من أيدي الفرس .

ولكن الملك الفارسى جند كل امكانياته لخنق الثورة ، فوجه لهذا الغرض جيشا ضخما ، وأغرى اسبرطة عدوة أثينا اللدود بمقادير كبيرة من الفضة لتشغل أثينا بالحرب وتصرفها عن مساعدة المصريين ، وبالفعل تم له ما أراد وهزم الفرس الأحلاف وأسروا زعيم الثورة ثم أعدموه فى عاصمتهم .

ولكن الثورة المصرية لم تمت وتسلم رايثها أمير سايس آمون حور (أو أمير يتايوس كما سماه الاغريق) أكبر أعوان الزعيم المقتول لبضع سنوات واستدعى بدوره الأثينيين من جديد لمعاونته

وُثِرَتْ سِتُونَ سَفِينَةً مِنْ سَفِينِهِمْ فَعَلَا غَيْرَ أَنْ مَوْتَ الْقَائِدِ الْإِغْرِيْقِيِّ فِي قَبْرِصٍ كَانَ سَبَبًا فِي عَوْدَتِهَا ثُمَّ سَرَعَانَ مَا أَعْلَنْتِ الْهَدَنَةَ وَعَقَدَتْ أَثِينًا مَعَ الْفَرَسِ مَعَاهِدَةً كَالْيَاسِ وَتَنَاسَتْ حَلِيْفَتِهَا مِصْرَ مَا أَضْعَفَ الثُّورَةَ وَإِنْ لَمْ يَقْضِ عَلَيَّ بِذَوْرِهَا .

وَجَرِبَ الْفَرَسُ سِيَاسَةَ الْمَسَالْمَةِ مَعَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَلَكِنْ هَذَا لَمْ يُوْدِ الْغَرَضُ مِنْهُ فَحَاوَلَ أَحَدَ ابْنِي زَعِيمِ الثُّورَةِ (وَهُوَ بِسْمَاتِيكْ أَوْ آمُونَ حُورِ الثَّانِي) اسْتِثْنَاءً النَّضَالَ ، وَفَاوَضَ الْإِثْنِيْنِيْنَ بَعْدَ صَلَاحِهِمُ الْمُؤَقَّتِ مَعَ اسْبِرْطَةَ عَلَيَّ أَنْ يَمْدَهُمْ بِالْغَلَالِ مُقَابِلَ نَجْدَةَ عَسْكَرِيَّةً ، وَيَبْدُو أَنَّ الْغَلَالَ وَصَلَتْ إِلَيَّ أَثِينًا وَلَكِنْ نَجْدَتِهَا لَمْ تَصِلْ إِلَيَّ مِصْرَ .

وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ اغْتِيلَ اِرْتَاكْسِرْكَسِيْسُ فَجَاءَ بِيَدِ أَخِيهِ ، وَتَوَجَّ دَارَا الثَّانِيَّ فَرَعُونًا عَلَيَّ مِصْرَ ، وَلَمْ يَنْجَحْ فِي اعْمَادَةِ الْهَدْوِ النَّسْبِيِّ إِلَّا عِنْدَمَا طَبَقَ سِيَاسَةَ أَكْثَرِ مَرُونَةَ تَجَاهَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَتَجَدَّدَتْ نِيرَانُ الثُّورَةِ الْوِطْنِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ بِزَعَامَةِ آمُونَ حُورِ الثَّانِيِّ وَامْتَدَّ لَهَيْبِهَا إِلَيَّ مِصْرَ كُلِّهَا وَتَكَلَّمْتُ بِالنَّجَاحِ بَعْدَ سِتِّ سِنُوَاتٍ حَيْثُ تَنَسَّمَتْ مِصْرَ الْحَرِيَّةَ وَتَمَتَّعَتْ بِالِاسْتِقْرَارِ النَّسْبِيِّ تَحْتَ حُكْمِ آمُونَ حُورِ الثَّانِيِّ وَتَكُونَتْ الْأُسْرَةُ الثَّامِنَةَ وَالْعِشْرُونَ .

الأسرة الثامنة والعشرون

وهكذا واصل آمون الثانى مقاومته للفرس فى الخفاء ثم جاهر بثورته التى لا ندرى شيئاً عن تفاصيلها الا أنها انتهت بخلوص حكم مصر لأهلها، ومن هنا بدأ المؤرخ مانيتون الأسرة الثامنة والعشرين وقصرها على ملك واحد ، وهو زعيم الثورة آمون حور الثانى الذى استعاد ألقاب الفراعنة ، وتوج ملكاً على مصر بأكملها فى نفس عام وفاة دارا الثانى وساعده على الاستقرار قليلاً انشغال الفرس فى مشكلة وراثة العرش فى أعقاب وفاة دارا الثانى ، ولم يستمر آمون حور الثانى على عرش مصر أكثر من ست سنوات ، ولم يحفظ لنا الزمن أياً من منشأته ، كما أننا لا نكاد نعرف من الناحية العملية شيئاً عن حكمه ، وأغلب الظن أنه قد اتخذ من سايس عاصمة له ، ومات دون أن يخلفه ولده على عرش البلاد ، وبررت بردية ديموطيقية هذا المصير من وجهة نظرها الدينية بأنه قد تجاوز نصوص الشريعة ، ولهذا عاقبه الأرباب بحرمان ولده من عرشه ولم يشفع له عندهم نضاله فى سبيل تحرير بلده ، ولا ندرى هل عنت بمخالفته للشريعة اعتدائه بصورة ما على حرمان الدين والمعابد ، أو أنها عنت بذلك خطيئة أكبر وهى احتمال اتجاهه الى مصانعة الملك الفارسى عدو الأمس الذى بدأ يهدد الاغريق من جديد ؟ وهو اتجاه ان صح فقد كان من وجهة نظر آمون حور

الثانى سياسة لا تضره بعد أن استمتع باستقلاله ، بينما كان من وجهة نظر الوطنيين المتطرفين خيانة استحق من أجلها أن يحرم ولده من عرشه •

وعلى أية حال فقد كان لكل من الجاليتين الكبيرتين فى مصر ، الاغريق واليهود مصير مختلف وسط هذه الأحداث ، أما الاغريق فقد تفتحت أمام تجارهم الأسواق المحلية من جديد وعوضتهم عما خسروه من منافسة قناة نيكاو لتجارتهم فى نقراطيس ، وأما اليهود الذين آوتهم مصر منذ اضطهاد الآشوريين لهم وسمحت لهم بنشاط تجارى وحرية العقيدة فيها فقد كافأوا على ذلك بمعاونتهم للفرس ضدها ، ولما امتدت الثورة المصرية فى مرحلتها الأخيرة للصعيد ادبهم أهل أسوان وكهنة خنوم وخرّبوا معبدهم فأخذوا يصرخون فى رسائلهم الى يهود القدس والسامرة والى ملك فارس ، ولكن لم يهتم بهم أحد من بنى جلدتهم فتفرقوا فى مصر ووسعهم تسامحها •

الأسرة التاسعة والعشرون

وتعاقبت على عرش مصر خلال هذه السنوات أسرتان حاكمتان من شرق الدلتا صحت عزائم أصحاب الشخصيات القوية من ملوكها على النهوض بعد النكسة واستعادة المجد القديم ، ونشأت أولى الأسرتين وهي التاسعة والعشرون في مدينة منديس (تسمى الأמיד وتل الربع شمال شرق السنبلوين) ، ولم تستمر أكثر من عشرين أو واحد وعشرين عاما ، تعاقب فيها أربعة ملوك أو خمسة ، كان أهمهم نايف عاورود الأول ثم ثالث ملوكها هكر .

وقد جرى كل منهما على سنة الأسرة السابقة في التعاون مع العالم الاغريقي لمضايقة الفرس أعداء الطرفين .

ولعلنا نجهل المناصب التي شغلها من قبل مؤسس الأسرة نايف عاورود الأول (نفر تيس الأول) ، وربما كان من القادة العسكريين ، وكانت منديس مسقط رأسه ، ولهذا اعتبر أجداده من الليبيين ، ولا نعرف على وجه التحديد الظروف التي لازمت الانتقال الى أسرة جديدة ، ولا يوجد دليل على انتشار العنف عبر البلاد ، الا من العثور على بردية باللغة الآرامية محفوظة حاليا بمتحف بروكلن ، ويفهم منها أن صراعا مكشوفاً قد اندلع بين مؤسس هذه الأسرة وسلفه ، كان من نتيجته قيام نايف عاورود

الأول باعتقال سلفه أولا ثم اعدامه في منف بعد ذلك ، على أية حال فقد أقام نايف عاصمة البلاد في مسقط رأسه منديس ، ويبدو أن اختيار هذا المكان كان مقبولا ومعقولا ، لاسيما أن حفائر متحف بروكلن قد أثبتت وجود نشاط معماري لنايف عاورود الأول في هذا الموقع ، وذلك على الرغم من عدم العثور على الجبانة الملكية التي يفترض وجودها في هذا المكان بعد .

وربما جرت مراسم تتويجه في منف أو سايس الأسباب السياسية ، مثلما حدث مع مؤسس الأسرة التالية في زمن لاحق .

وقد أعلن نايف عاورود الأول من خلال ما اختاره من القاب عن تصميمه ، شأنه شأن سلفه آهون حور الثاني ، على خطة عمل وطنية تستند الى نشاط ملوك الأسرة الصاوية بهدف الحفاظ على استقلال مصر والدفاع عن حريتها ، وقد حكم نايف طبقا لرواية مانيثون حوالي ست سنوات .

واسنخل الفرس قلقلة انتقال العرش المصري ، وحشدوا جيشا وأسطولا كبيرين في فينيقيا لغزو مصر ، ولكن صرفهم عن اتمام خطتهم مشاكل عرشهم وثورة آسيا الصغرى وجزرها ضدهم ، وخاصة بعد أن أيدهم أسبرطة صاحبة أقوى الجيوش البرية في اليونان ، ورحبت أسبرطة بمحالفة مصر ، وأمدتها مصر بالمال والغلال فضلا عن تجهيز مائة سفينة مقاتلة ولكن هذا المدد الذي تحملته مصر حطمه قائد أثيني كان يخدم الفرس عند رودس ، وبعد سنوات عقدت أسبرطة الصلح مع الفرس وبقيت مصر وحدها ، وهنا اكتفى نايف عاورود الأول بالعناية بشئون مصر الداخلية ، وقد عثر على اسمه منقوشا على بعض الآثار في الكرنك ومنديس وتانيس .

وجاء بعد نايف عاورود الأول بساموتيس الذى لم يدم حكمه
أكثر من عام واحد ، وجاء بعده أخوريس (هكر) الذى محا فترة حكم
سلفه وضمها الى سنى حكمه ، وأدرك أن التحالف مع أسبرطة
عديم الجدوى ، ولبت مصر فى عهده دعوتين أخيرتين لمناوأة الفرس ،
احدهما من أثينا ، والأخرى من افاجوراس ملك قبرص ، فأعانت
هذا الأخير بخمسين سفينة ومدد من الغلال ، وأخذ كل منهما يكافح
الفرس من ناحية ، مصر تكافحهم على حدودها ، وقبرص تكافحهم
فى جزيرتها وعلى سواحل فينيقيا ، وبدأ الفرس بمعاقبة مصر ولكنها
نجحت فى كسر جيوشهم وناضلتهم برجالها وبمرتزقة من الاغريق
كان على رأسهم خابرياس الأثينى ، مرة ثانية ، وطال حكم هكر
الى ثلاثة عشر عاما ، فكان بذلك أطول ملوك هذه الأسرة حكما
فى هذا العصر القلق ، وعللت بردية الأيام الديموطيقية استقراره
النسبى بسخائه على المعابد ، ولكن ما لبث أن تخلى عنه الحظ على
حد قولها لمخالفته الشريعة ولأنه جافى أخوته ، فاكفهر الجو من حوله
وتبعه نايف عاورود الثانى الذى لم يجلس على العرش أكثر من
بضعة شهور انتقل العرش بعدها فى ظروف قلقة الى أسرة جديدة
من سمنود هى الأسرة الثلاثون •

الأسرة الثلاثون

أسس هذه الأسرة نختنبو الأول ، وتعد آخر الأسرات المصرية المستقلة ، وتولى نختنبو الأول عرش مصر بعد أن قضى على نايف عاورود الثاني ، وحكم حوالي ثمانية عشر عاما طبقا لرواية مانيثون ، وكان ينتمي الى عائلة يرجع أصلها الى مدينة سمندس في وسط الدلتا ، وربما كان أصلا أحد أبناء أمراء هذه المدينة ، وقد توج ملكا في سايس ، في معبد الالهة نيت ، ولعله قد استعان بمساعدات المعابد ، وبتأييد كهنة سايس على تدعيم ملكه ، ثم رد لهم الفضل مضاعفا ، فأحال ضريبة العشر المفروضة على منتجات رواردات وصادرات نقراطيس مركز التجارة الاغريقية الى صالح معابد نيت في سايس .

اعتلى نختنبو الأول العرش في الوقت الذي غزا فيه الفرس قبرص ، وكان عليه أن يتيقظ لغدر الفرس بما يمكن الاستعانة بهم ، لولا أن أحلاف الأمم وهم الاغريق أصبحوا يعملون لمن يجزل العطاء لهم ، حتى ضد بعضهم البعض ، وهكذا عوضا عن أن تتعاون أثينا معه خضعت لضغط الفرس ، فاستدعت قائدها خابرياس الذي يعمل بأعوانه في جيشه ، وساهمت في اعداد عشرين ألفا من المرتزقة لمعاونة الفرس ضده ، وكان فوق طاقة مصر أن ترد بسهولة جيوش الفرس والاغريق الغفيرة العدد ، وعندما تحركت هذه القوات

الضخمة ووصلوا الى بلوزيوم أدركوا أن الهجوم من هذه الناحية لا طائل من ورائه ، وأن واحدا من مصبات النيل الأقل تحصنا قد يؤدي الى الهدف المطلوب ، واستقر الرأي على ذلك وأمكن كسر الاستحكامات على الفرع المنديسي ، ثم اندفع العدو بقواته نحو منف ، وفي منف نجح نختنبو الأول في أن يلم شمل قواته وأن يحيط بالغزاة المحاصرين من جميع الجهات والذين كانوا قد فقدوا ثقلهم العسكري في هذه التحركات الفاشلة ، وجاء فيضان النيل حليفا الهيا مسعدا مساعدا فدهمتهم مياهه وأشاعت الفشل فيهم فتراجعوا أمامها وأمام هجمات المصريين .

ونعمت مصر بعد انقشاع الغمة بفترة سلم ، ازدهر فيها الفن وتقدمت التجارة الخارجية ونشط العمران في المعابد من شمال الدلتا الى جزيرة فيلة جنوبي أسوان .

فأقام نختنبو الأول مقصورة للالهة ايزة جنوب جزيرة فيلة ، وفي طيبة فقد أقام بعض البوابات في معبد الالهة ماعت ، ومعبد مونتو في الكرنك ، وأضاف طريق كباش على هيئة أبو الهول الرابض برأس آدمي أمام معبد الأقصر حتى معبد خونسو بالكرنك كما شيد بوابة في الفناء الأول لمعبد هابو ، فضلا عن اقامة معبد صغير في دندرة ، وبوابة في معبد آمون بالخارجة ، وفي الدلتا شيد مقصورة في صفت الحنة ، ومقصورتين للالهة نيت واحدة في دمنهور ، والأخرى في سايس ، كما عثر له على آثار في بهبيت الحجر ، وتل المسخوطة وسمنود ، وأخيرا فهناك من عصره مسلة في تركيا من الجرانيت الأحمر .

وهكذا نجح نختنبو في كسب ود الكهنة وظل يمثل في نظرهم الملك الوفي الورع ، ولكن كل هذه الأعمال كانت فوق طاقة

وقدرة مصر الاقتصادية حينذاك ، خاصة مع عدم وجود جيش قوى
يملك قوة الردع والصمود أمام جحافل الفرس .

وأشرك نختنبو الأول معه في الحكم ولده « جدحر »
أو « تاخوس » كما دعاه الاغريق ، وكان « جدحر » يفيض حماسة
ويقظة ، وكان على غير رأى أبيه في الاغريق اذ أنه أقر ضرورة
التحالف معهم ، خاصة أن المصريين لم يصبحوا بعد أقوياء بالقدر
المناسب لكي يقاوموا الفرس بمفردهم ، فبذل جهدا كبيرا واستعاد
خابرياس الأثيني الى خدمته هو وعشرة آلاف من قومه ، كما
فاوض أجيسيلاوس ملك اسبرطة العجوز على أن يستعين بخبرته ،
فانضم اليه بألف من رجاله ، وكانت مصر قد أسلفت العون له
بمددها الذي غرق عند رودس ، هذا فضلا عن حوالي ثمانين
ألفا من المصريين والليبيين الذين جندهم جدحر ، كما قام باعداد
ما بين مائتين وثلاثمائة سفينة ، وتأهب للخروج بهم عبر الحدود
لضرب جيوش الفرس خارج بلاده ليحرّمهم من خيرات سوريا ومراكز
تجمعاتهم فيها ، ولكن الأمور لم تكن هينة أمامه ، فقد تنافس القائد
الأثيني والملك الاسبرطي على القيادة العليا ، فحل جدحر هذه
المشكلة بأن تولى هو القيادة العليا ، وعهد بقيادة المرتزقة كلهم
الى الاسبرطي العجوز ، كما عهد بقيادة الأسطول الى الأثيني
المغرور ، وان لم يستطع أن ينزع الحقد من قلب أحدهما تجاه
الآخر أو تجاهه هو بالاضافة الى قيامه بوضع ابن أخيه
نختنبو الثانى على رأس الجنود الوطنيين .

ولتموين هذا الجيش الضخم ، ولارضاء المرتزقة الذين أبوا ان
يتسلموا أجورا عينيه كالعادة ، ففي مقابل دفع أجورهم بالنقود ،
فقد اضطر جدحر الى فرض تضحيات اقتصادية على شعبه طوال
فترة الحرب ، وفي سبيل هدف أسمى ، فأمر بمصادرة كثير من

المعادن الثمينة في مصر من أجل أن يسك نقودا فضية ، كما حض الكهنة على التبرع بجانب من ممتلكاتهم الخاصة والاكتفاء بانفاق عشر المخصصات المرصودة للمعابد وتحويل بقيتها لخزائن الدولة لحين انتهاء الحرب ، كما حض كل مواطن على التطوع بجانب من مدخراته ، فضلا عن قيامه بفرض الضرائب على المحاصيل وزيادة الضرائب على الواردات وتعميم ضريبة العشر على الأرباح ومصادر الدخل المختلفة .

وكل هذا أمر طيب اذا كان الهدف أسمى من كل هذه التضحيات ، وكل هذا يهون أمام عودة مصر ومكانتها في المجتمع الدولي آنذاك الى ما كانت عليه أيام الدولة الحديثة ، ولكن التاريخ لم يكافئ جدهر بما يستحقه ، وسوف نرى بعد قليل كيف كان هدفه الأسمى هذا سببا في التعجيل بنهايته .

فقد خرج هذا الجيش العظيم الضخم تحت قيادة الفرعون الى بلاد الشام لضرب الفرس فيها ، فأعاد الى الأذهان ذكريات جيوش الدولة الحديثة وأمجادها ، فأحرز انتصارات لا بأس بها فاحتل فينيقيا وبدأت مخاوف الفرس تزداد ، وأصبح أمر استعادة الإمبراطورية المصرية في غربى آسيا وشيك التحقيق ، لولا أن أتاه الأذى من مأمنه في مصر وسوريا معا ، ففي مصر انقلب على جدهر أخوه ونائبه الذى كان يتولى ادارة البلاد منتهزا فرصة غضب المصريين عليه لفرض الضرائب الباهظة ، واستعان كذلك بتدمير الكهنة المتضررين من الضرائب الجديدة ، التى رأوها تنصرف الى المرتزقة الأجانب أكثر مما تصل الى مواطنيهم ، ولما كان هذا الأخ شيخا استدعى ولده من جيش عمه ليقود الانقلاب بدلا عنه .

وفى سوريا أحدثت أخبار الانقلاب انشقاقا في صفوف الجيش بطبيعة الحال ، واختار المرتزقة صوالجهم ، فانسحب خابرياس

الأثيني بجنوده ، وانضم اجيسيلاوس الاسبرطي بجماعته الى ابن
الأخ المطالب بالعرش ، وعاد معه الى مصر ليلقى منه ومن أبيه جزاء
تأييده لهما .

وهنا وجد جدحدر نفسه وحيدا كسيرا فلجأ الى صيدا ، وروى
مناقسوه أنه طلب حق اللجوء السياسى بعد ذلك من الفرس
فمنحوه اياه وعاش هناك ومات في منفاه الذى اختاره بنفسه
وفرضته عليه الأيام .

وهكذا أتت نهاية جدحدر على غير ما أراد له لنفسه وانتهت
معركته الى غير ما أمله فيها لشعبه وبلده ، وبقي أن يذكر له أنه
خلال حكمه القصير قد قام بترميم معبد خونسو بالكرنك كما عثر
على اسمه فى طرة والجيزة والمطرية وأتريب ، كما ظهرت فى عهده
أول عملة مصرية .

وهكذا عاد نختنبو الثانى الى مصر وتوج بالفعل فرعوننا
وهو يعتبر آخر الفراعنة المصريين ، وطالت مدة حكمه الى ثمانية
عشر عاما ، غير أن الثورات قد اشتعلت ضده فى كل مكان ،
ويبدو أن واحدا من سلالة الأسرة التاسعة والعشرين كان وراء هذه
الثورات ، ولعل نزوة الحكم قد دفعته الى أن يستغل الظروف
ليسترد عرش أسلافه ، ثم سرعان ما انتشرت الثورة بين الموالين
لعمه الفرعون السابق جدحدر ، وهكذا كادت الثورة أن تقضى على
نختنبو الثانى حتى أنه حوصر فى مدن مسورة ، ولكنه سرعان
ما أخرج هذه الأصوات الباقية على الولاء لعمه ، وأرضى الكهنة
المتدمرين ، كما أعاد الأسبرطيين بالهدايا ، وقد مات قائدهم
العجوز فى الطريق ، ثم رد بالجيش المصرى هجوما استغل الفرس
له تفرق الكلمة فى بلده وترتب على انتصاره عليهم أن انقلبت مدن

فينيقيا ضدهم وتزعمتها صيدا التي لجأ اليها من قبل جدحر ،
وبهذا ظن نختنبو أن زمانه صفا له وتحقق له الأمن في الداخل
والخارج ، فكثرت عمائره الدينية تعبيرا عن الشكر المعتاد للأرباب
وتخليدا لذكراه واطهارا لتقواه ، فعثر له على آثار كثيرة في بهبيت
الحجر وصفط الحنة كما أقام صالة كبيرة في تل بسطة ومقصورة
في سمنود ، وأخرى في منديس ، فضلا عن عدة مسلات في تل البقلية
ولوحة في المعصرة وفي السرابيوم ، كما شيد معبدا في بلبيس وآخر
في أبو صير الملق ، فضلا عن اضافات في معبد بتاح في منف ، كما
شيد معبدا في أرمنت وآخر في واحة سيوة للاله أمون ، وبوابة في
معبد الواحة الخارجة ، كما كان لمعبد الكرونك نصيب كبير من
اهتمامه ، فشيد معبدا على مقربة من معبد موت ، كما خصص
مقصورة بمعبد ادفو للاله حور ، فضلا عن قيامه بعمل مقياس
للنيل قرب البحيرة المقدسة بمعبد هابو .

على أية حال فقد بدأت السحب تتجمع في غربى آسيا في
السنوات الأخيرة من حكم نختنبو الثاني ، ذلك لأن الثورات ضد
الفرس قد انتشرت في كل مكان ، وكانت فينيقيا وقبرص في مقدمة
الثائرين ، وكانت مصر على الرغم من ذلك هي أهم ما يتطلع
الفرس اليه ، وذلك لذهبها وحبوبها التي كانت تستطيع أن تقدمها
في وفرة ، ومع ذلك كان يجب الانتهاء من فينيقيا وفلسطين أولا ،
وكانت صيدا هي أعظم من وجه ضربة عنيفة للفرس ، كما طردت
تسع مدن فينيقية رئيسية الفرس وأعلنت استقلالها ، وأدرك الملك
الفارسي أوخوس أن الأمر أخطر من أن يسكت عليه فخرج على رأس
جيش ضخم كبير ، وهنا طلبت صيدا معونة مصر فأمدتها بفرقة
يونانية واستبسل أهل صيدا حتى أبيدوا جميعا .

وكان نختنبو قد جمع في هذه الأثناء جيشا قوامه مائة ألف ،
ستون ألفا منهم من المصريين ، وأربعون ألفا من مرتزقة الاغريق

والليبيين ، وعندما هاجم الملك الفارسي مصر كانت بلوزيوم أول مدينة مصرية تتعرض للهجوم ، ولم يستغل نختنبو الثاني هذه الفرصة لبدء المقاومة ، فضلا عن التحصينات القوية ، بل انه تردد وانساق وراء رؤيا رأى فيها اله الحرب يعده بانقاذ مصر بالفيضان كما فعل في المرة الأولى وكان في هذا التردد فرصة للفرس ، وما لبث الاغريق أن انضموا اليهم بعد أن أحسوا بأن الكفة تميل لصالحهم ، فراجع نختنبو الثاني الى منف واستعد للتحصن بها على أمل اطالة وقوف الأعداء عندها حتى يتحقق وعد ربه ، ثم أيقن عقم المقاومة وتراجع الى أقصى الصعيد واحتفظ به نحو عامين ثم اختفى أثره .

ونشر الأخطبوط الفارسي سلطانه على ما دون ذلك من أجزاء الوادي وبدأ استعمار الثاني ، وهو استعمار لم يطل غير عشر سنوات ، ولكنه بدأ بانتقام عنيف ، وهنا وصفت بردية الأيام الديموطيقية كيف فقدت بيوت المصريين رجالها وسكنها الفرس وروى ديودور الصقلي كيف دمر الملك الفارسي أسوار المدن الرئيسية ونهب كنوز المعابد وامتنع ديانتها وأمر بنقل تماثيلها الثمينة الى فارس وتاجر أعوانه بوثائقها النادرة ، ثم كافأ الاغريق الذين عاونوه وأعادهم لبلادهم وعين واليا فارسيا على مصر وعاد بجيشه الى بابل .

وفي هذه الأثناء لم تطأطىء مصر هامتها لهذه المحنة الجديدة ، ولم يقبل رجالها الخضوع للفرس ، وطبقا لرواية كبير عائلات الأشمونين بتوزريس فقد كان الصعيد في قلق ، والدلتا في ثورة انتهت بتنصيب خباش ملكا على مصر ، وسرعان ما اعترف به كهان منف وكثير من أهل الصعيد فرعوننا ، وهناك تابوت الأبيس مؤرخ بالعام الثاني من حكمه ، فضلا عن بعض الآثار الأخرى التي تدل على أن المصريين ظلوا في ثورات طويلة أيام الحكم الفارسي الجديد .

وعلى أية حال ففي هذه الأثناء ظهر الاسكندر المقدوني في حملاته الموفقة على آسيا وبعد انتصاره على دارا الثالث في موقعة ايسوس اتجه الى سوريا ثم وصل الى مصر عام ٣٣٢ ق م حيث استسلم له الوالي الفارسي دون مقاومة ، ثم أسرع الاسكندر نحو منف وقدم الأضاحي الى العجل أبيس واعترف به فرعوناً ، ثم عاد الى شاطئ البحر وقام بتخطيط مدينته التي حملت اسمه (الاسكندرية) ، ثم أسرع بعد ذلك الى واحة سيوة مقر وحي آمون ، وادعى البنوة له واستلهم وحيه فاعترف كهنته بالأمر الواقع وبشروا الاسكندر بما أراد أن يبشروه به من وحي ربهم ، ثم أشاع خلفائهم لارضاء قوميتهم المغلوبة على أمرها أن الاسكندر لم يكن غريباً عن الأرض التي نزل فيها ، وأن ملكهم القومي الأخير نختنبو الثاني الذي خفى أمره ، كان قد نزح الى مقدونيا لتلبسه روح آمون وشغف بملكيتها أولمبياس وأنجب منها الاسكندر .

على أية حال فلسنا ندرى مدى تصديق المصريين لهذا الهراء ، ولكن الغريب حقا أنه على الرغم من كثرة ما ادعاه الاسكندر من البنوة لأرباب آخرين فقد ظلت بنوته لأدون لاصقة به لصوق بنوته لزيوس ، حتى قال له رجاله عندما اختصموا معه في الهند « اذهب انت وأبوك آمون فقاتلا » .

وعندما دخل الاسكندر مصر باعتباره منقذا لها من الفرس لم يكن أعوانه أغراباً عنها ، فطالما عملوا مرتزقة في جيشها وشاركوها في معاداة الفرس ، وعلى نحو ما عمل اغريق نقراطيس وسطاء في التجارة بينها وبين الاغريق عملوا كذلك وسطاء بينها وبين الاسكندر ، ولكن فات مصر أن اغريق اليوم غير اغريق الأمس ، وأنهم أتوها يعملون لحسابهم الخاص ، مستعمرين وليسوا مأجورين ، سادة وليسوا مرتزقة .

وعلى الرغم من احترام الاسكندر لثقالييد البلاد ، واحترامه
لأربابها ، فقد كان فتحه لمصر ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، فكان
كارثة كبرى ومأساة فادحة في تاريخ مصر الخالدة ذلك لأن هذا
الغزو كان بداية لعصر من الاحتلال اليونانى والرومانى عم المنطقة
المحيطة بها حوالى ألف عام من الأعوام العجاف ، ضاعت فيها
شخصيتها ، وامتهنت كرامتها ، وفقدت القدرة على أن تعمل من أجل
مصلحتها ، رغم ثوراتها المتكررة ، بل انها بقيت فى أحسن الأحوال
مجرد مزرعة الأوربا تجنى ثمارها وتقطف الطيب من خيراتها •

البساط الخامس

العصر البطلمي

د. ابراهيم نصحي

الفصل الاول

مصر فى عصر البطالمة

١ - المصادر :

مصادر تاريخ مصر فى عصر البطالمة هى مؤلفات أغلبها بالاغريقية وبعضها باللاتينية صاغها الكتاب القدماء من مؤرخين وجغرافيين وشعراء ، والوثائق البردية والنقوش وكسر الفخار والنوميات والمخلفات الأثرية . ونستقى جل معلوماتنا عن تاريخ مصر الخارجى من الكتاب القدماء ، لكن هذه المعلومات غير وافية ولا متواصلة ولا هى بقدر واحد سواء عن مختلف فترات هذا العصر أو عن مختلف جوانب تاريخ مصر الخارجى فى خلاله . واكثر هذه الشوائب تعتور مصادرنا الأخرى . وآية ذلك أن الوثائق البردية التى هى أهم مصادر تاريخ مصر الداخلى فى هذا العصر ، برغم الأعداد الهائلة التى نشرت منها حتى الآن ، فان الضوء الذى تلقيه على هذا التاريخ موزع توزيعا شديدا الاضطراب على أنحاء مصر المختلفة ، وعلى نواحي الحياة فيها ، وعلى القرون الثلاثة تقريبا التى عمرتها دولة البطالمة . وأغلب الوثائق البردية التى نشرت حتى الآن واثق اغريقية من عهود بطلميوس الثانى والثالث والسادس والثامن (يورجيتيس الثانى) ، وهى ذات صبغة محلية

وتتناول موضوعات متفرقة لا رابط بينها • وكثير من هذه الوثائق
رسمى أو شبه رسمى ويصور علاقات السلطتين المركزية والمحلية
بالموظفين وبمختلف طبقات السكان • ومثل ذلك الأوامر الملكية ،
وتعليمات الوزراء الى مرءوسيههم ، ومختلف الوثائق الرسمية
الخاصة بشئون الضرائب وادارة موارد الدولة ، والشكاوى
والالتماسات الموجهة الى الملك والوزراء وحكام الأقاليم ، وايصالات
الضرائب ونحو ذلك • ولا يقل عددا عن هذا النوع من الوثائق
تلك الوثائق الخاصة بالمعاملات بين الأفراد ولا سيما العقود المتعددة
الأنواع • وفضلا عن ذلك فان الوثائق تتضمن عددا كبيرا من
الخطابات الخاصة •

ويزداد باطراد عدد الوثائق الديموقراطية التي يكشف عنها في
مصر • ولحسن الحظ أن الأهتمام الآن يزداد يوما عن يوم بدراسة
الوثائق الديموقراطية المتكسفة في المؤسسات المختلفة في مصر
وخارجها • ولاشك في أن نشر هذه الوثائق سيزيد معلوماتنا كثيرا
عن عصر البطلمة •

٢ - الفتح المقدوني :

ورث الاسكندر الأكبر عن أبيه توحيد الأغريق في عصبة
قورنثة ومشروع محاربة الفرس بزعامة مقدونيا • ولما كان الفرس
ينتمعون بسيادة البحار ، فان الاسكندر قرر أن يقضى على
سيادتهم البحرية بالاستيلاء بوا على قواعد الأسطول الفارسي •
وتبعاً لذلك فانه بعد انتصاره على القوات الفارسية التي تضدت له
بمجرد بلوغه آسيا الصغرى قرر أن يستولى على شواطئ آسيا
الصغرى وسوريا وفينيقيا ومصر وقوزيناية (بركة) • ومن ثم فانه
عندما دحر الاسكندر الملك الفارسي في موقعة اسوس (٣٣٣ ق م)

لم يقتف أثره الى بابل ، وانما آثر أن يفتح أولا فينيقيا ومصر وقوريناية . وما أن استولى على مور وغزة حتى يمم وجهه بشرط مصر فبلغها في نوفمبر ٣٣٢ . وبمجرد وصوله الى منف سارع الى تقديم القرابين للآلهة المصرية ، ويرجح أنه توج نفسه في معبد فتاح على نهج الفراعنة القدماء . وبعد ذلك وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حج الى معبد آمون في واحة سيوة عن طريق مرسى مطروح حيث وافاه سفراء قوريناية ليقدّموا له فروض الطاعة .

وبعد عودة الاسكندر من سيوة وضع لحكم مصر نظاما أبرز مظاهره توزيع السلطة بين أربعة حكام - اثنان منهم مصريان - لتفادي خطر انفراد حاكم واحد بالسلطة . ومع ذلك فإن أحد هؤلاء الحكام وهو قليونيس النقراطي لم يلبث أن جمع في قبضته "كل" السلطات وكذلك ثروة طائلة . وفي ربيع ٣٣١ رحل الاسكندر عن مصر . وبعد أن توغل في أواسط آسيا حتى البنجاب للاستيلاء على "الولايات الفارسية" ، عاد الى بابل حيث توفي في ليلة ١٢/١١ من يونية ٣٢٣ .

وبوفاة الاسكندر يبدأ في العالم الاغريقي العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته العصر الهليني وعلى أنه ينتهي بموقعة اقيوم (٣١ ق م) . وغداة وفاة الاسكندر عقد قواده مؤتمرا في بابل ليجتثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية . وبعد خلاف عنيف تم الاتفاق على :

أولا - أن يرتقى العرش أخو الاسكندر وابنه بمثابة شريكين تحت الوصاية .

ثانيا - تعيين برديقاس قائدا عاما للجيش وقراتروس وصيا على الملكية ، لكن برديقاس لم يلبث أن اغتصب الوصاية لنفسه .

ثالثا - تعيين قسواد الاسكندر حكاما لمختلف ولايات الامبراطورية . ولما كانت تراود برديقاس وأولئك القواد أطماع شخصية متضاربة ، فان ذلك كان نذيرا بالصراع العنيف الذي نشب بين خلفاء الاسكندر في عام ٣٢١ ودام حتى ٢٨٠ وتمخض عن قيام ثلاث ممالك على أنقاض امبراطورية الاسكندر .

٣ - نشأة دولة البطالمة :

وكانت مصر من نصيب بطلميوس بن لاجوس ، وكان قائدا بارعا وسياسيا حصييفا ورجلا طموحا ، أدرك صلاحية مصر لاقامة صرح دولة يحمل صولجانها أحفاده على تعاقب الأجيال ، فما وصل الى مصر حتى عمل على دعم مركزه فيها فأعدم قليونينيس واستخدم الثروة التي جمعها في بناء قوات جديدة . وانتهاز فرصة قيام ثورة في قوريناية وقام بفتح هذا الاقليم لتأمين حدود مصر الغربية ، ودبر نقل رفات الاسكندر لدفنها في مصر بدلا من مقدونيا . وكانت هذه التصرفات شاهدا قويا على أن بطلميوس لا ينوى أن يسلس القيادة لبرديقاس ، فقرر تأديبه . وهكذا وجد بطلميوس نفسه على الفور منهمكا في صراع مرير من أجل الفوز باستقلاله . وهذا يقتضى أن نبدأ الحديث عن دولة البطالمة بالقاء نظرة عاجلة على سياستهم الخارجية ولا سيما أن هذه السياسة أثرت الى حد بعيد في النظم التي وضعوها لحكم مصر .

٤ - سياسة البطالمة الخارجية :

ويرجح أن هذه السياسة كانت لا تستهدف انشاء امبراطورية عالمية وانما استقلال مصر سياسيا واقتصاديا ، وضمان هذا الاستقلال بإنشاء امبراطورية بحرية في شرق البحر المتوسط . ولما كان استقلال مصر يقتضى فصم عرى الامبراطورية المقدونية ،

ومكافحة كل من تحدّثه نفسه بأحيائها ، فان بطلميوس الأول شارك في عدة مخالفات كانت أهمها ثلاثا ، احداها ضد برديقاس الذي قضى عليه عندما حاول غزو مصر في عام ٣٢١ . وكانت المحالفتان الأخريان ضد انتيجونوس الذي أصبح بدوره خطرا يتهدد سلامة الولاة الآخرين منذ عام ٣١٦ حتى قضى عليه في عام ٣٠١ .

و حين كان بطلميوس معنيا بالفوز باستقلاله ثم بالذود عنه استولى على :

١ - قوريناثة لحماية مصر الغربية .

٢ - فينيقيا وجوف سوريا وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية ، وذلك لحماية حدود مصر الشرقية والحصول على الأخشاب والمعادن التي كانت مصر تفتقر إليها ، والسيطرة على بعض منافذ التجارة الشرقية .

٣ - عصابة جزر بحر ايجه للفوز بسيادة بحر ايجه وبالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر .

وقد سار بطلميوس الثاني والثالث على نهج السياسة الخارجية التي وضع بطلميوس الأول أساسها ، ومضى بها كل منهما الى نتيجتها المنطقية ، فوصلت امبراطورية البطالمة البحرية الى أقصى اتساعها في عهد بطلميوس الثالث فقد كانت تشمل عندئذ أغلب الأقاليم الساحلية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ابتداء من قوريناثة حتى مارونيا في تراقيا ، فضلا عن قبرص وكريت وبعض الجزر الأخرى . غير أن مقدونيا قاسمت مصر عندئذ السيطرة على بحر ايجه نتيجة لاستيلائها على عصابة جزره . وبعد النشاط الجهم الذي أبداه بطلميوس الثالث في مستهل عهده جنح الى السلم بل ترك جيشه وأسطوله يستغرقان في التراخي والضعف حتى أنه عندما توفي لم تعد مصر قوة حربية يخشى بأسها .

وعندما حاول الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث الاستيلاء على جوف سوريا ، أعاد بطلميوس الرابع تنظيم جيشه وأدمج للمرة الأولى في القوات البطلمية المحاربة ٢٠٠٠٠ ر ٢٠٠٠٠ محارب مصري دربوا وسلحوا وفقا لأصول فنون الحرب الحديثة وكان لهم فضل الانتصار في موقعة رفح عام ٢١٧ على جيش أنطيوخوس ، فنشبت الثورات القومية ضد البطالمة والاغريق .

وكان من شأن اضطراب الأوضاع في مصر في عهد بطلميوس الخامس أن فيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث اتفقا على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، ففقدت مصر هذه الممتلكات ولم يبق لها منها سوى قبرص وقوريناية . وقد انبرت روما لمحاربة فيليب وأنطيوخوس وهزمتها الواحد بعد الآخر ، وخرجت من هذا الصراع صاحبة الكلمة العليا في شرق البحر المتوسط .

ولم تلبث الأحداث أن مهدت السبيل أمام روما لتغلغل نفوذها في مصر . ويعزى ذلك الى عاملين ، أحدهما هو اقدام أنطيوخوس الرابع على غزو مصر مرتين والاستيلاء على قبرص . ولم ينقذ عرش البطالمة من برائته الا تدخل روما فقد أرغمته على الانسحاب من مصر وقبرص . والعامل الآخر هو استتحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر واتخاذهما روما حكما فيصلا في هذا النزاع الأسرى الذي ابتليت به دولة البطالمة منذ ذلك الوقت وظل يتكرر فيما بعد واستغلته روما لتحقيق أغراضها . ولا أدل على مدى نفوذ روما في مصر من اتفاقية عام ١٦٣ التي قسمت روما بمقتضاها دولة البطالمة بين بطلميوس السادس (مصر وقبرص) وأخيه (قوريناية) ، ومن دور روما في اقامة بطلميوس الصغير ملك قوريناية ملكا على مصر (١٤٥/١٤٦) ، ومن توريث قوريناية لروما بمقتضى وصية بطلميوس آبيون (٩٦) ، ومن تنصيب

بطلميوس الحادي عشر (إسكندر الثاني) ملكا على مصر بأمر من
صلا دكتاتور روما (٨١ / ٨٠) . ومن أنه منذ ذلك العام أصبح
مصيبر مصر متعلقا على مصير الصراع الحزبي في روما فقضى بطلميوس
الثاني عشر (الزمار) حوالي العشرين عاما للحصول على اعتراف
روما به ملكا على مصر (٥٩) . ولكنها في العام التالي سقطت على
قبرص .

وفي عام ٥١ ارتقت عرش مصر كليوباترة السابعة وكانت فتاة
جذابة بارعة الذكاء أوقعتها الظروف القاهرة مرتين في قبضة ذئب
نساء كاسر ، كان في وقته أقوى شخصية في العالم ، أراد اقتراسها
لكنها تمكنت من ترويضه واستغلاله لتنفيذ أطماعها . ذلك أنه
عندما جاء قيصر الى مصر وأمرها بالمتول بين يديه لفض النزاع بينها
وبين أخيها ولبت الأمر ، سبّطت على قيصر منذ الوهلة الأولى
الى حد أنه أصبح شبه مؤكّد أنه عندما يقيم قيصر نفسه ملكا على
روما سيعلن زواجه رسميا من كليوباترة فتشاركه سلطانه الواسع .
لكن الجمهوريين أجهزوا مؤقنا على آمال كليوباترة عندما أجهزوا
على قيصر (٤٤) .

ولما كانت كليوباترة قد اتخذت موقفا الحياد في الصراع
الذي نشب بين أنصار قيصر والجمهوريين ، فانه عندما هزم
الجمهوريون وقدم أنطونيوس الى آسيا الصغرى استدعى كليوباترة
والحكام الآخرين الذين حامت الشبهات حول تصرفاتهم في أثناء
هذه الحرب . وما أن قابلت كليوباترة أنطونيوس في طارسوس
حتى وقع أسير هواها . وفي عام ٣٧ أعلن أنطونيوس زواجه رسميا
من كليوباترة ، وبعد ذلك قسم بينها وبين أولادهما كل الولايات
الرومانية في النصف الشرقي من الامبراطورية . ولما كانت

كليوباترة لم تقنع بذلك ، فانها دفعت انطونيوس الى منازلة
أوقتافيانوس من أجل الفوز بالنصف الغربي أيضا وحكم العالم
الروماني بأسره ، بيد أنه لم يكن مقدرًا لكليوباترة أن تحقق أحلامها
فقد بدد أوقتافيانوس هذه الأحلام بانتصاره في موقعة أقتيوم (٣١)
وزحفه على مصر في العام التالي ودخوله الاسكندرية في أول أغسطس
عام ٣٠ وضم مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثاني

أجهزة الحكم

أولا - السلطة المركزية

١ - الملك :

ولما كان البطالمة قد اعتبروا مصر ضيعة آلت اليهم بحق الارث عن الاسكندر وحق الفتح ، وكانوا قد نصبوا أنفسهم آلهة لرعاياهم المصريين والاغريق وبذلك أصبح سلطانهم يستند أيضا الى حق الملوك الالهى ، فان الملك البطلمي أصبح صاحب مصر وسيد رعيته المطلق . وتبعاً لذلك كان الملك الرئيسى الأعلى لأجهزة الحكم وكبير القضاة والقائد الأعلى للجيس والأسطول ، ومصدر القوانين التى يخضع لها جميع السكان ، وكذلك مصدر دساتير المدن الاغريقية والجاليات الأجنبية التى تكونت خارج تلك المدن .

٢ - الوزراء :

وكان يساعد الملك على مباشرة سلطاته الواسعة عدد من الوزراء كان أرفعهم مقاما وأخطرهم شأنًا وزير المالية (ديويقيتيس) وكان يليه فى الأهمية الوزير الذى كان لقبه « ارخيديقاستيس » ومعناه كبير القضاة . ويرجح أنه على الأقل فى عهد البطالمة الأوائل كان يوجد وزير للأشغال ووزير للحرب .

٣ - الأداة الحكومية :

ولم يكن في وسع الملك ووزرائه النهوض بشئون حكم وضعت له نظم دقيقة معقدة في بلاد غنية متحضرة دون الاستعانة بهيئة كبيرة من الموظفين المدربين . ويعتبر من أجل أعمال البطالمة نجاحهم في انشاء هذه الأداة الحكومية في بلد أجنبي من عناصر لم تتوافر لديها المؤهلات اللازمة لمثل هذه الأعمال . ولاشك في أن هذه الأداة الحكومية كانت الى حد ما من تراث الماضي لكنها غدت في مجموعها أداة اغريقية منظمة تنظيما دقيقا ، ويتألف رؤساؤها ومديرو مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة ، سواء في الجهاز المركزي أو في فروعها المحلية ، من الاغريق . وقد حالف التوفيق هذه الأداة الحكومية في عهد البطالمة الأوائل ، لكنها فسدت في عهد البطالمة الأواخر وأصبح كل همها ارهاق الأهالي وابتزاز الأموال .

ثانيا - المدن الاغريقية

كان يوجد في مصر ابان عصر البطالمة ثلاث مدن اغريقية وهي نقراطيس التي أسست في عهد ايسماتيك الأول : والاسكندرية التي أسسها الاسكندر الأكبر ، وبطرليميس التي أسسها بطلميوس الأول . وكانت المدينة الاغريقية أصلا تؤلف دولة مستقلة ذات سيادة ، لكنه بما أن المدن السالف ذكرها أنشئت في مملكة على رأسها ملك مطلق السلطة ، فان هذه المدن شاركت المدن والقري المصرية في الخضوع للملك ، وتبعاً لذلك فقدت المدن الاغريقية في مصر سيادتها الا أنها احتفظت بحق تمتعها باستقلال ذاتي يعطى مواطنيها حق حكم أنفسهم .

١ - نقراطيس :

(كوم جعيف بمحافظة البحيرة) وتدل أعمال الحفر والتنقيب على أن هذه المدينة كانت مثل أى بلد مصرى تتألف من بيوت مبنية من اللبن على جوانب شبكة معقدة من الشوارع والأزقة • وتشير القرائن الى أنه كان لنقراطيس دستور يمتاز بمجلس أوسنقراطى ، والى أن نقراطيس احتفظت بدستورها فى عصر البطلمة ، غير أنه مهما كان حظ هذه المدينة والمدينتين الاغريقيتين الأخريين فى مصر من الاستقلال الذاتى ، فانها كانت جميعا تخضع لسلطة الملك • ولضمان ذلك اتخذت وسائل شتى كان من بينها فى حالة نقراطيس وضع حامية فيها •

٢ - الاسكندرية :

ويبدو أن الاسكندر اختار الموقع الذى أقيمت عليه الاسكندرية لبعده عن رواسب فرع النيل القانوبى ، وسهولة وصول مياه الشرب اليه ، وقرب بحيرة مريوط وجزيرة فاروس منه • فقد كانت هذه البحيرة تتصل بالنيل وتهىء للمدينة ميناء يربطها بداخلية البلاد ، كما أنه بمد جسر من الجزيرة الى الشاطىء يصبح للمدينة مرفأ على البحر • وأغلب معالم المدينة القديمة لا يزال مدفونا تحت مباني المدينة الحديثة مما يفسر قلة معلوماتنا بوجه عام عن هذه العاصمة الجليلية • ويعزى الى استرابوى أغلب الفضل فيما نعرفه من معالمها • وكانت المدينة مستطيلة الشكل يمتد جانباها الطوليان فى محاذاة البحر وبحيرة مريوط • وكانت تشق المدينة شوارع تتقاطع عموديا مع بعضها وتمتد موازية بوجه عام للشارعين الرئيسيين فيها ، وكان أحدهما يمتد من باب قانوب (أبو قير) فى الشمال الشرقى الى باب الغرب فى الجنوب الغربى • واما الشارع الآخر فكان يجرى من باب الشمس عند بحيرة مريوط.

في الجنوب الشرقي الى باب القمر في مكان ما شرقي جسر البتاستاديون
الذي أنشئ لربط جزيرة فاروس بالبر . وكانت المدينة تتألف من
خمسة أحياء أطلق على كل منها اسم حرف من أول حروف الهجاء
الاعريقية . وكان أهم هذه الأحياء جميعا حي القصور الملكية ،
وكان يطل على الميناء الكبير ويشغل ربع أو ثلث المدينة تقريبا ،
ويحتوي على أهم معالم المدينة . ذلك أنه كانت توجد فيه القصور
والحدائق الملكية ودار العلم والمكتبة الكبرى والجومنازيوم ودار
القضاء ومدافن الاسكندر والبطلمة .

وفي مواجهة حي القصور الملكية وعلى صخرة شرقي جزيرة
فاروس شيدت منارة الاسكندرية المشهورة ، وكانت إحدى عجائب
العالم القديم ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يتخللها درج ويعلوها
المصباح الذي أقيم فوق قبته تمثل لعله كان تمثال يوسيدون اله
البحار الاعريقي .

ومنذ أوائل تاريخ الاسكندرية لم يتألف سكانها من الاعريق
والمقدونيين فقط . وفي ضوء معلوماتنا الراهنة عن سكان
الاسكندرية يتعذر الذهاب الى أبعد من أمرين ، أحدهما هو أنهم
كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من
الاستقلال الذاتي . والأمر الآخر هو أنهم كانوا ينقسمون طبقات
تأتي في مقدمتها طبقة المواطنين الكاملى الأهلية ، وكان أفراد هذه
الطبقة ينقسمون الى قبائل وأحياء ووحدات .

وتوحي القرائن والشواهد أنه في عهد البطلمة الأوائل كان
لهذه الطبقة جمعية شعبية ومجلس شورى . ويبدو أن أحد البطلمة
الأواخر ألغى هاتين المنظمتين اللتين كانتا تعتبران من أهم مظاهر
الحياة العامة في المدن الاعريقية . ولما كانت الاسكندرية تتمتع
بالاستقلال الذاتي فإنه كانت لها محاكم مستقلة غير المحاكم الملكية ،

كما كان لها حكامها المحليون الذين ينتخبهم المواطنون الكاملو الأهلية . ومما يجدر بالملاحظة أن نشاط الجمعية الشعبية ومجلس الشورى كان مقصورا على الشئون المحلية دون غيرها . ويوحى ما سنراه عند الحديث عن مدينة بطوليميس بأن الملك كان لا يترك هذا النشاط حرا دون تدخل من جانبه .

٣ - بطوليميس (المنشأة بمحافظة سوهاج) :

انشأ بطلميوس الأول هذه المدينة في قلب الصعيد لتكون مركزا لاشعاع الحضارة الاغريقية في الوجه القبلى . وقد اختفت معالم بطوليميس تماما ، لكنه يحتمل أن تكون قد خططت مثل الاسكندرية وفقا للنظام الشبكي . ولا تدع الوثائق مجالا للشك في أنه كان لها مجلس شورى وجمعية شعبية ومحكمة مستقلة وحكام تنتخبهم هيئة المواطنين الكاملى الأهلية ، وكانوا ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات ، ويتوافر لديهم ما كانوا يستمتعون به في بلادهم الأصلية من المعابد والمعاهد والمسارح .

ونتبين من نقش من القرن الثالث قبل الميلاد حدوث تعديل بندرى فى دستور بطوليميس قضى بانتخاب أعضاء مجلس البولى وهيئة المحكمة من قائمة منتقاة من المواطنين . ويرجح الباحثون أن هذا التعديل الدستورى كان بايعاز من الملك ، وأن الاجراء المتبع أصلا كان استخدام القرعة فى عملية الانتخاب . ويوحى فحوى هذا النقش بأن الحكام كانوا ينتخبون منذ البداية من قائمة المواطنين . وهل كان هذا التعديل فى دستور بطوليميس انعكاسا لتعديل مماثل فى دستور الاسكندرية وهى التى نعرف أنها شهدت تعديلات دستورية عديدة دون أن نعرف ماهيتها ؟ وهل كان حكام الاسكندرية أيضا ينتخبون من قائمة منتقاة من مواطنيها ؟ هذا كله غير مستبعد .

ثالثا - نظام الإدارة خارج المدن الاغريقية

أخذ البطالمة عن الفراعنة نظام تقسيم البلاد الى وحدات ادارية رئيسية . فقد قسموا مصر السفلى ومصر العليا - عتدا المناطق التي خصصت للمدن الاغريقية - الى محافظات يختلف عددها من مصدر الى آخر ولم يحتفظ البطالمة بالأسماء القديمة للمحافظات ، ففي بعض الحالات حرف البطالمة أسماءها بحيث تتلاءم مع الذوق الاغريقي ، وفي البعض الآخر أطلقوا عليها أسماء جديدة نتيجة لتشبيه آلهتها المحلية بالهة اغريقية .

وعندما فتح الاسكندر مصر كان يحكم كل محافظة نومارخ . وقد أبقي الاسكندر المحافظين المصريين في مناصبهم ، لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، اذ أن الرأي السائد هو أنه منذ أوائل عصر البطالمة أصبحت كل محافظة منطقة عسكرية أقيم عليها الى جانب المحافظ قائد اغريقي أو مقدوني ، وأصبح منصب المحافظ (نومارخ) يسند عادة الى اغريقي أو مقدوني . واذ أصبح القائد حاكم المحافظة المدني والعسكري ويمتد سلطانه الى كل فروع الادارة هبطت مكانة المحافظ ، وبمضي الزمن أصبحت اختصاصاته أكثر اتصالا بالشؤون الاقتصادية منها بالادارية ، وكان يوجد في كل محافظة رئيس لشرطتها وممثلو الادارة المالية . وكانت كل محافظة تنقسم الى عدد متفاوت من الأقاليم (توبوى) . وكما كانت لكل محافظة عاصمتها كان كذلك لكل اقليم عاصمته حيث كانت تتركز ادارته ممثلة في الحاكم الادارى (ابيستاتيس) والعمدة (توبارخ) ورئيس الشرطة وموظفي الادارة المالية . وكان كل مركز يضم عددا من القرى ، كان لكل منها حاكمها الادارى (ابيستاتيس) وعمدتها (قومارخ) ورئيس شرطتها وموظفو الادارة المالية .

وهما يجدر بالملاحظة أمران : أحدهما هو أنه منذ حوالي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت محافظة الفيوم تنقسم الى ثلاثة أقسام (مريدهس) ، وكانت الأقسام تنقسم الى نومارخيات والنومارخيات الى مراكز ، والمراكز الى قرى . والأمر الآخر هو أن المنطقة الممتدة من الحدود الجنوبية لمحافظة هرموبوليس (الجزء الجنوبي لمحافظة المنيا) حتى أسوان كانت تعرف باسم منطقة طيبة ، وأنه منذ عهد بطلميوس الخامس وضعت هذه المنطقة تحت امرة حاكم عام ولكنها بقيت مقسمة الى محافظات ، أسندت ادارة كل عدد منها الى قائد يعتقد أنه كان له نائب (ابيستاتيس) على رأس كل محافظة تقع في نطاق اختصاصه .

الفصل الثالث

سياسة البطالة الدينية

مر بنا أن البطالة كانوا يعتبرون انفسهم سادة مصر وأصحابها بحق الارث عن الاسكندر وحق الفتح ، بيد أنه ليكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة رأوا أن يستغلوا معتقدات رعاياهم الدينية مع احترام هذه المعتقدات ، ولذلك فإن التسامح الديني كان أبرز سمات سياسة البطالة الدينية .

أولا - سياسة البطالة الدينية ازاء المصريين

١ - اتخاذ صفات الفراعنة :

وفقا لمعتقدات المصريين الدينية كان فرعون واهب الحياة والنعم ومالك الأرض والسيد المطلق لأهلها . وقد كان من أصالة الرأي أن يستغل البطالة هذه المعتقدات ، وأن يتخذوا صفات الفراعنة ، ليتمتعوا بمكانتهم العظيمة وسلطاتهم الشاملة المطلقة ، ويكسبوا ولاء المصريين ، ولا سيما أن الاسكندر الأكبر رسم نفسه فرعوناً في منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة التي درج الفراعنة على حملها منذ غابر الزمن . وتشير الوثائق الى أن البطالة

أخذوا صفات الفراعنة بالتدريج . ذلك أنه ليس في الوثائق ما يدل على أن البطالمة الثلاثة الأوائل رسموا فراعنة ، وإن كان يوجد ما يدل على أن بطلميوس الأول حمل لقبين من ألقاب الفراعنة الخمسة وعلى أن كلا من بطلميوس الثاني والثالث حمل الألقاب الخمسة جميعا ، وذلك في الوثائق المصرية دون الاغريقية . أما منذ موقعة رفح في عهد بطلميوس الرابع فإن البطالمة أصبحوا يثبتون الألقاب الفرعونية جميعا في الوثائق المصرية والاغريقية على السواء . وإذا كان هناك شك في رسامة بطلميوس الرابع فرعوناً فلا سبيل إلى الشك في ذلك فيما يخص بطلميوس الخامس . وإزاء ضعف البطالمة الأواخر وحرصهم على ممالأة المصريين يبدو أنهم جميعاً حذوا حذو بطلميوس الخامس .

٢ - احترام الديانة المصرية :

ولما كان شائعا معروفا أن من أهم الأسباب التي أثارت المصريين على الفرس انتهاكهم حرمة الديانة المصرية ، فإن الاسكندر والبطالمة جميعا وضعوا نصب أعينهم الاعتراف بالديانة المصرية دينا رسميا ، مما كان ينطوي على السماح للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة ، واتباع وسائل شتى لإظهار اجسالاتهم واحترامهم لهذه الديانة . وكان في مقدمة هذه الوسائل تقديم القرابين للآلهة المصرية وإقامة المعابد لها . ومنشآت البطالمة الدينية شملت كل أرجاء البلاد لكن أعظمها كان في جزيرة فيلة وأسوان واسنا وكوم اومبو وادفو ودندرة .

٣ - البطالمة ورجال الدين المصريون :

وجد البطالمة أن رجال الدين المصريين يؤلفون في كل أرجاء البلاد جماعات دينية منظمة تنظيماً دقيقاً ، وتتمتع بمنزلة رفيعة

ونفوذ كبير وتتحكم في ثروة طائلة ، فخشي البطالمة جانبهم ولذلك عمد أوائلهم الى تقييد رجال الدين المصريين بأغلال من القوانين أخضعتهم لسلطتهم وكسرت شوكتهم مدة طويلة . ويبدو أن العامل المادى كان من أهم الوسائل التى استخدمها البطالمة للحصول على طاعة الكهنة . ذلك أن البطالمة الأوائل قرروا اعطاء المعابد منحا كبيرة وفي الوقت نفسه أسندوا ادارة أراضى المعابد الى الحكومة ، واستولوا على دخل الضريبة (ابومويرا) التى كانت المعابد تجبها من زارعى الكروم والفاكهة والبقول ، وألغوا احتكار المعابد لصناعتى الزيت والمنسوجات . ويبدو أن تضيق الخناق على الكهنة كان من العوامل المهمة فى اندلاع لهيب الثورة فى عهد البطالمة الأواخر ، مما حدا بهم الى محاولة اكتساب ود الكهنة بتحريرهم تدريجا من أغلب القيود التى فرضها البطالمة الأوائل . وازاء الخلافات التقليدية بين أتباع الآلهة المختلفة ، وفيما يبدو عمق البطالمة هذه الخلافات ، يبدو أن الكهنة عجزوا عن تكوين جبهة موحدة لمقاومة سياسة البطالمة نحوهم .

ثانيا - سياسة البطالمة الدينية ازاء الاغريق

١ - تأليه البطالمة تأليها اغريقيا :

وكما عنى البطالمة بكسب ولاء المصريين وودهم ، عنوا أيضا بكسب ولاء الاغريق وعطفهم ولا سيما أن أغلبهم كانوا رجالا أحرارا نشأوا فى جمهوريات اعتادوا على الاشتراك فى حكمها ، فى حين أن مصر فى عصر البطالمة كانت ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق . ولما كانت سلطة الآلهة لا تحد ، فان البطالمة لجأوا لتسريح مركز هذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة الملوك عبادة اغريقية رسمية عامة فى الدولة .

ويكتنف انشاء هذه العبادة غموض شديد لكننا نستطيع أن نتبين من الوثائق ملامح أربع خطوات اتخذت أولها بطلميوس الأول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر دينا اغريقيا عاما في مصر ، له كاهن مقدوني أو اغريقي يعينه الملك سنويا وتؤرخ باسمه كافة الوثائق الاغريقية والمصرية . ولما كان بطلميوس خليفة الاسكندر في حكم مصر ، فانه بعد تأليه الاسكندر أصبحت سلطة بطلميوس مستمدة من مصدر الهى ، وتبعاً لذلك أصبح يحق له التمتع بالسلطة الشاملة في مملكته .

وتشير الدلائل جميعاً الى أن بطلميوس الثانى هو الذى اتخذ الخطوة الثانية في هذه العبادة ، فهو أولاً اله أباه وأمه بعد وفاتهما (الآلهين المنقذين ، سوتيرس) . وثانياً رفع نفسه وزوجته أرسينوى الى مصاف الآلهة باسم الآلهين الأخوين (ادلفوى) وقرن عبادتهما بعبادة الاسكندر الاغريقية الرسمية العامة فأصبح لقب كاهن هذه العبادة « كاهن الاسكندر والآلهين الأخوين » . وثالثاً ، عندما توفيت أرسينوى أنشأ لها عبادة رسمية باسم الآلهة فيلادلفوس (المحبة الأخيها) .

وقد اتخذ بطلميوس الثالث الخطوة الثالثة بسماحه باستمرار قرن الآلهين الأخوين في العبادة مع الاسكندر بعد وفاتهما . ولذلك فانه عندما اقتفى أثر أبيه ورفع نفسه وزوجته في حياتهما الى مصاف الآلهة باسم الآلهين الخيرين (يورجيتاى) قرن عبادتهما بعبادة سلفيهما والاسكندر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت القاعدة أن كل بطلميوس وزوجته يرتقيان العرش يؤلهان ويخلع عليهما لقب الهى مميز ، وتقرن عبادتهما بعبادة أسلافهما وعبادة الاسكندر ويحتفظان بالوهيتهما في الممات .

وقد نخطا بطلميوس الرابع الخطوة الأخيرة في تحويل هذه العبادة الى عبادة أسرية بوضع الالهين المنقذين على سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرون في العبادة مع الاسكندر .

والى جانب هذه العبادة الاغريقية الرسمية العامة التي كان مقرها في الاسكندرية ومكان الصدارة فيها للاسكندر الأكبر ، كان البطالمة محور عبادتين اغريقيتين أخريين ، كانت احدهما عبادة رسمية محلية مقرها في بطوليميس ومكان الصدارة فيها لبطلميوس الأول . ومنذ عهد بطلميوس الرابع أصبح الملك الحاكم يقرب في العبادة مع بطلميوس الأول الاله المنقذ ، وأصبحت وثائق بطوليميس وكل منطقة طيبة تؤرخ بكهنة العبادة الاغريقية العامة وكذلك هذه العبادة المحلية . وكانت العبادة الأخرى عبادة اغريقية خاصة يقيم الأفراد شعائرها .

٢ - البطالمة والديانة الاغريقية :

وكان البطالمة اغريقيا في ثقافتهم وفي ديانتهم ، بل انهم ادعوا انحدرهم من سلالة الالهة الاغريقية . وازاء ذلك وازاء حاجتهم الملحة الى رجال ورؤوس أموال من بلاد الاغريق لتحقيق مشروعاتهم الداخلية والخارجية ، فان البطالمة اعترفوا بالديانة الاغريقية دينا رسميا في مصر ، وشيدوا المعابد لآلهتها ، ومنحوا الضباع لمعابدها ، وسمحوا للاغريق بحرية اقامة شعائرها ، وأقاموا مواصلات وثيقة مع أشهر مراكز العبادة في بلاد الاغريق ، وأنشأوا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الأوليمبية وكان أشهر هذه الحفلات حفل البطوليمابيا الذي أنشأه بطلميوس الثاني اجلالا لأبيه المؤله .

وعند وفود الاغريق الى مصر أحضروا معهم آلهتهم ومذاهبهم الدينية . ولما كان الاغريق ينزلون اما في المدن الاغريقية الثلاث ،

واما في أنحاء مصر الأخرى حيث كانوا عادة يكونون جاليات خاصة بهم ينشئون فيها المعابد للآلهة التي اعتادوا على عبادتها في بلادهم الأصلية ، ويؤلفون جمعيات بعضها ديني وبعضها دنيوي ومع ذلك له نشاط ديني ، فانه كان طبيعيا أن يستمر الاغريق في عبادة آلهتهم واقامة شعائر مذاهبتهم ، كما كان طبيعيا أن تكون المدن الاغريقية في مصر أهم مراكز العبادة الاغريقية .

وازاء ما أقامه البطالمة والأفراد والجماعات من معابد للآلهة الاغريقية ، قد يبدو عجيبا أن المعابد والآلهة الاغريقية لا تظهر في الوثائق بكثرة وافية . ولعل ذلك يرجع الى حقيقة مهمة تتلخص في أنه منذ عهد هيرودوتوس درج الاغريق على تشبيه آلهتهم بالآلهة المصرية حتى أصبح من العسير في ضوء معلوماتنا الحالية الجزم في حالات كثيرة ، هل المقصود اله اغريقي ومعبد اغريقي أم اله مصرى ومعبد مصرى ؟ وعلى كل حال فانه يبدو أن تشبيه الآلهة الاغريقية بالآلهة المصرية لم يكن الا تشبيها سطحيا لم ينفذ الى أعماق وجدان الاغريق الديني بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهة الاغريقية عندهم . ومع ذلك، فان الأدلة متوافرة على أن كثيرين من الاغريق لم يروا غضاضة في التقرب الى الآلهة المصرية واظهار اجلالهم لها . ومرد ذلك الى أن الديانة المصرية تركت في نفوس الاغريق أثرا عميقا بسبب قدم عهدها وغموض أسرارها ، والى ما درج الاغريق عليه من تشبيه آلهتهم بالآلهة المصرية ، والى أنهم اعتادوا على اظهار اجلالهم لآلهة البلاد الأجنبية التي كانوا ينزلون فيها . ونحن نستطيع أن نتصور أنه كلما أصبح الاغريق أكثر ألفة بآلهة المصريين نتيجة لاختلاطهم بأهالي البلاد أو تزاوجهم معهم أو طول استقرارهم بينهم ، كثر تقربهم الى هذه الآلهة بتقديم القرابين ومختلف أنواع الهدايا . بيد أنه لما كان أكثر الاغريق ينزلون في المدن الاغريقية أو يعيشون في جاليات قومية حيث

كانت تتوافر كل الأسباب التي تيسر متابعة عبادة آلهتهم ، فانه يبدو أنه اذا كان كثير من الاغريق يتقربون في بعض الأحيان الى الآلهة المصرية ، فان الاغريق بوجه عام لم ينقطعوا عن عبادة آلهتهم الاغريقية وظلوا مستمسكين بديانتهم باعتبارها من أهم مظاهر حضارتهم وهي التي كانوا يعتزون بها أشد الاعتزاز ويعتبرونها أسمى الحضارات .

ثالثا - سياسة البطلمة الدينية ازاء العناصر الأجنبية

الأخرى

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق في دولة البطلمة . وباستثناء بطلميوس الرابع ، اتبع البطلمة معهم سياسة التسامح الديني التي اتبعوها مع سائر العناصر الأجنبية الأخرى مثل الفرس ، والتراقيين ، والفروجيين ، والسوريين ، والفينيقيين ، والعرب .

رابعا - الثالوث المقدس

يبدو أن بطلميوس الأول رأى ثروة مصر تتوقف على اسهام المصريين والاغريق معا في العمل على تقديم مرافق البلاد الاقتصادية ، وأن ذلك كان يقتضى ازالة ما بينهم من نفور ديني بانشاء ديانة جديدة يتعبد الى آلهتها الفريقان على النحو الذي درج عليه كل منهما، وتبعاً لذلك شكلت لجنة من علماء الدين المصريين والاغريق ، واستقر رأي اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثا يتألف من سرايبس وايزيس وحاربوقراطيس . ولا خلاف على أن ايزيس وحاربوقراطيس كانا الهين مصريين ، وأما سرايبس، كبير آلهة الثالوث ، فقد تضاربت الآراء حول أصله ، لكن الرأي

السائد اليوم هو أنه كان أصلا الاله المصرى أوزيريس أبيس ،
اله العالم الآخر فى منف . ومما يجدر بالملاحظة وله دلالتة وأثره
أن آلهة الثالوث قدمت للاغريق فى شكل اغريقى وللمصريين فى شكل
مصرى . وقد كانت الاسكندرية المقر الأول للعبادة الجديدة ،
ومنف مقرها الثانى ، وأبودوس (البلينا) مقرها الثالث . واذا
كان بطلميوس الأول هو الذى أنشأ العبادة الجديدة ، فان الأدلة
الأثرية تثبت أن بطلميوس الثالث هو الذى شيده لسرابيس
بمنطقة كوم الشقافة فى الاسكندرية معبدا كبيرا لم تبق منه
الا أطلاله .

وقد نجحت الديانة الجديدة من حيث فوزها بعدد كبير من
الأتباع ، ولكن نجاحها الحقيقى يجب أن يقاس بمقدار ما أفلحت
فى تأدية الهدف المنشود من اقامتها وهو ازالة الفوارق الدينية
أو على الأقل تضيق شقة الخلاف بين المعتقدات الدينية لكل من
المصريين والاغريق . ولاشك فى أن الديانة الجديدة تمتعت بأهمية
عظمى بفضل رعاية الملوك لها ، بيد أنه لم يكن مقدر لها النجاح
فى تحقيق الهدف من اقامتها ، ولا سيما أن الوسيلة التى أتبع
لتنفيذ الفكرة كفلت لها فشلا محققا . ذلك أنه كان من شأن
تقديم الآلهة نفسها للاغريق فى صورة اغريقية وللمصريين فى صورة
مصرية توكيد الخلافات القائمة بين معتقدات الفريقين ، وبخاصة
أن الاختلاف فى الصورة كان مرده الى اختلاف جوهرى فى العقيدة .
وعلى كل حال فانه لا يجوز الاقلال من أهمية الفوارق الدينية مهما
تكن يسيرة ، ولا من خطورة النتائج المترتبة عليها . وحسبنا دليلا
على ذلك أحوال الصراع بين أتباع الديانات السماوية ، بل بين
طوائف كل ديانة منهما .

الفصل الرابع سياسة البطالة الاقتصادية

ان نحقق أهداف السياسة الخارجية الطموح التي اتبعتها البطالة الثلاثة الأوائل يتطلب أموالا طائلة لبناء الجيوش والأساطيل ، فضلا عن شراء ود الدول ورجال السياسة . وكان أولئك البطالة في حاجة الى وفرة المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية . ولكي يستطيعوا بناء قواتهم المحاربة على غرار قوات منافسيهم ، والافادة من أصحاب المواهب وكذلك أصحاب رؤوس الأموال في اعادة تنظيم شئون الادارة والنهوض بمرافق مصر الاقتصادية ، عملوا على اجتذاب أعداد كبيرة من الاغريق وأشباههم للوفود على مصر والاستقرار فيها . ولما كان يتعين سد حاجة هؤلاء المستوطنين الى جانب احتياجات أهل البلاد ، فقد ازدادت المطالب الواجب مواجهتها . وقد رأى البطالة الأوائل أن الاستجابة الى كل مطالبهم كانت تقتضى استخدام كافة الوسائل الفنية المعروفة في استغلال جميع موارد الثروة في مصر الى أقصى حد ممكن تحت اشراف ادارة مالية يقظة تسهر على تنظيم الانتاج تنظيما دقيقا ، ورفع مستوى المنتجات ، وتصدير الفائض منها عن احتياجات البلاد ، وتنشيطا للتعامل عنى البطالة بتشجيع استخدام النقود على نطاق واسع وانشاء المصارف المالية في كافة أنحاء البلاد .

١ - الزراعة :

وفي مجال الزراعة عني البطالة الأوائل بتنظيم وسائل الري والصرف ، وادخال وسيلتين حديثتين لرفع المياه وهما الطنبور والساقية ، وبزيادة رقعة الأرض المنزرعة باستصلاح مساحات من الأراضي وبخاصة في الفيوم ، وتنظيم دورة زراعية ، وبانتقاء البنودر ، وبادخال أصناف جديدة من المزروعات ، وبنشر غرس مختلف أنواع الأشجار . وكانت أهم الحاصلات الزراعية هي الحبوب الغذائية والحبوب الزيتية والكروم والفاكهة والبردى . وأبدى البطالة الأوائل عناية كبيرة بتربية الماشية والأغنام والطيور والنحل .

وقد كان أبرز مظاهر الحياة الاقتصادية في القرن الثالث قبل الميلاد ازدهار الزراعة ، وأما أظهر سمات هذه الحياة منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث فقد كان تدهور الزراعة الذي سار قدما في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، وكان يرجع قبل كل شيء الى ذلك النظام المالي والاقتصادي الكريه الذي يعزى الى بطلميوس الثاني . ذلك أن هذا النظام أبهظ كاهل الأهالي مما دفعهم الى الفرار من مزارعهم أو التراخي في أداء عملهم بل الى الثورة في وجه الحكومة التي أمعنت في ارهاقهم بشتى التكاليف . وزاد الطين بلة أنه وسط الثورات القومية والاضطرابات المترتبة على الصراعات العنيفة بين أفراد أسرة البطالة لم تهمل وسائل الري والصرف فحسب بل عمد الأهالي الى تخريبها . وفضلا عن ذلك فان غزوتي أنطيوخوس الرابع تمخضتا عن كثير من الخراب والدمار . وقد ترتب على ذلك كله نقص مساحة الأرض المنزرعة ونقص عدد سكان الريف وقلة الماشية ، وتبعاً لذلك كله نقص الانتاج . حقا ان

الحكومة حاولت معالجة هذه الأوضاع ، وأن جهودها كللت بالنجاح في بعض الأحيان ، لكنها لم تفلح بوجه عام في وقف تيار التدهور الاقتصادي .

٢ - الصناعة :

واجه البطالة الأوائل في مجال الصناعة مشاكل مماثلة لما واجهوه في ميدان الزراعة ، وهي توفير سبل العيش لسكان البلاد وقد ازداد عددهم بنزوح كثرة من المهاجرين اليها ، وكان أغلبهم ممن لهم ميول وعادات اغريقية . وفي الوقت الذي ازدادت فيه وتنوعت مطالب السوق المحلية ، ازدادت القوة الشرائية لدى الدول الهلينية ، كما ازداد اقبال هذه الدول على المنتجات المصرية . ومن أجل مواجهة كل هذه المطالب واستيراد ما تفتقر اليه مصر بحيث يكون الميزان التجاري في صالحها ، اهتم البطالة الأوائل بتنشيط الصناعة اهتماما لم يسبق له مثيل ، فانشأوا مصانع كثيرة ، واحتكروا انتاج بعض الصناعات ، وأشرفوا على انتاج بعضها الآخر ، وعملوا أيضا على زيادة الانتاج وتحسين صنفه ومراعاة أذواق المستهلكين .

وقد استجابت مصر الى كل مطالب الصناعة بفضل مهارة المصريين ومواهب الاغريق ووفرة رؤوس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، وازدهار الزراعة ورواج التجارة ، واهتمام الملوك بمختلف شئون الصناعة . وكانت أهم الصناعات في عصر البطالة صناعة المنسوجات المختلفة من كتان وصوف وقطن وحرير ، وصناعات الورق والزيت والنبيد والأخشاب والأنيبة الفخارية والمعدنية والزجاجية . وكان من بين نتائج ازدهار الصناعة في المدن نزوح الكثيرين من الريف اليها ، وكانت الاسكندرية في مقدمة المدن التي هرعت اليها أعداد كبيرة من الصناع

والعمال • وعلى عكس الحال في بلاد الاغريق ، لم يكن للعبيد دور ملحوظ في حياة مصر الاقتصادية قبل الفتح المقدوني • ولا يبعد أنه في المدن الاغريقية في مصر ، وبخاصة في الاسكندرية . كانت توجد مصانع يعمل فيها العبيد • أما خارج المدن الاغريقية فانه لا يوجد ما يستدل منه على استخدام العبيد في الزراعة أو الصناعة •

وقد كان من شأن العوامل التي سبقت الاشارة اليها ازدهار الصناعة في القرن الثالث قبل الميلاد • ولما كانت أغلب الصناعات المصرية صناعات زراعية ، فان تدهور الزراعة من أواخر عهد بطلميوس الثالث استتبع حتما تدهور الصناعة ، ولا سيما أن النظام المالي الاقتصادي لم يكن أخف وطأة على العمال والصناع منه على الزراع • وخير شاهد على ذلك أن العمال والصناع ، شأنهم شأن الزراع ، لعبوا دورا كبيرا في الثورات القومية والاضطرابات التي صاحبت الصراعات بين البطالمة • ولم يكن لما أصدره البطالمة المتأخرون من قرارات العفو المتكررة ، بما ينطوي عليه من اعفاءات ومنح وضمائم لمختلف العمال والصناع ، أثر يذكر في أغراض الصناعة ثانية •

٣ - التجارة :

وكان طبيعيا أن يعنى البطالمة الأوائل برواج تجارة مصر الخارجية لتصريف منتجات مصر واستيراد ما كانت مصر تفتقر اليه من المواد مثل الأخشاب والمعادن والخيول والقطران بحيث يكون الميزان التجاري في صالح مصر ، ليضمنوا الثراء العريض الذي كانوا يقيمون عليه دعائم قوتهم ونفوذهم في مصر وفي العالم المتمدين •

وقد كانت لهؤلاء البطالمة علاقات تجارية نشيطة ليس مع ممتلكاتهم التجارية فحسب بل أيضا مع بحر ايجه والبحر الأسود ومع الغرب والشمال الغربي وكذلك مع الجنوب والشرق . وازاء ازدهار الزراعة والصناعة وتداول النقود واتساع ملك البطالمة الأوائل وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية ، وانشاء العلاقات مع مختلف الدول في الجنوب وفي الشمال وفي غرب البحر المتوسط ، راجت تجارة مصر الخارجية رواجاً كبيراً في خلال القرن الثالث قبل الميلاد . وكان طبيعياً أن يصحب تدهور الزراعة والصناعة تدهور التجارة الخارجية أيضا . وقد أسهم نشوب الحرب البونية الثانية في شل علاقات مصر التجارية مع الأسواق الغربية . هذا الى أن اضطراب أحوال مصر والضعف الذي انتاب البطالمة منذ رابعهم لم يسمحا بالمحافظة على سيادة مصر البحرية ولا على ممتلكاتهم في بحر ايجه ، ولا بمتابعة سياسة تجارية نشيطة ، ففقدت مصر مكانتها الأولى في تجارة بحر ايجه . ومع ذلك فإن المخلفات الأثرية توحى بوجود علاقات تجارية نشيطة بين رودس والاسكندرية منذ القرن الثالث حتى القرن الأول قبل الميلاد . وفضلا عن ذلك فإنه عندما أصبحت ديلوس في النصف الثاني من القرن قبل الميلاد أهم مراكز التجارة في بحر ايجه نشطت العلاقات التجارية بين ديلوس والاسكندرية . ويبدو أنه عندما انتهت الحرب البونية الثانية أخذت تنشط ثانية تجارة مصر مع الأسواق الغربية .

وفي عهد البطالمة الثلاثة الأوائل ، حين كانت مصر تسيطر على أهم منافذ التجارة الشرقية الواقعة في ممتلكاتها الخارجية ، كانت مصر تحصل على كميات كبيرة من سلع هذه التجارة وتصدر جانبا كبيرا منها اما في شكلها الخام واما بعد تصنيعها ، لكن

بعد أن فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية وسيطر السلوقيون على
تجارة القوافل تأثرت تجارة مصر الشرقية الى حد كبير . وازاء
ذلك عمد البطلمة منذ عهد بطلميوس السادس الى توجيه اهتمامهم
نحو البحر الأحمر فأخذت تجارة مصر الشرقية تنتعش ثانية .

وإذا كانت القرائن تشير الى نشاط تجارة مصر الخارجية
في مختلف الميادين في عهد البطلمة الأواخر ، فإنه بسبب ضياع
سيادة مصر البحرية وتدهور زراعتها وصناعتها واضطراب أحوالها
الداخلية كان هذا النشاط محدودا بالقياس الى نشاط القرن
الثالث قبل الميلاد .

الفصل الخامس

النظام المالى والاقتصادى

أولا - الادارة المالية

كانت الادارة المالية تشرف على اقتصاديات البلاد ، وتختص بحسابات الدخل والخرج ، وتسمى « خزانة الملك » ، مما ينهض دليلا على السلطة الشاملة المطلقة التى كان البطالمة يمارسونها . وكان مدير خزانة الملك هو المهيمن على كل اقتصاديات الدولة ورئيس الادارة المالية فيها ، ولذلك يدعو المؤرخون « وزير المالية » لكن البطالمة كانوا يدعونه « ديويقيتيس » . وهذه التسمية تحمل معنى مدير الضيعة ، وهى ذات دلالة بالغة ، اذ ان البطالمة استنادا الى حق الارث عن الاسكندرية وحق الفتح وحق الملوك الالهى اعتبروا مصر ضيعتهم ، وأسندوا الى وزير المالية ادارة هذه الضيعة . وكان أبولونيوس أشهر وزراء المالية فى عصر البطالمة .

وكان لوزير المالية مساعدون رئيسيون يدعون مساعدى الديويقيتيس ، ويرجح أن كلا منهم كان يختص بالاشراف على شئون منطقة بعينها . وكان يمثل الادارة المالية المركزية فى كل

محافظة موظفون كان أكثرهم نشاطا وأوسعهم اختصاصا موظف يدعى « أويقونوموس » ، فقد كان مسئولاً عن كل شؤون الزراعة والصناعة والتجارة والنقل . وكان هو الذى يختار ملتزمى موارد الدولة المختلفة ، وبخاصة ملتزمى الضرائب ، ويتعاقد معهم ويراقب أعمالهم ويحاسبهم شهريا . وكان بين موظفى الإدارة المالية مديرو الخزائن والمخازن الملكية . وكان كاتب القرية فى أسفل سلك أولئك الكتاب الذين كانت الإدارة المالية تستقى منهم كافة المعلومات التى تحتاج إليها ، وكان يعملوه فى المرتبة كاتب المركز ثم يأتى فى المقدمة الكاتب الملكى فى عاصمة المحافظة . ولما كان يوجد الى جانب وزير المالية وتحت إشرافه مراجع عام للحسابات ، فإنه كان لهذا المراجع ممثلون فى كل المحافظات .

وقد شهد القرن الثانى قبل الميلاد تغييرات كثيرة كان أغلبها فى الإدارة المالية المحلية ، وأهمها اثنان هما : أولا انشاء وظيفة المشرف على الدخل فى كل محافظة ، وثانيا تقسيم المهام التى كان ينهض بها فى الماضى أويقونوموس واحد فى كل عاصمة من عواصم المحافظات بين اثنين هما : الأويقونوموس المشرف على موارد الدولة النقدية ، والأويقونوموس المشرف على موارد الدولة النوعية .

ثانيا - نظام الأراضى

لما كان البطالمة يعتبرون مصر ضيعتهم الخاصة ، فإنه ترتب على ذلك أن الملك كان المالك الوحيد لهذه الضيعة ، ومن ثم فإنه يمكن تقسيم أرض مصر فى عصر البطالمة قسمين رئيسيين وهما أرض الملك وأرض العطاء .

١ - أرض الملك :

وتشمل كل أرض مصر الصالحة للزراعة التي كان الملك يستثمرها مباشرة بتأجيرها بالمزاد العلني للمزارعين . وكانت علاقة هؤلاء المزارعين بالملك ترتكز على عقود كانت لمدة قصيرة في القرن الثالث لكن مدة العقد أطيلت عندما تدهورت الحالة الزراعية وأخذ المزارعون يفرون من أراضيهم . ومع أن مزارعي الملك كانوا أحرارا فإنه كان يتعين عليهم زراعة الأرض التي استأجروها وفقا لتعليمات الحكومة وعدم مبارحة قراهم طوال موسم الزراعة وحتى يسددوا للملك جميع التزاماتهم قبله ، وكانت تشمل الأيجار وفوائد اقتراض البذور واستخدام أدوات الملك وماشيته وسلسلة طويلة من الضرائب ، فكان لا يتبقى للفلاح بعد ذلك الا أقل من نصف المحصول .

وإزاء تدهور الزراعة ازدادت حال مزارعي الملك سوءا فلم يجد الكثيرون منهم منفذا أمامهم الا ترك الأرض والهرب . وعندما أعيت الحكومة شتى الحيل لضمان استغلال أرض الملك ، لجأت الى الإكراه لتحقيق بغيتها . ولم يكن من شأن ذلك الا استفحال داء هروب المزارعين .

٢ - أرض العطاء :

وهي الأرض التي نزل الملك عن حق استثمارها لغيره . ويتبين أنه لم يكن لعبارة أرض العطاء مدلول متفق عليه دوما حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد عندما أصبحت تشمل الأنواع التالية من الأرض :

(أ) الأرض المقدسة :

وكانت ثروة المعابد نوعين ، وكان النوع الأول ملكا خاصا للآلهة ، وكان عبارة عن الأرض التي دأب الملوك على منحها لمختلف الآلهة منذ غابر الزمن حتى أصبحت لأولئك الآلهة ممتلكات واسعة .
أما النوع الثانى من ثروة المعابد فكان عبارة عن الموارد الموقوفة على بعض مناصب الكهنة لتدر دخلا معيننا على شاغلى تلك المناصب .
ويبدو أنه قبل عصر البطالمة كان الكهنة يستطيعون التصرف فى دخل هذه الموارد بالبيع والتوريث ، لكن البطالمة جعلوا الحكومة هى التى تبيع المناصب وما يتبعها من موارد دون أن تعطى المشترين حق التصرف فى تلك الموارد .

(ب) الاقطاعات العسكرية :

مر بنا أن البطالمة اعتمدوا الى حد كبير على متطوعين من الأجانب فى بناء قواتهم المحاربة . وكان البطالمة يمنحون أولئك المتطوعين اقطاعات تعتبر بمثابة مرتباتهم فى وقت السلم . وكانت مساحة الاقطاع تختلف بحسب مرتبة الشخص ونوع الفرقة التى ينتمى اليها .

وقد كان الاقطاع ملكا للتاج ، فقد كان الملك يستطيع استرداده اذا توفى رب الاقطاع أو أهمل فى اداء واجباته أو لم يؤد الضرائب المفروضة عليه . واذا كانت حياة الاقطاع قد أصبحت منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد منحة لرب الاقطاع وسلالته ، فانه عند وفاة رب الاقطاع كانت الدولة تضع يدها مؤقتا على الاقطاع ودخله الى أن يسجل الابن نفسه وفقا للقانون باعتباره رب الاقطاع الجديد . ومعنى ذلك ان الاقطاع ظل دائما ملكا للتاج .

وإلى جانب الاقطاع كان الجنود يمنحون مسكنًا ، ففي القرى الجديدة كان الملك أو أصحاب الضياع يشيّدون لهم بيوتًا ، أما في المدن والقرى القديمة ، فإن الجنود كانوا يمنحون مساكن في بيوت الأهالي ، مما كان يؤدي إلى منازعات كثيرة بسبب ميل الجنود إلى إساءة استخدام حقهم .

(ج) أرض الهبات :

وكانت هذه الأرض نوعين : أحدهما عبارة عن أرض يعتبر دخلها بمثابة مرتب موظف الحكومة الذي منح هذه الأرض . والنوع الآخر كان عبارة عن الضياع الكبيرة التي أغدقها البطالمة على أصحاب الحظوة لديهم من كبار موظفيهم المدنيين والعسكريين .

(د) أرض الامتلاك الخاص :

يرى بعض الباحثين أنه عند أواخر القرن الثاني قبل الميلاد كانت زراعة الكروم وبساتين الفاكهة في الأرض التي هجرت بسبب جفافها أو طغيان المياه عليها تكسب الزراع حق امتلاك هذه الأرض امتلاكًا تامًا ، وأنه لا يبعد أن هذه القاعدة كانت متبعة منذ القرن الثالث أيضًا .

وتنبين من الوثائق أنه كانت توجد في جهات متفرقة وخاصة في الوجه القبلي مساحات من الأرض تزرع حبوبًا غذائية ويمكن التصرف فيها والشراء والرهن والتوريث . ومع ذلك لا نستطيع اعتبارها ملكًا حراً لأربابها لعدة أسباب أهمها أن أرباب هذا النوع من الأرض كانوا يدفعون عنها إيجارًا للتاج ، وأن الملك كان يستطيع استرداد هذه الأرض . وإزاء ذلك لا يبعد أن أرباب هذه الأرض

كانوا لا يملكون أرضهم ملكا حرا وانما يملكون فقط حق استغلالها
ويستطيعون التصرف في هذا الحق مما جعل هذا النوع من الأرض
شديد الشبه بالأرض المملوكة امتلاكاً حراً .

ثالثاً - نظام الصناعات والحرف

توافر لدى البطالة العاملان الأساسيان لاستمرار أرباح
وفيرة من الصناعة ، وهما كميات هائلة من المواد الخام وأعداد
كبيرة من الصناع المهرة . وقد أفضى استغلال هذين العاملين استغلالاً
منظماً دقيقاً الى ما يعرف باختكارات البطالة . فقد كان البطالة
يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكاراً مثل استخراج الزيت
والملاح ، ويشرفون على البعض الآخر ويحتكرونه احتكاراً جزئياً
مثل صناعة النسيج والورق . وسنكتفي في هذا المقام بالكلام عن
صناعاتي الزيت والنسيج .

١ - صناعة الزيت :

كانت صناعة مهمة منذ زمن طويل لكنها ازدادت في عصر
البطالة نتيجة زراعة مساحات واسعة من الأرض المستصلحة
نباتات زيتية ، واحتكار البطالة هذه الصناعة احتكاراً كلياً
وتنظيمها تنظيماً دقيقاً . ويتبين من القانون الخاص بتنظيم هذا
الاحتكار أن الملك كان يستهدف أولاً قصر انتاج الزيت
على الملتزمين الذين اشترروا من الحكومة حق التزام صناعة الزيت
من السمسار أو الخروج أو القرطم . وثانياً الا يستخرج أحد الزيت
خفية والا قدم للمحاكمة وفرضت عليه عقوبات صارمة .
وثالثاً أن تتوافر المادة الخام والأيدي العاملة والمصانع اللازمة
تحت امرة ملتزمي هذه الصناعة . فقد كانت الحكومة تحدد كل

عام مساحة الأرض الواجب زرعها نباتات زيتية وتفرض على الأهالي بيع المحصول كله بسعر معين للتمتع صناعة الزيت في المنطقة ، وتحظر على عمال صناعة الزيت ممارسة المحافظة التي محافظة أخرى ، وتوفر المصانع اللازمة وتضعها تحت إشراف الملتزمين ومندوبي الأوبونوموى ومراقبي الحسابات .

ولكى يستفيد الملك الى أقصى حد من احتكار الزيت ، حظر استيراد الزيت الأجنبي للمتاجرة فيه أو أكثر من الاستهلاك الشخصي لمدة ثلاثة أيام مع دفع ضريبة تقرب من نصف سعره في الخارج .

٢ - صناعة النسيج :

كانت الحكومة تحدد مساحة الأرض الواجب زرعها كتانا ، وتحتم أن يباع لها بسعر معين مقدار معين فقط من محصول الكتان . وكانت الحكومة تعنى بأن يزاول النسيج في كل محافظة كبير عدد ممكن من الأنوال . وكان على كل محافظة أن تقدم للحكومة كمية معينة من الأقمشة والملابس التي أنتجتها . وفي حالة العجز عن السداد كان يتعين دفع ثمن المنسوجات والملابس بحسب ما حددته اللوائح . وكذلك في حالة هبوط الانتاج عن المستوى كانت تفرض غرامة . هذا الى أنه كان على الناسجين أن يؤدوا ضريبة لعلها كانت ضريبة الترخيص بمزاولة المهنة .

حيث ان الحكومة كانت لا تشتري كل محصول الكتان ، ولا تفرض على الناسجين أن يقدموا لها كل انتاجهم ، فانه يتبين من ذلك أن الحكومة كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كلياً مثل صناعة الزيت ، وان كانت تشرف عليها فضلا عن أنها كانت تسهم فيها ، اذ من الجلي أن الكتان الذي كانت تفرض بيعه لها بسعر معين كان يصنع في مصانع ملكية غير مصانع الأهالي .

رابعاً - نظام التجارة

١ - التجارة الداخلية :

كانت تجارة الحبوب الغذائية حرة فيما عدا الكميات التي كان الملك يقضى ببيعها له بسعر معين لبيعه بها فيما يبدو حاجة المحافظات والمدن التي كانت تفتقر الى ما يكفيها منها . أما الحبوب الزيتية فان الحكومة كانت تحتم بيع المحصول كله بسعر محدد ملتزمى صناعة الزيت . وكان حق بيع الزيت يباع ملتزمى البيع . وقد عرفنا أن الحكومة كانت تحتم بيع مقدار معين لها من محصول الكتان بسعر معين ، أما بقية المحصول فلم يكن الاتجار فيها خاضعا لأي قيد . وبعد سداد نصيب الحكومة من انتاج النساجين يبدو أنهم لم يكونوا أحرارا في بيع باقى انتاجهم خاضعا لأي سعر وانما بالسعر الذى تحدده اللوائح وذلك تفاديا لمنافسة نصيب الملك وانتاج المصانع الملكية . وفي حالة السلع التي كانت الحكومة تحتكر صنعها وبيعها أو تحتم اعطاءها نصيبا معيناً منها كان يوجد ملتزمون للبيع ، ومنتبين في حالة الزيت أن تجار التجزئة كانوا يساعدون على ذلك . ويرجع أن كل أصحاب الحوانيت كانوا يضطرون الى الحصول من الحكومة على تراخيص لمزاولة البيع ، والى اعطاء الحكومة في مقابل ذلك جانبا كبيرا من أرباحهم .

ونتبين من احدى وثائق القرن الثالث قبل الميلاد أن وزير المالية كان يقسم السلع قسمين : أحدهما السلع التي حددت الحكومة أسعارها وكانت فيما يبدو منتجات الصناعات التي كانت الحكومة تحتكرها كلياً أو جزئياً مثل الزيت والمنسوجات . أما القسم الثانى فكان يشمل السلع التي لم تحدد الحكومة أسعارها وكان يبيعها أولئك الذين اشترروا من الحكومة حق انتاجها وبيعها مثل الجعة ، أو حق البيع وحده مثل اللحوم والعدس المطهى .

ولاشك في أن أغلب هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وفقا لحالة العرض والطلب ، واكيلا يغالوا في أرباحهم طلب رزير المسالية من وكلائه أن يحددوا لهم أرباحا معقولة . ومعنى ذلك أنه حتى في حالة السلع التي كانت الحكومة لا تحدد رسميا أسعارها لم يكن الاتجار مطلقا ومحورا من كل قيد .

٢ - التجارة الخارجية :

ويمكن تقسيم واردات مصر من ممتلكاتها ومن سائر بلاد البحر المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشمالية الغربية قسمين كان أحدهما يتألف من المواد التي كانت مصر تفتقر اليها مثل الأخشاب والمعادن والخيول . ويرجح أن استيراد هذه المواد أو الجانب الأكبر منها كان وقفا على الملك ، وأنه كان لا يدفع عنها الا مكوسا جمركية طفيفة . أما القسم الآخر فإنه كان يشمل السلع التي تنتج مصر مثيلاتها ، ولذلك فإن الملك كان يفرض عليها مكوسا مرتفعة ، وكان التجار هم الذين يجلبون هذه السلع . ونتبين من وثيقة من عهد بطلميوس الثاني أن البضائع المستوردة من الخارج كانت أربع فئات بحسب المكوس التي تجبى عنها . وكانت هذه الفئات على التوالي : ٥٠٪ و ٣٣ ١/٣٪ ، ٢٥٪ ، ٢٠٪ . وإذا كانت هذه المكوس الجمركية تبدو مرتفعة جدا بالقياس الى المكوس الجمركية التي كانت تجبى في باقى بلاد البحر المتوسط ، فإن هذه المكوس البطلمية كانت تقابل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد المماثلة . فقد كانت ضريبتا ال ٥٠٪ و ال ٣٣ ١/٣٪ اللتان يدفعهما مستوردو نوعين من النبيذ الاغريقي تقابلان ضريبتى النصف والثلث المفروضتين على زارعى الكروم في مصر ، وكذلك كانت ضريبة ال ٢٥٪ المفروضة على العسل الأجنبي وأيضا على الأسماك المجففة تقابل ضريبة الربع المفروضة على كل من النجاليين وصائدى الأسماك المحليين .

أما عن واردات مصر من الجنوب والشرق ، فإنه يرجح أن الملك كان يحتكر شراء هذه السلع بسعر محدد عندما كان التجار ينقلونها الى مصر وممتلكاتها . ولم تكن العطور والبخور والمر تستهلك عادة في شكلها الخام بل تحول الى روائح ومساحيق وأدوية . ولا يبعد أن البطالمة كانوا يحتكرون هذه الصناعة وكذلك تصدير هذه السلع في شكلها الخام وأيضا بعد تصنيعها .

وقد كانت أهم صادرات مصر هي الحبوب الغذائية والمنسوجات والورق والعطور والبخور . ويرجح أن البطالمة كانوا يحتكرون التجارة الخارجية في هذه السلع وغيرها من صادراتهم عن طريق ملتزمين أو متعهدين مثل أبولونيوس وغيره من كبار تجار الاسكندرية وهم الذين يعزى اليهم فضل السيادة التجارية التي اكتسبتها الاسكندرية في البحر المتوسط ، لأنه بفضل مجهوداتهم أقصى الاثينيون من المبدان ونجحت الاسكندرية في منافسة رودس وميليتوس . ولم يقتصر نشاط هؤلاء التجار على البحر المتوسط بل يمموا وجوههم شطر شواطئ بلاد العرب وافريقيا ووصلوا في النصف الثاني من عصر البطالمة حتى موانئ الهند .

خامسا - نظام جباية الضرائب

استخدم البطالمة نظام الالتزام في جباية الضرائب نوعية كانت أو نقدية . وكان الملتزمون يضمنون للملك الحصول مما التزموه من ضرائب على قدر معين من المال أو المواد . وكانوا لا يقومون بجباية الضرائب فقد كان يتولى أمر ذلك موظفون حكوميون تحت اشراف الملتزمين ومراقبين مختلفين . وكان يشهر سنويا في المزاو دخل كل ضريبة على حدة في منطقة لم تزد اطلاقا على محافظة واحدة . وكان المزاو يرسو على من يضمن للحكومة أكبر حصيلة

ممكنة من ضريبة بعينها • وكان على الملتزم الذي يرسو عليه المزداد أن يقدم أشخاصا يضمنون الوفاء بالقدر الذي تم التعاقد عليه مضافا إليه ضريبة شراء حق الالتزام • وكان على الملتزم وضامنيه تقديم ممتلكاتهم رهنا للوفاء بما تم التعاقد عليه • وكان ما يجمعه الجبابة يودع لحساب الملتزم في المخازن أو الخزائن الملكية • وإذا تبين بعد الحساب الختامي في آخر العام وجود زيادة في حصيلة الضريبة، فإنها كانت تؤول الى الملتزم وضامنيه • اما اذا وجد عجز فانه كان يتعين على الملتزم وضامنيه سداده • ويتفق المؤرخون على أن البطالة قد حموا مصالحهم حماية فعالة باتباع نظام الالتزام في جباية الضرائب • وقد كان نظام الالتزام ومسئولية الموظفين الضمانين الرئيسيين اللذين لم يكن للبطالة غنى عنهما في نظامهم المالي والاقتصادي حيث كانوا يخشون ان يتعرض دخلهم لأية خسارة •

الفصل السادس

النظام القضائي

ولما كانت لمصر عاداتها وقوانينها منذ أمد بعيد ، وكان للاغريق كذلك عاداتهم وقوانينهم ، فانه كانت تطبق على المصريين قوانين مصرية في جوهرها وعلى الاغريق قوانين اغريقية في جوهرها . ومع ذلك فانه ازاء تشابك مصالح الفريقين ومعيشتهما جنبا الى جنب في قطر واحد يهيمن عليه ملك واحد يقبض على كل مصادر السلطة فيه ، لم يكن هناك مفر من أن يتسرب الى قوانين كل من الفريقين بعض مظاهر قوانين الفريق الآخر . ويمكن تبين بعض الفوارق بين القانون المصري والقانون الاغريقي وكذلك بعض ظواهر التفاعل بينهما اذا تناولنا في ايجاز شديد النواحي الرئيسية في كليهما .

أولا - القانون المدني

١ - الأحوال الشخصية :

ونرى مثلا واضحا للفوارق بين التشريعين المصري والاغريقي في نظرة كل منهما الى المرأة . ذلك أنه وفقا للقانون المصري كانت المرأة تستطيع التصرف في نفسها وثيما تملك دون قيد أو شرط ،

في حين أنه في نظر القانون الاغريقي كانت المرأة قاصرا في حاجة الى وصى شرعى عليها في كل تصرفاتها . ولم يلبث البطلمة أن ساووا بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية بالهبوط بالأولى الى مستوى الثانية .

ويرى كثيرون من الباحثين أن القانون المصرى كان يعترف بنوعين من الزواج يدعو الباحثون أحدهما « الزواج الكامل » والآخر « زواج المتعة أو التجربة » . والفارق بين النوعين أن النوع الأول كان رابطة مقدسة لها طابع الدوام وتترتب عليها التزامات دائمة تجاه الزوجة والأولاد ، على عكس النوع الثانى الذى كان يحدد أمده بفترة معينة دون أن تترتب عليه أية التزامات دائمة .

أما عن زواج الاغريق فانهم فى الاسكندرية وبطوليميس كانوا يحررون عقدين أحدهما مدنى والآخر دينى . وكان الاغريق الذين يعيشون خارج هاتين المدينتين يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و «عقود المعاشرة » . وكان هذان النوعان من العقود يمثلان نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما تنظيم العلاقات الشخصية والمادية بين الطرفين واثبات حقوق الأولاد .

ووفقا للقانون المصرى والاغريقى كان لكل من الطرفين حق الطلاق . وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين يثبت فيهما أنه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر .

ونلمس أثر القانون الاغريقى فى القانون المصرى فى وضع المرأة وفى بعض الشؤون الخاصة بالميراث . ومن ناحية أخرى أخذ الاغريق عن المصريين عقود الزواج الخاصة باثبات كل المسائل المالية والقواعد الخاصة بسيطرة الأبوين على أبنائهما وبعض أحكام الميراث .

٢ - الأحوال العينية :

ولضمان تنفيذ العقود بأمانة كان المصريون والاعريق يضعون فيها شروطا جزائية كانت مألوفة في القانون الاغريقي مثل ائتمام المدين الذي لا يسدد دينه على دفع غرامة معينة للادارة المالية أو معاملته معاملة المدين لهذه الادارة أي حبسه ، مما يدل على أمرين : أحدهما هو أن قانون الدين الاغريقي قد طبق في مصر على المصريين والاعريق منذ بداية عصر البطلمة . والأمر الآخر هو أنه لا بد أن يكون قد سبق ذلك الغاء قانون الملك المصرى بوكخوريس الذى لا يسمح بحبس المدين أو استعباده . ومن أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون المصرى والاعريقي يعترفان بوسائل أخرى ، احداها تشبه ما نسميه اليوم برهن الحيازة ، وأخرى تشبه ما نعرفه بالرهن الضمانى ، وثالثة تماثل ما نعرفه بالبيع الوفايى ، وقد حدد أمر ملكى من منتصف القرن الثالث السعوى الرسمى للفائدة على القروض الخاصة بمقدار ٢٤٪ فى السنة . وفى أغلب الحالات كان ينص فى العقد على الفائدة وعلى الزام المدين بدفع الدين مضافا اليه ٥٠٪ منه فى حالة عدم الوفاء به فى الموعد المحدد . وفى بعض الحالات كان لا ينص فى العقد على الفائدة وإنما تدمج فى رأس المال الواجب سداده .

ولكل صفقة من صفقات البيع المصرية كان يحور عقدان يطلق على أحدهما « عقد المسال » وعلى الآخر « عقد التنازل » . وكان يحور لصفقات البيع الاغريقية عقد بيع ينص فيه على الضمانات التى كان القانون الاغريقي يفرضها على الضامنين والوسطاء . وفى بعض الأحيان كان عقد البيع يقرن بعقد تنازل . وحوالى آخر القرن الأول قبل الميلاد كانت تستخدم صيغة تجمع فى عقد واحد بين نصوص عقدي البيع والتنازل .

ثانيا - القانون الجنائي

ويتبين من استقراء الوثائق أن القانون الجنائي البطلمي كان يفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهي :

أولا - الجرائم ضد مصالح الخزانة العامة .

ثانيا - الجرائم ضد الأفراد .

ثالثا - الخيانة العظمى .

رابعا - سوء استخدام الحقوق .

خامسا - الجرائم الدينية .

وكانت تفرض عقوبات تناسب كل نوع من أنواع هذه الجرائم ، فقد كانت العقوبات تتراوح بين التوبيخ والغرامة ، ومصادرة الأمدلاك ، والسجن ، والإعدام . وفي ضوء معلوماتنا الحالية لا نستطيع الجزم بطابع القانون الجنائي البطلمي ، ولا الى أي مدى احتفظ بالقانون الجنائي المصري أو عدل فيه في خلال عصر البطلمية ، أو اذا كان كل من المصريين والأجانب يخضع لقانون جنائي خاص به .

ثالثا - الهيئات القضائية

ونحن نميل الى الرأي القائل بأنه لم توجد عندئذ تفرقة بين القضاء المدني والقضاء الجنائي ، ولذلك نرجح أن سائر المحاكم المصرية والاغريقية كانت تنظر في القضايا المدنية وكذلك في القضايا الجنائية العادية مثل الاعتداء على الأشخاص أو على أموالهم ، أما الجرائم الخطيرة ، مثل الخيانة العظمى والقتل ، فلا يبعد أنها

كانت من الاختصاص محكمة خاصة لعزها كانت ما تدعوها المصادر القديمة « محكمة الملك » .

وكان الملك يعتبر كبير القضاة في البلاد ، لكنه كان عادة ينيب عنه قضاة آخرين للفصل في المنازعات بين رعاياه . ويمكن تقسيم الهيئات القضائية في عصر البطلمة أربعة أنواع وهي :

١ - محاكم القضاة المصريين وكانت تختص أساسا بالفصل في قضايا المصريين ، وتتألف كل محكمة منها من ثلاثة كهنة وكذلك منذ القرن الثاني على الأقل من مدع عام يتضح من لقبه أن وظيفته قد اقتبست من النظام الاغريقي .

٢ - محاكم القضاة الاغريق ، وكانت محاكم ملكية متنقلة للفصل في قضايا الاغريق من غير مواطني المدن الاغريقية ، فقد كانت لكل مدينة منها محاكمها الخاصة بها . وكانت كل محكمة تتألف من ثلاثة قضاة ومدع عام وكاتب ومحضر .

٣ - وكان يوجد في القرن الثالث قبل الميلاد محكمة مختلطة للفصل في القضايا التي يكون طرفا الخصومة فيها من جنسيتين مختلفتين . ويبدو أنه لم يعد لهذه المحكمة وجود منذ القرن الثاني قبل الميلاد .

٤ - القضاء الخاص ، وكان يدخل في نطاقه الشكاوى الموجهة ضد موظفي الادارة وعمال المالية والقضايا التي تتأثر بها موارد الملك ، والقضايا المدنية والجنائية التي تمس أشخاصا يخدمون هذه الموارد . وكان يفصل في هذه القضايا الملك وكبار رجال الادارة والموظفون المشرفون على دخل الدولة . ويبدو أنه على الأقل في القرن الثالث قبل الميلاد كانت توجد محاكم خاصة لرجال الجيش ، وكانت هيئة كل محكمة منها تتألف من عشرة أشخاص لا يبعد أتهم كانوا ضباطا في الجيش .

الفصل السابع

الحياة الإجتماعية

أولا - الاغريق

مر بنا أن البطالمة الثلاثة الأوائل كانوا في حاجة ملحة الى الاغريق لتكوين جيش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، وكذلك لاعادة تنظيم شؤون الادارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا . وازاء ذلك كله فتح البطالمة أبواب مصر على مصاريحها للاغريق وأجزلوا لهم العطاء ومنحوهم مركزا ممتازا في وطنهم الجديد ، ليضمنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام . ذلك أن البطالمة اتخذوا من الاغريق شركاءهم في حكم البلاد ومنحوهم الضياع والاقطاعات وهبأوا لهم البيئة الملائمة لمعيشتهم بما أولوه من اهتمام للمدن الاغريقية في مصر . أما الاغريق الذين ضاقت بهم هذه المدن فانهم تفرقوا بين جنبات الوادى حيث كانوا يؤلفون جماعات قومية تتكون كل منها ممن ينتمون الى قومية بعينها . وقد كان لكل جماعة منتدياتها ومجموعة قوانينها الاغريقية في مكان معين ، ونوعان من النشاط أحدهما سياسى بمعنى أنها كانت تصدر قرارات وتنتخب كهنتها ورؤساءها وحكامها الذين

يديرون شئونها • والنشاط الآخر ديني ، فقد كان لكل جماعة آلهتها القومية وهيكلها وكهنتها وطقوسها الدينية • وهكذا يتبين أن هذه الجماعات كانت منظمة على نمط المدن الاغريقية وتتمتع بقدر من الحكم الذاتي • وأغلب الظن أن البطالمة اعترفوا بالجماعات القومية وأعطوها رعايتهم • وكانت تلى تلك الجماعات فى الأهمية جمعيات رجال الجومنازيوم ، فقد كان الاغريق ، حيثما نزلوا ، ينشئون هذه المعاهد الجليلية الشأن التى كانت قوام الحياة الاجتماعية والفكرية فى بلاد الاغريق منذ أقدم العصور • وكانت تأتى بعد ذلك فى الأهمية جمعيات اغريقية ذات طابع ديني أو اجتماعي •

ان أولئك الأجانب الذين وفدوا على مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد كانوا يكونون طبقة عليا تفصلها فوارق شاسعة عن أهل البلاد • ذلك أن الاغريق أحضروا معهم ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم وكانوا يعيشون عادة فى أوساط اغريقية ، ويعتزون أشد الاعتزاز بحضارتهم التى كان يساعدهم على تجديد روحها وفود أفواج من الاغريق باستمرار طوال القرن الثالث • وفضلا عن ذلك فانهم كانوا يقبضون على أرفع المناصب ويستمتعون بخيرات مصر • فى حين أن المصريين كانوا يؤلفون الطبقة السفلى المكبلة بالتبعات والالتزامات فكان يحز فى نفوسهم ضياع استقلالهم وسلب كرامتهم وحرمانهم خيرات بلادهم • وفى كنف تلك الظروف حافظ الاغريق على ديانتهم وثقافتهم وحضارتهم ، وكان التزاوج بين المصريين والاعريق أمرا بعيد الاحتمال •

وإذا كان قوام سياسة البطالمة الأوائل اشراك الاغريق فى حكم البلاد واستغلالها والسيطرة على المصريين ، فانه منذ عهد بطلميوس الرابع أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة فى معاملة

المصريين تنطوى على افساح المجال لهم الى جانب الاغريق ، أملا في كسب وددهم وولائهم ، لكن البطلمة لم يذهبوا اطلاقا الى حد مساواة المصريين بالاغريق . وقد واكب هذا التغير في سياسة البطلمة تأغرق بعض المصريين وتأقلم بعض الاغريق وانقطاع وفود الاغريق على مصر ، ونجم عن هذه الظواهر حدوث شيء من التقارب بين العنصرين المصري والاغريقي ، فنشأ عن ذلك حدوث تزواج أغلب الظن انه كان بين المتأخرين والمتهمسين ، ويستدل على هذه الظاهرة انه يرد في الوثائق ذكر كثيرين ممن يحملون أسماء مصرية واغريقية . ولذلك لم يعد الاسم منذ القرن الثاني قبل الميلاد دلالة على الجنسية . ومع أننا نرى أن الجمع بين الأسماء المصرية والاغريقية لا يدل حتما في كل حالة على التزاوج ، فقد يكون ذلك نتيجة التأغرق أو التأقلم ، لا نستبعد حدوث تزواج بين المصريين والاغريق في الشطر الثاني من عصر البطلمة ، وان كنا نستبعد أن يكون ذلك التزاوج قد حدث بالكثرة التي يتوهمها البعض .

وقد كان من شأن انقطاع وفود أفواج جديدة من الاغريق منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد اضعاف الروح الاغريقية تدريجا بين اغريق مدن مصر الاغريقية . ومع ذلك فان اغريق هذه المدن بقوا اغريقا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين في هذه المدن ، ونتيجة لاستمرار المعاهد والمدارس الاغريقية في متابعة نشاطها .

وقد كان لانقطاع وفود أفواج جديدة من الاغريق أثر أقوى خارج مدن مصر الاغريقية ولا سيما أنه واكب ذلك حدوث شيء من التقارب بين العنصرين المصري والاغريقي وحدث تزواج بينهما ، غير أنه لما كانت الصبغة الاغريقية تكسب صاحبها مركزا ممتازا

مهما كانت جنسيته ، فانه لا يستبعد أن غالبية الاغريق استمسكوا بحضارتهم الاغريقية . ويبدو أنه مهما ضعف روح اغريق الأقاليم حتى كانوا يختلفون اختلافا كثيرا عن الاغريق القدماء ، فان أغلبهم بقوا اغريقا خالصين ، وذلك بفضل أثر المدن الاغريقية في مصر وجماعاتهم القومية ، وأثر معاهد الاغريق وجمعياتهم ومدارسهم التي كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق ، وكذلك بفضل ما كان الاغريق يتمتعون به من مكانة ممتازة في البلاد .

ويمكن تقسيم الاغريق المقيمين في مصر ابان عصر البطالمة أربع طبقات : طبقة الموظفين المدنيين والعسكريين وطبقة أرباب المهن الفنية ، وطبقة رجال الأعمال ، وطبقة أرباب الحرف اليدوية .

ثانيا - المصريون

ولم يكن الأجانب سوى أقلية تعد بالآلاف بالنسبة الى ملايين المصريين . وقبل عصر البطالمة كانت تأتي في مقدمة المصريين الطبقة الارستقراطية بشقيها الدنيوى والدينى . ويبدو أن بطلميوس الأول سمح لبعض عناصر الارستقراطية المصرية الدنيوية بالاحتفاظ بممتلكاتها ومناصبها الادارية ، لكننا لا نعود نسمع شيئا عن هذه الارستقراطية في خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يوحي بأنه منذ أواخر عهد بطلميوس الأول عمل البطالمة على حرمان هذه الارستقراطية أملاكها ومناصبها الادارية . ولعله لم يبق من هذه الارستقراطية الا أفرادها الذين كانوا يتولون مناصب في الفرق المصرية في الجيش . ذلك أننا عندما نسمع عن هذه الارستقراطية ثانية في الشطر الثانى من عصر البطالمة نراها ممثلة في أشخاص لهم صفة حربية مثل ديونوسيوس بتوسراييس الذى تولى زعامة

الثورة في عهد بطلميوس السادس ، ومثل باوس الذي تولى اخضاع
مناهى بطلميوس الثانى فى منطقة طيبة •

وقد مر بنا أن الارستقراطية الدينية كانت تتمتع فى بداية
عصر البطالمة بثروة عريضة ونفوذ كبير ، مما حدا بالبطالمة الى
العمل على تقليص أظافرها • بيد أنه بعد موقعة رفح واشتعال لهيب
الثورات القومية التى تزعمها الكهنة بوصفهم زعماء المصريين
الروحانيين اضطر البطالمة الى اتباع سياسة جديدة فى معاملة
الكهنة حررتهم بالتدريج من القيود التى فرضها عليهم البطالمة
الأوائل حتى ليبدو أنه لم يبق من تلك القيود الا خضوع كل معبد
لمراقب ، واستيلاء الحكومة على دخل ضريبة الأبو مويرا ، واحتفاظها
بحق بيع المناصب الدينية المهمة للذين يتولونها • ومع ذلك فإنه
يبدو من تجديد المنح الكهنة فى عهد مختلفة بل فى العهد الواحد نفسه
أن الكهنة لم يفلتوا فى أن يستردوا فعلا جل حقوقهم وامتيازاتهم
السابقة • ذلك أنه عندما ضعفت السلطة المركزية وفسدت الأداة
الحكومية ، كثيرا ما عجزت السلطة المركزية عن حمل الموظفين على
تنفيذ قراواتها ، ولذلك كثيرا ما أصبحت تلك القرارات قصاصات
لا قيمة لها •

وقبل عصر البطالمة كانت تلى الارستقراطية بشقيها الدنيوى
والدينى طبقة المحاربين المصريين • وقد فقدت هذه الطبقة مكانتها
المتأزة فى عهد البطالمة الأوائل بسبب اعتماد أولئك البطالمة
على العناصر الأجنبية فى تكوين قواتهم المقاتلة ، وعدم استخدام
المحاربين المصريين حتى موقعة رفح الا فى أعمال الجيش الثانوية ،
ومنحهم اقطاعات ضئيلة بالنسبة الى اقطاعات الجنود الأجانب •
فلا عجب إذن أن المحاربين المصريين ، شأنهم شأن غيرهم من سائر
طبقات المصريين ، شعروا بذل الاحتلال الأجنبى ، فأسهموا فى

الثورات القومية حتى بعد ما منحوه من الامتيازات عقب موقعة رفح . ولاشك في أن حال هذه الطبقة قد تحسنت في الشطر الثاني من عصر البطالمة ، لكنه كان تحسنا نسبيا بالقياس الى ما كانت عليه قبل ذلك ، اذ أن الجنود الأجانب كانوا لا يزالون يكونون الجانب الأكبر من القوات البطلمية ، وكانوا لا يزالون يتمتعون بأكبر الاقطاعات وأخصبها .

وكانت طبقة الموظفين تلى هذه الطبقة ، وكانت تتألف من كتبة متفاوتى الدرجات . ويبدو أن فئاتهم العليا اختفت تدريجا ، ولم يبق في خدمة الحكومة من الموظفين المصريين الا فئة صغار الكتبة وهم الذين اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية ونظم العمل الجديدة . ولم تكن المناصب الحكومية التى يستطيع المصريون توليها في خلال القرن الثالث قبل الميلاد مثل مناصب عمد القرى وكتابها مصدر خير عميم ، فقد كانت مسئولياتها عادة أكثر من نفعها . وقد كان أشقى الموظفين المصريين عملا وأكثرهم مسئولية ، أولئك التاعسون الذين كانوا يرغمون على القيام بمختلف أنواع الحراسة المتصلة بالشئون الاقتصادية ، فقد كان ذلك ينطوي على مسئوليات شخصية ومادية ، ولذلك فإن الأهالى كانوا ينفرون من اداء هذه الأعمال ويحاولون جاهدين الفرار منها . بيد أن القران توحى بأن حال الموظفين المصريين بوجه عام كانت أفضل من حال غالبية مواطنيهم ولاسيما في الشطر الثانى من عصر البطالمة عندما تدهورت مرافق البلاد الاقتصادية وضعفت السلطة المركزية وشاعت الرشوة في الأداة الحكومية . وفي الشطر الثانى من عصر البطالمة سمح لمصريين بتولى مناصب رئيسية فى الادارة المحلية ، غير أن عددهم كان محدودا بالقياس الى الأجانب الذين كانوا يشغلون مثل هذه المناصب .

وكانت تأتي فى مؤخرة الطبقات الاجتماعية غالبية المصريين من زراع وصناع وتجار ، وكانوا عماد حياة البلاد الاقتصادية ،

ولذلك كانوا أكثر من غيرهم تأثرا بالنظام المسالى الكريه الذى وضعه البطالمة لبلاد ، وكان يهدف أساسا الى جعل الملك غنيا . ذلك أنه كان يتعين على هذه الغالبية أن تخدم موارد الملك بطريقة أو أخرى ، زراعا فى أرض الملك ، أو عمالا فى مصانعه ، أو فى مصانع تعمل لحسابه أو تؤدى له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له من نتاجها ، أو تجار تجزئة أو صيادين أو رعاة يدفعون جميعا ضرائب معينة نظير مزاولتهم أعمالهم .

وهكذا نرى انه لم تنج من بطش البطالمة فئة واحدة من فئات المصريين . ومع ذلك فانهم استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، ويعبدون آلهتهم ، ويخضعون الى حد كبير لقوانينهم الفرعونية ، ويلتقون فى أندية جمعياتهم أو فى بيوت أعيانهم أو فى المعابد .

ويبدو أنه كان عند المصريين فى عصر البطالمة ثلاث مراحل تعليمية : أولية ووسطى وعالية ، وأن أهم مدارس المرحلتين الأولى والثانية كانت ملحقة بالمعابد ، وأن مدارس المرحلة العالية كانت وثيقة الاتصال بمعابد العواصم الكبرى . واذا كانت الأمية فاشية فى أزهى عصور الفراعنة ، فانه لا يمكن أن نتصور أن البطالمة عملوا على محو الأمية بين المصريين . واذا كانت الغالبية العظمى من المصريين لم تقبل على التعليم فى أزهى عصور ملوكها الوطنيين ، عندما لم تكن مرهقة بمشغل ما أرهقت به فى عصر البطالمة من التكاليف والالتزامات ، فان من المستبعد أنها وجهت أية عناية تذكر الى التعليم عندما كانت فريسة البؤس والفاقة فى عصر طغاتها الأجانب .

وقد عرفنا كيف ان البطالمة الأوائل عملوا على تضيق الخناق على رجال الدين المصريين لكسر شوكتهم . ولا شك فى أنه كانت لهذه الظروف آثار سيئة فى نفوس رجال الدين المصريين،

ومع ذلك فان من الاسراف في الرأى أن نتصور أنه ترتب على ذلك القضاء على دور المعابد في مجال التعليم . ذلك أنه كانت هناك حاجة ملحة مستمرة الى عناصر جديدة من الكهنة ، ومن محررى العقود ، ومن محترفى الاشتغال برسمهم أو بحفر المناظر والنقوش الدينية على جدران المعابد والمقابر والتوابيت والأنصاب ، ولا جدال فى أن مدارس المعابد فى مرحلتىها الأولى والوسطى كانت خير مكان لاعداد كل هؤلاء . ونكاد نجزم بأن مدارس المعابد فى مختلف مراحل التعليم أوصدت أبوابها دون لغة الاغريق وثقافتهم ، ذلك أن هذه المدارس كانت المعقل الحصينة للثقافة المصرية ، واشتهرت باستمساكها بتقاليدها على مر العصور . ومرد ذلك الى أن القائمين بالتدريس فيها كانوا رجال الدين وهم الذين كانوا أقطاب الثقافة المصرية ويعتبرون تراث الماضى أمانة فى أعناقهم .

ويبدو أن معاهد العلم المصرية العالية كانت أكبر ضحية للسياسة العامة التى اتبعتها البطالمة الأوائل ، ذلك أنه حين بطش أولئك الملوك بكافة الطبقات المصرية عامة وبطبقة رجال الدين المصريين خاصة - وهم الذين كان منهم العلماء البارزون - وقبض أولئك البطالمة بيد من حديد على موارد البلاد جميعها ، وكانت من أهمها موارد المعابد المصرية ، لم يأل أولئك البطالمة جهدا فى اجتذاب الاغريق الى مصر وإشراكهم فى حكمها وفى التمتع بخيراتهما ولا فى اظهار اعتزازهم بالحضارة الاغريقية ، ولا فى رعاية هذه الحضارة باجزال العطاء بسخاء للعلماء والأدباء والفلاسفة والفنانين الاغريق الذين استقدموا الى الاسكندرية . حقا ان لدينا من الشواهد ما يدل على أن المعاهد المصرية العالية ظلت تمارس فى عصر البطالمة نشاطا علميا ، لكن جل هذا النشاط ان لم يكن كله كان مقصورا على صيانة تراث الماضى من طغيان الثقافة الاغريقية عليه . ويبدو أن النتيجة المنطقية لانصراف العلماء المصريين

الى الحفاظ على تراث الماضى ، والمزج بين الدين والعلم ، كانت انحدار مستواهم ومستوى معاهدتهم انحدارا شديدا مطردا ضاعت فى ركابه أهمية هؤلاء وهؤلاء ، فى الوقت الذى اتسمت فيه جامعة الاسكندرية بقفزاتها الرائعة فى الدرس والبحث ونتائجها المثيرة فى مجالات الآداب والعلوم والطب والجراحة .

ولما كانت الأمية فاشية بين المصريين ، وكانت المدارس المصرية قد أغلقت أبوابها دون الثقافة الاغريقية ، فاننا نستطيع أن نوقن أن أغلب المصريين كانوا بعيدين حتى عن مظاهر الحضارة الاغريقية . ومع ذلك لا شك فى أن المصريين الذين شغلوا وظائف فى الحكومة قد اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية لأنها أصبحت اللغة الرسمية . ولعل الطبقة العليا من المصريين رأت فى تعلم الاغريقية والنهل من موارد الثقافة الجديدة استكمالاً لمؤهلات أفرادها ولعل ذلك كان أيضا شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة اغريقية طمعا فى الفوز بمركز يعادل مركز الاغريق . بيد أنه لما كانت الطبقة العليا وكذلك فئة الوصوليين قليلتى العدد ، وكان حظ أكثر موظفى الحكومة المصريين من الثقافة الاغريقية تافها ، وكانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، فلا بد اذن من ان تغلغل الثقافة الاغريقية بين المصريين كان محدودا .

وقد مر بنا أنه فى الشطر الثانى من عصر البطالمة تمصر بعض الاغريق وتآغرق بعض المصريين ، وحدث تزاوج بين العنصرين وانتشرت الأسماء المختلطة . ولا بد من أنه قد صحب ذلك ان استبدل أولئك المتأغرقون بشبابهم المصرية ثيابا اغريقية . بيد أنه اذا كان من المسلم به أن أغلب المصريين لم يعرفوا شيئا من اللغة الاغريقية وآدابها ، وأنهم لم يتزاوجوا مع الاغريق على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الاغريق ، فلا بد أيضا من أنهم لم يتخذوا أسماء

اغريقية ولا ثيابا اغريقية ، ومن أنهم في مجموعهم بقوا مصريين خالصين . ولعل أهم سبب لاحتفاظ المصريين بوجه عام بحضارتهم كان تمسكهم بديانتهم وهى التى كانت قوام حضارتهم وجوهرها .

وان من اليسير أن نتصور شقاء المصريين بعد أن عرفنا كيف سلبهم البطالة استقلالهم ، ووضعوا أيديهم على كل موارد البلاد وأثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة ، وبطشوا بمختلف طبقاتهم ، فى حين أنهم وفروا للاغريق أسباب الحياة التى كانوا يألفونها فى بلادهم ، ومنحوهم أرفع المناصب وأخصب الضياع وأوسع الاقطاعات . ولم يتحمل المصريون كل ما لقوه من عنف وعسف فى سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين الذين يعتنقون المعتقدات الدينية نفسها ويتكلمون اللغة نفسها ويحبون الحياة نفسها ، وانما فى سبيل ملوك أجنبية وجنس أجنبي بأسره اصطفاه أولئك الملوك لمشاركتهم فى حكم البلاد وارغام أبنائها على بذل أقصى الجهد فى استغلال مرافق البلاد الاقتصادية . فكان طبيعيا أن قلوب المصريين نبضت بكراهية الأجانب ، وأن مرجل غضبهم انفجر فى وجه مغتصبى بلادهم ، فقد تضافرت فى اشعال لهيب الثورات القومية ثلاثة عوامل لها أبعد الأثر فى حياة الناس فى كل زمان ومكان ، وهى العامل الدينى والعامل القومى والعامل الاقتصادى .

وقد صبر المصريون على بلائهم كارهين الى أن تبين لهم من انتصارهم فى موقعة رفح أن تفوق الاغريق عليهم لم يكن الا وهما ، وأنهم على الأقل ند لأولئك السادة الذين أوسعوهم بطاشا واستغلالا ، وتبعاً لذلك فانه ما كاد الجيش يعود من رفح حتى هب المصريون تائرين فى وجه البطالة والاغريق . وقد تعددت هذه الثورات منذ عام ٢١٦ ق م ، حتى أواخر عصر البطالة فأضعفت قوتهم وشلت حركتهم فى الخارج وعجلت بالقضاء على دولتهم .

الفصل الثامن

الآداب والعلوم والفنون

أولاً - الآداب

١ - دار العلم والمكتبة الكبرى :

ويرجع أن بطلميوس الأول هو الذي خطا الخطوة الأولى في سبيل انشاء دار العلم (الجامعة) والمكتبة الكبرى ، حين أخذ يدعو فحول شعراء الاغريق وأدباءهم وعلماءهم وفلاسفتهم وفنانينهم الى الاسكندرية حيث كان يستضيفهم على نفقته فضلا عما كان يجريه عليهم من المرتبات ليتفرغوا للبحث والدرس . وكانت دار العلم جزءا من الحى الملكى وتتألف من متنزه وأروقة ومبنى واحد أو مجموعة مبان تضم قاعات للبحوث العلمية فضلا عن قاعة عامة للأكل ، ومن الجائز أيضا أماكن لإقامة العلماء أعضاء الدار . وقد كانت دار العلم أساسا معهدا للبحث العلمى وليست مركزا للتعليم ومع ذلك فان العلماء كانوا يلقون المحاضرات العامة فى المدينة ، ويسمحون لعدد محدود من الطلاب بالتعلم عليهم . ويبدو فى الدور الذى قامت به الاسكندرية فى الحركة العلمية أن كل فروع البحث العلمى كانت ممثلة فى جامعتها .

ولكى يتيسر للعلماء الاضطلاع بمهمتهم أنشئت المكتبة الكبرى ، وهي التي تولى بطلميوس الثانى رعايتها حتى غدت أعظم دور الكتب فى العالم القديم . ويبدو أنه أنشأ كذلك المكتبة التي كانت تكون جزءا من معبد السرابيوم .

وقد أدى علماء الاسكندرية خدمات جليلة للأدب الاغريقى عندما ابتدعوا فن نقد النصوص القديمة ، وحققوا أصول كثير من المؤلفات القديمة .

٢ - الشعر :

ان كافة انواع الشعر الاغريقى ما عدا الكوميديا قد تأثرت فى خلال العصر الهلينيسى بالشعر الاسكندرى . وكانت أحب ألوان الشعر الى قلوب الاسكندريين الشعر القصصى والمرائى والشعر الغنائى والمقطوعات القصيرة . ولعل أهم مميزات الشعر الاسكندرى انه كان :

- ١ - يخلو من العواطف السياسية المتأججة .
- ٢ - يفتقر الى المشاعر الدينية العميقة نحو الآلهة القديمة .
- ٣ - كان كلفا بمسايرة ركب التقدم العلمى الذى شهدته الاسكندرية من حيث الدراسة العميقة لأصول وجوانب الموضوعات التى يعالجها .
- ٤ - كان يتجنب الموضوعات الشائعة المبتذلة .
- ٥ - كان يميل ميلا شديدا الى البساطة الرشيقة فى الأوزان

ويعتبر قاليماخوس أبرز شعراء الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد . وكان صاحب مدرسة القصائد القصيرة المصقولة ، في حين أن منافسه أبولونيوس كان يفضل القصائد المطولة ، فاحتدم بينهما نزاع أدبي مشهور . وكان من أشهر شعراء القرن الثالث تيوقريتوس السراقوسي الذي عاش فترة في الاسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطلميوس الثاني . وإذا كان العصر الذهبي للشعر الاسكندري لم يعمر أكثر من نصف قرن يمتد من حوالي عام ٩٠ ، حتى عام ٢٤٠ ق.م . فإن الشعر الذي يصور حياة الريف بقي منتعشا حتى القرن الأول قبل الميلاد .

٣ - النثر :

ولم يكن للاسكندرية في النثر الهليني من الأثر ما كان لها في الشعر . وقد تأثر النثر في هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ الأثر فيه . العامل الأول هو أثر المشائين ، وكانوا مغرمين بجمع المعلومات كما هي مما أفضى الى الخلط بين الحقائق والقصص دون أى تمييز بينها . وكان العامل الثاني هو أثر أيسقراط وتلاميذه وكانوا يختلقون الوقائع ليكون أثرها في النفس عميقا ، أو يحورون الحقائق ليكون لها مغزى ظاهر . ويعتبر ساتيروس أشهر مؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا بالمشائين ، وقلايتارخوس أبرز مثل مؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا بمدرسة أيسقراط .

بيد أنه من ناحية أخرى وجد أشخاص يميلون الى الحقيقة وشاركوا فعلا في الأحداث التي كتبوا عنها مثل بطلميوس الأول الذي استمد معلوماته فيما كتبه عن الاسكندر من الوثائق الرسمية ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة ، فكان كتابه فريدا في بابه يومئذ ، لكن لم يصلنا الا بعضه عن طريق أريانوس . في عهد بطلميوس

الأول كتب هقاتا يوس من ابديرا عن تاريخ مصر من وجهة نظر الاغريق ، وفي عهد بطلميوس الثانى اعتمد مانتون كبير كهنة هليوبوليس على المصادر الهيروغليفية فى كتابة تاريخ مصر .

واذا كان التاريخ يحتل مكان الصدارة فى نشر العصر الهلينيسى ، فقد كان للجغرافيا مكان مهم فيه الى حد أن ما كتبه العالم الجغرافى اراتوستنيس يعتبر أعظم مثل للنشر الاسكندرى .

ثانيا - العلوم

١ - الطب والجراحة :

بلغت العلوم الاغريقية شأوا بعيدا فى العصر الهلينيسى . وقد تقدم الطب بوجه خاص تقدما كبيرا . وكان أبرز علماء الطب فى الاسكندرية هيروفيلوس العالم فى التشريح وراسيستراتوس العالم فى وظائف الأعضاء . وكان طبيعيا أن يؤدى تقدم التشريح الى تقدم الجراحة . وحوالى عام ٢٨٠ ق.م أسس فيلينوس مدرسة طب جديدة فى الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية .

٢ - علماء الحيوان والنبات :

وكان على رأس المشتغلين بدراسة علمى الحيوان والنبات فى العصر الهلينيسى عالمان بارزان كان أحدهما يدعى تيوفراسطوس الذى فشل بطلميوس الأول فى اجتذابه الى الاسكندرية ، وكان الآخر يدعى استراتون وكان معلم بطلميوس الثانى .

٣ - العلوم الرياضية :

وتحتل الهندسة مكانة مرموقة بين رياضيات العصر الهلينيسى ، فقد فاقت فى تقدمها سائر فروع العلم الأخرى . ولا يمكن المبالغة

في تقدير الخدمات التي أسداها اقليدس الى الرياضيات . فقد أسس في الاسكندرية مدرسة تعلم فيها كثيرون من الرياضيين البارزين ويقرن اسمه بأشهر مؤلفاته وهو كتاب الهندسة المعروف باسم « العناصر » .

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا . وقد كان اعظم علماء الفلك في الاسكندرية وفي العالم القديم قاطبة يعيش في القرن الثاني قبل الميلاد ويدعى هيبارخوس . وقد كان اعظم كشوفه تحديد الاعتدالين الربيعي والخريفي وتقدير متوسط طول الشهر القمري تقديرا يبعث على الدهشة لأنه لا يقل الا بثانية واحدة عن التقدير المقبول اليوم . وكان أرخميدس السراقوسي اعظم عبقرية مبتكرة بين علماء الرياضيات الاغريق .

ثالثا - الفنون

سنقصر الكلام هنا عن فنى المعمار والنحت لأن معلوماتنا محدودة جدا عن فنى الموسيقى والتصوير فى عصر البطالمة .

١ - فن المعمار :

اقسام هذا الفن هى المقابر واثنازل والمعابد عند كل من الاغريق والمصريين .

(١) المقابر :

استخدم اغريق مصر مقابر من ثلاثة أنواع ، كان أحدها عبارة عن حفر تنحت فى الصخر أو تحفر فى الأرض . وأهم مظاهر النوع الثانى الدفن فى فجوات مستطيلة الشكل تبنى أو تنحت فى جوانب

دهليز أو غرفة • والنوع الثالث يسمى مقابر الأرائك لأن الدفن كان يتم في تابوت على شكل الأريكة ويوضع في غرفة الدفن • وقد تطورت هذه المقابر من مقبرة ذات أريكة ، الى مقبرة ذات أريكة وفجوات حيث استخدمت الأريكة والفجوات في الدفن ، الى مقبرة فجوات وأريكة حيث استخدمت الفجوات فقط في الدفن ولم تكن الأريكة الا زخرفة بارزة ، وأخيرا الى مقبرة ذات فجوات ومحاريب حيث اختلفت الأريكة تماما ، وكان الموتى يدفنون في الفجوات وفي نوابيت كانت توضع في المحاريب ، واذا كان طابع عمارة هذه المقابر وزخرفتها اغريقيا ، فانها لم تخل أحيانا قليلة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك أيضا كانت حال النصب الجنائزية •

اما المصريون ، فانهم سواء أكانوا يعيشون في الاسكندرية أم في المدن والقرى المصرية قد احتفظوا بأساليب دفنهم التقليدية ، فدانوا يدفنون موتاهم اما في مقابر قديمة أعادوا استخدامها ، واما في مقابر جديدة يمكن تقسيمها قسمين ، كان القسم الأول يتألف من نوعين : كان أحدهما شائعا جدا وبسيطا يتألف من بئر أنشئت في قاعها فجوة للدفن • وكان مقابر النوع الثاني تتألف من هيكل جنائزي صغير حفرت في أرضيته بئر كان الميت يدفن في قاعها • وكان القسم الثاني أيضا من نوعين : كانت مقابر أحدهما تنحت في الصخر وتتكون عادة من عدد من الدرج أو ممر منحدر يؤدي الى غرفة واحدة أو غرفتين • وكان النوع الآخر مبني من اللبن ويتألف من بئر عند قاعها باب يؤدي الى دهليز وغرفتين صغيرتين على محور واحد •

وباستثناء مقبرة بنوسيريس التي اختلطت في زخرفة أجزائها الطراز المصرى والطراز الاغريقى ، كانت المقابر البطلمية المصرية مصرية خاصة في عمارتها وزخرفتها ونصبها الجنائزية •

(ب) المنازل :

ومع أنه لم يعثر الا في الفيوم على عدد من بقايا المنازل الاغريقية والمصرية التي ترجع الى عصر البطلمية ، فانه بفضل معلوماتنا عن المنازل الاغريقية في بلاد أخرى ، وبفضل المعلومات التي نستمدتها من سرادق بطلميوس الثاني ، ومن القصر العائم الذي شيده بطلميوس الرابع ، ومن مقابر الاسكندرية بوجه خاص ، ومن بقايا المنازل القليلة التي وجدت في الفيوم ومن الاشارات العابرة في الوثائق البردية ، نستطيع أن نستخلص أن اغريق الاسكندرية استخدموا نوعين من المنازل يشبه أحدهما النوع الذي كان شائعا في براينى بالأناضول في القرن الثالث قبل الميلاد . أما النوع الثاني فيشبه ذلك النوع من المنازل الذي اشتهرت به جزيرة ديلوس في القرن الثاني قبل الميلاد . وتشير القرائن الى أنه كانت توجد منازل اغريقية في بطوليميس وبعض مدن الفيوم ومن المحتمل أيضا في نقراطيس . أما فيما عدا ذلك فيتبين أن الاغريق وكذلك المصريين كانوا ينزلون في منازل مصرية لم تكن الا استمرارا لأنواع المنازل التي كشفت عنها الحفائر في تل العمارنة . وتوحى القرائن بأن طابع عمارة المنازل وزخرفتها كان بوجه عام مصرية خالصا أو اغريقيا خالصا .

(ج) المعابد :

لم تكشف الحفائر حتى الآن عن معبد اغريقي كبير ، وان كانت قد كشفت عن بقايا معبد دورى صغير يبين أن طرازه الاغريقي لا تشوبه أية تأثيرات مصرية ، كما كشفت عن كل بقايا طرز العمارة الاغريقية . واذا كانت هذه البقايا تمتاز بطابعها الاسكندري ، فان أغلبها اغريقي بحت . ومع ذلك فقد عثر على تيجان للأعمدة تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية ، الا أنه يستبعد أنها كانت

هستخدمة في معابد اغريقية أو مصرية لأن مثل هذه العمائر الدينية
تتصف دائما بالمحافظة والاستمساك بالتقاليد .

وقد كشف عن عدد كبير من المعابد التي أقيمت في هذا العصر
للآلهة المصرية ، وهي مصرية صميمة في تخطيطها وعمارتها وزخرفتها ،
بدليل أن الأثريين لم يستطيعوا تأريخها تأريخا صحيحا قبل حل
طلاس اللغة المصرية القديمة ، وتمتاز هذه المعابد بظاهرتين ، هما :

أولاً - كثرة ما استخدم فيها من الأعمدة التي تدعى رؤوسها
الرؤوس المركبة ، ونعتقد أن المصريين ابتكروها في أثناء نهضة
العصر الصاوي .

ثانياً - كثرة ما استخدم في صالات الأعمدة بوجه خاص من
جدران قصيرة نجد أمثلة لها في معابد الدولة الحديثة .

٢ - فن النحت :-

وتشير الدلائل الى أنه كانت للاسكندرية مدرسة للنحت
الاغريقي ذات مميزات خاصة انفردت بها دون سائر مدارس النحت
الهلينيسية ، وأخص هذه المميزات عدم ابراز عظام الوجه والجسم ،
وعدم معالجة تفاصيل الشعر ، وعدم استخدام الزوايا الحادة ،
وصقل السطح صقلا شديدا . وعندما ابتكرت الاسكندرية فرعا
جديدا من فن النحت هو دراسة الأجناس وطباع الناس وحرفهم
وخصائصهم الشخصية ، ابتكرت طرازا واقعيلا يلائم هذا النوع
من الفن .

وتدل المخلفات الأثرية على أن الفنان الاغريقي لم يحتكر فن
النحت في مصر في عصر البطلمة ، فقد استمر الفنان المصري يزاول

نشاطه على جدران المعابد وأنصبه الموتى وفي شتى المجالات التي كان يالفها أسلافه ووفقا للطراز الذي استقى منذ غابر الزمن وأصبح علما على الفن المصري .

وتتكشف دراسة فن النحت في عصر البطالمة عن :

أولا - أن أكثر النقود التي سكها البطالمة وأغلب قطع النحت التي ابتكرتها مدرسة الاسكندرية اغريقية في طرازها وعناصرها وصنعتها ، وأن أكثر قطع النحت المصرية مصرية بحت في طرازها وصنعتها ومظهرها وجوهرها .

ثانيا - أن الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطرز مثل تصوير زهرة اللوتس أو قرص الشمس وسط قرنين على نقود بعض البطالمة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فان طراز تلك النقود اغريقي . ومثل تمثال يصور ملكا أو ملكة من أسرة البطالمة بطراز مصرى . ولما كان المقياس الحقيقي في أى فن من الفنون هو الطراز لأنه أبرز صورة الأفكار الفنان وطابع حضارته ، فان اختلاط العناصر لا يمكن أن ينهض دليلا على امتزاج الطرازين المصرى والاغريقي وتبعاً لذلك على امتزاج هاتين الحضارتين وتفاعلهما .

ثالثا - أن في عدد قليل من قطع النحت محاولات ظاهرة لمزج الطرازين المصرى والاغريقي ، لكن قلة عدد هذه القطع وتواضع قيمتها الفنية يدلان على أن المصريين والاغريق قد أدركوا بذوقهم الفنى الرفيع عيب مثل هذه المحاولات لبعده الشقة بين الطرازين .

المراجع

ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ٤ أجزاء ،
الطبعة الخامسة ١٩٨١/٨٠ ، القاهرة .

Evans, E., History of Egypt under the Ptolemaic
Dynasty, London, 1927.

Jouguet, P., L'imperialisme macédonien et l'hellenisa-
tion de l'Orient, Paris, 1926, Eng. Translation by
Ogden, London 1928.

Tarn A., Hellenistic Civilisation, 3rd, 1952.

Skeat, The Reigns of the Ptolemies, Muench. Beitr. Z.
Papypusforschung, 39, 1954, Muenchen.

Fraser, Ptolemaic Alexandria, 3 Vols., 1972.

الباب السادس

العصر الروماني

أ. د. فاروق القاضي

- ١ - معالم التاريخ السياسي .
- ٢ - النظم الادارية .
- ٣ - الحياة الاجتماعية .
- ٤ - السياسة الاقتصادية .
- ٥ - الديانات والعقائد .
- ٦ - الحياة العلمية والثقافية في مدينة الاسكندرية .

معالم التاريخ السياسي

نهاية مملكة البطالمة ودخول مصر في حوزة الرومان :

في صيف عام ٣٠ قبل الميلاد ، سقطت مدينة الاسكندرية في يد القائد الروماني الظافر أوكتافوس . وبعد عدة أيام من سقوطها ، قضت ملكة مصر البطلمية كليوباترة السابقة نجبتها مؤثرة أن تنهى حياتها بيدها بلدغة من أفعى الكوبرا المقدسة . وكانت الملكة قد استياست من جدوى مفاوضاتها مع أوكتافوس ، وفطنت آخر الأمر الى بعض نواياه في أن يظفر بها على قيد الحياة ليحملها معه الى روما أسيرة ويعرضها مع السبي في موكب نصره . وبوفاة كليوباترة في العاشر من أغسطس من العام المذكور انتهى حكم البطالمة الذي دام في مصر نحو من ثلاثة قرون ، ودخلت مصر في حوزة الرومان بعد أن ظلت ردحا طويلا من الزمان قبل سقوطها محل اهتمام سياستهم ثم محط أطماع سياستهم . وكان مقدرًا لهذه البلاد ذات التاريخ العتيق والحضارة العريقة والموارد الفنية أن ترزح تحت حكمهم قرابة سبعة قرون .

والواقع أن فترة القرن الأخير من حكم البطالمة في مصر (وهو ما يوافق زمنيا فترة القرن الأخير أيضا من عصر الجمهورية في

روما) قد شهدت تصاعدا مطردا لأطماع الرومان في مصر . ولاشك أن تغلغل نفوذ روما واستمرار تدخل سياستها السافر المتعمد في شئون البطلمة الداخلية قد أدى الى وصول سلطة الملك البطلمي الى الحضيض ، وبات قدر مصر بوصفها مملكة مستقلة معلقا بمجريات أحداث الصراع الحزبي الذي احتدم في روما بين الحزب الأرستقراطي والحزب الشعبي ، وأصبح رضاء من يملك زمام السلطة في روما متطلبا أساسيا لبقاء الملك الحاكم في الاسكندرية على عرشه . بل جاء وقت عاد فيه ملك بطلمي الى هذا العرش في ظل الحراب الرومانية بعد أن اضطره رعاياه الثائرون عليه الى الفرار من عاصمته فلاذ بحماية الرومان أو تمسح بأعتابهم . وكان هذا الملك نفسه هو والد كايوباترة السابقة التي مارست لعبة السياسة بذكاء وبراعة واقتدار مع السياسة الرومان ، والتي يمثل عهدا انتفاضة قوية ضد سيطرة السياسة الرومانية على مقدرات مملكتها في مصر ، فجاء هذا العهد أشبه بلمعة شهاب خاطفة وسط الظلام قبل أن يؤول ملكها وملك آبائها الى زوال .

ومن المؤكد أن نشاط كليوباترة وخططها وطموحاتها قد أثارت كثيرا من مشاعر الخوف والجزع في نفس الرومان الذين ظلوا يرقبون بقلوب واجفة ذلك الصراع المرير الذي دار بين أوكتافيوس وأنطونيوس الذي ملكت عليه كليوباترة كل أمره فأسلم لها قيادتها حبا مما عرض روما لمخاطر جسيمة . كذلك فإن مصر بوصفها أحد مصادر القمح الرئيسية في العالم القديم كانت في حد ذاتها ذات أهمية بالغة من الناحية الاقتصادية . ومن أجل هذا كله جاء سقوط مملكة البطلمة في أيدي الرومان حدثا بالغ الأهمية اقترن فيه شعور الارتياح لزوال خطر داهم بشعور الفرح لاستحواذهم على تلك الغنيمة الكبرى التي طال اشتهاؤهم اياها . وقد تجلى ذلك في عدة أمور منها القرار الذي أصدره مجلس

الشيوخ (السناتو) الرومانى باعتبار يوم سقوط الاسكندرية عيداً وطنياً فى روما وبداية التقويم المحبلى فى مصر ، وصدور تلك العملة التذكارية التى حملت صورة التمساح أحد المعبودات المصرية الشهيرة الرامزة الى نيل مصر وتحتها عبارة لاتينية معناها « فتح مصر » ، ومنها ما أثبتته أوكتافىوس (أوغسطس) فيما بعد فى بعض وثائقه من أنه يوم دخل الاسكندرية خالص الدولة (الرومانية) من خطر جسيم ، وما أورده فى سجل أعماله الذى تضمنته تلك الوثيقة المشهورة المعروفة « بنصب أنقرة » من قول يحمل فى السياق العام من النص معنى الزهو والمباهاة بتحقيق انجاز كبير يضم مصر « الى سلطان الشعب الرومانى » ، وأخيراً فهناك ما تعكسه شواهد الشعر اللاتينى المعاصر لتلك الأحداث ، ونعنى قصائد فرجيليوس وهوراتيوس وبروبرتيوس وأوفيدوس الذين تولوا الدعاية السياسية الأوغسطس العاهل الرومانى المنتصر فأشبعوه مدحاً وتمجيذاً وأوسعوا ملكة مصر فى الوقت نفسه مقتناً وهجاءً وصل بعضه الى درجة من الفحش واسفاف القول ، لكن هذا الهجاء المقذع يفضح ما انتاب الرومان المعاصرين من جانب كليوباترة من ذعر .

غير أنه بالرغم من مشاعر الحقد على كليوباترة والغضب على شعب الاسكندرية ، فان أوكتافىوس لم يبيع المدينة المقهورة لجنوده ليعبثوا فيها نهباً وتخريباً ، وانما عفا عنها وعن مواطنيها عفواً مشوباً بالازدراء وتعمد الإهانة . ولعل عفوه هذا كان صادراً عن احترام مؤسسها الاسكندر الأكبر الذى كان أوكتافىوس يجعل ذكره ، والذى تحدثنا المصادر أنه وضع على جثمانه بالاسكندرية تاجاً من الذهب ونثر عليه الزهور ، وقد يكون فى العفو رعاية الأحد معلميه وهو صديقه الفيلسوف اليونانى الاسكندري أريوس الذى كان فى معيته عند دخوله الاسكندرية . وأخيراً فلعل القائد الرومانى قد

رضى نفسا بعد أن تأكد من الحصول على كنوز البطالمة الذائعة الصيت التي كان يعلق عليها الكثير من الآمال ، وكان يخشى أن تعمد كليوباترة في محنتها الأخيرة الى تدميرها . وقد ألقى أوكتافيوس على الاسكندرانيين خطابا قصيرا باللغة اليونانية أعلن فيه ذلك العفو ، لكنه لم يخف شعوره بالاحتقار ، بل تعمد أن يجرح كبرياءهم ليكسر شوكتهم ويجعلهم يدركون منذ البداية أنه لم يعد لمدينتهم ذلك الوضع المتميز بوصفها عاصمة لمملكة مستقلة كانت لها أيام وأمجاد ، وانما صارت مجرد مركز للحكم تدار منه ولاية مصر الخاضعة لسلطان روما .

وثمة أمر أثار حنق الاسكندرانيين على أوكتافيوس ، وهو رفضه الاستجابة لمطلب عزيز لديهم هو إعادة مجلس الشورى Boule الذى تشير الدلائل الى أنه كان موجودا فى دستور مدينتهم على عهد البطالمة الأوائل ثم ألغى فى عهد أحد ملوكهم المتأخرين . حقا ان هذا المجلس لم يكن له فى دساتير المدن الاغريقية فى مصر البطلمية الأهمية ذاتها التى كانت له فى المدن الاغريقية قبل العصر الهلنستى ، وعلى أساس أن البطالمة - وسائر ملوك ذلك العصر - ألقوا بظل سلطتهم المطلقة على المؤسسات السياسية لهذه المدن فى ممالكهم ، حتى أصبحت مجالس الشورى فى تلك المدن أشبه بالمجالس المحلية التى فقدت كل مضمون استقلال المدينة ، غير أن الغاء المجلس آنذاك كان لظمة أصابت كبرياء الاسكندرانيين السياسى ، ولقد خامر أفكارهم أمل فى أن يعيد اليهم أوكتافيوس مجلسهم المعطل خاصة أنهم رأوه يبقى لليهود المقيمين فى المدينة على كل امتيازاتهم التى تمتعوا بها فى ظل الحكم البطلمى ، ومنها تعيين زعيم طائفتهم القومى Ethnarchos ومجلس شيوخهم Gerousia ، لكن أوكتافيوس وعد بالنظر فى الأمر فى المستقبل ، وفهم الاسكندرانيون أنه يرفض طلبهم رفضا رقيقا ،

فأضمرُوا للحكم الروماني منذ البداية مشاعر العداوة والبغضاء ،
كما امتلأت نفوسهم احتقارا لصنائع هذا الحكم من اليهود .

ويبدو رفض أوكتافىوس إعادة مجلس الشورى الى الاسكندرية
أمرا منطقيا من وجهة نظره السياسية ، فقد كان يدرك من غير شك
طبيعة مواطنى الاسكندرية الذين كانوا يعتدون بمدينتهم الشامخة
ويميلون الى اثاره المتاعب فى وجوه الحكام . وكم عانى البطلمة
منهم وكم لقوا من ضروب السخرية والهوان ، فكيف يكون حال
اولئك الاسكندريين مع الحكم الروماني الجديد الذى اعتبروه
مغتصبا لحريرتهم السياسية اذا ما عاد الى مدينتهم مجلس
الشورى ؟ ألا يكون ذلك مدعاة لاثارة النزعة الاستقلالية بل النعرة
الاستعلائية فى وقت كان يسعى أوكتافىوس فيه بكل السبل لكبح
جماح الاسكندريين تحقيقا للهدوء فى الولاية الغنية العزيزة ؟
أما ابقاء الامتيازات لليهود فكان فى وجه من وجوهه مكافأة لهم
على اظهار مشاعر الولاء للرومان منذ أمد طويل ، ولم يكن ثمة
ما يخشى من منحهم الحق فى مجلس الشيوخ والزعيم القومى خاصة
أنهم يعيشون حياة طيبة متميزة فى مدينة يعلمون أنها ليست
مدينتهم ، وهذا ادعى الى أن يستمروا فى أداء دورهم المرسوم
عملاء للرومان .

تنظيمات أوكتافىوس فى مصر :

لم يكن أوكتافىوس يستطيع أن يمكث فى الاسكندرية وقتا
طويلا لينظم كافة شئون ولاية مصر . كان عليه أن يسارع بالعودة
الى روما ليتصدى لمشكلات عديدة تراكمت عبر سنوات طويلة من
الحروب الأهلية ، وأولها مشكلة إعادة بناء الدولة فى ظل نظام
سياسى وادارى جديد ، إذ أن النظام الجمهورى القديم كان قد

تفسخ بعد أن انهار الدستور تحت وطأة سلسلة مستمرة من الانتهاكات التي تعرض لها في غضون تلك الحروب . كذلك كانت هناك مشكلة تنظيم الولايات التي كانت أكثر حكوماتها قد فسدت ، هذا فضلا عن مشكلة الانهيار الخلقى والاجتماعي العام في روما . غير أنه كان على أوكتافيوس في خلال الوقت الذي كان متاحا له للبقاء في مصر أن يتخذ اجراءات تنظيمية محددة لمواجهة الاحتياجات العاجلة للولاية ، وبالرغم من افتقارنا الى المعلومات الكافية عن تلك الاجراءات العاجلة ، فلسنا نشك في أنها صدرت عن سياسة محددة الأهداف في احكام الدفاع عن مصر وقرار الأمن فيها على نحو يضمن بقاءها في حوزة الرومان ، واقامة حكومة قوية قادرة على نشر الأمن وانهاش الموارد الاقتصادية تحقيقا الأكبر عائد يمكن أن تجود به هذه الموارد على روما . وقد اكتملت صورة هذه السياسة في السنوات التالية من حكم أوكتافيوس (الذي حمل بعد سنوات قليلة من عودته الى روما لقب أوغسطس) بحيث أصبحت سياسة ثابتة نحو مصر سار عليها طوال سني حكمه الطويل ، كما أنها أرست قواعد السياسة التي اتبعها خلفاؤه من الأباطرة الرومان ازاء ولاية مصر ردحا طويلا من الزمان . بل ان هؤلاء اتبعوا سنة أوغسطس في تدبير بالغ الخصوصية بالنسبة لسياسته في مصر ، وهي القاعدة التي تقرر بمقتضاها ألا يزور مصر أحد من رجال السناتو أو رجل من طبقة الفرسان « ذائع الصيت » ذو نصاب مالي يصل الى نصاب طبقة السناتو الا باذن خاص من الامبراطور .

ولعل هذه القاعدة تكفي لبيان مدى تأثير عقدة الخوف من ضياع ولاية مصر على أوغسطس ، وهو ما حمله على اتخاذ طائفة من الاجراءات والتدابير الاستثنائية الأخرى في مجال الدفاع وتنظيم أداة الحكم بحيث تبدو لنا هذه الولاية ذات طابع فريد حقا بين

ولايات الامبراطورية . وقد اثار هذه التدابير الاستثنائية جدلا دام وقتا طويلا حول ما اذا كان أوغسطس قد اعتبر مصر ولاية امبراطورية كسائر الولايات التي تقرر منذ تسوية عام ٢٧ ق.م . بينه وبين السناتو أن تكون تابعة له مباشرة ، أم أنه اعتبر مصر ملكا خاصا له . وليس ثمة ما يدعو الى الخوض هنا في تلك القضية الخلافية التي نرى أن القائلين فيها بأن أوغسطس كان مالكا لمصر بالغوا في تفسير تلك التدابير الصارمة التي اتخذها للحفاظ على ولاية غنية بالغة الأهمية ، وأسرفوا في تأويل السياق العام لبعض النصوص ومنها ذلك النقش المشهور الذي سبقت الاشارة اليه وهو «نصب أنقرة» ، وأن صفوة القول في المسألة هي أن مصر كانت ولاية امبراطورية عادية يتولى الامبراطور ادارتها لصالح الشعب الروماني ويذهب دخلها الوفير الى الخزانة العامة في روما ، لكنها اتخذت وضعاً فريداً في نظمها بفضل ما كان يعلق عليها من أهمية .

وليس من شك في أن مشكلة الدفاع عن مصر واقرار الأمن الداخلي فيها هي أولى المشكلات التي كان على أوكتافيوس أن يتدبرها قبل مغادرة مصر . ويبدو البعد الأول لهذه المشكلة فيما ذكره المؤرخ الروماني تاكيتوس من أن مصر بلد يسهل الدفاع عنه بالنسبة الى من يسيطر عليه من الداخل ، إذ كان يكفي احكام الدفاع عن النقطتين الرئيسيتين بوا وبحرا وهما بلوزيون (الفرما) في الشرق ، وفاروس (الاسكندرية) في الغرب ، ولم يكن من الميسور أن تصل القوات الرومانية الى مصر عن طريق البحر الا من ميناء الاسكندرية ، كما أن اقتحام هذه القوات سواء من الصحراء الشرقية أو الصحراء الغربية كان ينطوي على مخاطر كثيرة . وفي الوقت نفسه كان أمن مصر الداخلي يشغل تفكير أوغسطس ، فسكان الاسكندرية كانوا يؤلفون خليطا غير متجانس ويميلون الى

اثارة الاضطرابات أمام الحكام ، وهم عندئذ أخرى بأن يكونوا أكثر عنفا مع الحاكِم الروماني الجديد الذي انتقص كثيرا من استقلال مدينتهم بل أذل كبريائهم وحابي اليهود على حسابهم . وبعض أقاليم مصر كانت تشجر بينها منازعات ترددت أصداؤها في بعض المصادر القديمة فكان لابد لها من ادارة أمن حازمة . وأخيرا وليس آخرا كان هناك اقليم طيبة معقل الثورات القومية ضد الحكم البطلمي والذي كاد أن يفصل عن سلطة البطالمة المركزية حتى لقد اضطروا في أواخر عهدهم الى أن يعينوا لحكمه موظفا له اختصاص عسكري وصلاحيات واسعة جعلته أشبه بنائب الملك ونعنى به الـ *Epistrategos* . وكان من الطبيعي أن يهتم أوغسطس بأمر هذا الاقليم ، لأن أمنه كان في الواقع تأميننا لحدود مصر الجنوبية التي كانت في الوقت نفسه حدود الامبراطورية الرومانية الجنوبية .

وضمانا لاحكام الدفاع عن مصر ترك أوغسطس فيها حامية كبيرة نسبيا ، لعلها كانت أكبر كثيرا مما تتطلبه احتياجات هذا الدفاع . فقد ذكر استرابون أن أوغسطس ترك في مصر ثلاث فرق *Legiones* وتسع كتائب مساعدة *Cohortes* وثلاث وحدات من الفرسان . ويعنى هذا أن جيش الاحتلال كان يربو على اثنين وعشرين ألفا ، أو في تقرير آخر على أساس الحد الأدنى للكتيبة الرومانية ، كان هذا الجيش يزيد على ثمانية عشر ألفا . كذلك حدد استرابون أكثر النقاط التي تمركزت فيها الفرق والكتائب . فقد رابطت إحدى الفرق الثلاث في شرقى مدينة الاسكندرية عند تلك الضاحية التي أمر أوكتافيوس بإنشائها تخليدا لذكرى انتصاره على أنطونيوس وكليوباترة وأطلق عليها اسم « مدينة النصر » *Nicopolis* (وموضعها الآن قرب معسكر مصطفى كامل برمل الاسكندرية) ، وعززت هذه الفرقة بثلاث من

الكتائب المساعدة • ورابطت فرقة ثانية في منطقة طيبة تعززها أيضا ثلاث كتائب وضعت عند سييني Syene (أسوان) • أما الفرقة الثالثة فيبين أنها وضعت عند بابلون (قصر الشمع بمصر القديمة) أى فى مكان غير بعيد من منف عاصمة الفراعنة العريقة وذات الموقع الممتاز عند رأس مثلث الدلتا حيث تسيطر على طريق المواصلات بينها وبين مصر العليا • أما الكتائب المساعدة الثلاث الباقية ووحدات الفرسان فقد رابطت فى أماكن لا يصعب علينا تحديدها إذ أن المفهوم أنها مواضع دفاعية متميزة بالنسبة إلى مصر الوسطى والحدود الشرقية على ساحل البحر الأحمر والطرق التى تصل الوادى به •

وفيما يخص تنظيم أداة الحكم ، اتجه أوكتافيوس إلى التشدد فى المركزية لايجاد جهاز حكم قوى يضمن احكام السيطرة على مصر بهدف التحكم فى كل موارد الانتاج • وقد وجد أوكتافيوس بين يديه نظم البطالمة الادارية التى كانت كفيلا بأن تحقق له أهدافه تلك ، فلم تكن ثمة حاجة إلى ادخال نظام ادارى جديد • وسنرى فى موضع تال إلى أى حد تأثرت نظمه الادارية بنظم البطالمة • لكن الأمر الذى كان يحتاج منه إلى تدبير هو تحديد هوية من يرأس السلطة المركزية فى مصر نائباً عنه ، وتعيين حدود سلطاته واختصاصاته فى ولاية ذات وضع مهم بل حساس •

وقد اختار أوكتافيوس لادارة هذه الولاية وتولى السلطة العليا فيها موظفاً من طبقة الفرسان وليس من طبقة السناتو تمشياً مع سياسته العامة التى توخت ابعاد السناتو كلية عن شئون مصر • ولم يحمل هذا الحاكم كغيره من حكام الولايات الرومانية لقب نائب الامبراطور Legatus Augusti ، أو لقب قائم مقام القنصل Proconsul أو قائم مقام الريطور Proporaetor ولكنه

حمل لقباً من ألقاب طبقة الفرسان وهو بريفيكتوس Praeectus أى الحاكم العام أو الوالى . وكان لقبه الرسمى الكامل يرد فى الوثائق على أنه « والى الاسكندرية ومصر » Praefectus Alexandriae et Aegypti ، لأن الرومان - كأسلافهم البطالمة - لم يعتبروا الاسكندرية جزءاً من مصر بل « متاخمة لها » Alexandria ad Aegyptum . وقد منح هذا الوالى سلطة الامبيريوم Imperium التى تخول حق ممارسة كل السلطات فى مصر بما فيها حق قيادة الفرق الرومانية الأساسية Legiones التى سلف القول بأن الحامية الرومانية فى مصر كانت تضم ثلاثاً منها . وقد تركزت فى يد الوالى كل السلطات ، فكان هو الرئيس الأعلى للإدارة والقاضى الأعلى فى كافة القضايا وقائد الحامية ، بما جعله يحتل من الناحية الفعلية مركز الملك البطلمى ، ويبدو ذلك مصداقاً لتلك العبارات التى تردت عند استرابون وتاكيثوس واميانوس ماركلينوس من أن ولاية مصر كان لهم مقام الملوك ومنزلتهم .

غير أن سلطان الوالى المطلق فى مصر كان فى اطار تبعيته ومسئوليته المباشرة أمام أوغسطس تحده ارادة الامبراطور الذى يعينه ويعزله كما يشاء ، والذى يحدد للولاية كافة نظمها من خلال قرارات أو فتاوى أو رسائل . وعلى سبيل المثال كان من سلطة الوالى أن يحرر العبيد ، لكن لم يكن من سلطته أن يمنح أحداً حق المواطنة فى مدينة الاسكندرية إذ كان ذلك من سلطة الامبراطور نفسه . كذلك كان لابد للوالى من الرجوع الى الامبراطور اذا ما لزمه اتخاذ قرار فى أمر عارض يجاوز حدود سلطته . ولم يكن أوغسطس ليسمح لوالى مصر أن يجاوز تلك الحدود بما يستثير الطموح الشخصى لديه ، وذلك من منطلق خوفه على مصر من أن يخرج بها خارج عن طاعته . وقد لقن ولاية مصر درساً فورياً من مصير

أولهم كورنيليوس جالوس صديق أوكتافيوس وساعده الأيمن في فتح مصر وسفيره لمراوغة كليوباترة حتى النهاية . فقد عينه أول وال على الاسكندرية ومصر مكافأة على كل الخدمات التي أسداها له . لكنه عندما لاح من واليه بوادر الاحساس بالمجد الشخصي بعد نجاحه في بعض الأعمال العسكرية في جنوب مصر ، ورأى في ذلك تجاوزا للحدود ينذر بالخطر ، لم يتوان عن عزل الرجل وتدمير مستقبله السياسي كله ، مما دفع به الى أن ينهى حياته بيده .

وثمة مشكلة ثالثة كان لابد أن يسارع أوكتافيوس بعلاجها وهي تدهور أداة الانتاج الأساسية في مصر وهي الزراعة التي كان قد لحقها في عهود البطلمة الأواخر تدهور كبير تجلى في تحول جزء كبير من الأراضي الزراعية الى أراض بور من جراء اهمال الحكومة في أوقات الاضطرابات السياسية لنظام الري الذي تقوم على أساسه الزراعة المصرية . ولما كان عائد الانتاج المصرى هو بيت القصيد من كل التنظيمات الرومانية ، فان اصلاح نظام الري بتطهير القنوات واصلاح الجسور والسدود كان متطلبا عاجلا أساسيا . كذلك كان لابد من انتهاج سياسة جديدة ازاء نظام الملكية الزراعية يجتنب الأفراد القادرين الى استصلاح الأراضي البور . وسنرى في موضع آخر أنه استخدم قوات جيش الاحتلال في اصلاح نظام الري ، وشجع نظام الملكية الشخصية وبيع الأراضي بفترات سماح ، وكيف آتت هذه السياسة ثمارها بعد أعوام من بداية حكمه .

تأمين الحدود الجنوبية والاهتمام بالتجارة الشرقية :

تلك هي الخطوط العامة التي وجهت سياسة الرومان ازاء مصر منذ البداية . ولم تلبث مشكلة أمن مصر الداخلى أن فرضت نفسها سريعا على نشاط كورنيليوس جالوس أول الولاة الرومان

ونسلم أن جالوس تمكن فى مستهل ولايته من اخضاع ثورة على الرومان فى هيرونوبوليس (تل المسخوطة قرب خليج السويس) وكانت هذه المدينة ذات أهمية لوقوعها على الطريق عبر سيناء شمالا . لكن الخطر الحقيقى سرعان ما انبعث من ناحية الجنوب ، اذ لم يكده يمضى عام واحد على دخول الرومان مصر حتى اندلعت الثورة ضدهم فى اقليم طيبة معقل الحماية القومية فى مصر . وقد بلغ من عنف هذه الثورة أن الوالى كورنيليوس جالوس اضطر الى أن يقود القوات الرومانية بنفسه لاجتماعها . وقد وصلت الينا أنباء قمع هذه الثورة فى نقش مهم عثر عليه فى جزيرة فيلة مكتوبا باللغات اللاتينية واليونانية والمصرية ، وجاء فيه أن الوالى اخضع طيبة « مصدر الذعر لجميع الملوك » ، وأنه استقبل عند فيلة سفراء ملك الاثيوبيين (النوبيين) الذين قبلوا الدخول فى حماية الرومان ، اذ أن جالوس عين الملك النوبى حاكما تحت حمايته على المنطقة الواقعة بين حدود مصر عند سيينى (أسوان) وحدود النوبة أى ما بين الشلال الأول والشلال الثانى (نحو ٣٣٠ كيلو مترا) .

غير أن حملة جالوس هذه لم تكن كافية لتأمين منطقة الحدود الجنوبية ، اذ لم يلبث النوبيون أن هاجموا الحامية الرومانية عند أسوان منتهزين فرصة انسحاب جزء من القوات الرومانية فى مصر للاشتراك فى تلك الحملة التى وجهها اوغسطس بقيادة ابليوس جالوس (ثانى ولاة مصر) لمد النفوذ الرومانى على ساحل بلاد العرب الغربى واليمن . وقد تمكن النوبيون عندئذ من التغلب على الحامية الرومانية ونهبوا فيلة والفانتين وأسوان ، مما اضطر ثالث الولاية بترونيوس (٢٤ - ٢١ ق م) الى قيادة حملة وصلت به حتى ناباتا عاصمة النوبة الشمالية . وعاد بترونيوس الى الاسكندرية بعد أن وضع حامية فى النوبة عند ابريم ، لكنه اضطر

الى معاودة العمل العسكرى فى المنطقة عندما عاود النوبيون الهجوم بعد عامين حيث نجح فى التوصل الى اتفاق مع الملكة النوبية كنداكى احتل الرومان بمقتضاه المنطقة النوبية الواقعة بين أسوان والمحرقه (هيراسيكامينوس) حيث أنشأوا عدة استحكامات قوية كان لها الفضل فى اقرار الأمن هناك منذ ذلك الوقت حتى منتصف القرن الثالث الميلادى .

ومن ناحية أخرى وجه أوغسطس اهتمامه الى طرق التجارة الشرقية ، وقد سلفت الاشارة الى تلك الحملة التى وجهها بقيادة ايليوست جالوس والى مصر فيما بين عامى ٢٥ و ٢٤ ق.م . الى اليمن والساحل الغربى للجزيرة العربية بقصد مد النفوذ الرومانى الى هذه المناطق تحقيقا للسيطرة التجارية . لكن يبدو أن الحملة أعدت دون تخطيط سليم على أساس معرفة جيدة بأحوال الملاحة فى البحر الأحمر وطبيعة حروب الصحراء فكان أن تكبد الرومان خسائر مادية وبشرية فادحة واستدعى ايليوست جالوس الى روما وعزل عن ولاية مصر . غير أنه بالرغم من هذا الفشل العسكرى ، فقد نجحت الحملة فى اشعار عرب الجنوب بقوة الرومان ، ومهدت السبيل لنشاط تجارى رومانى كبير عبر الطريق من مصر الى الهند ووسط افريقيا وشرقها . وشيئا فشيئا تحولت الأهمية التجارية من موانئ البحر الأحمر الشرقية الى موانئه الغربية على الساحل المصرى ، فضلا عن احراز الرومان بعد ذلك وجودا قويا فى ميناء عدن المهم . كذلك قامت العلاقات الودية بين الرومان وكثير من امراء اليمن وشيوخ القبائل العربية . وقد اهتم ولاة مصر الأوائل على التوالى بتأمين طرق التجارة بين النيل والبحر الأحمر وأقاموا خزانات المياه على طولها ، وأصبحت التجارة الشرقية بعد اعوام من بداية حكم أوغسطس موردا اقتصاديا عظيم الأهمية .

كسر شوكة الكهنة وفرض « ضريبة الرأس » :

وضح أسلوب أوغسطس في قمع العنصر المصرى الوطنى من موقفه من رجال الدين المصريين الذين كانوا يمثلون القيادة المنظمة للوحيدة للأهالى . والواقع أن نفوذ الكهنة المصريين تضخم ابان عهود البطالمة الأواخر الذين أعادوا اليهم أكثر امتيازاتهم القديمة وأهمها الاعفاءات المتتالية من الضرائب ومنحهم امتياز الانتاج فى أراضى المعابد وكذلك حق ايواء المعابد للمستجيرين بها Assgiam . وقد وضع دور المعبد المصرى وزعامة الكهنة فى بعث الروح القومية المصرية ضد الحكم البطلمى . ولابد أن أوغسطس فطن الى هذا الخطر فعمد الى تجريد الزعامة الدينية من الأساس المادى لسطوتها ، فأصدر أمره الى واليه بترونيوس بالاستيلاء على الجانب الأكبر من أراضى المعابد ونقلها الى ملكية الدولة واعتبارها جزءا من أراضى الامبراطور . ولم يسمح للكهنة الا بزراعة جزء من الأراضى يكفى لسد حاجة المعبد . ومن المحتمل أنه أسند شئون الاشراف على حسابات المعابد فى مصر كلها الى سلطة مركزية تمثلت فى موظف مالى كبير حمل اسم الايديوس لوجوس أو « مدير الحساب الخاص » . ذلك أن هذا الموظف ذا الاختصاص المالى الصرف عرف بلقب « الكاهن الأعلى لاسكندرية وسائر مصر » وهو لقب لا يبدو مفهوما فى ضوء اشرافه على شئون المعابد المالية . وقد كان كل معبد مكلفا بأن يرسل الى مدير الاقليم الذى يقع فيه تقريرا سنويا يضم قائمة بأسماء كهنته وممتلكاته وحساباته .

وقرض أوغسطس على سائر المصريين جزية سنوية عرفت بـضريبة الرأس لأنها كانت تعنى بالتأكيد علامة خضوع المصريين لروما ، وهى بهذه الصفة الواضحة تقابل فى المصطلح الرومانى تعبير

Tributum Capitis ، وكانت هذه الجزية تجبى بمقدار ثابت كل سنة وان اختلف مقدارها من اقليم الى آخر بل أحيانا من بلد الى آخر في الإقليم الواحد مراعاة - فيما يبدو - لتفاوت مستوى المعيشة في مختلف المواقع . وكانت الضريبة تقع على الذكور فحسب اعتبارا من سن الرابعة عشرة التي اعتبرت السلطات الرومانية سن القدرة على العمل والكسب وتسقط عند بلوغ سن الستين (وان امتدت الى ما بعد هذا السن في بعض الحالات) . ومن المؤكد أن هذه الضريبة لم تكن جديدة على المصريين الذين عرفوها في العصر البطلمي ، لكنها اتخذت منذ بداية الحكم الروماني وضعاً مغايراً ، ذلك أنه الى جانب احتمال زيادة معدلها وشمولها دائرة أوسع من دافعي الضرائب ، قد تجاوزت حدود كونها مصدراً مهماً من مصادر دخل الخزنة الرومانية الى اتخاذها معياراً للتمايز الاجتماعي بين الطبقات . ففي حين دفعها سائر المصريين كاملة ، أعفيت فئات منها إعفاء تاماً ، ودفعت فئات أخرى بمعدل منخفض . وهذا التمايز الطبقي بالنسبة لأداء هذه الضريبة يحمل دليلاً ضمناً على أنها اعتبرت من وجهة نظر الرومان علامة لحظة للعنصر الوطني وخضوعه .

سياسة الأباطرة بعد أوغسطس ازاء مصر :

تلك هي الخطوط الرئيسية لسياسة أوغسطس في حكم ولاية مصر ، وهي سياسة وضحت معالمها في الفترة القصيرة التي مكثها فيها عقب غزوها ، واستكملت ملامحها في سنوات حكمه الأولى بعد تقلده منصب الامبراطور . وقد سار خلفاء أوغسطس على نهجه في ادارة الولاية لصالح روما ادارة الضيعة أو صومعة الغلال ، يتفاوتون في استغلالها قسوة وعنفاً أو رفقا واعتدالاً ، ولكن في اطار تلك السياسة المرسومة ، ولم يحدث تغيير جذري في نظم الادارة

والحكم في أواخر القرن الثاني الميلادي على عهد الامبراطور
سبتيميوس سيفيروس .

ونواصل عرضنا لأبرز الأحداث السياسية التي وقعت بمصر
وتطور أحوالها عبر عهود الأباطرة ، وهي أحداث وأحوال لا تخرج
عن اطار ردود الفعل من جانب الولاية على اختلاف عناصر السدان
فيها ازاء ممارسات السياسة الرومانية ، أو مواقف الولاة من تقلبات
الصراع على الحكم في روما ، وهو أمر بدت فيه مصر عنصرا مؤثرا له
ثقله على مدى قرن تقريبا من بعد أوغسطس .

تنظيمات أوغسطس تؤتي ثمارها الى حين :

تشير الدلائل الى استتباب الأمن وانتعاش الاقتصاد المصري
في عهد خليفة أوغسطس الامبراطور تيبيريوس (١٤ - ٣٧ م) وقد
اتصف هذا الامبراطور بالعناية بشئون الولايات ، والحرص على
التحقيق في دعاوى الابتزاز والحزم مع الولاة المتعسفين . وتروى
عنه في هذا الصدد عبارته المأثورة التي لام بها أحد ولاة مصر في
عهده وهو أيميليوس ركتوس وكان قد أرسل الى روما جزية زادت
على المقدر لها فأرسل له الامبراطور يقول : ريد نلغيم ان يجز
شعرها لا أن تسليخ جلودها ، وهي عبارة تظهر الرحمة بقدر ما تنطوي
على الحكمة . ولعل خير دليل على استتباب الأمن الداخلي في مصر
قرار تيبيريوس بسحب احدى الفرق الثلاث من الحامية في مصر
حين رأى أن الأمر لم يعد يقتضى بقاءها هناك ، كذلك فان ما يشير
الى انتعاش اقتصاد مصر هو اصدار عملة فضية جديدة من فئة
الأربع دراخمت من دار السكة بالاسكندرية . وكان أوغسطس قد
أوقف اصدار هذه العملة مكثفيا بأن تصدر هذه الدار عملة
برونزية تحدد قيمتها بالنسبة للدينار الروماني الذي كانت الجزية
السنوية من مصر تقدر على أساسه . ونستطيع أن نلمح من وراء

قرار أوغسطس هذا رغبته في ابقاء مصر في مكانها المتفرد بعيدا عن بقية الولايات . لكن تيبيريوس أدرك ما في نظام النقد المصرى من تعقيد فقرر أن تستأنف الاسكندرية سك العملة الفضية المذكورة التى نلاحظ فيها زيادة وزنها وزيادة نسبة الفضة فيها حتى أصبحت تعادل نسبة الفضة في الدينار الرومانى توطئة لمعادلة التتراخما الاسكندرية به . وفضلا عما يشير اليه ذلك من رخاء اقتصادى ، فانه باصدار هذه العملة نظم تيبيريوس علاقة مصر الاقتصادية بالامبراطورية ، وأصبح من السهل بعد معادلة العملة الاسكندرية بالدينار تحديد الجزية السنوية وجمعها كما أصبح هناك أساس ثابت للتبادل التجارى بين مصر والعالم الرومانى مما أدى الى انتشار التجارة الاسكندرية .

وتذكر المصادر حادثة متعلقة بمصر أدت الى أزمة في البيت الامبراطورى في عهد تيبيريوس ولا بأس من ذكرها لدلالاتها على استمساك خلفاء أوغسطس بالقاعدة التى وضعها بالأ يزور مصر أحد من أعضاء السناتو الا باذن من الامبراطور . فقد حدث أن انتهز جرمانيكوس ولى عهد الامبراطور فرصة ايفاده الى الشرق في مهمة من قبل عمه فزار مصر للتمتع بمشاهدة آثارها العظيمة ولكن بدون اذن من الامبراطور ، وقد لقي جرمانيكوس في مصر ترحيبا عظيما لا ريب أنه أثار تيبيريوس عليه فهاجمه هجوما شديدا أمام السناتو متخذنا لغضبه ذريعة هى أن جرمانيكوس خرق قاعدة من وضع أوغسطس . وقد غادر جرمانيكوس مصر على عجل الى سوريا حيث قضى نحبه في ظروف غامضة كانت محلا لتحقيق .

٢ = تفجر الصراع بين الاغريق واليهود :

وشهد عهد الامبراطور جايوس (كاليجولا) اندلاع نار الفتنة في الاسكندرية بين اليهود والاغريق فكانت فاتحة لسلسلة من

الصراعات الدامية التي امتدت حتى منتصف القرن الثاني تقريبا والتي شكلت فصلا مهما من تاريخ الحكم الروماني في مصر . وقد مر بنا أن اغريق الاسكندرية كانوا يكتنون للطائفة اليهودية في المدينة حقدا واحتقارا عظيمين ، اذ لم يغفروا لليهود خياناتهم للأسرة الحاكمة المظلمية ومساعدتهم الرومان في الاستيلاء على مصر ، واحتقروا تزلف اليهود الى الرومان الذين أظهروا لهم الود ومنحوهم الامتيازات . كذلك أنكر الاسكندريون سعي اليهود للحصول على حق المواطنة الاسكندرية ، وتوحي لنا بعض كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن النزاع كان محتمسا حول أحقية اليهود في ذلك وأن زعماء الاغريق تشددوا الى الحد الأقصى في انكار هذا الحق عليهم . وقد كان من الطبيعي أن يتخذ الاسكندريون من اليهود هدفا للتنفيث عن مشاعر الكره التي أضمروها للرومان حتى ساد بين الفريقين جو من التوتر الشديد .

ويبدو أن بوادر الصدام لاحت منذ أواخر أيام تيبيريوس اذ تولى الوالى أفيلبيوس فلاكوس يقوم بحملة لجمع ما بيد الأهالي من أسلحة . لكن الاسكندريين لم يلبثوا أن تحينوا فرصة مرور أجريبا الأمير اليهودي بالاسكندرية في طريقه الى تولى حكم امارة صغيرة على حدود جوردايا (اليهودية) بفلسطين ، وكان قد عاش بين ظهرانيتهم من قبل مدينا مفلسا ، ونظموا مظاهرة صاخبة للسخرية منه ، ثم أفاقوا الى أن أجريبا صديق مقرب الى كاليجولا وأنه لن ينقذهم من غضب هذا عليهم الا أن يوقعوا بينه وبين اليهود ، فادعوا أنهم ما تظاهروا ضد أجريبا الا لأن اليهود لم يمثلوا للأمر الصادر باقامة تماثيل للامبراطور في معابدهم اظهارا للولاء له . وهكذا دبر الاسكندريون للأمر ببراعة واستقطبوا الى جانبهم الوالى فلاكوس ، ثم قاموا بالهجوم على اليهود في متاجرهم ودورهم وبيعهم ونكلوا بهم تنكيلا . وقد أفلح أجريبا بعد ذلك في اقناع كاليجولا

بعزل والى مصر الذى لم يعالج الموقف بالحكمة أو الحزم ، وأرسل كل من الاسكندرانيين واليهود سفارة الى روما لشرح القضية أمام الامبراطور ، لكن كاليجولا لم يقض فى الأمر بشيء حتى لقي مصرعه فى عام ٤١ م .

و حين تولى كلاوديوس العرش (خلفا لكاليجولا) كانت مسألة النزاع اليهودى الاغريقى لا تزال تفرض نفسها على الامبراطور ، اذ استأنف الفريقان ارسال الوفود الى روما لعرض القضية . وقد وصلتنا احدى البرديات المهمة التى احتوت رسالة موجهة من كلاوديوس الى شعب الاسكندرية ردا على مطالب كل من الاسكندرانيين واليهود . وتظهر لنا الرسالة موقف الامبراطور الحازم الحكيم مع الفريقين ، حيث نصحهم بالخلود الى الهدوء و اظهار التسامح وحذرهما من مغبة نفاذ صبره وتبدل حلمه معهم اذا ما عاودوا صراعهم الدامى . أما بالنسبة لليهود فقد أقر كلاوديوس ما كانوا يتمتعون به من امتيازات ، لكنه نصحهم بأن يقنعوا بما أتيح لهم من عيش طيب فى مدينة ليست أصلا مدينتهم ، وألا يبتغوا وراء ذلك شيئا (ولعله يعنى مطلبهم فى الحصول على المواطنة الاسكندرية) . وأما بالنسبة الى الاسكندرانيين فان الامبراطور لم يستجب الى مطلبهم القديم فى انشاء مجلس شورى للمدينة وان وعد ببحث الأمر مع واليه أيميلیوس ركتوس ، وكان هذا بمثابة تأجيل يعنى الرفض اللين .

ولا ندرى الى أى مدى أفلحت هذه الرسالة فى تهدئة الطرفين ، لكننا نعلم من احدى برديات تلك المجموعة المعروفة عند الدارسين باسم « أعمال الشهداء الوثنيين » أن وفودا جديدة من الاسكندرانيين واليهود قصدت الى كلاوديوس فى عام ٥٣ لعرض شكاواها مما يدل على أن المشاكل كانت لا تزال قائمة . غير أن كلاوديوس انحاز

هذه المرة الى الجانب اليهودى الذى كان يترأسه أجريبا ، وانتهى الأمر بصدور حكم الاعدام على زعيمى الوفد الاسكندرى . وحين اندلعت ثورة اليهود الأولى ضد الرومان فى فلسطين فى عام ٦٦ ابان عهد الامبراطور نيرون (٥٤ - ٦٨ م) ، كان لابد أن تتردد أصداؤها فى الاسكندرية ، ونشب بين الفريقين قتال دام هلك فيه من اليهود خمسون ألفا على ما يذكر المؤرخ يوسف . وقد كرسست روما جهدا حربيا كبيرا لسحق الثورة اليهودية فى فلسطين ، ومنذ ذلك الوقت اتجهت الحركة اليهودية الى اظهار العداء السافر للسلطة الرومانية . وأظهر الأباطرة تشددا عنيفا كان من نتائجه أن سكن النزاع بين اليهود والاسكندريين نحو أربعين عاما ، لكنه لم يلبث أن تجدد فى عام ١١٠ فى عهد الامبراطور تراجان الذى كان عليه أن يواجه بعد أعوام ثورة يهودية شملت برقة ومصر وفلسطين وقبرص .

وصول فسبسيان الى عرش الامبراطورية بتأييد والى مصر :

قضى الامبراطور نيرون نحيبه فى عام ٦٨ والامبراطورية لا تزال مشغولة بالقضاء على ثورة اليهود فى فلسطين ، وأعقب وفاته عام من الاضطرابات والفتن يعرف بعام الأباطرة الأربعة (٦٨ - ٦٩) اذ نادت الجيوش الرومانية فى الغرب والشرق بقادتها أباطرة ، فحمل لقب الامبراطور أربعة قواد هم على التوالي : حالبا وأوتو وفيتلوس وفسبسيان . وكان هذا الأخير حاكما على جودايا وقائدا للجيوش الرومانية العاملة فى سوريا لقمع الثورة اليهودية . وقد هتف له جنوده بلقب الامبراطور فى صيف عام ٦٩ . وعندئذ لعب والى مصر تيبيريوس يوليوس اسكندر دورا مهما فى تأييد فسبسيان ، فكان هذا التأييد عاملا حاسما فى ارتقائه العرش الامبراطورى ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى ظهر لمصر فيها

دور سياسى مهم فى تاريخ الامبراطورية • اذ انه عندما أعلنت الفرقتان الرومانيتان المرابطتان فى مصر ولاءهما لفسبسيان اعتبر ذلك ورقة رابحة فى يده لأنه كان يستطيع عندئذ أن يقطع القمح المصرى عن روما مما يؤدى الى مجاعة تؤدى الى سقوط خصمه • وليس أدل على ادراك فسبسيان الأهمية مصر من أنه اعتبر تاريخ اعلان ولاء جيشها له (أول يوليو و ٦٩) تاريخ بدء حكمه • وقام فسبسيان بالاسكندرية فى طريقه لارتقاء العرش ، فكان أول امبراطور يزور المدينة منذ دخول أوكتافيوس (أوغسطس) اليها قبل مائة عام • ومن الاسكندرية أرسل فسبسيان ولده تيتوس بقوات من مصر الى فلسطين لاتمام سحق ثورة اليهود وهو ما أتمه فى عام ٧٠ بعد حصار القدس حصارا شديدا واستقاطها وتدمير هيكل اليهود • ويسترعى انتباهنا مظاهر الحفاوة الكبرى التى استقبل بها الاسكندريون فسبسيان ولعل ذلك كان تعبيرا عن الشماتة فى اليهود بعد ما لحق بهم على يدهى هذا الامبراطور فى فلسطين ، أو تأييدا لمنشق على السلطة فى روما أملوا فيه خيرا • غير أن فسبسيان سرعان ما خيب ظن الاسكندريين فيه فأطلقوا فيه كعادتهم السننهم الحادة بالسخرية اللاذعة ، ورد الامبراطور على ذلك بفرض ضريبة رأس ضئيلة عليهم لمجرد اذلالهم ، ثم عدل عنها حين توسط ابنه تيتوس لرفعها عنهم •

ازدهار العبادات المصرية فى عهد تيتوس ودوميتيان :

وحين خلف تيتوس أباه أظهر ميلا الى الاهتمام بشئون الشرق والوقوف على واقعه وأحواله والاصغاء الى شكاوى شعوبه باهتمام • كذلك يمثل عهد تيتوس بداية اتجاه جديد فى نظرة الأباطرة الرومان الى الآلهة المصرية • فقد حضر فى منف ابان حياة أبيه حفل تكريس للعجل أبيس الجديد مرتديا زيا رسميا واضعا على

رأسه تاجا واكليلا جريا على عادة الأباطرة عند حضور الاحتفالات الكبرى . والدليل على أن الأمر لم يكن مزاجا شخصيا عند تيتوس أن سياسة الرعاية لم تتوقف بعد حكمه القصير وإنما استمرت بل ظهرت بصورة أكثر وضوحا في عهد خليفته دوميتيان (٨١ - ٩٦) . وليس المقصود بالرعاية تلك الآلهة المصرية الكبرى التي كانت قد لقيت قبولا عالميا عاما وغزت روما نفسها قبل دخول الرومان مصر والتي استعادت اهتمام الأباطرة الرومان بها بعد فترة من الإهمال والازدراء استغرقت عهدي أوغسطس وتيبريوس ، وإنما نقصد اتجاه الرعاية الى تلك الآلهة المحلية التي ألفت عليها سياسة الأباطرة الدينية في مصر ظلا ثقيلًا من الإهمال . وقد تمثل الاتجاه الجديد في بناء بعض المعابد لبعض هذه الآلهة مقترنة بما يقابلها من الآلهة الاغريقية ، وبداية ظهور صورها على عملات الاسكندرية البرونزية . وفي الوقت نفسه أسبغ دوميتيان على عبادة ايزيس في روما عناية فائقة .

ثورة اليهود الكبرى في عهد تراجان :

توالت ضربات الرومان على اليهود بعد تحطيم الهيكل في القدس في عام ٧٠ ، فقد فرض الامبراطور فسبسيان على يهود الامبراطورية جميعا ضريبة خاصة تدفع لمعبد الاله جوبيتر كابيتولينوس في روما . ولم يكن هذا سوى تحويل لضريبة نصف الشاقل التي كان اليهود يؤدونها للهيكل امثالا لتعاليم التوراة لتدفع الى اله الوثنيين مما أورثهم شعورا بالحطه والمهانة اضيف الى شعورهم القديم بالمرارة الأدائهم ضريبة الرأس ، ثم أعقب ذلك اغلاق المعبد اليهودي في ليونتوبوليس في مصر ومصادرة جميع املاكه . وقد مالت سياسة الأباطرة منذ ذلك الوقت الى أخذ اليهود بالشدة باعتبار كونهم جماعات مثيرة للشغب وكان طبيعيا

أن يضمم اليهود لرومان حقدنا دفيننا ، وأن تنمو بينهم فكرة الخلاص من حكمهم بمساعدة الهيم يهوه .

ونعلم أن النزاع تجدد بين اليهود والاسكندرانيين في عهد الامبراطور تراجان في عام ١١٠ (أو عام ١١٣) وأن الفريقين احتكما كالعادة الى الامبراطور الذي لام الاسكندرانيين على عنفهم وهندأت الأمور على نحو ما لكن اليهود ثاروا من جديد في عام ١١٤ ، وفي العام التالي انتهزوا فرصة المصاعب التي تعرض لها تراجان في حماسته الشرقية ضد البارثيين واضطراره الى سحب بعض القوات من مصر ، وأشعلوها ثورة عامة في برقة (قورنيايئة) وقبرص ومصر . ولم تلبث هذه الثورة أن تحولت الى حرب دامية خاضها اليهود بكل ضراوة وذهب ضحيتها عدد كبير من الاغريق والرومان في قبرص وبرقة وريف مصر ، حيث اتحد اليهود الزاحفون من برقة مع بنى جلدتهم في أقاليم مصر وسيطروا على بعض البقاع ، وارتكبوا من السلب والتقتيل والتخريب ما زددت وثائق البردي مدي بشاعته . وازاء ضراوة اليهود اضطرت السلطات الرومانية الى تجنيد فرق من الأهالي المصريين ، واستمرت الحرب مستعرة حتى وفاة تراجان في عام ١١٧ ، ولم يتمكن الرومان من اخماد هذه الثورة العامة الا في مستهل عهد خليفته هادريان . لكن اليهود في مصر لم يكفوا عن اثارة المتاعب في الاسكندرية في عهد هذا الامبراطور لأننا نسمع عن ثورة لهم في بدايات حكمه وثورة أخرى وأخيرة وقعت قرب نهاية حكمه .

هادريان في مصر - تأسيس مدينة انتينوبوليس :

تركت ثورة اليهود الكبرى آثارا اقتصادية مدمرة في « ريف » مصر مما اضطر هادريان الى اجراء تخفيض في بعض الضرائب وإيجارات الأراضي العامة ، كذلك ألحقت هذه الثورة كثيرا من

التخريب في مباني الاسكندرية فكان عليه أن يوجه عنايته الى اصلاح ما تهدم منها ، وقد انتهز الفرصة فأقام بعض المنشآت الجديدة وكان أهمها مكتبة هادريان التي اتخذت دارا لحفظ الوثائق والسجلات بالاسكندرية . وفي عام ١٣٠ زار هادريان مصر قادما اليها من جولة تفقدية لولايات الامبراطورية الشرقية . وبعد أن أقام بالاسكندرية بعض الوقت أبحر في رحلة نيلية الى الصعيد ليزور آثار مصر الخالدة ، وتوقف الامبراطور وحاشيته طويلا أمام تمثالي ممنون حيث سجل بعض أفراد هذه الحاشية كلماته للمذكرى .

غير أن أهم ما يذكر لهادريان من أعمال في مصر هو تأسيس مدينة انتينوبوليس الاغريقية على الضفة الشرقية للنيل في مصر الوسطى (قرب بلدة الشيخ عبادة) . وقد قيل ان الامبراطور أسس هذه المدينة في ذات الموقع الذي غرق فيه غلام أثير لديه كان يرافقه وهو انتينوس Antinous . لكن مهما قيل عن حب هادريان لغلامه الخريق وحزنه الشديد عليه ، ورغبته في تخليد ذكراه بإنشاء مدينة تحمل اسمه ، فإن دوافعه الى انشاء مدينة اغريقية كانت تتمشى مع ما ذاع عن هذا الامبراطور من عشقه للحضارة الاغريقية ولعله لم يرض عن حالة الضعف التي انتابت هذه الحضارة في مصر فرأى في انشاء مدينة اغريقية جديدة في مصر الوسطى ما يقوى تيارها ويوازي تأثير مدينة بطوليميس الاغريقية في جنوب الصعيد (المنشأة - محافظة سوهاج) . وكان اتجاه هادريان الى انشاء المدن الاغريقية قد ظهر قبل مجيئه الى مصر في مدينة أسسها في آسيا الصغرى (هادريا نوبوليس) .

وقد بنيت المدينة الجديدة على نمط المدن الهلينيستية ذات الشوارع المستقيمة المتقاطعة ، وجلب مواطنوها من مدينة بطوليميس ومن الجالية الاغريقية في أرسينوى (الفيوم) التي يرد ذكرها في

الوثائق باسم جماعة ال ٦٤٧٥ هيلينيا في أرسينوى ، ومنحت المدينة مجلسا للشورى ودستورا اغريقيا صيغ على نمط دستور مدينة نقراتيس ، وانتظم مواطنوها في قبائل وأحياء ، ومنحوا امتيازا لم يتمتع به مواطنو المدن الاغريقية الأخرى بمصر وهو حق الزواج من مصريات ، ولعل هادريان كان يفكر في أن يأتي جيل مشبع بالروح الاغريقية وتجري في عروقه الدماء المصرية . وانعاشا لاقتصاد المدينة الجديدة التي قامت في منطقة زراعية خصيبة ، أمر هادريان بانشاء طريق جديد يصلها بميناء برينيتى الشهير على البحر الأحمر .

وفي مجال رعاية هادريان للثقافة الاغريقية في مصر زاد عدد العلماء في الموسيون بالاسكندرية وقيل انه عقد ندوة للبحث مع الفلاسفة . وقد ظهر أثر أعمال هادريان في انتعاش الروح الاغريقية انتعاشا نسبيا وتجلى ذلك في فن التصوير الاغريقي كما تصوره قطع النقود الاسكندرية وفي ظهور أسلوب جديد لتصوير وجوه الأشخاص على المومياوات .

ثورة الفلاحين في الدلتا في عهد ماركوس أوريليوس .

في عام ١٧٢ ابان عهد الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس قام الفلاحون المصريون في شمال الدلتا بثورة عنيفة اتخذت شكل حرب العصابات وعرفت باسم « ثورة الرعاة » Bucolia ، فكانت أول ثورة للمصريين نسمع عنها في العصر الرومانى منذ ثورات اقليم طيبة في مطلع ذلك العصر . وقد تزعم الثورة أحد الكهنة وهو ايزيدور . والواقع أن أحوال الفلاحين المصريين كانت تزداد سوءا على مر الأيام حتى بلغت عند منتصف القرن الثانى حدا لا يحتمل تحت وطأة نظام ضرائب بالغ الارهاق

وخدمات الزامية لم توزع توزيعاً متكافئاً مع القدرة المالية بين الأغنياء والفقراء ، و أعمال سخرة أكره عليها الفلاحون وشملت أشخاصهم ودوابهم . وقد ترتب على ثورة اليهود المدمرة في عصر تراجان تخريب الأراضى الزراعية وإهمال نظام الري ، فساءت أحوال الزراعة وهجر الفلاحون أراضيهم التي لم يروا جدوى من فلاحتها ما دام لا يبقى لهم من ثمرة الجهود الا النزر اليسير . ومما يدل على سوء الأحوال تفشى ظاهرة فرار المزارعين من الأرض وهجر الأهالى للموطن ، وهو ما عرف في لغة الوثائق « بالتسحب » *Anachoresis* اما للعجز عن أداء الضرائب أو فراراً من خدمة الزامية ، فكان المتسحب يلجأ الى المدن الكبيرة وخاصة الاسكندرية على أمل أن يجد فيها عملاً أو يتوارى على الأقل من أعين السلطات التي كانت تجد في طلبه لاعادته الى موطنه *Idia* ، فان لم يجد لاذ بأحراش الدلتا وربما تحول الى قاطع طريق .

هكذا بدأ الرومان يحصدون الثمار المرة لسياستهم الخرقاء في ابتزاز ثروة مصر وامتصاص الطاقة الانتاجية لأرضها وأهلها . ويبدو أن المصريين انتهزوا فرصة سحب بعض القوات من مصر للمشاركة في الحروب في منطقة الدانوب فثاروا ثورتهم تلك التي بلغ من عنفها أن عجزت القوات الرومانية عن مواجهتها ، بل كادت الاسكندرية نفسها أن تسقط في يد الثوار لولا وصول نجدة من سوريا بقيادة أفيدپوس كاسيوس الذي استطاع بالخدعة أن يوقع بين الثوار ويقضى عليهم في عام ١٧٥ .

غير أن روما لم تفرغ من ثورة المصريين الا لتواجه خطراً أشد تمثل في اعلان أفيدپوس كاسيوس نفسه امبراطوراً بعد أن حصل على تأييد جنوده . وقد أمكن القضاء على هذه الحركة بعد شهرين

معدودة . لكن ما يسترعى النظر هو تأييد الاسكندرانيين لها ، ليس
حبا في كاسيوس بل تأييدا لأى حركة انشقاق على السلطة المركزية
في روما . وعندما زار الامبراطور ماركوس أوريليوس الاسكندرية في
العام التالي (١٧٦) لم يبطن بالاسكندرانيين وانما سلك معهم
بل مع أسرة كاسيوس نفسه السلوك الخليق بحاكم فيلسوف
حكيم . وقد احتفظ الاسكندريون بذكرى طيبة لهذا الامبراطور
حتى أن بردية متأخرة من المجموعة المعروفة « بأعمال الشهداء
الوثنيين » وصفته بالفلسفة والزهد والخير وهو ما لم يصف
الاسكندريون به أى امبراطور روماني آخر . لكن ابن أوريليوس
وخليفته الامبراطور كومودوس (١٧٦ - ١٩٢) كان على النقيض
من أبيه فسعى الى الانتقام من أفراد أسرة كاسيوس وتعقبهم حتى
استأصل شأفتهم ، وحاكم زعماء الاسكندرانيين وأعدم الكثير منهم
وقد بينت تلك البردية المذكورة أن صراع الاسكندرانيين مع الأباطرة
الرومان أصبح سافرا ، وهى تضم أجزاء من محاضر محاكمة
أبيانوس أحد زعماء الاسكندرانيين الذين تم اعدامهم على يد
كومودوس . وقد ازدادت الأحوال الغامة سوءا في عهد هذا
الامبراطور ، وليس من قبيل المصادفة أن قام ببناء أسطول جديد
لنقل القمح من شمال افريقيا الى روما لمواجهة الموقف اذا ما تأخر
وصول القمح من مصر . وفي هذا ما يشير الى أن روما لم تعد
تستشعر الاطمئنان على مصر .

المحاولات الاصلاحية في عهدى سفروس وكاراكالا :

في شتاء عام ١٩٩/٢٠٠ زار الامبراطور سبتيميوس سفروس
مصر ، حيث قام بالرحلة الترويحية التقليدية لمشاهدة الآثار المصرية
على طول الوادى . لكن هذه الزيارة لم تكن لمجرد السياحة وانما
للتدراك الوضع المتفاقم في مصر بعد أن وصل جهاز الحكم الى حال

من العجز ينذر بانهيائه جملة . وكان من أبرز مظاهر هذا العجز أن الحكومة لم تعد تجد عددا كافيا من الأشخاص القادرين على تحمل عبء وظائف الإدارة المحلية في عواصم الأقاليم Metropole. ٤ بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية للطبقة الوسطى التي نهضت بهذا العبء منذ بداية الحكم الروماني . وقد قام سفروس بعدة أعمال في مصر كان أبرزها منح الاسكندرية وجميع عواصم الأقاليم حق انشاء مجالس الشورى Bouloi ، وهكذا حصلت الاسكندرية بعد ما يزيد على القرنين على مطلبها العزيز من الرومان ، لكن لم يكن لها عندئذ ذلك المذاق الخاص بعد أن ساواها اصلاح سفروس بسائر عواصم الأقاليم . وقد يبدو من ظاهر هذا الاصلاح أن الغاية منه اعطاء مزيد من الحرية للمدن وعواصم الأقاليم في تصريف شئونها ، لكن الهدف الحقيقي كان القاء المسؤولية في ملء الوظائف الادارية في الاقليم على هذه المجالس ، اذ أصبح أصحاب الأملاك في كل عاصمة اقليم (متروبوليس) مسئولين مسؤولية جماعية في هيئة مجلس الشورى Boule عن شغل المناصب العامة وتمويلها .

ويعتبر هذا الاصلاح اول تغيير أساسي طرأ على النظم الادارية في مصر منذ أيام أوغسطس . ولا شك أنه كان محاولة لتوحيد هذه النظم مع نظم سائر الولايات . وبغض النظر عما ترتب عليه من علو قدر عواصم الأقاليم أدبيا حين تساوت مع الاسكندرية في التمتع بمجلس شورى ، فإن الأهمية العملية للتغيير أنه لم يعد من اليسير على أعضاء طبقة الرومان ومواطني الاسكندرية المقيمين في « ريف » مصر قريبا من أملاكهم أن يتهربوا من الخدمات الإلزامية مثلما كانوا يفعلون في الماضي اعتمادا على اثبات أن موطن اقامتهم Idia ليس في هذا الريف وانما في الاسكندرية ، فقد أصبحت المسؤولية الجماعية في المجالس تشمل الجميع .

وتابع اصلاح سفيروس اصلاح مهم آخر على يد ابنه كاراكالا (٢١١ - ٢١٧) وهو القانون الذى صدر فى عام ٢١٢ (او ٢١٤) وعرف باسم *Constitutio Antoniniana* الذى منح حق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار فى الامبراطورية (ما عدا فئة الخاضعين المستسلمين *Dediticii*) وقد ثار جدل طويل بين الباحثين حول تحديده المقصود بهذه الفئة ، وهل كانت تشمل المصريين أو لا ، لكن ما يهم هنا هو أنه بصدد هذا القانون تمت التسوية نهائيا بين المواطنين الرومان ومواطنى الاسكندرية وفئة مواطنى عواصم الأقاليم *Metropolitai* من حيث الزامهم بتولى مناصب الحكم المحلى بحكم دخولهم جميعا فى عضوية مجالس الشورى . وعندما زار كاراكالا الاسكندرية فى عام ٢١٥ لم يبد الاسكندرليون أى مظهر للترحيب به ، ولعل الامبراطور توهم أن قراره أسعدهم ، لكنهم على العكس أطلق الاسكندرليون - كدأبهم - ألسنة السخرية عليه ، وانتقم من المدينة شر انتقام اذ أباحها لجنوده وأعدم زعماءها وقتل الكثير من شبابها .

مصر فى خلال محنة الامبراطورية فى القرن الثالث :

يستلقت النظر بعد ذلك فقدان مصر لأهميتها ، بل لقد أصبحت عبئا على الامبراطورية أكثر منها مصدر نفع عميم كما كان حالها فى الماضى . ومما يدل على ذلك أن الامبراطور ماكريينوس لم ير غضاضة فى أن يخرق القاعدة التى وضعها أوغسطس وهى ألا يعين رجال السناتو فى مناصب ادارية فى مصر ، بل ألا يدخلها أحد منهم ألبتة الا باذن من الامبراطور . فقد عين ماكريينوس أحد أعضاء السناتو البارزين آنذاك مساعدا لوالى مصر . بل لقد رأينا الامبراطور سفيروس الاسكندر بعد ذلك يعين فى منصب الوالى شخصا قاد ثورة الحرس الامبراطورى ضده ليس مكافأة له بالطبع لكن ابعادا له الى مكان لا يستطيع منه أن يهدد مركزه .

والواقع أن فترة نصف القرن الواقعة بين مصرع سفروس الاسكندر هذا (٢٣٥) وتولى الامبراطور دقلديانوس عرش الامبراطورية (٢٨٤) تمثل عصر محنة حقيقية للامبراطورية . فقد توالى ظهور ادعاء العرش ، وتردت البلاد في هذه الحروب الأهلية ، واخترقت حدود الامبراطورية في مواضع شتى على يد القبائل الغازية ، وعم الفقر وتفشت المجاعات والطواعين . ونتج عن سياسة اضطهاد المسيحية التي اتخذت شكل السياسة منذ أيام الامبراطور سبتيميوس سفروس أن غرقت الولايات في أنهار من الدماء . وقد ران على شئون مصر ابان هذه الفترة خمول شديد بحيث لا نسمع عن دور قامت به هذه الولاية في تنصيب امبراطور أو آخر ، واقتصر الأمر على تغير اسم الامبراطور في الوثائق الرسمية . وكل ما سطره التاريخ لمصر من أحداث في هذه الفترة هو اضطهاد الامبراطور دكيوس المرير للمسيحية في مصر ضمن اضطهاده العام الذي كان من أعظم المحن التي مرت بها المسيحية (حوالي عام ٢٥٠) ، ثم أغارت قبائل البليميس النوبية على الحدود المصرية الجنوبية في عهد هذا الامبراطور نفسه .

على أن أهم ما وقع بمصر من أحداث في هذه الفترة هو غزو الملكة زنوبيا (الزباء) ملكة بالميرا (تدمر) واستيلائها عليها في عام ٢٦٩ واستمرت تحكمها باسم ابنها وهب اللات بن أذينة حتى عام ٢٧١ حين أفلح القائد بروبوس الذي أرسله الامبراطور أوريليانوس الى مصر في استردادها في حين هاجم الامبراطور مملكة زنوبيا من الشمال حتى قضى عليها وحملها أسيرة . ونسمع في العام التالي (٢٧٢) عن ثورة قامت في الاسكندرية بزعامة تاجر ثرى يدعى فيرموس ، وقدم الامبراطور أوريليانوس بنفسه لقمع الثورة ثم غادر الاسكندرية تاركا فيها قائده بروبوس للقيام بمهمة

انخضاع قبائل البليميس النوبية • وعندما مات أوريليانوس نادى الجيش الروماني في مصر بـبروبوس امبراطورا فارتقى العرش خمس سنين حتى قتل في عام ٢٨٢ ، وقتل من بعده ثلاثة أباطرة في عامين اثنين • وفي عام ٢٨٤ تولى عرش الامبراطورية الامبراطور دقلديانوس الذي أخذ في تنظيم الامبراطورية على أسس جديدة ، فكان عهده فاتحة لتغييرات مهمة أدخلت مصر والامبراطورية الرومانية عامة في مرحلة جديدة •

النظم الادارية

كان طبيعيا أن تتأثر النظم الادارية الرومانية في مصر بنظم أسلافهم البطلمية الذين أوجدوا أداة حكم منظمة تنظيما علميا دقيقا اكنمت على أيام بطلميوس الثانى (فيلاد لفوس) واثبتت نجاحها في أداء عملها على نحو حقق أهداف هذا الملك الاقتصادية وأهداف خلفائه من بعده . ولما كانت الغاية من كل أنظمة الرومان في مصر هي تحقيق أكبر عائد ممكن من دخلها : وكانت نظم الادارة البطلمية في الواقع هي أداة السيطرة المحكمة على كافة أدوات الانتاج فقد كان الامبراطور أوغسطس مستعدا لتقبل هذه الأداة البطلمية . والواقع أن الرومان ، على وجه العموم ، لم يكونوا يتدخلون لتغيير نظم الادارة التي وجدوها في البلاد التي آل اليهم أمرها تغييرا أساسيا ما دامت هذه الأداة كفيلة بتحقيق أهداف سياستهم . وكل ما كان الأمر يتطلبه هو أن يشهد من قبضة السلطة المركزية التي كان قد انتابها الضعف إبان عهود البطلمية الأواخر ، واجراء بعض التعديلات التي يقتضيها وضع الادارة الجديد بعد زوال السلطة الملكية ، مما أوجب ادخال وظائف جديدة والغاء أخرى أو تغيير طبيعة بعض الوظائف القديمة واختصاصاتها .

الوالي على رأس السلطة المركزية :

وقد مر بنا أن كافة سلطات الحكم المركزي وضعت في يد حاكم عام أو وال حمل لقب « بريفكتوس » ومنح بصفة استثنائية سلطة الامبريوم البروقنصلية ليتولى قيادة الفرق الرومانية في البلاد . والى جانب تولى قيادة الجيش ، كان الوالى هو الرئيس الادارى ، له سلطة تعيين الموظفين وعزلهم في جميع مستويات الادارة ، عدا كبار الموظفين الذين يعينهم الامبراطور . أما من الناحية القضائية فقد خولته سلطته العليا أن يكون القاضى الأعلى ، اليه ترفع الشكاوى وله سلطة مصادرة الأملاك واصدار أحكام الاعدام وتحرير العبيد . ونعلم من الوثائق أن الوالى كان يعقد مجلسا قضائيا *Conventus* ثلاث مرات في العام ، مرة في باوزيون (الفرما) وأخرى في منف ، وثالثة في الاسكندرية للنظر في قضايا أقاليم شرق الدلتا ومصر الوسطى والعليا وأقاليم غرب الدلتا على التوالي . وقد كان يعلن أحيانا عن عقد مجالس قضائية للوالى في غير هذه المواضع تخفيفا لمشقات الانتقال البعيد اليها . ومن الواضح أن هذه المجالس القضائية لم تقتصر على الفصل في القضايا أو الشكايات ، وإنما كانت كذلك فرصة للوالى لتفقد سائر الشئون المالية والادارية خاصة ما يتعلق بجباية الضرائب وتحصيل حصة القمح المقرر ارسالها سنويا الى روما وهو ما كان يشكل أهم واجبات الوالى . وهنا نذكر عبارة « فيلون » وهى أن والى مصر كان يقضى الجانب الأكبر من وقته كل عام في تفقد موارد الدخل في مختلف أقاليم مصر ومراجعة حساباتها .

ونستدل من بعض الوثائق على جوانب أخرى من وضع الوالى القريب من وضع الملوك ومنها مراسم قصره بالاسكندرية وأداء التحية له كل صباح . غير أن سلطة الوالى كانت آخر الأمر خاضعة لسلطة الامبراطور الذى يعينه ويعزله متى شاء ، كذلك

فان الرسائل والفتاوى والتعليمات الصادرة من الامبراطور كانت تنظم مهامه وتحدددها من وقت الى آخر . والامبراطور وليس الوالى هو الذى يحدد مقدار الضرائب العينية والنقدية التى تجبى سنويا من مصر . كذلك كان الوالى يرجع الى الامبراطور فى المسائل التى يراها مجاوزة حدود اختصاصه أو يرفع اليه بعض الأمور ليفصل فيها بنفسه . وقد أصبحت تعليمات الأباطرة المتعاقبين وفتاواهم بمرور الوقت بمثابة قواعد ثابتة كان الوالى يتصرف وفقا لها . ومن ناحية أخرى يبدو أنه كانت لدى الأباطرة سياسة ثابتة بعدم ترك الوالى فى منصبه أكثر من ثلاث سنوات ، حتى لا تتاح الفرصة لأصحاب الطموح لتوطيد مركزهم وتهديد مركز الامبراطور فى روما .

كبار موظفى السلطة المركزية :

وكان يلى منصب الوالى فى السلطة المركزية وظيفة اليوريديكوس *iuridicus* (باليونانية *dikaiodotes*) ويعينه الامبراطور من المواطنين الرومان ، وهو مساعد الوالى فى الشؤون القضائية ، ويتولى منصب الوالى مؤقتا فى حالة خلو هذا المنصب فجأة بعزل الوالى أو موته حتى يعين وال جديد . وكان الغرض من انشاء هذه الوظيفة تزويد الادارة الرومانية فى مصر بالخبرة القانونية التى كان الولاة من طبقة الفرسان يفتقدونها كما تأتى أحكامهم مطابقة لمبادئ القانون . وكثيرا ما كان الوالى ينيب اليوريديكوس فى نظر القضايا المرفوعة اليه . ولنا أن نسمى هذا الموظف وزير العدل وأن نشبهه بمنصب الأرخيديكاستيس فى العصر البطلمى لأن اختصاصه القضائى كان يشمل عموم مصر . على أننا نسمع عن موظف قضائى آخر حمل هذا اللقب البطلمى المذكور فى العصر الرومانى ، لكن يبدو من الوثائق ارتباط هذا المنصب بمدينة الاسكندرية ، وكان يشترط فيمن يشغله أن يكون

من مواطني هذه المدينة الذين حصلوا على حق المواطنة الرومانية، كما يبدو أنه كان موكلا بتنفيذ الأحكام القضائية ، ومشرفا في الوقت نفسه على دار الوثائق العامة (المحفوظات) في الاسكندرية
• Katalogeion

أما الشئون المالية التي كانت تشكل الجانب الأكبر من مهام الوالى واهتماماته فقد عين لمساعدته فيها موظفا كبيرا حمل أحدهما لقب ديويكتيس (ولنا أن نسميه المتصرف المالى) والثانى لقب اديوس لوجوس (ولنا أن نسميه مدير الحساب الخاص) .
ومن الواضح أن كلا من الوظيفتين كان ميراثا من الادارة المالية البطلمية ، لكنه طرأ على اختصاصاتهما في العصر الرومانى تغيير أساسى . فنحن نعلم أن الديويكتيس كان في العصر البطلمى على رأس الادارة المالية بحيث لم يكن الاديوس لوجوس الا واحدا من مرءوسيه . أما في العصر الرومانى ، ومع اعتبار الوالى الرئيس الأعلى للادارة المالية فقد نزلت مرتبة الديويكتيس وأصبحت في الأغلب مساوية لوظيفة الايديولرجوس ، غير أنه ليس من اليسير تحديد الديويكتيس أو بيان طبيعة علاقته بصاحب الوظيفة الكبيرة الثانية ، لكن من المرجح أنه كان مساعدا للوالى في الشئون المالية الاعتيادية المنظمة مثل تقدير الضرائب سنويا وتنظيم عملية جبايتها . وكان يتعين أن يكون شاغل هذه الوظيفة مواطنا رومانيا .

أما وظيفة الايديوس لوجوس فمعلوماتنا عنها أوفر بفضل تلك الوثيقة البردية المهمة التي تضمنت القواعد والأحكام والاجراءات الخاصة بها (P. Gnomon) ويبدو واضحا أن هذه الوظيفة اكتسبت في العصر الرومانى أهمية زائدة ، وأنها اختصت على العموم بالاشراف على كافة موارد الدخل غير الاعتيادية كتلك المتحصلة من مصادر الأملاك وتوقيع الغرامات وأيلولة الأملاك

التي لا صاحب لها للحكومة وما الى ذلك . وأسند الى شاغل هذه الوظيفة الاشراف على اراضى المعابد والتفتيش على حساباتها ، ومن هنا كان لقب الكاهن الأعلى للاسكندرية وعموم مصر الذي حمله هذا الموظف بالرغم من أنه كان موظفاً مالياً صرفاً .

نظام الادارة المحلية :

تيسيراً للادارة العامة قسمت البلاد الى ثلاث وحدات ادارية كبيرة على رأس كل منها حاكم يحمل لقب ابستراتيجوس ، وهذه الوحدات هي الدلتا ، والأقاليم السبعة وأرسينوى (وتقابل بالتقريب مصر الوسطى) ، ومنطقة طيبة Thebaid وضمت كل وحدة عدداً من الأقاليم (النومات Nomoi) والملاحظ أن هذه التقسيمات قد وجدت في العصر البطلمي كما أن تقسيم مصر الى أقاليم نظام يرجع الى عهد عتيقة من أيام الفراعنة . وقد كان القصد من وظيفة الابستراتيجوس (حاكم عام المنطقة) أن يكون حلقة الوصل بين موظفى السلطة المركزية فى الاسكندرية والادارة الحكومية المحلية على مستوى الاقليم أى حلقة الوصل بين الوالى ومساعديه وحكام الأقاليم الداخلة فى حدود منطقتهم الادارية لكن لم يكن للابستراتيجوس سلطة عسكرية كما كان الحال فى العصر البطلمي لأن السلطة العسكرية تركزت فى يد الوالى وحده كما رأينا ، أما اختصاصاته فهى الاشراف على حسن سير العمل فى منطقتهم والقيام بأى تحقيقات ادارية ورفع أسماء المرشحين لتولى الوظائف فى ادارة الاقليم المحلية الى الوالى ليصدر أمر تعيينهم ، وكان الترشيح يتم بناء على اقتراحات من مديرى الأقاليم التابعين له .

أما حاكم الاقليم فقد استمر يحمل لقب استراتيجوس الذى حمله نظيره فى العصر البطلمي ، لكنه - شأن رئيسه

الابستراتيجوس - لم يتمتع بأى سلطة عسكرية . وكانت هذه الوظيفة هي أول مستوى من الوظائف العامة يمكن أن يشغله أفراد من غير المواطنين الرومان . ويصدر أمر تعيينه من الوالى بناء على ترشيح ابستراتيجوس المنطقة ، ويشغل وظيفته ثلاث سنوات فى العادة ويتقاضى عنها راتبا ، وتتضمن اختصاصاته الاشراف على جميع النواحى الادارية والمالية ، وتقدير الضرائب السنوية على الأراضى والممتلكات والأفراد بناء على الاحصاءات التى يجمعها الاداريون من مرءوسيه . ولم تكن للاستراتيجوس فى اقليمه سلطة النظر فى القضايا واصدار الأحكام الا بمقتضى تفويض بذلك يصدر اليه من الوالى أو أحد كبار الموظفين القضائين فى الادارة المركزية بالاسكندرية .

ويلى وظيفة الاستراتيجوس فى ادارة الأقاليم وظيفة « الكاتب الملكى » ، وهو مساعد الاستراتيجوس الأيمن ونائبه الذى يحل محله فى غيابه ، وكان يختار عادة من فئة « سكان عواصم الأقاليم » *Metropolitai* ويتقاضى راتبا . وتبين الوثائق أن وظيفة الكاتب الملكى تمثل قمة البيروقراطية من حيث ما تركز فيها من اختصاصات وكذلك من حيث الدقة البالغة فى تسجيل كل كبيرة وصغيرة من شئون الادارة . وتظهر أهمية الوظيفة على وجه خاص فى مسألة تقديرات الضرائب والترشيح لوظائف البلدية والأعمال الالزامية . وكان يساعد الكاتب الملكى موظف له أهميته حمل اسم « أمين المحفوظات » *Bibliophylakes* واختصاصه الاشراف على دار حفظ الوثائق والسجلات التى أنشأها الرومان فى كل عواصم الأقاليم .

الوظائف البلدية فى ادارة الاقليم المحلية :

والى جانب هذه الوظائف الرسمية على مستوى الاقليم (التوموس) وجدت وظائف محلية « بلدية » *Archai* وهى

وظائف شرقية لم يكن شاغلوها Archontes يتقاضون رواتب وانما احتملوا نفقات مسؤولياتها . ويبدو أن تنظيم هذه الوظائف وجد منذ عهد أوغسطس ، حيث استعيرت أسماؤها واختصاصاتها من نظم المدن الاغريقية القديمة . وكان القصد من هذه الوظائف البلدية أن تتخفف الادارة الرومانية من بعض أعباء الحكم لينهض بها القادرون عليها من سكان عواصم الاقليم . على أن هذه الوظائف كانت في الوقت نفسه متطلبات تقتضيها الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية للاغريق النازلين في « ريف » مصر ، ومنها مثلا رعاية الجمنازيوم والقيام على ادارته . وفي بداية الحكم الروماني كان تولى هذه الوظائف شرفا يسعى اليه الطامحون ، فكان سكان عواصم الأقاليم ينتخبون لها أفضل العناصر . لكن بمرور الوقت ، ومع تدهور أحوال الطبقة الوسطى الاقتصادية ، أصبح من الصعب الحصول على مرشحين لهذه الوظائف ، فلجأت الحكومة الى ارغام السكان على النهوض بها .

ويمكن أن نميز ستا من هذه الوظائف ، لكنها لم تكن بالضرورة كاملة في كل عواصم الأقاليم . وكان يأتي في مقدمتها من حيث الأهمية والمكانة الاجتماعية وظيفة مدير الجمنازيوم Gymnasiarchos الذي كان يتولى الاشراف على تلك المؤسسة التربوية التعليمية الاجتماعية التي كانت مركز الحياة العامة الاغريقية في عاصمة الاقليم ، تليها وظيفة الاكسيختيس Exegetes وكان مختصا بتسجيل الشباب الذين بلغوا السن المقرر لتدريبهم في منظمات الشباب Ephebeia ، والحفاظ على وضع الفئات ذات الامتيازات الخاصة في العواصم ، كما كان مختصا برعاية شئون القصر وتعيين الأوصياء على النساء . وهناك وظيفة المشرف على شئون التعليم Kosmetes ومراقب الأسواق Agoranomos الذي كان من اختصاصه أيضا

توثيق العقود ، والمشرف على التموين Eutheniarchos
وكبير الكهنة Archiereus . وفي بداية الأمر كان شاغل
الوظيفة مسئولاً بصفة شخصية عن مهام وظيفته فحسب ، لكن
بمرور الوقت أصبح شاغلو الوظائف يشكلون في مجموعهم ما يشبه
الهيئة ذات المسئولية التضامنية (ويرد ذكرها بلفظ Koinon)
وكانت هذه الهيئة في الواقع نواة لمجالس الشورى Boulai
التي أنشأها الامبراطور سبتيميوس سيفيروس في عواصم الأقاليم
اعتباراً من عام ٢٠٠ كما مر بنا .

الادارة على مستوى القرية Kome :

كانت أدنى مستويات الادارة هي القرية ، لكنها كانت في
الواقع الخلية الأساسية في النسيج الادارى . ونحن نلاحظ فيها
عين النظام المزدوج الرسمي الحكومى من ناحية والموكول الى
مسئولية الأهالى من ناحية أخرى . ويمثل الوظائف الرسمية مسئول
الأمن أو قائد الشرطة Archepodos وكاتب القرية
Komogrammateus وكان هذا مختصاً باعداد قوائم بأسماء
سكان القرية وعدد رجالها البالغين ومقدار ملكية كل شخص
والمستحق على ملكيته من ضرائب وخدمات الزامية ، وكذلك اعداد
تقارير سنوية عن حالة الأراضى الزراعية بالقرية من حيث نوع
المحاصيل ودرجة انتفاعها بمياه الرى لتقدير الضريبة السنوية
عليها تقديراً صحيحاً . أما ما يقابل الوظائف « البلدية » في عاصمة
الاقليم فقد تمثل على مستوى القرية في عدد من شيوخها يتناسب
مع عدد السكان ، ويعتبرون مسئولين أمام مدير الاقليم عن حسن
سير الزراعة واستتباب الأمن بين الأهالى . ويبدو أن العضوية
في هذه الهيئة كانت من جملة الأعمال الاجبارية Leitourgia
التي وقعت على طبقة ملاك الأراضى في القرية .

التغيرات التي طرأت على النظام الإدارى فى القرن الثالث :

هكذا كان هيكل النظام الإدارى فى مصر بدءا من رأس السلطة المركزية حتى مستوى القرية . ولعلنا نلاحظ مدى مسيطرة هذا النظام لنظام الحكم البطلمى بالرغم مما أدخله الرومان من تعديلات . غير أن أهم ما ينبغى أن يلتفت إليه هو تغير طابع الخدمة الحكومية فى العصر الرومانى عنه فى عصر البطلمية الذين كانوا يعينون موظفيهم فى مناصب حكومية دائمة اتخذها هؤلاء مهنة يتكسبون منها ، أما الرومان فقد اكتسبت الخدمة الحكومية عندهم فى مصر بالتدريج طابع التكليف بحيث لم يواف القرن الثانى الميلادى حتى أصبح موظفو الحكومة ، باستثناء كبارهم ، يتولون مناصبهم لفترات قصيرة وعلى غير رغبة منهم . وكان لابد من أن يترتب على ذلك ضعف أداة الحكم فى مستوياتها الأدنى الأساسية . وقد مر بنا ذكر التعديلات التى أدخلها الإمبراطور سبتسيموس سفروس على نظام الإدارة المحلية اعتبارا من عام ٢٠٠ م مستهدفا إصلاح هذا النظام أو بالأحرى انقاذه من الانهيار . وكان أهم هذه التعديلات انشاء مجالس الشورى فى عواصم الأقاليم . والواضح أنه لم يترتب على انشاء المجلس تمتع عاصمة الإقليم بالحكم الذاتى بالمعنى المفهوم الآن مدير الإقليم Strategus ظل يمارس سلطته الكاملة فى إقليمه . ولم يكن القصد من انشاء المجلس الا القاء المسئولية كاملة على أعضائه فيما يتعلق بالشئون المالية لكل إقليم وضمان توفير موظفين للإدارة المحلية ولجباية الضرائب ومراقبة دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضى . وقد اقتضى قيام هذه المجالس انشاء عدة وظائف جديدة منها وظيفة رئيس مجلس الشورى Prytanis ووظيفة أمين عام المدينة ، كما تترتب على ذلك التعديل احياء نظام تقسيم الإقليم الى مراكز على كل منها حاكم

Toparch يساعده موظف (أو أكثر) يشرفان على الايراد العام من الضرائب ومعهم عدد كاف من الجباة . وعلى مستوى القرية ظهرت من جديد وظيفة حاكم القرية komarch التي انتقلت اليها بالتدريج اختصاصات كاتب القرية وهيئة شيوخها . غير أن هذه التعديلات التي كانت بمثابة اعتراف بفشل نظام الادارة القديم الذي كان الهدف منه تحسين الأداء الادارى لضمان عائد أمثل من الضرائب ، ولكنه لم يفلح في اصلاح حال الاقتصاد المصرى ، لأن طاقة مصر البشرية ذاتها كانت قد أرهقت تحت وطأة الالتزامات المختلفة بأكثر مما تحتمل .

نظام الادارة فى المدن الاغريقية :

ليس من شك فى أن الرومان أبقوا للمدن الاغريقية التى وجدوها فى مصر وضعها الخاص ، وان حرصوا على ألا تزيد النزعة الاستقلالية فيها . وقد سبق أن عرفنا أنه كان على مواطنى الاسكندرية أن يدبروا حياتهم العامة بدون مجلس الشورى التشريعى الذى رفض أوغسطس منحه للاسكندرية ولم تحظ به المدينة الا فى عام ٢٠٠ . كذلك لم ينشئ الرومان فى مصر مدنا اغريقية جديدة ، الا تلك المدينة التى أسسها هادريان عند زيارته مصر فى عام ١٣٠ من منطلق غيرته على الثقافة الاغريقية التى كان تيارها قد ضعف فى مصر ، ومنحها دستورا اغريقيا على نمط دستور نقراتيس ، أقدم المدن الاغريقية فى مصر ، بل أعطى مواطنيها امتيازات خاصة فاقت امتيازات مواطنى المدن الاغريقية الأخرى .

ويلاحظ فى نظم الاسكندرية الادارية وجود موظفين رسميين يمثلون السلطة المركزية وموظفين مدنيين يمثلون المواطنين ، وهو عين النظام الادارى المزدوج الذى لاحظناه من قبل فى ادارة الاقليم

المحلية، بل انه ليبدو أن وظائف الاسكندرية المدنية كانت النموذج الذي احتذاه أوغسطس في انشاء الوظائف البلدية في عواصم الأقاليم ، فقد وجدت بالاسكندرية كل الوظائف التي سبق ذكرها في تلك العواصم . ولا نعلم يقينا ما اذا كانت هذه الوظائف تشغل بالانتخاب ، لكن ما يوحى بذلك عبارة وردت في رسالة الامبراطور كلاوديوس الى الاسكندرية (٤١ م) وما اتخذه مديرو الجمنازيوم من وضع الزعامة لمواطنى الاسكندرية كما تصورهم وثائق « أعمال الشهداء الوثنيين » . كذلك نستنبط من رسالة كلاوديوس المذكورة أن هذه الوظائف كانت تشغل في بداية الأمر لمدة تزيد على ثلاث سنوات ، ثم حددت المدة بعد ذلك بهذه السنوات الثلاث . وقد درج الأباطرة على تعيين عدد من الموظفين في هيئة الموظفين المدنيين وغالبا ما كان هؤلاء من عتقاء الامبراطور المخلصين له مما جعلهم عيوننا للسلطة الرومانية على هذه الهيئة . ولاشك أن وجود هؤلاء الى جانب موظفى السلطة المركزية مثل حاكم المدينة وقائد الشرطة بها ، قد انتقص كثيرا من حرية المدينة واستقلال هيئة المواطنين فيها بادارة شؤون مدينتهم .

أما مدينتنا نقراتيس وبتوليميس فاننا نستطيع أن نستنبط مما لدينا من معلومات قليلة ان كلا منهما احتفظت بدستورها الاغريقى القديم بما يتضمنه من انتخاب هيئة حكام وقيام مجلس شورى تشريعى وجمعية عامة ، وأن المواطنين كانوا مقسمين الى قبائل وأحياء .

الحياة الاجتماعية فئات السكان وأحوال معيشتهم

وجد الرومان في مصر مجتمعا طبقيًا تمايزت فيه أوضاع السكان من حيث الامتيازات والحقوق والواجبات والأعباء . وقد اتخذ المجتمع هذا الشكل الطبقي نتيجة لسياسة التمييز العنصري التي اتبعتها البطالمة ، حيث منحوا الاغريق الذين تدفقوا على مصر خاصة في بداية حكمهم كثيرا من الامتيازات على حساب العنصر الوطني من السكان . وليس من شك في أن البطالمة كانوا متعاطفين مع العنصر الاغريقي بصفة كونهم ملوكا مقدونيين الأصل اغريقيي الثقافة ، لكن كان من وراء هذه السياسة دوافع عملية أيضا وهي احتياج البطالمة المادى الى خبرة هذا العنصر وجهوده لبناء دولتهم في شتى المجالات الاقتصادية والادارية والعسكرية . وقد أدى الاغريق في ذلك كله دورا مهما أهلهم له نشاطهم كما حفزتهم اليه تلك الفرص الكبرى التي أتاحتها لهم الملوك منذ البداية .

وبالنسبة الى الرومان فانه فضلا عن احترامهم للثقافة الاغريقية وثقتهم في قدرتها على العطاء فانهم واجهوا احتياجا ماديا

مسائل إلى العنصر الاغريقي أو المتأغرق الذي وجدوه في مصر لكي يلقوا عليه بعض مسئوليات الحكم على مستوى الادارة المحلية في الأقاليم وتولى الوظائف البلدية تخففا من بعض أعباء الحكم الملقاة على السلطة المركزية . . . وهنا ينبغي أن نوضح أنه بدءا من وظيفة مدير الاقليم (الاستراتيجوس) استخدم الرومان عناصر اغريقية لتولى الوظائف الحكومية منذ البداية . وازاء ذلك ، تبني الرومان السياسة البطلمية نفسها في التمييز بين عناصر السكان من أجل تقوية العنصر الاغريقي والمتأغرق ، بل انهم أكدوا الفوارق بين مختلف الطبقات والفئات عن طريق اعطاء كل طبقة أو فئة وضعا قانونيا محددًا . وليس أدل على تشدد هذه السياسة من أن بعض المصطلحات الواردة في وثائق العصر البطلمي والتي كانت تستخدم للدلالة على أنماط بعينها من تجمعات الاغريق في أنحاء « الريف » المصري وفقا لأسلوب الحياة الاجتماعية الاغريقية مثل مصطلح « جماعة رجال الجمنازيوم » Hoi apo gymnasiou ، أصبح لها إبان العصر الروماني مدلول محدد يشير إلى طبقة اجتماعية ذات وضع قانوني خاص .

المواطنون الرومان :

وإذا كان المقدونيون والاغريق قد تربعوا على رأس الهرم الطبقي للمجتمع المصري في العصر البطلمي فقد كان أمرا طبيعيا أن يحتل هذه المكانة في ظل الحكم الروماني طبقة المواطنين الرومان Cives Romani الذين جاءوا في ركاب السيد المحتل للعمل في الوظائف الكبرى في الادارة أو تجارا ورجال أعمال ، أو جنودا في الجيش الروماني المرابط في مصر ، حيث فضل الكثير من قدماء المحاربين Veterani الاستقرار في مصر بعد منحهم حقوق المواطنة الرومانية عقب تسريحهم . . . وقد شكل هذا

العنصر أرقى طبقة من حيث التمتع بأكبر قدر من الامتيازات التي نعلم عنها الكثير ومنها وقف المناصب الادارية الكبرى عليهم ، واعفاؤهم كليا أو جزئيا من بعض الضرائب ومن القيام بالخدمات الاجبارية وتولى أعباء الوظائف المحلية في الشطر الأول من العصر الروماني على الأقل . وحيثما نزل المواطنون الرومان في أقاليم مصر قريبا من أملاكهم لم يمكن لمدير الاقليم سلطان عليهم وانما يرجعون في شئونهم الى رئيسه مدير المنطقة الادارية Epistrategus الذي كان يتعين أن يكون مواطنا رومانيا . ولعل المواطنين الرومان في مصر من حيث امتيازاتهم والاجراءات الادارية والقانونية المتعلقة بهم قد شابهوا وضع طبقة المقدونيين في عصر البطالمة .

غير أن ما ينبغي ملاحظته أن المواطنين الرومان الأصنيين لم يتدفقوا على مصر تدفق العنصر الاغريقي من قبل في أعقاب حملات الاسكندر الأكبر في الشرق وقيام مملكة البطالمة ، ولم يتغلغل هؤلاء الرومان في الريف المصرى مثلما فعل الاغريق ، ولذلك لم يشكلوا جالية أجنبية مؤثرة في الحياة المصرية العامة وانما ظلوا مجرد (طبقة) متميزة تميزا اجتماعيا واقتصاديا . وينبغي أن نتذكر أن من أكبر مصادر أفراد هذه الطبقة في مصر هم أولئك الذين حصلوا على حق المواطنة الرومانية من سكان مصر سواء من مواطني مدينة الاسكندرية (الذين كان وضعهم يؤهلهم لأن يمنحوا هذا الحق) ، أو من سائر الاغريق والمتأغرقين وبعض العناصر الشرقية بعد أدائهم الخدمة العسكرية في الجيش الروماني وفقا لقواعد حددها القانون . ولم يكن وضع « الجالية » الرومانية في مصر بهذه الصورة تتيح فرصة لتأثير روماني ثقافي قوى في حياة المجتمع . ولنا أن نضيف هنا في استطراد عابرة تبين سببا من أسباب ضعف هذا التأثير ، أن السلطات الرومانية لم تتدخل لفرض اللغة اللاتينية لغة رسمية

للإدارة وإنما أبقت على وضع اللغة الإغريقية في هذا الخصوص
واقترع استخدام اللاتينية على الجيش الروماني ومعاملات المواطنين
الرومان في إطار القانون المدني الروماني .

سياسة الرومان في ترتيب فئات السكان :

وإذا نحينا جانبا هذه الطبقة الممتازة لنرى الأساس الذي
تم عليه ترتيب سائر سكان مصر في طبقات وجدنا الشواهد المتجمعة
من وثائق البردي ترجح أن معيار تصنيف السكان كان هو أداء
ضريبة الرأس *Laographia* ، وهي تلك الجزية النقدية التي
ذكرنا من قبل أن الرومان فرضوها على كافة « المصريين » من
الذكور اعتبارا من سن الرابعة عشرة ، ويحمل لفظ « المصريين »
هنا معنى اصطلاحيا ، إذ أن كل سكان مصر ، ما عدا المواطنين
الرومان اعتبروا من وجهة نظر القانون الروماني مصريين تقع
عليهم بالتالي ضريبة الرأس . لكن هؤلاء جميعا لم يكونوا
متساوين في القدر أو من حيث المنفعة المرتجاة ، فلم يساو
الرومان بينهم في دفع الضريبة . وكان أن وجدت
فئات أعفيت منها إعفاء كليا (وفي مقدمة هؤلاء مواطنو مدينة
الاسكندرية) ، وفئات دفعتها بمعدل منخفض ، وهؤلاء هم الإغريق
المتميزون بثقافتهم أو تعليمهم أو وضعهم الاجتماعي والذين حملوا
اسم « مواطني عواصم الأقاليم » *Metropolitai* واعتبرهم
الرومان سلالة الإغريق الذين استقروا في أقاليم مصر خارج
المدن الإغريقية ، منذ العصر البطلمي ، ثم أخيرا الغالبية العظمى من
سكان البلاد الذين دفعوا ضريبة الرأس كاملة غير منقوصة .

وقد اتخذت الإدارة الرومانية بعض الإجراءات التي تكفل
الحفاظ على هذا الوضع الاجتماعي الجامد إذ أن حرصها على خلق

طبقة وسطى متميزة قادرة على القيام ببعض المهام كان يوازيه حرصها على بقاء الفئات الممتازة محصورة في حدود ضيقه ، لأن التوسع في منح الامتيازات وما يستتبعها من إعفاءات ضريبية كاملة أو جزئية كان يقلل من موارد الخزانة . ومن أهم الإجراءات الإدارية في هذا السبيل دورات الإحصاء التي كانت تجرى كل أربعة عشر عاما بمقتضى مرسوم يصدره والي مصر الروماني . وقد عرف الإحصاء باسمه في العصر البطلمي وهو « الإحصاء بواقع المنزل » Kat'oigian apographé لأنه كان يجري منزلا فأخر ، حيث كان يتعين على مالك كل منزل (أو ساكنه) أن يتقدم للسلطات في سنة الإحصاء بأقرار يثبت فيه اسمه وأسماء كافة من يقطن المنزل ، مبينا سن كل منهم وحرفته ووضعهم الاجتماعي من حيث التسجيل في فئة ممتازة أم لا ، وصلة القرابة بين سكان المنزل ، بل انه اعانا في الدقة والتحرى كانت تثبت الصفات الجسمانية المميزة للسكان . وكان مقدم الأقرار يقسم على صحة ما قدمه من معلومات ، وقد نصت عدة مواد في وثيقة إدارة الحساب الخاص Gnomon idiou logou على العقوبات التي تقع على من يقدم بيانات غير صحيحة . وعلى أساس من هذه الأقرارات كانت تعد قوائم كاملة بأسماء السكان وأوضاعهم الاجتماعية .

وإدخل الرومان عمليتين إداريتين تتصلان بالإحصاء وتكملانه ، الأولى هي الزام الأهالي بشهر مواليدهم والقصد من ذلك أن تكون قوائم الإحصاء مطابقة لأحوال السكان أولا بأول في خلال الأعوام الأربعة عشر الواقعة بين إحصاء وآخر . أما الإجراء الثاني فقد عرف باسم « فحص المستندات » Epicrisis ، ويقضى بأن الشخص الذي يدعى حقا في الانتماء الى فئة ممتازة كالمحاربين القدامى الذين خدموا في القوات الرومانية للمدة المقررة وسرحوا تسريحا مشرفا ويطلبون حق المواطنة الرومانية ، أو الصبية الذين

أشرفوا على بلوغ سن الرابعة عشرة ويطلبون ادراج أسمائهم في فئة مواطني عواصم الأقاليم ليدفعوا ضريبة الرأس بمعدلها المنخفض « عليه أن يتقدم بطلب مدعم بالوثائق التي تثبت حقه . ولم يكن يحصل على الموافقة الا بعد فحص مستنداته من قبل لجنة مختصة .

طبقات الاغريق وفئاتهم :

هكذا يتضح أن الحكومة الرومانية ميزت بين ثلاث فئات من الاغريق : الأولى مواطنو مدينة الاسكندرية (وقياسا عليهم سائر مواطني المدن الاغريقية في مصر) ، وهؤلاء ساوتهم الحكومة بالمواطنين الرومان من حيث الاعفاء الكامل من ضريبة الرأس ، والثانية سكان عواصم الأقاليم الذين دفعوا هذه الضريبة مخفضة ، والثالثة عامة الاغريق من سكان المدن أو العواصم الاقليمية أو القرى، وهؤلاء دفعوا الضريبة كاملة . فأما مواطنو الاسكندرية فلدينا معلومات وافية عن امتيازاتهم التي جعلتهم يؤلفون مع المواطنين الرومان طبقة اقتصادية واحدة . والدليل على ذلك أن الوثائق الرسمية منذ منتصف القرن الأول الميلادي تفرق بين الرومان والاسكندريين في فئة واحدة في مقابل فئة السكان المحليين . وقد أحرز الاسكندريون ثروات كبيرة بفضل ممارسة النشاط التجاري في مدينتهم التي كانت أكبر ميناء في شرقي البحر المتوسط وأكبر مركز صناعي في مصر ، ومكنهم ذلك من امتلاك مساحات كبيرة من الأراضي في الريف المصري . وإلى جانب امتياز الاعفاء الكامل من دفع ضريبة الرأس ومن الخدمات الالزامية ، فإن حق المواطنة الاسكندرية كان شرطاً لاكتساب « المصري » (بالمعنى الاصطلاحي للكلمة) للمواطنة الرومانية مباشرة بمنحة خاصة من الامبراطور . وبالرغم من كل هذه الامتيازات الاقتصادية والأدبية ، فإن

الاسكندرانيين استاءوا منذ البداية من الحكم الرومانى الذى انزل
مدينتهم من علياء مجدها القديم بوصفها عاصمة لمملكة مستقلة الى
مقر حكم وال ذى سلطات مطلقة يحكمهم لصالح الامبراطورية .
وقد نفت الاسكندريون عما اضمروه من مشاعر العداة للرومان بأن
صبوا جام غضبهم على اليهود الذين اعتبروهم صنائع المحتل
وعملاءه ، ومن ناحية ثانية تجلى عدم رضائهم عن وضعهم السياسى
فى سعيهم الدائب الى الحصول على حق المواطنة الرومانى .

أما فئات الاغريق الممتازة فى ريف مصر ونعنى بهم سكان
العواصم فقد كان امتيازهم الاقتصادى كما ذكرنا هو دفع ضريبة
الرأس بمعدلات منخفضة ، وكان هذا المعدل فى أوكسيرنيخوس
(البهنسيا) مثلا اثنتى عشرة دراخمة ، ومن هنا عرف هؤلاء فى
الوثائق باسم مواطنى العواصم دافعى الاثنتى عشرة دراخمة ،
فى حين كان هذا المعدل فى هر موبوليس (الأشمونين) وهيراكليوبوليس
(أهناسيا) ثمانى دراخمت ، وفى أرسينوى (الفيوم) عشرين
دراخمة من واقع أربعين دراخمة هى المعدل الكامل للضريبة .
ويشير ما لدينا من الوثائق الخاصة بعملية فحص مستندات
المتقدمين لادراج أسمائهم فى فئة مواطنى العواصم أن امتياز هذه
الفئة كان متوارثا ، ويبدو أن الرومان اتجهوا الى تجميع الاغريق
الذين كانوا قد انتشروا فى القرى والكفور فى العصر البطلمى
وتركيزهم فى عواصم الأقاليم . وفى سبيل ذلك ألغوا ما كان قائما
فى القرى من معاهد الجمنازيوم ، وقصروها على تلك العواصم ،
وأضفوا على الجمنازيوم فى عاصمة الاقليم صفة رسمية ، واعتبروا
كافة السكان سواء المقيمون فى العواصم أصلا أو انتقلوا اليها
هم الفئة المتميزة . غير أن هذه الفئة لم تكن تشكل طبقة اجتماعية
مغلقة ، إذ أنه كثيرا ما كان يمنح أفراد عاديون لقب مستروبوليتيس

(مواطن في عاصمة) تكريما له لقاء قيامه بعمل خيري أو فوزه في مباراة رياضية . كذلك يتضح من اختلاط الأسماء الاغريقية بالأسماء المصرية عند كثير من أفراد هذه الفئة أن بعض أفرادها كانوا اغريقا متمصرين أو مصريين متأغرقين .

غير أنه وجدت جماعات في داخل هذه الفئة كانت أشبه بصفوة الصفوة ، وهي التي يرد اسمها في الوثائق باسم « رجال الجمنازيوم » ، وينص في بعض هذه الوثائق صراحة على أنها « طبقة » Tagma (وهو لفظ يوناني يقابل اللفظ اللاتيني Ordo) . وتشير الدلائل الى أن الرومان اختاروا أعضاء هذه الطبقة اختيارا من بين مواطني عواصم الأقاليم في العام الرابع والثلاثين من حكم أوغسطس (٥/٤ م) . وكان الهدف هو خلق طبقة يستمدون منها رجالا يستطيعون - بحكم تعليمهم الاغريقي الذي تلقوه في الجمنازيوم - أن ينهضوا بأعباء الوظائف البلدية وكذلك الوظائف الرسمية مثل الاستراتيجية والكاتب الملكي . وكان فحص طلبات المتقدمين للتسجيل في هذه الطبقة يخضع لتدقيق شديد ويقتضى تقديم مستندات أكثر مما كان يقدمه طالب عضوية فئة سكان العواصم . ويبدو أن أعضاء هذه الطبقة كانوا شديدي الاحساس بتميزهم الطبقي بين سكان العواصم . وفي وثيقة بردية من القرن الثالث نجد أسرة اغريقية ترجع نسبها عبر عشرة أجيال سابقة وعلى مدى قرنين ونصف قرن تقريبا الى جدتها الأول الذي توارثت عنه هذه الأجيال صفة الانتماء الى هذه الطبقة منذ بدء تحديد أعضائها في العام المذكور .

غير ان الأمر الذي استأنفت نظر الباحثين هو عدم ورود ذكر هذه الطبقة بوصفها صفوة من فئة سكان العواصم في اقليم أرسينوى مما جعل فريقا من هؤلاء الباحثين يرجح ان ما كان يقابل هذه

الصفوة في هذا الاقليم هي تلك الجماعة التي يرد ذكرها في وثائقه تحت اسم « الستة آلاف وأربعمائة وخمسة وسبعين هيلينيا (اغريقيا) في أرسينوى » ، اذ يشير هذا الرقم الثابت الى طبقة مغلقة يغلب على الظن أن أوغسطس (أو واحدا من خلفائه الأوائل) انتقى أفرادها من سلالة المستوطنين في هذا الاقليم Katoikoi على أساس وضعهم الراهن آنذاك ، وذلك على غرار ما اتبع في انتقاء طبقة رجال الجمنازيوم في عام ٥/٤ م .

والى جانب هذه الفئات الممتازة ، وجدت أعداد كبيرة من الاغريق آثروا العيش في القرى ولم ينتقلوا الى عاصمة الاقليم ، وهؤلاء لم يكن ثمة ما يمنع زواجهم من المصريين قانونا أو خوفا من ضياع امتياز بعينه ، ولذلك اختلطوا بالعنصر الوطنى المصرى واندمجوا فيه وأصبحوا شديدى الشبه به .

المصريون :

وقد كان العنصر الوطنى بالطبع هو الأغلبية العظمى في ريف مصر ، وكانوا أفقر فئات السكان وأكثرها أعباء . فالى جانب ضريبة الرأس التى كانوا يؤدونها كاملة ، كان يخضعون لأعمال السخرة ، ثم الأنواع شتى من الضرائب . وكانت غالبية عامة المصريين يشتمغلون بالزراعة ويزاولون مختلف الحرف والصناعات . أما فئة أصحاب الأراضى منهم ، وهم الذين كانوا في البداية على شىء من اليسر ، فقد سقط على كاهلهم عبء الخدمات الالزامية كزراعة الأرض المهجورة وأداء الضرائب المفروضة عليها والقيام بمهام ادارية تكلفهم بها السلطات لأن بعضهم كان ملما بشىء من اليونانية التى ظلت لغة الادارة ، فضلا عما كان لديهم من أراضى اعتبرت ضمانا للتسديد اذا ما قصروا في أداء التزام . وعندما

كثرت أعباء هؤلاء لجأوا مع سائر الفلاحين الى الفرار من مواطنهم ، وازدادت على مر الأيام ظاهرة « التسحب » ، حيث كان الفارون يختبئون بين أحراش الدلتا أو يتسللون الى مدينة كبيرة كالاسكندرية يتوارون في زحمة سكانها ، أو يجدون عملا متواضعا يقوم بأودهم .

أما أرفع فئات المصريين شأننا على مر العصور وهم رجال الدين ، فقد تعمدت السياسة الرومانية اضعافهم لكسر شوكتهم . وقد مر بنا أن أوغسطس صادر جانبا كبيرا من أراضى المعابد بالرغم من أن سياسته العامة كانت تسير في اتجاه معاكس للمصادرة ، لولا أن الهدف هنا كان سياسيا . كذلك أنقص عدد المعابد التي كانت تتمتع بحق ايواء اللاجئين اليها ، ولم يعف من ضريبة الرأس من الكهنة الا عدد محدود أخذ يتناقص بمرور الوقت .

اليهود :

ونختم الحديث عن فئات السكان بذكر الجالية اليهودية في مصر ابان العصر الروماني والتي يذكر « فيلون » أن عددها في أوائل هذا العصر بلغ مليون نسمة . ولسنا نرى في هذا العدد مبالغة ، إذ أنه كان من الطبيعي أن يزداد عددهم في العصر البطلمي بفضل ما تمتعوا به عندئذ من امتيازات . وقد انتشر اليهود في جميع أنحاء البلاد ، لكن الحياة في الاسكندرية اجتذبتهم بصفة خاصة لنشاطها الاقتصادي العظيم حتى شغلت مساكنهم حيا كاملا من أحيائها (الحى الرابع) . وعندما دخل أوغسطس الاسكندرية أظهر لليهود ودا وأقر لهم بكل الامتيازات التي منحهم اياها البطالمة ، من حيث التمتع بالحرية التامة في اقامة شعائرهم وفقا لتعاليم دينهم ، وانشاء جمعية قومية Politeuma كانت

في الحقيقة رابطة عنصرية وهي التي يتعمد فيلون أن يسميها
Politeia ، واختيار زعيم طائفة Ethnarchos
ومجلس شيوخ Gerousia وترتب على ذلك اطراد زيادة
عددهم حتى شغلت مساكنهم حين كاملين وامتدت الى حى ثالث من
المدينة . غير أن اليهود كانوا يتطلعون الى الحصول من الرومان
على حق المواطنة في الاسكندرية ، وهذا ما نغمه الاسكندريون
منهم ، مثلما نغموا هم من الرومان فرضهم ضريبة الرأس على
اليهود في الاسكندرية وأنحاء مصر كسائر المصريين واعتبروا ذلك
حطة ومهانة .

ويحدثنا فيلون ، وهو من خاصة مثقفي اليهود ومفكريهم في
الاسكندرية في أوائل العصر الروماني ، أن يهود الاسكندرية كانوا
ينقسمون الى عدة فئات هي أصحاب رءوس الأموال ، والمشتغلون
في النقل البحري ، والتجار ، وأرباب الحرف ، والمزارعون في
الأراضي الواقعة حول الاسكندرية . ويبدو أن عددا كبيرا من يهود
الاسكندرية اتخذ أسماء الاغريق ولباسهم وتعلم لغتهم وأقبل على
ثقافتهم ، فكان يحضر العروض المسرحية الاغريقية ، مثل فيلون
نفسه ، بل حلا لبعضهم أن يتسلل للمشاركة في حياة الجمنازيوم ،
لكن أكثرهم طبقت تعاليم التواراة بحذافيرها ، وهو ما كان يلقي
من اغريق الاسكندرية استغرابا مشوبا بالاستهجان والازدراء .

أما اليهود في سائر أنحاء مصر فكان منهم ملاك الأراضي
والتجار وأصحاب المهن الحرة والعاملون في النقل النهري والبحري
وصغار الحرفيين والعبيد المعتقون . وكان لابد من أن يتشبه بعضهم
بالمصريين من حيث الأسماء وبعض العادات ، لكن هناك ما يشير
الى بقاء التقاليد اليهودية قوية عند الأكثرية ، اذ نسمع عن بيع
يهودية (أماكن عبادتهم) في أنحاء من ريف مصر تقوم على رعايتها

جاليات ، كما نعلم أنهم عاشوا في بعض المدن الاقليمية الكبيرة في
أحياء خاصة . غير أنه لا بد من أن نقدر الضعف الذي حل باليهود
في تلك الأثناء في أعقاب اخماد ثورتهم الكبرى في عهد تراجان ،
وهي تلك الثورة التي سقط فيها الضحايا من الاغريق واليهود
والسكان الوطنيين بالآلاف .

ولقد عانت الحكومة الرومانية من الفتن بين الاسكندرانيين
واليهود منذ عام ٣٨ م . ثم أشعل اليهود في عام ٦٦ ثورتهم في
فلسطين ضد الرومان فلم تخمد الا في عام ٧٠ بسقوط القدس وتدمير
الهيكل . ومنذ ذلك الوقت أخذ الرومان ينزلون الضربات باليهود ،
مما حرك كوامن ضغينتهم القديمة وبعث فيهم فكرة الخلاص من
الحكم الروماني جملة ، فأشعلوا نيران حرب ضروس (١١٥ - ١١٧)
كان من نتائجها أن من بقى منهم على قيد الحياة في مصر عاش في
جو مشبع بكراهيتهم . ومن الملحوظ أن اليهود أصبحوا عندئذ
مجتمعا شديد الانغلاق عزوفا عن الأخذ بأسباب التمدن الاغريقي
مستمسكا بصورة أكبر بتقاليد الدينية . وقد يكون ذلك راجعا
الى ما لقيه اليهود على أيدي الاغريق والرومان ، أو الى ظهور
المسيحية التي ناصبتهم العداء . ومنذ خمدت آخر حركاتهم
الثورية في الاسكندرية في أواخر عهد هادريان ، لم نسمع عنهم شيئا
يفيد قيامهم باثارة فتنة أو شغب الا في عام ٤٢٥ عندما اتهمهم
كيرلس الأكبر أسقف الاسكندرية بالتآمر ، قاد جماعات المسيحيين
ضدهم وطردهم من المدينة .

السياسة الاقتصادية

كان تحقيق أكبر عائد ممكن من دخل مصر هو الهدف الأكبر الذى وضعه الرومان نصب أعينهم وعملت من أجله مختلف نظمهم الادارية والاقتصادية والاجتماعية . وقد ترددت عند بعض الكتاب القدماء أخبار عن تلك المقادير الهائلة من الحبوب والمبالغ الطائلة من الجزية النقدية التى كانت ترسل الى روما سنويا ، كما أوضحت دراسة الوثائق البردية مدى دقة اشراف الجهاز الادارى بكافة مستوياته على أدوات الانتاج . وفى مجال الضرائب النقدية والتنوعية على السواء لم يتروك الرومان بابا الا طرقوه . والحق أن من يراجع تلك الوثيقة المهمة المتضمنة الأحكام « ادارة الحساب الخاص » *Gnomon idiou logoce* يعجب من تعقب هذه الأحكام لكل ما يمكن تحصيله من إيرادات للحكومة ، أو بالأحرى اعتصار موارد الدخل حتى آخر دراخمة من نقد أو صاع من قمح . بل انه فى بعض الوثائق ورد وصف الخزانة على أنها « بالغة القداسة » *Hcrótaton tameion* ، أى أن صوالحها تفوق أى اعتبار . وقد يصادف الدارس امبراطورا أو آخر من اباطرة الرومان أظهر اعتدالا فى سياسة استغلال موارد مصر ، كما يلوح لنا مثلا من عبارة الإمبراطور تيبيريوس الماثورة عن جز

صوف الغنم لا سلخها ، لكن في ظاهر هذه العبارة رحمة وفي باطنها حكمة توجه الى حسن استثمار الضيعة ابقاء على قدراتها الانتاجية . وليت السياسة الرومانية استوعبت هذه الحكمة فقللت من ابتزاز موارد البلاد وابهاظ أهلها بالمغارم حتى بدأت نذر الانهيار الاقتصادي منذ منتصف القرن الثاني على الأقل . . . وقد يحلو للبعض أن يذكر أن أمر الضرائب التي شملت كل شيء لم يكن جديدا على مصر بل استمرارا لسياسة البطالمة ، لكن علينا أن نذكر أن الجزية النوعية بلغت منذ أوائل العصر الروماني أضعاف أضعاف ما كان يحصل عليه البطالمة ، فضلا عن أن جزءا كبيرا مما كان يبتز هؤلأ كان يبقى في مصر ، أما ما ابتزه الرومان فقد حمل الى خارج مصر لينعم به شعب روما .

أنواع الأراضي والضرائب الزراعية :

ونعرض في ايجاز شديد لمعالم سياسة الرومان الاقتصادية في مصر في قطاعاتها التقليدية الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة . وكانت الزراعة بالطبع هي مورد الانتاج الأول في البلاد . وقد مر بنا أن أوغسطس وجه اهتماما بالغا لرفع انتاجية الأراضي الزراعية ، فلم يكتف باصلاح نظام الري وانما انتهج سياسة جديدة في مجال ملكية الأراضي الزراعية قوامها تشجيع الملكية الخاصة . والملاحظ في نظام الأراضي البطلمي أن الأساس النظري لاستغلال « أراضي العطاء » Gé en apheresci لم يكن يقوم على حق الأفراد الطبيعي في الامتلاك بل على أنه منحة من الملك . . . وعلى ذلك فانه اذا كانت الملكية الخاصة قد وجدت في البطالمة فقد كانت مخالفة للأساس النظري لحكمهم بل معاكسة له . لكن أوغسطس شجع الملكية الشخصية بغير حدود ، وكان هدفه أن يقبل الأفراد من القادرين خاصة ومن الراغبين كافة على

الامتلاك الكامل للأراضي والقيام على استثمارها لاستعادة قدرتها الانتاجية ، وتدلتنا الأثمان التي عرضت بها هذه الأراضي للتمليك على أنها كانت أثمانا رمزية . كذلك فإن ما يدل على تشجيع أوغسطس المطلق للملكية الشخصية أنه جعل الاقطاعات العسكرية البطلمية ملكا خاصا لحائزيها بعد أن كانت من الناحية النظرية هبة مؤقتة . وكان أوغسطس يستطيع في الواقع أن يصادر هذه الأراضي باعتبار أن حائزيها لم يعودوا يقدمون للدولة خدمات عسكرية أى أن أساس حيازتهم لحق الانتفاع قد سقط . وهكذا يمكن القول بأن تغييرا أساسيا قد حدث في نظام الأراضي بالرغم من أن التسميات الاصطلاحية التي كانت تطلق على أقسام الأراضي في العصر البطلمي بقيت مستخدمة في الوثائق .

ولا سبيل هنا الى الحديث بالتفصيل عن نظام الأراضي في العصر الروماني ، ويكفي أن نشير في ايجاز الى أنه وجد ثلاثة أقسام رئيسة أولها أرض الدولة وكانت تضم فئتين هما الأراضي الملكية *Basiliké gé* وهي الأراضي التي كان ملوك البطلمية يستغلونها استغلالا مباشرا آلت الى ملكية الدولة بعد استيلاء الرومان على مصر ، والأراضي العامة *Demosia gé* (في اللاتينية *Ager publicus*) ويبدو أنها كانت تتألف من الأراضي التي انتزعها أوغسطس من المعابد والأراضي المهمة التي بارت أو التي لا صاحب لها . غير أن الفرق بين فئتي الأراضي في هذا القسم غير واضح تماما . أما القسم الثاني فيمكن تسميته أراضي الامبراطور الخاصة *Ousiaké gé* ، وكانت في الأصل أراضي منحها الأباطرة لأفراد من أسرهم وأصفيائهم أو باعوها للمستثمرين بأثمان رمزية حتى نشأت ضياع لهم كبيرة . لكنه بعد منتصف القرن الأول بقليل أخذ الأباطرة يستردون هذه الأراضي خشية من تضخم نفوذ ملاكها من الرومان أو خوفا من بوارها لأن كثيرا من

حائزها كانوا مملوكا متغيبين . وأما القسم الثالث فهو ما يعرف بأراضي الامتلاك الخاص *Idiotiké gé* ، وقد زادت مساحة هذا القسم في العصر الروماني زيادة كبيرة ، وكانت أهم فئاته التي احتواها أراضي الاقطاعات العسكرية التي أبقاها الرومان في يد حائزها والاقطاعات التي منحت لقدامى المحاربين الرومان . وإلى جانب هذه الأقسام الثلاثة الرئيسية وجدت أقسام أقل أهمية مثل أراضي المعابد وأراضي المدن وأراضي الدخل .

وقد تنوعت الضرائب الزراعية على هذه الأقسام تبعا لجودتها ونوع المزروعات وحالة الفيضان كل عام . كذلك كان يميز بين الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان وتلك التي لا تصلها مياهه *Abrochos* . وكان « كاتب القرية » مسئولا عن اعداد سجل لكافة أنواع الأراضي الواقعة في زمام قرينته ومساحة كل نوع وموقعه ومدى استحقاقات الحكومة عليه سواء من الضرائب أو الايجار ، ونوع المزروعات في كل مساحة والتغيير الذي يطرأ على حالة الأرض وفقا لحالة الفيضان . وكان هذا السجل يراجع سنويا ضمانا لمطابقته للواقع لضبط الضرائب المقررة . وقد كانت أهم الضرائب على الأراضي الزراعية هي ضريبة الحبوب ، وكانت تجبى نوعا من القمح على وجه الخصوص وعن كل ما يزرع حبوبا من أراضي الامتلاك الخاص وأراضي المدن وذلك الجزء من أراضي المعابد الذي ترك للكهنة المصريين أمر زراعته . وقد شكل دخل هذه الضريبة جانبا مهما من جزية القمح التي كانت تدفعها مصر لروما سنويا أما الباقي فكان يأتي من ايجار الأراضي العامة التي كانت الدولة تحصله نوعا وتراوحت ضريبة الحبوب على أراضي الامتلاك الخاص بين $\frac{3}{4}$ أردب وأردبين على كل أرودة (الأرودة $\frac{2}{3}$ الفدان المصري تقريبا) ولم تكن مسئولية الزارع عن توريد هذه الضريبة تنتهي

الا بعد حصوله على ايصال بذلك من السيتولوجوس Sitologos
(أمين الشونة) .

وفرضت على اراضي الكروم والنخيل والبساتين مجموعة ضرائب نقدية احداها ضريبة « الجيومتريا » ، اضيف اليها بالنسبة الى ارض البساتين ضريبة « الأيومويرا » ثم ضريبة ثالثة دفعتها ارض البساتين سواء كانت من اراضي الدولة أو اراضي الامتلاك الخاص هي ضريبة « الأباروريون » ، ثم ضريبة اضافية على كافة أنواع الأراضي (ويحتمل أن اراضي المعابد أعفيت منها) وهي ضريبة « الناوبيون » وكان ينفق من ايرادها على انشاء الجسور وصيانة القنوات ويدفعها مالك الأرض اذا أراد أن يعفى شخصيا من أعمال السخرة . كذلك فرضت على حيوانات المزارعين والفلاحين ضرائب نقدية ونوعية . فكان ثمة ضرائب نقدية على الخنازير والأغنام أما الحمير المملوكة للأفراد فكان يتعين أن تعمل في أجران الحبوب الحكومية أو حفر الترع وتطهير القنوات خمسة أيام كل سنة على سبيل السخرة أو يدفع بدلا من تسخيرها ضريبة نقدية .

وهكذا تعطينا هذه الأمثلة من الضرائب الزراعية صورة لثقل وطأة ما ألقى على كاهل المزارعين ، فاذا ما أضفناها الى ضرائب أخرى كان يدفعها هؤلاء في خارج نطاق النشاط الزراعي ذاته كضريبة الرأس التي فرضت على جميع الذكور بدءا من سن الرابعة عشرة وضريبة التموينية العسكرية (أنونا ميليتاريس) . وهي ضريبة نوعية ، وضريبة التاج التي لم تكن ضريبة ثابتة من حيث معدلها أو المناسبة التي تجبى فيها ثم أصبحت عند أواخر القرن الثاني ضريبة نقدية تجبى سنويا ، اذا أضفنا هذا كله ، حسبنا أن المزارع المصري كان مكلفا بأن يؤدي للحكومة نسبة كبيرة من دخله ربما زادت على الربع .

النشاط الصناعى والتجارى :

مثلما شجع الرومان الملكية الخاصة فى مجال الزراعة ، مالوا الى سياسة الاقتصاد الحر فى الصناعة والتجارة الى حد كبير وفى هذا اختلفوا مع السياسة البطلمية التى قامت على مبدأ الاحتكار الكامل . ولا يعنى هذا أن الحكومة الرومانية تخلت تماما عن هذا المبدأ ، فالذى نعرفه عن استغلال المناجم والمحاجر أنه ظل حكرا للدولة . لكن قائمة الاحتكارات البطلمية قلت فى العصر الرومانى . ولعلنا ننوه هنا بأن احتكار صناعة الزيت الذى كان أهم احتكارات البطلمية لم يعد عندئذ احتكارا كاملا . لكن الرومان مارسوا من غير شك درجات متفاوتة من التحكم والاشراف على الصناعات المصرية الرئيسية المهمة مثل النسيج وورق البردى والزجاج وطوب البناء والجبعة .

ولعل صناعة النسيج كانت أهم هذه الصناعات وهى كما نعلم صناعة جد قديمة فى مصر التى اشتهرت بأنواع بعينها من النسيج فى أسواق العالم . ويبدو أن بعض أصناف النسيج كان يصنع الأغراض التصدير خاصة . وقد اتبع الرومان سياسة محكمة للاشراف على مصانع النسيج لاستغلالها أقصى استغلال فامتلكت الحكومة المصانع ، وأحكمت الاشراف على عمالها من خلال الاشراف على نقاباتهم (وان كان نظام النقابات غير واضح المعالم تماما فى مصر فى عصرهم) ، وهناك ما يشير الى اعفاء هؤلاء العمال من الأعمال الاجبارية . أما ما بقى من مصانع النسيج فى ملكية الأفراد فقد فرضت الحكومة عليه بالطبع ضرائب نقدية ونوعية كما فرضت عليهم امدادها بقدر محدد من ملابس الجند والشرطة لقاء أجر .

أما صناعة ورق البردى التى كانت دائما حكرا لمصر دون منافسة خارجية ، فقد اختلفت الآراء حول سياسة الحكومة ازاءها

ما بين احتكارها أو تركها للانتاج الحر . وتميل الشواهد من الوثائق الى تأييد الرأي القائل بأن هذه الصناعة كانت حرة في بداية الحكم الروماني على الأقل . ولعل الرومان فضلوا فرض ضريبة مالية ثابتة على الانتاج Chartera وضريبة نوعية أخرى تحدد سنويا ترسل الى روما وفقا لاحتياجاتها . وأما صناعة الزجاج فكانت عريقة في مصر كذلك ويتردد في مصادر القرنين الأول والثاني ما يفيد أن صناع الزجاج في الاسكندرية ارتقوا بصناعتهم ، وأنه كانت لهم أسرار خاصة في هذه الصناعة . وتميل الشواهد الى حرية الأفراد في مجال انتاجها .

غير أن الحكومة اذا كانت قد تنازلت عن مبدأ الاحتكار في الصناعة ، فانها ظلت في كل الأحوال متحكمة في مزاوله الحرف والصناعات . فكان لا يتيسر لأحد مزاوله أى حرفة أو صناعة الا بترخيص من الحكومة ، لقاء نسبة من الأرباح أو الدخل أو لقاء ضريبة مجزية ، أو لقاء الاثنين معا في بعض الحالات ، بل ان الحكومة فرضت ضريبة على الذين كانوا يتعلمون الحرف والصناعات عند بلوغهم سن القدرة على الكسب .

أما دخل الرومان من تجارة مصر الداخلية والخارجية فليس من شك في أنه كان دخلا عظيما . فبالنسبة الى التجارة الداخلية تبين الوثائق أنه كان يتعين على من يريد الاتجار في سلعة أن يحصل من الحكومة على ترخيص بذلك لقاء مبلغ سنوى أو شهرى يتفاوت بين سلعة وأخرى وبين اقليم وآخر بل بين قرية وأخرى في الاقليم الواحد ، ومما يجدر بالذكر أنه كان من الممكن أن تباع الحكومة حق احتكار بيع سلعة ما في منطقة بأكملها لشخص واحد . ومن ناحية ثانية قامت الحكومة بتحصيل العوائد على التجارة الداخلية المتبادلة بين أقسام مصر الثلاثة الدلتا ومصر

الوسطى والعليا . فوجد لذلك مركز في منف لجباية هذه العوائد على التجارة بين الدلتا ومصر الوسطى ، وآخر في هرموبوليس (الأشمونين) للتجارة بين مصر الوسطى ومصر العليا ، وثالث عند سخيا لتحصيل العوائد على التجارة بين الاسكندرية وداخلية البلاد باعتبار أن الاسكندرية كانت تؤلف وحدة قائمة بذاتها . بل انه يتبين من المصادر أن ثمة ضرائب كانت تجبى عن تبادل رسوم اضافية لحراسة الطرق الصحراوية أو لصيانة الموانئ أو نظير الحصول على ترخيص بمغادرة البلاد .

وأما تجارة مصر الخارجية فقد ازدهرت في العصر الرومانى ازدهارا عظيما . ذلك أن التجارة العالمية بصفة عامة قد نمت في ظل نشر السلام بعد توطيد أركان الامبراطورية وتوحد العالم القديم في أكثر مراكزه أهمية . ويفضل موقع مصر المتوسط الممتاز على طريق التجارة بين الشرق والغرب وامتلاكها سواحل طويلة على كل من البحر المتوسط والبحر الأحمر ، كان من الطبيعى أن تحتل مصر مكان الصدارة في التجارة العالمية ، وأن تصبح الاسكندرية ميناء مصر الأولى أكبر مركز تجارى فى العالم كله كما يؤكد « استرابون » ، حيث لم يقتصر دورها فى التجارة الخارجية على منتجات مصر المحلية وإنما قامت بدور الوسيط التجارى بأن تستورد البضائع إليها ثم تعيد تصديرها بعد إعادة تصنيعها الى الأسواق الخارجية . ولا ريب أن الحكومة كانت تحصل مكوسا عن التجارة الواردة الى مصر من الشرق والمصدرة منها اليه . وثمة قرائن ترجح أن ما كان يحصل على التجارة الواردة الى ميناء ليوكى كومي على البحر الأحمر كانت مكوسا ثابتة تقدر بربع قيمة الواردات ، وهى نسبة مرتفعة كانت توفر للحكومة دخلا عظيما .

الديانات والعقائد

رأينا أن سكان مصر في عصر الرومان كانوا يؤلفون خليطا من الجنسيات والعناصر ، وأنه الى جانب الأغلبية الساحقة من المصريين ، وجدت أقليات يعتد بها من الاغريق ذوى الامتيازات الاجتماعية المتفاوتة سواء في المدن أو في الأقاليم ، وجاليات كبيرة أو صغيرة من اليهود والسوريين والفينيقيين والليبيين وغيرهم . وقد أضيف الى هؤلاء وأولئك جميعا العنصر الذى جاء في ركاب الاحتلال وهم المواطنون الرومان . وترتب على وجود هذا الخليط من العناصر خليط من العقائد والديانات المصرية والاغريقية والآسيوية والرومانية ، وأخيرا جاءت الديانة المسيحية التى يرجح أنها دخلت الى مصر في القرن الأول الميلادى ، فكانت عنصرا بالغ الأثر والأهمية فى الحياة الدينية والثقافية فى العصر الرومانى . وقد لقي أتباع كل هذه الديانات من الرومان سياسة متسامحة فى ممارسة شعائرهم الدينية مادام ذلك لم يتعارض مع ولائهم للدولة . والواقع أنه لم يؤثر عن الرومان تعصب أو تشدد فى أمور العقيدة . وقد وضح لنا أن تشددهم مع اليهود لم يبدأ الا عندما قاوموا السلطة الرومانية ، وكذلك الحال مع المسيحية ، فإن الأباطرة الذين اشتهر عنهم اضطهادها كانت سياستهم فى ذلك

نابعة من خوفهم على الامبراطورية من التفكك بفعل هذا الدين
وليس من رغبة في اضطهاد العقيدة ذاتها .

الرومان والديانة المصرية :

احترم الرومان حرية المصريين العقيدية ، بل قاموا على رعاية
الديانة المصرية ببناء معابد جديدة أو اصلاح المعابد القديمة .
وقد تابعوا سياسة أسلافهم البطالمة في استغلال تمسك المصريين
بعقيدتهم الراسخة في أن الفرعون يحكم البلاد من خلال الحق الالهي
بوصفه لها وبشرا في آن واحد ، فرسم الأباطرة أنفسهم فراعنة ،
واتخذوا الألقاب والصفات الفرعونية ، وبدت صورهم على جدران
المعابد والنصب الرسمية في هيئة الفراعنة وأزيائهم التقليدية ،
على أساس أن هذا يضيف الشرعية على سلطة الامبراطور في عيون
المصريين . بل ان ما يبين شدة حرص الحكومة الرومانية في مصر
على مراعاة التقاليد الفرعونية أن الوالى ، وهو الممثل الشخصى
للإمبراطور ، كان يتشبه بالفراعنة في عدم الإبحار في النيل في وقت
الفيضان ، وفي تقديم الهدايا والقرايين الى النيل حين يبلغ فيضانه
نقطة تمامه . لكن الأمر لم يلبث أن تعدى هذه المظاهر التي كانت
الغاية من ورائها سياسية في المقام الأول بحيث لاحظنا تحولا في
نظرة الأباطرة الى آلهة الديانة المصرية ذاتها . ولعلنا نذكر مدى
ما أظهره أوغسطس من احتقار لهذه الآلهة . وما وجهه شعراء عصره
اليها من هجاء وتنديد ، لكن لم تلبث هذه الآلهة أن استهوت
بطقوسها وأسرارها خلفاء أوغسطس من بعد تيبيريوس فأقبلوا
يحاولون التعرف على هذه الأسرار . وقد وضحت مظاهر هذا
الاهتمام في عهد أباطرة أسرة فلافيوس الثلاثة وهم فسبسيان الذى
كان معجبا بالالهة المصرية ايزيس ، وتيتوس الذى اشترك في حفل
تكريس العجل أبيس الجديد رسميا في منف ثم دوميتيان الذى رعى

ديانة ايزيس خاصة في روما والذي بدأ في عهده تصوير بعض
الآلهة المصرية المحلية على نقود الاسكندرية .

غير أن هذا التسامح والرعاية للديانة المصرية قد قابله الحزم
والتشدد مع رجال الدين المصريين الذين وجد الرومان لهم شسوكة
قوية قوامها أساس مادي من اقتصاديات المعابد وسلطان روي
قديم على الأهالي . ذلك أن البطلمة الأواخر اضطروا الى اتباع
سياسة اللين معهم ، فأعادوا لهم أكثر امتيازاتهم من اعفاءات ضريبية
وحرية الانتاج في أراضي المعابد وحق ايواء المعابد للاجئين . ولم
يكن أوغسطس ليستطيع أن يقر للكهنة بهذا الوضع القوي لأنه
خشي مغبة دور قيادي يقومون في تغذية روح الثورة على الحكم
الروماني خاصة في جنوب الوادي . ولذلك صادر مساحات كبيرة
من أراضي المعابد ولم يسمح للكهنة الا بزراعة المساحات الكافية
لتوفير حاجات المعابد فقط . وفضلا عن ذلك وضعت المعابد نفسها
بنظمها الكهنوتية وحساباتها تحت اشراف السلطة المركزية . وتوضح
لنا الوثائق كيف كان اشراف الاديوس لوجوس على هذه المعابد
اشرافا بالغ الدقة . وقد حققت هذه السياسة أهدافها ، فلم نسمع
عن نشاط للكهنة في اثاره المصريين ضد المحتل على مدى قرنين
من الزمان بعد ثورة اقليم طيبة في مطلع الحكم الروماني .

الرومان والديانة الاغريقية :

ليس من شك في أن كثيرا من الاغريق احتفظوا بعبادة آلهتهم
القديمة خاصة في المدن الاغريقية في مصر ، وان كنا نتصور أن
الاسكندرية التي كانت من أهم مراكز التقاء الديانة الاغريقية
بالديانات الشرقية ، قد شهدت امتزاجا كبيرا بين كافة العقائد .
وقد استمرت عبادة الثالوث المقدس (سرايس) تحتل مكان

الصدارة في عبادات الاغريق في مصر . وقد ازدهرت هذه العبادة ازدهارا كبيرا في العصر الروماني ، بل لقد انتشرت انتشارا عالميا واسع النطاق واكب فيما يبدو انتشار عبادة ايزيس التي كانت تحتل في الثالوث المقدس مركز الأهم . واذا كانت ايزيس في انتشارها العالمي الذي وصل الى الهند شرقا قد احتفظت بشخصيتها الأصلية بالرغم من محاولة تشبيهها بالالهتين الاغريقيتين ديميتر وأفروديتي فاننا نستطيع أن نرصد في عبادة سيرابيس في الاسكندرية ظاهرة تؤكد أن الاغريق أصبحوا أكثر ألفة بالآلهة المصرية بعد طول معايشة لها في مصر ولأن هذه الآلهة كانت تستهويهم بأسرارها الغامضة . ذلك أن القرابين التي كانت تقدم الى سرابيس من المصريين والاعريق على السواء في العصر الروماني ، كانت تقدم اليه وهو في صورة العجل أبيس - وهي الصورة المصرية - أكثر مما تقدم اليه في الصورة الاغريقية . ولعلنا نذكر هنا أن اهداء الامبراطور هادريان نفسه لمعبد السرابيوم بالاسكندرية كان تمثالا بالغ الروعة للعجل أبيس .

وفي مجال القصائد الاغريقية استغل اباطرة الرومان مبدء تأليه الملوك الذي استقر في العصر الهلنستي لاقامة عبادة عامة تعينهم على احكام السيطرة على شعوب الامبراطورية بتوحيد ولائها لروما في شخص الامبراطور المقدس . وكان البطالمة قد استغلوا هذا المبدأ لاضفاء الشرعية على سلطتهم الأوتوقراطية أمام الاغريق . واذا كان ملوك العصر الهلنستي قد رفعوا الى مصاف الآلهة على أساس قيامهم بأعمال فذة أو اصلاحات جليلة وما أظهروه من تمتعهم بقدرات غير مألوفة ، فلم يكن من المبالغة في شيء اعتبار أن أوغسطس الذي نشر ألوية السلام بعد أن أحرز انتصارات باهرة وانجازات مهمة يرتفع أيضا الى هذه المنزلة ، وقد قرن الرومان بينه وبين زيوس اليوثيريوس Eleutherius مثلما قرنوا بين الامبراطور

ثيرون « والروح الخيرة » Agathodaimon • غير أنه ينبغي الالتفات الى أن عبادة الامبراطور عند الرومان لم تكن على أساس أنه اله Deus بل على أنه « مؤله » Divius وتحت هذه الصفة الأخيرة كان يجرى ذكر أرفع الأباطرة شأنًا في عيون الرومان وهو أوغسطس • ولسنا نملك دليلا على أن تأليه الأباطرة قد تم في حياتهم ، مثلما حدث في الجيل الثاني من ملوك العصر الهلنستي ، وإنما كان ذلك يتم بعد وفاتهم ، وعندئذ توضع تماثيلهم في معابد الآلهة الكبرى ، ويخصص لعبادتهم في الأغلب كاهن • غير أن الاغريق في مصر ، بحكم ما ألفوه من عبادة الملك البطلمي من قبل ، لم يفرقوا بين مفهومي « اله » و « مؤله » وأطلقوا على شخص الامبراطور لفظ اله Theos ، وفي الوثائق الرسمية التي كانت صيغتها تنتهي بالقسم كان هذا يتم بصيغة « الامبراطور الاله » أو باسم طالعه السعيد Tyche أو الملاك الحارس لروحه Genius • كذلك ينبغي أن نذكر أن الأباطرة قدموا أنفسهم من خلال هذه العبادات الى الاغريق في مصر ، ولم يفرضوها فرضا على المصريين أو على اليهود •

اليهود في ظل الحكم الروماني :

وقد استمر اليهود في مصر يمارسون شعائر دينهم بمنأى عن التأثيرات العقائدية منعزلين في بيعتهم الكثيرة التي وجدت في عدد من مدن مصر الكبيرة الى جانب بيعتهم الكبرى في ليونتوبوليس (تل اليهودية) في جنوب الدلتا • وكان التطور الوحيد الذي طرأ على الديانة اليهودية التقليدية ما حدثنا به الفيلسوف اليهودي الاسكندري فيلون عن جماعة من النساك من يهود الاسكندرية في القرن الأول الميلادي عرفوا باسم Therapeutai أي « المتنطسين » ، وكانت لهم بيعة خاصة بالقرب من بحيرة مريوط

مارسوا فيها حياة الزهد والانقطاع للدرس والتأمل ، وكان لكل فرد من الجماعة صومعة صغيرة يتعبد فيها وحيدا ستة أيام في الأسبوع ثم يلتقى الجميع للصلاة في يوم السبت من كل أسبوع ثم يوما واحدا كل خمسين يوما . وقد حاول بعض الباحثين أن يرى في ذلك تأثرا بنحلة شرقية هندية ، لكن ما هو معلوم من تعصب اليهود لعقيدتهم وبعدهم بالتالي عن أسباب التأثير بالعقائد الأخرى يجعل البعض يرجح أن يكون عامل التأثير هنا محليا من واقع البيئة المصرية حيث الصحراء بما فيها من قوة جذب خاصة لأولئك الذين تتملكهم الرغبة في التأمل والتعمق في شئون البلاد .

ومن حيث ممارسة الشعائر الدينية ، تمتع اليهود بالحرية الكاملة التي أقرها لهم أوغسطس وكفلها لهم خلفاؤه . وفي أعقاب الفتنة التي اندلعت في عام ٣٨ بين اليهود والاسكندرانيين ، جاءت رسالة الامبراطور كلاوديوس الى الاسكندرانيين في عام ٤١ فأكدت حق اليهود في الحرية الدينية الكاملة ، لكنه في عام ٧٣ أمر الامبراطور فسبسيان بتدمير بيعتهم الكبيرة في ليونتوبوليس ، ورأى والى مصر عندئذ أن من حسن السياسة أن يكتفى باغلاقها . ولم يكن فسبسيان يصدر في هذا عن سياسة اضطهاد ديني ، وانما كان ذلك اجراء سياسيا او اقتصاديا في تحليل بعض الباحثين ، والغالب أن الامبراطور خشى أن يتخذ اليهود من هذه البيعة بديلا عن هيكلهم في القدس الذي كان ابنه تيتوس قد دمره في عام ٧٠ وهو يسحق ثورة اليهود في فلسطين .

موقف الرومان من الديانة المسيحية في مصر :

لا تزال معلوماتنا قاصرة عن معرفة الوقت الذي دخلت فيه المسيحية الى مصر على وجه التحديد ، وان كانت هناك تلك الرواية

المتواترة الوازدة عند مؤرخ الكنيسة يوسيبوس (القرن الرابع الميلادي) من أن القديس مرقس أحد تلامذة السيد المسيح هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية . وبالرغم من أن أكثرية الباحثين يتشككون في صدق هذه الرواية ، فإن المتصور أنه كان لابد من أن تصل الديانة الجديدة الى الإسكندرية في وقت باكر نسبيا بفضل قرب فلسطين من مصر وقيام أسباب الاتصال القوية بين يهود فلسطين وبنى جلدتهم في مصر ، كذلك لا تمدنا الوثائق البردية من القرنين الأول والثاني للميلاد الا بمعلومات طفيفة عن مدى انتشار المسيحية في مصر ابان تلك الفترة ، لكن ما عثر عليه في مصر الوسطى والعليا في برديات من القرن الثاني تضم شذرات من الأناجيل يكفي الآن نستنبط منه انتشار المسيحية في تلك الأنحاء .

وعندما انتشرت الديانة الجديدة وقوى شأنها بزيادة عدد أتباعها ، بدأ الأباطرة ينظرون اليها بعين الخوف والتوجس ويرون فيها خطرا يتهدد وحدة الامبراطورية . وجاء هذا الخوف أساسا من عدم مشاركة المسيحيين في عبادات الدولة الرسمية . وقد أصبح من الأمور المقررة في سياسة الرومان أن الولاء لدين الدولة الرسمي هو بمثابة الرباط القوي الذي يشد أجزاء امبراطوريتهم التي كانت تضم عديدا من العناصر والأجناس المختلفة أصلا ولغة وثقافة . وكان دين الدولة الرسمي قد تشكل في عبادة الامبراطور الحاكم التي أصبحت عنوان ولاء الشعوب لهذا الامبراطور وتكريسا في الوقت نفسه لسلطته المطلقة . ولما كانت المسيحية ترفض كل الديانات القديمة ، فانها رفضت بالطبع مبدأ قدسية شخص الامبراطور ، ولذلك اعتبرت من وجهة نظر السلطات حركة مناهضة للنظام الامبراطوري المتوارث ومن ثم كانت خطرا ينبغي استئصال شأفته .

وقد توالى اضطهادات الأباطرة للمسيحيين منذ عهد نيرون (عام ٦٤ و عام ٦٨) ثم في عهد تراجان (عام ١٠٦) . لكن ابتداء من الاضطهاد الذى وقع في عهد سبتيميوس سيفيروس (عام ٢٠٢) أصبح الاضطهاد سياسة ثابتة لدى الأباطرة ، وقد صدر في هذا العام مرسوم يحرم اعتناق المسيحية وقد حرم المسيحيون عندئذ من امتياز تمتع به اليهود وهو الاعفاء من حرق البخور أمام تمثال الامبراطور ولقى كثير منهم حتفه . وجاء الاضطهاد الرسمى الكبير التالى على يد دكيوس الذى أصدر في عام ٢٥٠ مرسوما يلزم كل مواطن بتقديم شهادة من السلطات تفيد قيام صاحبها بتقديم القرابين الى الآلهة الوثنية . وقد وصلتنا مجموعة من هذه الشهادات التى عرفت باسم Libelli من اقليم الفيوم في مصر . واستمر الاضطهاد في عهد فاليريان الى أن أخلد المسيحيون الى فترة من الهدوء النسبى حين أصدر جالينيوس مرسوما بمنحهم الحرية في ممارسة عبادتهم . وأتاحت هذه السنوات من الهدوء الفرصة لانتعاش المسيحية في مصر من حيث زيادة عدد معتنقيها وعدد الكنائس فى أنحاء مصر . غير أن الاضطهاد عاد كأعنف ما يكون على عهد دقلديانوس فكانت أعظم محنة تعرضت لها المسيحية فى سائر أنحاء الامبراطورية وفى مصر على نحو خاص .

الحياة العلمية والثقافية في الاسكندرية

ظلت مدينة الاسكندرية في العصر الروماني عاصمة للحكم ، واستمرت في الوقت نفسه مركزا للبحث العلمي والنشاط الفكري والثقافي ، متابعة في ذلك دورها العظيم الذي قامت به في العصر البطلمي . ولما كان الأباطرة الرومان يكتنون الاحترام للثقافة الاغريقية ، فانهم بذلوا التشجيع لتلك المؤسسة العلمية الاغريقية التي شيدها البطالمة وهي « الموسيون » (أو دار العلم) ، فقد استمر علماء هذه المؤسسة يتلقون من الأباطرة العطايا ، ويتمتعون ببعض الامتيازات ومنها الاعفاءات الضريبية ، ونعلم أن الامبراطور كلادريوس اُضاف الى الموسيون مبنى جديدا حمل اسمه وكانت تدارس فيه مؤلفاته ، كما علمنا أن الامبراطور هادريان ، الذي اشتهر بعشقه للثقافة الاغريقية ، زار الموسيون وشارك في ندوات عقدها مع علمائه ومفكريه حيث بذل لهم المزيد من المكافآت ، كما زاد من عددهم غير أنه ترخص فيما يبدو في منح عضوية الموسيون للأشخاص من غير العلماء ، لأن بعض وثائق القرن الثاني تذكر بعض رجال الدين والضباط الرومان وكبار الموظفين المدنيين بل أحد الرياضيين ، على أنهم أعضاء فيه .

وحتى نهاية القرن الثاني الميلادي كان الموسيون لا يزال يجتذب

اليه النابيين من العلماء ، فقد كانت طبيعة الدراسة فيه أقرب الى أسلوب أكاديميات البحث العلمى منها الى أسلوب الجامعات الفنية بتدريس فروع المعرفة المختلفة . لكن يبدو أن الموسيون اقترب منذ بداية القرن الثالث من الوظيفة التعليمية ، حين اضطر علماءه الى تخصيص قاعات للتدريس لمن يريد من الطلاب لقاء أجر بعد أن أوقف الامبراطور كاراكالا دعم الحكومة المادى للموسيون ، فتوافد عليه طلاب من الاسكندرية وأنحاء مصر ومن خارجها . ومما يجدر بالذكر أن الطلاب الأجانب من دارسى العلوم وخاصة الطب ، استمروا يقدون الى الاسكندرية حتى نهاية القرن الرابع على الأقل . ويمكن أن نطلق على الموسيون بهذه الصفة التعليمية التى اكتسبها ، خاصة فى مجال الدراسات الفلسفية ، مدرسة الاسكندرية « الوثنية » التى وقفت تواجهها منذ أواخر القرن الثانى بشكل واضح تلك المدرسة الوعظية الحوارية التى اهتمت بدراسة اللاهوت المسيحى ، وعرفت باسم مدرسة الاسكندرية المسيحية .

أما مكتبة الاسكندرية التى طبقت شهرتها آفاق العالم القديم والتى كانت وثيقة الصلة بالموسيون ، فلا نسمع شيئاً عن جهود الأباطرة فى دعمها على نحو ما كان يفعل البطالمة . غير أنه كان يقوم بأمانة المكتبة طوال العصر الرومانى علماء نابيون تولوا رعايتها ، وقد وجدت الى جانب المكتبة الأم مكتبتان أخريان كانت كبراهما ملحقة بمعبد سيرابيس (السرابيوم) والأخرى بمعبد قيصر (القيصرون) .

و حين نستعرض أبرز ملامح نتاج الاسكندرية الأدبى والفكرى فى العصر الرومانى يستوقف نظرنا ملاحظتان : أولاهما هبوط مستوى الانتاج الأدبى الشعرى ، حيث لا نجد الا شعرا مصنوعا غير مطبوع أكثره منظومات وصفية تتناول مواقع جغرافية أو أشخاصا أو آلهة ، وشتان بين هذا كله وأغراض الشعر ومستواه عند كاليماخوس وأبولونيوس وثيوكريتوس فى العصر

البطلمي . غير أن علماء الموسيون تابعوا عمل أسلافهم في الدراسات الأدبية والنقدية وتحقيق النصوص والتعليق عليها . أما الملاحظة الثانية فهي ازدهار الفكر الفلسفي مما يعتبر اتجاهها جديدا لم نره في الاسكندرية من قبل . ويبدو أن ملوك البطالمة لم يشجعوا دراسة الفلسفة تفاديا فيما يحتمل لما يطرحة هذا النوع من النشاط العقلي من تساؤلات قد تمس أساس سلطتهم الملكية المطلقة . أما الرومان ، فقد وجد من قوادهم وأباطرتهم من تحمس شخصيا لدراسة الفلسفة وتبنى مذهبها أو آخر من مذاهبها ، وأخص هؤلاء بالذكر الامبراطور الرواقى ماركوس أوريليوس .

غير أن ازدهار الفلسفة في الاسكندرية لم يكن متعلقا بعدم ضيق الرومان بالفلسفة أو حتى تشجيعهم اياها ، وانما كانت ظروف العصر نفسها تبعث على التفكير الفلسفي بين المثقفين . وفي الاسكندرية ، تلك المدينة التي كانت تعج بالحركة التجارية ، واليها كانت تنساب مع القادمين من كافة الأجناس شتى الأفكار الدينية من شتى الثقافات ، واجه المثقف نوعا من البلبلة حين بدا له كأن كل الأديان القديمة محض هراء وانتحالات زائفة ، والى شئ من هذا التوجيه ذهبت دعوة أصحاب مذهب الأدرية (الغنوصية Gnosticism) التي أنكرت كل الأديان القائمة واعتقدت في فكرة الهية عليا ، ثم جاءت الديانة المسيحية التي لم تكن لتتأخر طويلا في رحلتها من أرض فلسطين الى الاسكندرية ، فأكدت طرح الثقة بعقائد كثيرة قديمة . وحين انبعثت نزعة التفلسف في الاسكندرية ، جاءت مصطبغة بصبغة دينية (ثيوصوفيا) .

ويعتبر فيلون اليهودى أول فيلسوف أنتجته هذه البيئة في الاسكندرية . فقد كان يمثل موقف مثقف مفكر يهودى يدين بعقيدة التوحيد ، وقد واجهته الديانة المسيحية الجديدة بتحد خطير ألجأه الى الاستفادة من منهج الفيثاغورية الجديدة لاقامة الدليل الفلسفي على صدق عقيدته الدينية . لكن في سبيل ذلك تحولت

الشخصيات الدينية في التوراه عنده الى مجرد رموز للأفكار المجردة التي كان كثير منها مستمدا من الفكر الفيثاغوري . ويفوق فيلون أهمية في مجال الفكر الفلسفي الاسكندري أفلوطين Plotinos الذي يعتبر زعيم الأفلاطونية الجديدة Neoplatonism وهو من بلدة ليكوبوليس (أسيوط) في صعيد مصر . وقد درس في الاسكندرية على يد أستاذه أسونيوس ساكاس ، وأقام مذهبا فلسفيا متكاملا جمع فيه بين عناصر شرقية روحية استلهمها من الحكمة المصرية والفارسية والهندية ، وعناصر من الجانب الالهي من فلسفة أفلاطون والفلسفة الفيثاغورية الجديدة ، وهو على اجمال القول يبدأ بالفلسفة لينتهي باتحاد النفس مع الله . ونذكر في عداد المفكرين الفلاسفة الاسكندريين اثينا يوس النقراطيسي الذي يدل على سعة علمه واحاطته بمختلف المذاهب الفلسفية الكتاب الوحيد الذي وصل الينا من مؤلفاته وهو « مأدبة الحكماء » Dipnosophistai ، وهو كتاب ضخيم حاكي فيه المؤلف أسلوب فلاسفة قدماء مثل أفلاطون في « المأدبة » لعرض آرائه ، بيد أنه لم يرق الى مستوى هؤلاء .

وعندما استقرت المسيحية بالاسكندرية واجهت تحديا كبيرا من جانب الفكر الفلسفي الوثني الذي كان مزدهرا ، فلم يكن هناك بد من أن يستخدم الآباء المعلمون ذات الأسلوب الذي استخدمه أولئك الفلاسفة للافادة منه في تفسير العقيدة المسيحية ونشر تعاليمها . وبمرور الوقت ظهرت مدرسة دينية مسيحية كانت أول مؤسسة دراسية مهمة للدراسات اللاهوتية في تاريخ المسيحية . وتفيد المصادر أن أول من تولى رئاسة هذه المدرسة هو بنتايوس Pantaeus الذي كان مالكا لزمام الفلسفة الاغريقية ميالا الى الفلسفة الرواقية . لكن تلميذه كلمنت الاسكندراني يعتبر المؤسس الأول للدراسات اللاهوتية المسيحية ، وقد أسهمت كتبه ، خاصة كتابه الضخم « المتنوعات » Stromateis بنصيب موفور

في التوفيق بين الديانة المسيحية وأسمى ما في الفلسفة الاغريقية من أفكار . وقد خلفه في رئاسة المدرسة أوريجينيس وهو اسكندري الأصل مسيحي المولد . وقد نبغ في دراسة أصول العقيدة ، وفاق كلمنت في دقة فهم المذاهب الفلسفية ، كما امتاز بالتعمق في الدراسات اللاهوتية واثقان أسلوب البحث والقدرة على الابتكار . وأهم مؤلفاته العديدة والمتنوعة كتاب « الرد على كلسوس » وفيه دفاع عن المسيحية ضد هجوم المفكر الوثني كلسوس وشرح الأفكار أوريجينيس الأساسية عن المسيحية ، وكتاب « التحرير على أعمدة ستة » Hexapla وهو عمل علمي ضخم يعتبر اسهاما بارزا في مجال تحرير نص موثوق به للكتاب المقدس .

أما في مجال العلوم ، فقد حافظت الاسكندرية على مكانتها القديمة في الدراسات الفلكية والرياضية والطبية . وأول من يذكر في هذا المقام العالم الفلكي الرياضي الجغرافي الفذ كلاوديوس بطلميوس الذي اشتهر كثيرا عند العرب بعد ذلك باسم بطلميوس الجغرافي . وقد تصدى بطلميوس لدراسة الجغرافيا على أساس معرفته الرياضية والفلكية فوضع كتابا في ثمانية أجزاء ، ورسم خريطة للعالم حدد عليها الأماكن بنسب أبعادها الصحيحة ، فكان الكتاب والخريطة نقلة مهمة في علم الجغرافيا القديمة .

وفي مجال الطب والجراحة ، واصل علماء الاسكندرية اهتمامهم القديم بالتشريح ، وظلت شهرة الاسكندرية القديمة في العلوم الطبية تجتذب الطلاب من خارج مصر حتى أواخر القرن الرابع كما سبق أن ذكرنا ، ولعل أبرز من درس الطب في الاسكندرية جالينوس البرجامي (١٢٩ - ١٩٩) أعظم أطباء ذلك العصر على الإطلاق . ويصف لنا الكاتب الموسوعي كلسوس (النصف الأول من اثنى القرن الأول) عن براعة أطباء الاسكندرية في اجراء شتى العمليات الجراحية بما فيها جراحة تجميل الوجه . كذلك تشير بعض الوثائق اتي أجهزة طبية أو أربطة عرفت بأسماء مبتكرها من أطباء الاسكندرية .

الفهرس

الصفحة	
٥	تقديم
	الباب الأول
	العصور المصرية القديمة (الفرعونية)
	حتى نهاية الدولة القديمة
٧	أ • د • عبد العزيز صالح
٩	تمهيد
١٣	١ - تقسيمات عصور الحضارة المصرية القديمة
١٥	٢ - مصادر البحث في الحضارة المصرية القديمة
٢٢	٣ - مصر والدهور الحجرية فيما قبل التاريخ
	● بداية حرفة الزراعة المصرية في العصر الحجري
٢٧	الحديث
٢٩	● حرفة الرعى
	مراكز الحضارات المصرية الأولية في عصر فجر
٣٠	التاريخ
٣٠	● في مرمرة بنى سلامة
٣١	● في الفيوم
٣١	● في دير تاسا
٣٢	● في عصر بداية المعادن
٣٣	● حضارة البدارى
٣٤	● بدايات ما قبل الأسرات

٣٥	● حضارة نقادة الأولى
٣٧	● حضارة المعادى
٣٨	● حضارة نقادة الثانية
٤٠	٥ - ممالك فجر التاريخ والسعى الى تحقيق الوحدة السياسية
٤٩	٦ - بداية العصور التاريخية (أو عصر بداية الأسرات والعصر العتيق - في أوائل القرن ٣٢ ق م) ...
٥١	● من نظم الحكم والادارة في عصر بداية الأسرات
٥٩	٧ - عصور الدولة القديمة ، من عصر الأسرة الثالثة الى نهاية عصر الأسرة السادسة
٥٩	أولا - عصر الأسرة الثالثة (٢٢٨٠ - ٢٦٨٠ ق م) ...
٦٦	ثانيا - عصر الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ - ٢٥٦٩ ق م)
٦٦	● عهد سننفر و
٦٨	● عهد خوفو
٧٦	● عهد خفرع
٧٨	● أبو الهول
٨٠	ثالثا - النصف الثاني من عصر الأسرة الرابعة
٨٠	● عهد منكاورع
٨٦	رابعا - عصر الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق م)
٨٩	● التطور السياسي والاجتماعي
٩٣	خامسا - عصر الأسرة السادسة (٢٤٢٠ - ٢٢٣٠ ق م)
٩٧	● رحلات الكشف في الجنوب

الباب الثاني
العصر المتوسط
(أولا) العصر المتوسط الأول
الأسر ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ (٢٢٦٠ - ٢٠٥٠ ق م)
أ + د + جمال مختار

١٠٣	تمهيد
١٠٤	١ - الأسرتان السابعة والثامنة المنفيتين
١٠٥	● المظاهر العامة لتلك الفترة
١٠٩	● ازدهار الأدب
١١١	٢ - العصر الأهناسي (الأسرتان ٩ ، ١٠)
١١٤	● ازدهار الأدب في العصر الأهناسي
		(ثانيا) الدولة الوسطى
١١٦		الأسرتان ١١ ، ١٢ (٢٠٥٠ - ١٧٧٨ ق م)
١١٦	٣ - الأسرة الحادية عشرة
١١٨	● ملوك الأسرة المعاصرين للحكم الأهناسي
١٢٦	٤ - الأسرة الثانية عشرة
١٢٧	● امنمحات الأول
١٣٢	● سنوسرت الأول
١٣٤	● امنمحات الثاني
١٣٥	● سنوسرت الثاني
١٣٧	● سنوسرت الثالث
١٤١	● امنمحات الثالث
١٤٣	● امنمحات الرابع
١٤٤	● سيبك نفرو
		● نظرة سريعة في أحوال مصر أيام الأسرة
١٤٤	الثانية عشرة

(ثالثا العصر المتوسط الثانى)

الأسر ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧

١٤٨	(١٧٧٨ - ١٥٨٠ ق م)
١٤٨٠	تمهيد
١٥٠	٥ - الأسرتان ١٣ ، ١٤
١٥٧	٦ - عصر الهكسوس (الأسرتان ١٥ ، ١٦)
١٥٩	● اسم الهكسوس وأصلهم
١٦٠	● حكم الهكسوس لمصر
١٦٢	● ملوك الهكسوس

الباب الثالث

عصر الدولة الحديثة

١٥٧٥ - ١٠٧٨ ق م

١٧٧	د محمد بكر
١٨١	أولا - الأسرة الثامنة عشرة ١٥٧٥ - ١٣٠٨
١٨١	١ - الملك أحمس ١٥٧٥ - ١٥٥٠
١٨٣	● حروب أحمس
١٨٣	● أعمال أحمس السلمية
١٨٥	٢ - أمنحتب الأول ١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق م
١٨٦	● أعماله العسكرية
١٨٩	٣ - تحتمس الأول ١٥٢٨ - ١٥١٠ ق م
١٩٣	٤ - تحتمس الثانى ١٥١٠ - ١٤٩٠ ق م
١٩٦	٥ - حتشبسوت ١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق م
١٩٧	● قصتها على جدران فى معبد الدير البحرى
٢٠٠	● سياستها
٢٠١	● أعمالها المعمارية

الصفحة

		٦ - تحنمى الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦ (١٤٦٨) -
٢٠٧	...	(١٤٣٦)
٢٠٨	...	● أعماله الحربية
٢١٠	...	● حملاته
٢١٢	...	● ادارة الأراضى الآسيوية
٢١٣	...	● حملاته فى النوبة
٢١٣	...	● أعماله المعمارية
٢١٣	...	● الكرنك
٢١٤	...	● كبار الموظفين فى عهده
٢١٥	...	● رخمى رع
٢١٨	...	٧ - أمنحتب الثانى ١٤٣٦ - ١٤١٣ ق٠م
٢١٨	...	● حروبه فى آسيا
٢١٩	...	● من ناحية النوبة
٢٢١	...	٨ - تحتمس الرابع ١٤١٣ - ١٤٠٥ ق٠م
٢٢١	...	● حروبه
٢٢٢	...	● من رجاله البارزين
٢٢٣	...	٩ - أمنحتب الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق٠م
٢٢٤	...	● أعماله المعمارية
٢٢٥	...	● الرجال البارزون فى عهده
٢٢٥	...	● أمنحتب بن حابو
٢٢٥	...	● زوجاته وحياته العائلية
٢٢٨	...	١٠ - أخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق٠م
٢٢٩	...	● الأزمه
٢٣٠	...	● الحالة السياسية
٢٣٢	...	● زوجته نفرثيتى

الصفحة

٢٣٤	١١ - سمنخ كارع ١٣٥٠ - ١٣٤٧ ق٠م
٢٣٥	١٢ - توت عنخ آمون « آتون » ١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق٠م
٢٣٨	١٣ - الملك أي ١٣٣٩ - ١٣٣٥ ق٠م
٢٤٠	١٤ - حور محب ١٣٣٢ - ١٣٠٨ ق٠م
٢٤٤	ثانياً - الرعامسة (الأسرة التاسعة عشرة)
٢٤٦	١٥ - رمسيس الأول
٢٤٧	١٦ - سيتي الأول
٢٤٩	● نشاط سيتي الأول الحربى
٢٥٤	● نشاط سيتي الأول الداخلى
٢٥٧	١٧ - رمسيس الثانى
٢٥٨	● نشاطه الحربى
٢٦٢	● معاهدة السلام
٢٦٤	● نشاطه الداخلى
٢٦٨	١٨ - مرنبتاح
٢٧٢	● نشاطه الداخلى
					ثالثاً - نهاية الأسرة التاسعة عشرة ومشكلة تتابع
٢٧٤	الملوك
٢٧٧	١٩ - الملك سيتي الثانى
٢٧٩	٢٠ - سسبتاح
٢٨١	٢١ - امنموس
٢٨٣	٢٢ - تاوسرت
٢٨٦	رابعاً - الأسرة العشرون
٢٨٧	٢٣ - مسيت نخت
٢٩٠	٢٤ - رمسيس الثالث

الصفحة

٢٩١	● نشاطه الحربى
٢٩٥	● نشاطه الداخلى
٣٠٢	٢٥ - نهاية الأسرة العشرين
٣٠٥	خامسا - الأسرة الحادية والعشرون
الباب الرابع							
العصور المتأخرة							
٣٠٧	٩٤٥ - ٣٣٢ ق م د + محمد بكر
٣٠٨	أولا - الأسرة الثانية والعشرون
٣١٤	ثانيا - الأسرة الثالثة والعشرون
٣١٧	ثالثا - الأسرة الرابعة والعشرون
٣١٩	رابعا - الأسرة الخامسة والعشرون الأثيوبية (النوبية)
٣٢٠	٢٦ - بيغنجى
٣٢٣	٢٧ - شيباكا
٣٢٤	٢٨ - شيبتاكا
٣٢٥	٢٩ - طهرقا
٣٢٧	٣٠ - تانوت آمون
٣٢٩	خامسا - الأسرة السادسة والعشرون (الصاوية)
٣٢٩	٣١ - بسماتيك الأول
٣٣٥	٣٢ - نيكاو الثانى
٣٣٦	٣٣ - بسماتيك الثانى
٣٣٨	٣٤ - واح ايب رع (ابريس)
٣٣٩	٣٥ - أحمس الثانى (أمازيس)
٣٤١	٣٦ - بسماتيك الثالث
٣٤٣	سادسا - الأسرة السابعة والعشرون

الصفحة

٣٤٣	٣٧ - غزو قمبيز لمصر
٣٤٦	٣٨ - دارا الأول ...
٣٥٠	٣٩ - اكسر كسيس
٣٥١	٤٠ - ارتا كسر كسيس
٣٥٢	٤١ - دارا الثاني
٣٥٣	سابعاً - الأسرة الثامنة والعشرون
٣٥٣	● آمون حور الثاني
٣٥٥	ثامناً - الأسرة التاسعة والعشرون
٣٥٥	٤٢ - نايف عاورود الأول (نفر تيس الأول)
٣٥٧	٤٣ - بساموتيس
٣٥٧	٤٤ - أخوريس (هكر)
٣٥٨	تاسعاً - الأسرة الثلاثون
٣٥٨	٤٥ - نختنبو الأول
٣٦٠	٤٦ - جدحر (تافوس)
٣٦٢	٤٧ - نختنبو الثاني آخر الفراعين
٣٦٥	٤٨ - غزو الاسكندر المقدوني لمصر ٣٣٢ ق م

الباب الخامس

٣٦٧	العصر البطلمي أ د ابراهيم نصحي
٣٦٩	الفصل الأول - دولة البطالمة
٣٦٩	١ - المصادر
٣٧٠	٢ - الفتح المقدوني
٣٧٢	٣ - نشأة دولة البطالمة
٣٧٢	٤ - سياسة البطالمة الخارجية

الصفحة

٣٧٧	الفصل الثاني - أجهزة الحكيم
٣٧٧	أولا - السلطة المركزية
٣٧٧	١ - الملك
٣٧٧	٢ - السوزراء
٣٧٨	٣ - الأداة الحكومية
٣٧٨	ثانيا - المدن الاغريقية
٣٧٩	١ - نقراطيس
٣٧٩	٢ - الاسكندرية
٣٨١	٣ - بطوليميس (المنشأة بمحافظة سوهاج)
٣٨٢	ثالثا - نظام الادارة خارج المدن الاغريقية
٣٨٤	الفصل الثالث - سياسة البطالة الدينية
٣٨٤	أولا - سياسة البطالة الدينية ازاء المصريين
٣٨٤	١ - اتخاذ صفات الفراعنة
٣٨٥	٢ - احترام الديانة المصرية
٣٨٥	٣ - البطالة ورجال الدين المصريون
٣٨٦	ثانيا - سياسة البطالة الدينية ازاء الاغريق
٣٨٦	١ - تألية البطالة تأليها اغريقيا
٣٨٨	٢ - البطالة والديانة الاغريقية
	ثالثا - سياسة البطالة الدينية ازاء العناصر
٣٩٠	الأخرى
٣٩٠	رابعا - الثالوث المقدس
٣٩٢	الفصل الرابع - سياسة البطالة الاقتصادية
٣٩٣	١ - الزراعة
٣٩٤	٢ - الصناعة
٣٩٥	٣ - التجارة

الصفحة

٣٩٨	الفصل الخامس - النظام المالى والاقتصادى
٣٩٨	أولا - الادارة المالية ...
٣٩٨	ثانيا - نظام الأراضى ...
٤٠٠	١ - أرض الملك ...
٤٠٠	٢ - أرض العطاء ...
٤٠١	(أ) الأرض المقدسة ...
٤٠١	(ب) الاقطاعات العسكرية ...
٤٠٢	(ج) أرض الهبات ...
٤٠٢	(د) أرض الامتلاك الخاص ...
٤٠٣	ثالثا - نظام الصناعات والحرف
٤٠٣	١ - صناعة الزيت ...
٤٠٤	٢ - صناعة النسيج ...
٤٠٥	رابعا - نظام التجارة
٤٠٥	١ - التجارة الداخلية ...
٤٠٦	٢ - التجارة الخارجية ...
٤٠٧	خامسا - نظام جباية الضرائب
٤٠٩	الفصل السادس - النظام القضائى
٤٠٩	أولا - القانون المدنى ...
٤٠٩	١ - الأحوال الشخصية ...
٤١١	٢ - الأحوال العينية ...
٤١٢	ثانيا - القانون الجنائى ...
٤١٢	ثالثا - الهيئات القضائية ...
٤١٤	الفصل السابع - الحياة الاجتماعية
٤١٤	أولا - الاغريق ...

الصفحة

٤١٧	ثانيا - المصريون
٤٢٤	الفصل الثامن - الآداب والعلوم والفنون
٤٢٤	أولا - الآداب
٤٢٤	١ - دار العلم والمكتبة الكبرى
٤٢٥	٢ - الشعر
٤٢٧	ثانيا - العلوم
٤٢٧	١ - الطب والجراحة
٤٢٧	٢ - علم الحيوان والنبات
٤٢٧	٣ - العلوم الرياضية
٤٢٨	ثالثا - الفنون
٤٢٨	١ - فن العمارة
٤٢٨	(أ) المقابر
٤٣٠	(ب) المنازل
٤٣٠	(ج) المعابد
٤٣١	٢ - فن النحت

الباب السادس

العصر الروماني

٤٣٥	د - فاروق القاضي
٤٣٧	١ - معالم التاريخ السياسي
٤٦٨	٢ - النظم الادارية
٤٧٩	٣ - الحياة الاجتماعية
٤٩١	٤ - السياسة الاقتصادية
٤٩٩	٥ - الديانات والعقائد
٥٠٧	٦ - الحياة العلمية والثقافية في مدينة الاسكندرية

صدر في هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ ،
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - على ماهر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحلیم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ،
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى ،
علية عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية ،
د . على بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ،
محمود فوزى ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير ،
د . نبيل راغب ، ١٩٨٨

- ١٣ - أكتوبية الاستعمار المصرى لسودان : رؤية تاريخية ،
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر فى عصر الولاية ، من الفتح العربى الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى ،
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،
د . محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د . على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د . أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السريية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د . محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ٢ ، امام التصوف
فى مصر : الشعرانى ،
د . توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
 د . نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والغرب ،
 تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د . أحمد
 عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر القربوى فى مصر الحديثة ،
 د . سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
 تأليف : الفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
 ١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
 تأليف : الفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
 ١٩٨٩
- ٢٩ - مصر فى عصر الاخشيديين ،
 د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
 د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٠
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
 شكرى القاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
 لمعى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع
 الراهنة وروية مستقبلية ،
 د . خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة
 حتى عام ١٩١٢ ،
 د . يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين ، ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى في العصر
العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجميى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن
حبشى ، ١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. سهر اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، في ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، في القرن
الثامن عشر ،
د. الهام محمد علي ذهني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشى ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن إقليم
المنوفية ،
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الاسلامية وأهل الذمة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د. ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التناعيم
(١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د. عبد السلام عبد الحلیم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،
لمعي المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدما للنشر : د. عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء : دراسة
وثائقية ،
د. محمد نعمان جلال : ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧) ،
د. سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

- ٦٧ - مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - أهل الذمة فى الاسلام ،
تأليف : أس . ترتون ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى ،
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى
العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د . رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى ،
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - أهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،
د . سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

- ٧٦ - دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال
البريطانى) ،
د . سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د . حسن
حبشى ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩)
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوروبى
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى
نصر أكتوبر ،
د . رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة
الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د . حلمى أحمد شلبي ، ١٩٩٥

- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في مصر الحرة الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د. أحمد الشربيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التذوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الوانئ المصرية في العصر العثماني ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد : ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
د. نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيومي عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)
ج ٢ ،
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٦
- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدتها للنشر د. عبد العظيم رمضان

- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د. محمد سعيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) ج ٢ ،
د. سمير يحيى الجمال

رقم الايداع ١٣٢٩٥ / ١٩٩٦

الترقيم الدولي 6 - 5026 - 01 - 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

يغطي هذا الجزء من الموسوع فترة زمنية هائلة تبدأ من
عصر ما قبل التاريخ إلى العصر العتيق وعصر الأسرات
العصر المتوسط الأول، فالعصر المتوسط الثاني، وينتقل إلى
عصر الدولة الحديثة والرعامة، ثم العصور الأخيرة، فالعصر
البيطلي، وينتهي بالعصر الروماني، وكل ذلك بأقلام كبار
أساتذة التاريخ المتخصصين، الأمر الذي يضاهيه بجدارة في
مكان مرموق من المكتبة العربية، ويجعله أحد أهم الدراسات
سلسلة «تاريخ المصريين».